الحياة.. لحظة

رواية

سلام إبراهيم

الدار المصرية اللبنانية

الحَيَاةُ.. لَحْظَةٌ

رواية

إبراهيم ، سلام .
الحياة لحظة : رواية / سلام إبراهيم
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009
512 ص ؛ 21 سم .
تدمك : 9 ـ 524 ـ 427ـ 977 – 978
أ ـ العنوان 813,01
رقم الإيداع : 16920 / 2009

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم 1431هـ ـ يناير 2010م

الحياة.. لحظة

رواية

سلام إبراهيم

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى:

عيد إبراهيم سوادي النجار

خليل إبراهيم سوادي الحلاق

شاكر منصور «ميم» الخطاط والمصور الفوتوغرافي

المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة
مدخل	9
ضيف أصابه الشلل	11
صعلوك تكريتي	26
المتشردة الروسية	52
الشاعر	75
فليرمها بحجر	131
لا تتركني وحدي	164
مجد الغرف	195
اليهودية الجميلة	242
صالح والأرملة	300
مريم الأوكرانية	358
أخي الزنجي	401
شاعر الأيديولوجيا	420
الحالمون الثلاثة	446
جندي أمريكيّ وعدس عراقيّ	475
– بُم–	488
سيرة ذاتية للمؤلف	509

مدخل

«الحياة لحظة .. الحياة فقاعة .. فصورها قبل أن تنفجر»

لافتة خطها المصور الزنجي «شاكر ميم»

وعلقها في واجهة محله وسط مدينة الديوانية

ضيف أصابه بالشلل

عندما تركتْه، وحيدًا، في موسكو وطارت مع طفليها إلى الدانمارك لم يكن «إبراهيم» شديد التعلق بها فقط بل شبه مجنون.. لم يصدق أنها غابت في أمكنة بعيدة ولغات وتفاصيل. تركته وحيدًا في شقة بالطابق الثاني من بناية مكونة من ثلاثة طوابق تركن في طرف من أطراف موسكو المترامية. صار وضعه لا يختلف عن وضع لحظته الراهنة. يبكر في الشرب قبيل الظهيرة ويستمر طوال النهار.. حتى تلك اللحظة التي يتلاشى فيها الزمن، فتستحيل الأشياء والبشر والأمكنة والذكرى والقصة إلى ما يشبه الوهم فيقترب الحاضر ليندمل بالماضي، متحولًا إلى حلم يشبه ما كان ينتابه في الطفولة، حينما يجلس في ظل نخلة بستان، ويغفو في الظهيرة حالمًا بلمس أجساد أمنياته من الأم إلى الأخت إلى بنت الجيران. في اللحظة التي يصحو فيها يجد نفسه في أمكنة غريبة، مصطبة في حديقة، نفق مترو، محطة قطار، سرير إيواء المتشردين في الأبنية المنتشرة في أنحاء كوبنهاجن.

غادرته قبل عشرة أعوام في شقة موسكو المنزوية وحيدًا مع أمتع ذكرى. ففي اللحظة التي أيقنت أنها ستتمكن من الطيران دونه إلى بلد اللجوء تجلّت كأنثى، ومنحته كلها في طعم مضاجعةٍ من ذلك النمط النادر الذي

يظل يحلم به المرء عند الفراق.. ذلك يحدث بين الأزواج والمحبين حيث تنطبع مضاجعات معينة في الذاكرة. تلك ليست أول مرة تتألق في السرير .. لكنها منحته كيانها وكأنها عاشقة أضناها طولُ فراق وحققت خلوتها الأولى.. وضع يشبه يوم التحاقهما بالجبل واللقاء به بعد طول فراق.. حيث انفردا عن المفرزة داخل كهف مظلم بسفح جبل القوش ليذوبا في اللهاث ولحم بعضهما البعضِ..

أبدًا لم يستطع نسيان المضاجعة في غور الكهف.. وعلى ضيق الأريكة الروسية القديمة المغبرة في سكون تلك الظهيرة ، التي أفرزته إلى مساحة شكٍ غريب، إذ أحس أنها طوال أيام وسنين لم تكن تمنح نفسها وكيانها إلى لحظة الوجد الجسدي القصوى. ظل يجلس على كرسي جوار الأريكة الخشبية الضيقة متعجبًا كيف احتوت جسديهما الضخمين.. دهشةٌ هي ذات دهشته في جبهة الحرب، حين يجد نفسه محشورًا في حفرة ضيقة وقت القصف مع خمسة أجساد يستحيل أن تضمهم وقت هدوء الجبهة.. يحملق في قسماتها السمراء الناحلة وهي تتموج تحته وتجذبه وكأنها تود أن يلج أحشاءها. ظل يستعيد بعد سفرها تلك القسمات الفاتنة المتوهجة فيستثار بكل مسامه، ولا يهدأ إلا بمحاكاة تلك اللحظة ملتصقًا بجسده العاري فوق المكان الذي شغلته تحته، وفي غمرة المخيلة ، وهو يغمض عينيه ، يصل معها إلى الذروة التي تزيد من خواء لحظته، وهو ينهض من فوق الأريكة والجسد الذي كان حيًا تحته يتحول إلى دخان يتبدد بأرجاء الغرفة.. جعلته تلك المضاجعة العنيفة يشعر بسذاجته، وهو يستعيد ليالي الفراش في الشام وكهوف الجبل:

- حمار.. حمار..

صرخ في نزهته الصباحية وسط غابة تجاور تلك الشقة، عازمًا على النهل من نبعها الذي اكتشفه البارحة بغتةً .

قال لنفسه، وهو يغور في عمق الفجر:

- سأستعيد هذا اليوم مجد المضاجعات الأولى وفتوة الأحاسيس!.

توقف رافعًا رأسه ليتابع لفة ساق شجرة حور شاهقة.. تأمل تناسق استدارة الساق الطويلة الرشيقة الراسخة الواثقة من وقفتها الساكنة والفروع العالية وصفحة السماء الملبدة بغيوم داكنة، فتعطف نحو أعماقه التي هزتها تجربة الجبل وهو يقاوم غيرته.. وهاجس موت قريب.. ومصاعب يوم الجبل.. وعدم قناعته بالتجربة التي لا بديل لها.. كان يكتم كل تلك المشاعر إزاء شدة تعلقها بالواقع الجديد وسط الرفاق:

- هل كان كتمانه ولعب دور الثوريّ والمناضل ، سببًا في فقدان وجد الجسد.. فاستحال الفراش إلى روتين وواجب؟!.

سأل نفسه وعاود السير في ممر الغابة الملتوي بين صفوف الأشجار، منصتًا لخرير نبع الماء القريب من مخرجٍ، يؤدي إلى شارع مجاور لموضع الشقة:

- دون أسئلة.. ولا فلسفة تعقّد الأمور.. إنها فرصة لاستعادة الوضع القديم الجميل.. لا تفوّتها يا هذا!

خاطب نفسه وكأنه يخاطب آخر. ودلف من باب البناية الضخم المزدوج بضلفتين عظيمتين، المصممة كي تحفظ حرارة الفضاء الداخلي

للبناية وقت الشتاء الروسي القاسي.. ولج الشقة عند العاشرة. وجدها لم تزل تغط في نومٍ عميق. مسفوحة بطولها الممشوق على سرير غرفة الشقة الوحيد.. عدلَ وضع غطائها وغطاء طفليه الصغيرين. وجلس على الكرسيّ القديم ليبحر في أخيلته المنحصرة في السويعات المتبقية قبيل طيرانها إلى بلد يجهله.. حالمًا بتكرار مأثرة فراش الليلة الفائتة..

- سنخرج في نزهة أخيرة وسط موسكو.. ونعود في المساء.. وبعد نوم الصغيرين سوف أذهب معها إلى لحظة البارحة وعلى الأريكة الضيقة نفسها!.

قال في نفسه وهو يتأمل براءة قسماتها الجميلة الغارقة في النوم.. تمنى لو كانت الشقة أوسع. فهي مكونة من غرفة واحدة وشرفة ومطبخ وحمام، بالإضافة إلى المدخل الضيق.. كان يفكر بخلوات متعددة خلال اليوم الأخير في غرفة أخرى تخيلها في فضاء الشقة المجاور، حيث يستطيع الخلوة معها وقت انشغال الصغيرين باللعب أو بمشاهدة أفلام الرسوم المتحركة. عند الحادية عشرة، قام من كرسيه ليحضّر الفطور مبتهجًا يرنم بصوتٍ خافت أغنية عراقية قديمة لزهور حسين:

- أنت الحبيب والله.. أنت الطبيب والله

تعال.. تعال يَحلو.. يمته الوصال يولد!.

ليش تنكر ودادي.. يا روحي بِفؤادي..

يرددها بنشوة متشربًا المعنى، وكأنه يعاتب نفسه وشخصها الغافي على ضياع الزمن في الجبل ظانًّا أن المحبين يستطيعون جعل كل ليلة.. ليلة

عرس أولى.. في معادلة تقترب كثيرًا من حلمه المشوش بمدينة ماركس الفاضلة حيث لا فقير ولا غني، لا فرق بين البشر.. كل حسب قدرته وكلّ حسب حاجته.. حلم فائق الجمال.. يمتزج بحلمها.. هاهو في اللحظة الراهنة يكثف كل أحلامه بهذا اليوم الموشك صباحه على الضمور. أعد «قوري» الشاي.. البيض.. شرائح الجبن.. المربى والحليب. سخّن الخبز قبل أن يوقظهم بصخبه المألوف مصعدًا من صوته، الذي يصلح لكل شيء عدا الغناء، مما جعلها تقول بعد أن ألقت تحية الصباح:

- من الصبح زهور حسين!.

- ما أدري ليش.. هذي الأغنية أظنها تشبه هذا اليوم. اليوم.. اليوم أش لون بينا اليوم!.

نهضت من السرير ملقية الغطاء. كان شديد الرغبة فيها ، وكان لو أقدم لا تمانع، لكنه أيقن منذ بارحة الأريكة الروسية أنها لن تذهب معه إلى النقطة التي تتلاشى فيه، فملامحها شديدة الحياد، جادة، وعندما جسَّ نبضها بقبلة الصباح تلقت شفتيه باعتياد وكأنها أخت. وعلى مائدة الفطور كانت مشغولة الذهن. وقتها لم يفكر لا في الماضي ولا في المستقبل.. لا في الوطن الدامي.. ولا في حلم اسكندناڤيا القادم. كان ملتصقًا كشأنه بلحظته الراهنة، ومتضايقًا من قلقها الذي جعلها تنأى عنه، فحاول - دون جدوى - جذبها إلى مسافته كي تتهيأ لآخر مضاجعة على أرض البلشفيك. كانت مشغولة الكيان بتجربة الطيران إلى المجهول وفراقه. فبعد الفطور انهمكت في ترتيب حقيبة السفر، فنثرت الملابس كي تختار ما تأخذه معها

وما تتركه.. كل غزله ذهب هباءً لحظة حملها سماعة الهاتف واتـصالها. تـرك ما كان بيده وأنصت، فأدرك أنها تدعو رفيقًا لهما كي يحضر ويـصطحبهما إلى مطار موسكو. وضعت السماعة.. فسألها عمن سيجيء:

- «محمود»!

- «محمود»!..

صرخ بغضب وأضاف:

- لِمَ؟!

- كي يساعدنا!.

ردّ على الفور:

- بماذا؟!.

- ..!

لم تجب، قامت من كرسيّها خارجةً من المطبخ. تابعها بعينـين حـزينتين. قطعت الغرفة. أزاحت باب الشرفة الزجاجي. عبرت إلى فسحتها الضيقة، وأشعلت سيجارة. لا يدري لماذا شعر في تأمله الشارد قسماتها الجميلـة مـن خلف زجاج الشرفة وهي تنفـث دخـان سـيجارتها ، بأنـه سـوف يفقـدها عاجلًا أم آجلًا.. خاطر مرّ سريعًا. لبث جالسًا على أريكة الغرفة نفـسها إلى أن أكملت سيجارتها، فاستدارت لتفتح باب الشرفة وتدخل. تلك اللحظة اختفت كل الهواجس وأقبل نحوهـا طريًـا.. عاشـقًا.. سـائحًا مثـل مـاء.. فأفردت ذراعيها الطويلتين وضمته إلى صدرها ضـمة ابـن عـاقّ بكـل مـا

يحمله الابن العاق من عاطفة مضافة.. وفي اللحظة التي كادا يدخلان فيها إلى جنة البارحة على الأريكة نفسها، وهي تدفعه نحوها بفوران جسدها الأسمر الرشيق العاصف.. في اللحظة تلك.. قرع جرس الباب. جمدا.. الجرس الضاج يلحّ.. ويلحّ.. انسلّت من بين ذراعيه لتفتح الباب، فتناهى إلى سمعه صوت «محمود» الناعم، الذي وتر ويوتر أعصابه منذ سنواتٍ طوال. حضنا بعضهما بنفاق.. وكلاهما يعرف أن لا ودّ بينهما..

- ابن الكلب.. يصير كان وره الباب ينتظر!

قال «إبراهيم» في نفسه، ونظر إليه بازدراء متابعًا حركة ذراعيه الطويلتين مقارنة بقامته القصيرة، وهو ينهمك بالحديث معها عن السفر وأخبار فلان وفلان.

كشأنه دومًا عند حضور هذا الضيف الثقيل، لزم الصمت. عاد لا يتكلم إلا عند الضرورة.. لا بل تجاهل في كثير من المرات الأسئلة الموجهة إليه.. لم يكن يقصد ذلك في الأوقات السابقة سواء في كردستان أو في مدينته فقد كان ينفصل عنه إلى عالمٍ آخر، لتفاهة أحاديثه بموضوعاتها وبطريقة سردها حتى أن قاعة فصيل المكتب السياسي التي كانت تضم أكثر من عشرين مقاتلًا كتبوا قطعة وعلقوها على جدار القاعة المطلي بالطين تقول:

- الكلام ممنوع في هذه القاعة على «محمود» فقط!

مما أثـار مـشكلةً عويـصة في الفـصيل. ذلـك وطّـن انطباعـه القـديم أيـام الديوانية، حينما كانا يلتقيان مع مجموعة مـن الـشباب الماركـسي في المقـاهي فكان ينزعج من ثرثرته، ويستغرب من صبر السامعين على أحاديثه المملـة. وظنَّ وقتها وهو يتحاشى اللقاء به مبديًا ما يشعر به من مللٍ وعدم اكتراث عند اللقاء المفروض، عبر علاقات متشعبة كأن يكون صديقًا حميمًا له علاقة به ؛ ظنَّ أنهُ سيتخلص منه على الأقـل كعلاقـة، لكـن تـشاء أقـدار العـراق الغريبة أن يلتصق به أكثر عمقًا من التصاق قُراد بجلد حـصان. فقـد انبثـق أمامه بغتةً في كردستان عام 1982، وأخبره أنه كان مختفيًا طوال فترة الحملة عـلى الـشيوعيين واليـسار الـديمقراطي، ونجـح بعـون صـلاتنا نحـن في الوصول إلى كردستان. وتشاء الأحـوال أن يتـسللا إلى المـدن مـرة أخـرى فيضطر إلى أن تكون زوجته حلقة الصلة بالتنظيم ويكون هو المعنىّ باللقـاء بها. ثم سيكون هو الشخص المكلف بإيصالهما إلى كردستان. وسيبقى معهما حتى خلاصة التجربة؛ أي حتى الانفصال.. والتشرد في معسكرات اللجوء في إيران وتركيا..

فهاهو وسط غرفة الشقة الوحيدة بطرف موسكو يتصرف وكأنـه لـيس فردًا من الأسرة بل ربُّها.. انزوى صامتًا على طرف الأريكـة البعيـد يراقـب طريقته في الكلام، وحركاته، وتعبير ملامحه أثنـاء الكـلام، وكـان لا يوجـه الحديث إليه إلا فيما ندر، وذلك سرَّه من ناحية وضايقه من ناحية أخـرى.. أمعن في صمته، في التحديق الدقيق فيه، في رصد قسماتها الجميلـة المنـشغلة عنه المنصتة والمحاورة والمنسجمة مع ما يقوله الضيف، فاكتـشف بغتـةً أنـه

يتصرف بتلقائية تفوق تلقائيته، فكاد يهجم عليه ويوسعه ضربًا.. لكنه تمالك أعصابه بعناء، لينفجر في نفسه قائلًا:

- ابن العاهرة، وكأنه أنا في أشد حالات الغبطة!.

لم يشعر بالغيرة قط من هذا الكائن، لكنه شعر بالغيظ منها وهي تستدعيه في هذا اليوم الحاسم. أمعن في صمته.. في أحقاد لحظته الدفينة رامقًا الرفيق الذي يشبه القدر وهو يدور في أنحاء الشقة. يعد الشاي وكأنه هو. يتحرك ويفضي بما يكنه من أفكار لا يبالغ المرء إذا وصفها بالسطحية فهي أكثر من سطحية بل تافهة. ما كان يستغرب له هو قدرة زوجته على السماع.. لا بل التجاوب مع ما يطرحه هذا الكائن المدجج بأفكار الأيديولوجيا الحزبية الشيوعية الجامدة.. والمدافع الأعمى عنها حتى أنه في يومٍ سخر من هذه النماذج المعبئة، فقال لها:

- اسمعي ، لا تفسري كلامي وكأنني أسخر من الموت، لكن ما يجعلني أسخر من الموت هو موت المؤدلَج.. وحتى موت المؤدلج فيه درجات وطبقات..

- لا تفلسف الموت يا حبيبي!.

- لا.. لكن اسمعي أنا اعتقد أن ثمة بشرًا يموتون وهم يضحكون!.

- كيف؟! ومن؟!

أجاب:

- صاحبك «محمود» أتخيله يستقبل الموت ضاحكًا.

- تلك شجاعة!

أجابت، فأغاظته.

- لا.. لا.. الموت قضية جدية!.. تتطلب شيئًا من الشعور بالمأساة!.

قال ذلك وعبّ كأسًا.

- اسمعي ، أخي صديق صباك قضى في أقبيتهم، وأنت تعرفتِ عليه عن قرب. أتدركين لم ظللت أكثر من عشرة أعوام أبكيه؟

- لا.. كان ذلك يثير استغرابي!.

- اللحظة التي أنفجر فيها في البكاء والنحيب ثم الهذيان هي لحظة تخيلي لحظات الإجهاز عليه الأخيرة.. وأنت لا تستطيعين تخيل تلك اللحظة ؛ لأنك ببساطة لم تمري بتجربة الاعتقال.. كنت في تلك اللحظة الفريدة ألمس ذروة عذابه قبل الذبح، وهو الرسام الشفاف فأنهد في البكاء. أما صاحبكِ فمن حسن حظه أنه لم يمر بتجربة الاعتقال.. أقول ذلك بيقين.. فإنه لو أُعتقلَ سوف يمر عليه الموت «هذا إذا صمد» مرور الكرام.. وسيموت بسذاجة مخدرٍ كأي حشّاش عتيد بماركسية الشم والحلم، ولا أستطيع غير تخيله يضحك لحظة الإجهاز عليه، وكأنه معتوه لا يعي ما يدور حوله.

كانت عندما يصل الحوار إلى هذا الحد تحتد، وتقوم لتنشغل بشأن ما قائلة:

- لا تجنّني بهذا الكلام!.

ظل ينصت لأحاديثه المتواصلة، غير المترابطة، عن أخطاء الحزب الشيوعي السوفييتي، عن أخطاء التطبيق، عن الحطب في كردستان، عن

المدرسة الحزبية في موسكو التي ينام فيها، عن غباء «جورباتشوف» والبرسترويكا التي استثمرها العدو الإمبريالي، عن الديوانية ونكات بائخة يضحك لها وحده. والغريب أنه كان لا يكف عن الكلام، والأغرب إنصاتها المنفعل لكل تفاصيل أحاديثه الماسخة، سأل نفسه في صمت:

- أتجامل أم أنها سطحية الذهن مثله؟!.

- أيكون جسدها الشهيّ وصوتها المثير وشدة تعلقها به أعماه عن بنيتها الذهنية؟!.

نهض من الأريكة. وخطا نحو المطبخ. صبَّ قدحًا صغيرًا من الفودكا. عبَّه دفعة واحدة:

- الرفيق.. ابن العاهرة متى يذهب؟!.

سحب كرسيًّا من جانب طاولة الطعام الصغيرة، وضعه بمواجهة النافذة المطلة على حديقة صغيرة. صب كأسًا أخرى. رشفها. فتح قنينة بيرة. أنشأ يتملى ألوان الخريف، الورق الصدئ المتساقط من الأغصان، العشب الشاحب معرضًا عن اللغط القادم من الغرفة الأخرى. فتح قنينة ثانية والنشوة المباركة تنتشر في أنحاء جسده، طاردة التوتر الذي يزيده وجود هذا الكائن الشبيه بمسجل يدور بلا نهاية.. هكذا تخيله ناحتًا قسماته على هيئة مستطيل المسجل فانتابته عاصفة ضحك صاخب، جعلها تأتي إلى المطبخ متسائلة:

- ويّا من تضحك؟

- لا ما كو.. شيّ.. ما كو.. شيّ!.

- ليش تارك الضيف.. عيب!. قم إلى الغرفة!.

- تدرين ما أطيقه!.

- شنو هالكلام.. الرفيق جاي يساعدنه خاف يرجعونه من المطار..

- يعني شنو ما يروح اليوم يظل للساعة ثنين بالليل!.

- ما أدري ، بس ما نقدر نقول له روح ، وبعدين تعال!!

اضطر إلى العودة إلى الغرفة. فطالعه وجه «محمود» الباسم طوال الوقت.. بسمة بليدة يقابل بها كل شيء.. العدو والصديق، الغريب والقريب إلى الحد الذي تعود فيه البسمة ليس لها علاقة بوجودها الدلالي. ظل يكتم توتره، والوقت يمضي نحو عتمة المساء، آملاً أن يحس - «محمود» - معنى زوج يفارق زوجته وطفليه نحو المجهول ويحتاج إلى خلوة، لكن:

- من أين يحس هذا البليد الذي يكاد يبلغ الثامنة والثلاثين، دون أن يتعرف على امرأة؟!.

وشرد ببصره نحو النافذة والمساء يرش رذاذ عتمته من تحت الأشجار ومن خلف البنايات المقابلة، ومن أفق السماء الغربي. كانت في المطبخ تعد وجبة العشاء، بينما يلعب الرفيق مع طفليه وسط الغرفة، يزحف على أربعٍ ويصعدهم على ظهره. وكانت تطل بين الحين والحين من الباب. ترمق بنشوة المشهد، وتغيب عائدة إلى المطبخ. اجتاحته موجة حقد عارمة.. فالكلب أمات حيويته وعطل مشاعره حتى أنه لم يستطع هذا اليوم اللعب مع طفليه رغم إلحاحهما. فانبرى ليحل محله. كاد أن يهب من الأريكة نحوه

ينهضه بيديه ويطلب منه الذهاب إلى مدرسته الحزبية، لكنـه سـمع زوجتـه تصيح من المطبخ:

- هيا العشاء جاهز!.

- سيذهب بعد العشاء.

صبّرَ نفسه متخيلًا بهجته التي ستكون مضاعفة بعد هذا الضغط والعناء. لكن مرّ وقت العشاء ولم يتزحزح. وتقدم الليل مقتربًا من منتصفه. الطفلان ناما. و«محمود» لم يكف عن الثرثرة:

- أيا ابن الكلب!.

احتقنت قسماته غيظًا، والساعة القديمة المعلقة إلى الحائط تشير إلى الحادية عشرة، أي لم يبق غير ساعات ثلاث كي يستقلوا سيارة الأجرة إلى مطار موسكو البعيد.

- ثلاث ساعات.. وستغيب في المجهول!

- ثلاث ساعات وسأبقى وحيدًا في موسكو! وهذا الرفيق الفاقد الحس.. الحيوان لا يفكر بالذهاب نزهة لمدة ساعة ولو.. ثلاث ساعات يا أيها البغل الحرون!.

كانت غير مكترثة للأمر معلنة:

- لنغفُ قليلًا!

ونهضت لتعد الفراش. فرشت لـ «محمود» في زاوية الغرفة البعيدة جوار التلفاز القديم، وجوار الأريكة توسدت الفراش تحته جوار الطفلين بعد

إطفاء النور. لم يغمض له جفن. ظل ساهرًا يحدق بقسمات الضيف التي بدت واضحة على ضوء قمر شاحب، تسلل من نافذة الشرفة. قدّر أنه يتصنع النوم. ففي ذلك الصمت المطبق تعالت أنفاس الطفلين وزوجته الغافية بينما لم يصدر من مكانه أي صوت وكأنه يكتم أنفاسه. سكن على الأريكة جامدًا.. سكن كتلة تفور وتحتدم بشعور حقد مطلق.. رغبة حقيقية في طعن هذا الكيان الغبي بسكين.. رغبة جارفة جعلته يتسلل إلى المطبخ ويمسك بالسكين ويطعن الهواء بحقد. يهدأ قليلًا. يعب كأسًا جديدة من الفودكا. يعود إلى الأريكة.. يهمد لدقائق.. ينصت.. وينصت لا صوت أنفاس من جهة فراشه، الذي غط بالظلام مع انحسار ضوء القمر. أدلى قدميه وراح يتحسس من تحت الغطاء أصابع قدميها بصمت.. وبينما هو يغرق في خيال أصابع قدميها الهامدتين الساخنتين قرع منبه الساعة بعنف معلنًا الثانية صباحًا. هبّت من نومها أطفأت صوت المنبهة، وكبست زر الكهرباء. فوجدته جالسًا على الأريكة يحملق فيها بعينين حزينتين:

- صباح الخير..
- صباح النور
- ها.. ما نمتْ!
- لا..

ألقى «محمود» الغطاء عن رأسه. فتح عينيه. كانتا محتقنتين فتأكد «إبراهيم» أنه كان ساهرًا تحت الغطاء. استسلم وخفت توتره منشغلًا بطفليه والحقائب وتدبير سيارة الأجرة، التي أقلتهم إلى مطار موسكو

البعيد. كان يحضن طفليه ويسرق من شفتيها قبلاتٍ سريعة في المقعد الخلفي للسيارة. في باحة المطار المكتظة نسى كل شيء.. الرفيق الحمار.. وليلة البارحة الشديدة.. ورغبته بالقتل. أصبح شفافًا.. شديد الحزن كأنه سيفارقها إلى الأبد، أو كأن تلك اللحظات ستكون حدًّا فاصلًا في علاقتهما، وعندما غابت خلف بوابات، تؤدي إلى ممرات تفضي إلى الطائرات. استدارا نحو بوابة المطار مخلفين الزحام والضجيج. كان الفجر طالعًا.. وفي موقف الحافلة كان إلى جواره يبدي سعادته لنجاحها في العبور بجوازها السعودي المزور.. انتبه إليه وكأنه يكتشف وجوده إلى جواره أول مرة.. كان يبتسم ابتسامته الغبية نفسها.. حدق في ملامحه الناعمة، في قامته القصيرة، في ذراعيه الطويلتين، في ساقيه القصيرتين، في حركة شفتيه النشطتين. وبغتة وجد نفسه يسدد نحو تلك القسمات لكمة هائلة بذراعه الطويلة الضخمة، فطار جسده الهزيل في الهواء؛ ليسقط على مبعدة ثلاثة أمتار فاغر العينين صامتًا، متوجعًا، مذهولًا:

- مو دمرتني من البارحة لليوم.. ابن العاهرة!.

صعلوك تكريتي

أقلته الحافلة من المطار إلى أقرب محطة مترو شبه خالية. انزوى على آخر مقعد حزينًا مكسورًا نادمًا على ضرب رفيقه القديم، وكان قد قرر في المسافة التي قطعها بين الموقف الذي تركه فيه والموقف التالي الاعتذار له. لكنه لم يجده في الحافلة مما عمق أساه. من جديد يجد نفسه وحيدًا، ليس في بستان نخيل بطرف الديوانية، ليس في باحة جامع السوق المسقوف، ليس في ظل جدار في طفولته إذ سرعان ما ينسى هذا الشعور ما أن تحضنه أمه في المساء.. بل في حافلة روسية قديمة تمخر فضة الفجر باتجاه موسكو.. بعد أن طارت إلى السماء زوجته وطفلاه.. وحيدًا.. خائفًا من هذه المدينة التي عاشرت أحلامه منذ الصبا والتدله بالقراءة والفكر الماركسي والشيوعية.. المدينة التي لمسها وعاش فيها منذ قرون في عالم حرب وسلام «تولستوي»، في أقاصيص «تشيكوف»، ومع «ديستويفسكي»، المدينة التي هزمت «نابليون»، والمدينة التي هزت العالم في 1917 ، وهزمت «هتلر» قبل خمسين عامًا.

مدينة مترامية الأطراف يجد نفسه فيها وحيدًا بعد تجربة الكفاح المسلح في الجبال، والتشرد في معسكرات اللجوء في تركيا وإيران.. وحيدًا دون وثائق تثبت شخصيته، فالجواز السعودي المزور المشترك مع زوجته وطفليه أخذته معها.. وحيدًا لا يعرف اللغة الروسية.. وحيدًا في الحافلة، يتخيل وضعه البائس في شقة في الطابق الثالث:

- ماذا أفعل بوقتي؟!.

قال لنفسه بخفوت، وهو يعبر عتبة باب يؤدي إلى سلالم المترو الهابطة عميقًا. سلالم تهبط إلكترونيًّا بشكلٍ شبه مستقيم حتى لا يعود المرء في إمكانه رؤية أعلى السلم. في الأسفل تكورت المحطة الفخمة المكسوة جدرانها بالرخام وحشد متناسق من رؤوس «ماركس» و«انجلز» و«لينين» منحوتة في الحيطان، أو موضوعة على أعمدة رخامية قصيرة، تتوسط رصيف المحطة الفاصل بين الاتجاهين. المحطة خالية إلا من عمال التنظيف المشغولين بجمع القمامة من صناديقها.. جلس على مصطبة من المرمر يحدق في الجدران ، في الأعمدة العظيمة ، في الصمت ، متخيلًا عشرات الآلاف من أسرى الحرب الألمان، الذين سخرهم ستالين في حفر شبكة مترو موسكو الواسعة.. تخيل الذين قضوا تعبًا في هذي البقعة التي يجلس عليها.. وعاد يتأمل وحدته، ألا يشبه وضعه وضع أولئك الأسرى الذين ضاعوا إلى الأبد في هذه المدينة؟!. بدأ الناس يتوافدون بكثافة نازلين من السلالم بوجوههم المتجهمة، الشديدة الصرامة، المهمومة.. فأدرك أن المترو قادم بعد لحظات بضجيجه الذي يصمّ الآذان.

دلف إلى العربة المضيئة الخفيضة السقف ، لينزوي على مقعدٍ في ركنها شاردًا، كأنه طفلٌ يغوص في ظل جدار بيت غريب مترسبًا في أخيلته، والقاطرة تشق باطن الأرض مزمجرة.

بصمتٍ لاحق ظلال ملامحه التي تبدو واضحة كلما سارت القاطرة، لتتلاشى عند توقفها في باحات المحطات المضيئة.. اندمج في اللعبة حتى توهم أنه حلَّ بذلك الظاهر والمختفي بزجاج نافذة العربة ناسيًا زوجته وطفليه، والرفيق الذي لكمه قبل ساعتين، اللجة كلها، السياسة، الحرب، كردستان، وذلك العنف الدامي الواشم أمكنة طفولته، وكأن كل ما جرى لا يخصه، بل يخص هذا الجالس جواره خلف نافذة المترو على مقاعد العربة المضيئة.. إلى أن أيقظه اسم المحطة القادمة التي أعلنها مذياع المترو، القريبة من سكنه. فهرع نحو الباب والسلالم المزدحمة بالأجساد المسرعة.

توقف أمام بوابة المترو العريضة العالية، يعب نسيم صباح ذلك اليوم الخريفي، ويتأمل الساحة الشاسعة المكتظة بالروس المهمومين اللاهثين والحائرين مما سيؤول إليه الأمر مع برسترويكا «جورباتشوف».. المواد الغذائية اختفت من الأسواق.. الأسعار ارتفعت.. والسوق السوداء صارت علنية.. والأجور إزاء هذا التضخم تدنت قدرتها الشرائية. لبث في مكانه متكئًا إلى سياج حديدي واطئ، يحد معبر الشارع ، غير راغبٍ في العودة إلى الشقة التي كانت قبل ساعات تضج بأنفاسها وأنفاس طفليه.. كان يلهي نفسه بتأمل التراجيديا الروسية، قال لنفسه مسترجعًا المرات العديدة، التي كاد يقضى عليه في المعتقل، وفي جبهات الحرب ، وفي كردستان:

- هم زين ما متت!

نجا من ميتات عديدة ليشهد آخر فصولها.. تداعي وهم الروس الـذين ظنوا وأوهموا أكثر من نصف سكان الأرض بأنهم بنوا المدينـة الفاضـلة. لم يصدمه المشهد فقد كان على مسافة من ذلك اليقين الأعمى بالمدن الفاضلة، لكنه تذكر العشرات من أصدقائه الذين قضوا تحت التعـذيب في الزنـازين، وفي معارك الجبل وهم يعتقدون ، حتى اللحظة الأخيرة، بأن موسـكو هـي مفتاح المدن الفاضلة التي سـتعم الكـرة الأرضـية. ألا يـشبه وضـع هـذي الكتلة البشرية في ساحة من ساحات موسكو وضعه؟!..

هو الآخر لا يدري أين سيفضي به المطاف.. هو الآخر يجد نفسه وحيـدًا بمواجهة نفسه والقصة والفكر.. وحيدًا تلك الوحدة التي ظل كل عمـره، يحاول الهرب منها بالانغمار في عنيـف التجـارب في الـصداقات والـسياسة والمواقف ؛ لكنه يجد نفسه هذه اللحظة وكأنه روسي ..

كان يظن أنه بلغ حلم العدالة لكنه يكتشف بُعْدَ ذاك عـن الواقـع بُعـد الثريا.. وحيدًا بلا يقين.. وحيـدًا يتأمـل المـارة وشـمس الخريـف.. إلى أن وجد نفسه مثل مخدّرٍ يتوجـه نحـو كـشكٍ يبيـع البـيرة، عبـأ لـترًا بزجاجـة اشتراها من البائع ، راح يرتشفها ببطء إلى أن شعر برغبة شـديدة في النـوم. فاستقل الحافلة إلى الشقة متعبًا تعبَ مَن يتحول لديه خيال الاسـتلقاء عـلى فراش ، محض حلم بعيد.. رغبة غريب مفلس تعبان سكران، ضائع مفارق أحباب يائس.. رغبة من ظل يهجس بفقدان الحبيب.. ذلك الهاجس الـذي كان يراوده كلما استعاد علاقته بها.. فقد همست له يومًا أنها لم تكن لتحبه لو أنها اكتشفت أول أيام العلاقـة بـأن لا علاقـة لـه بحـزب مـاركس.. هـي الأخرى اكتشفت أن مـدينتها الفاضلة لـم تـكن إلا وهـمًا ، وهي تـصرخ:

- الروس شعب سكّير!

في تعليقها وهي تشاهد طوابير البشر، التي تمتد منذُ غبشة الصباح إلى أكثر من ثلاثة كيلو مترات لملء لتر بيرة.. كان يعلق ضاحكًا:

- لولا ذلك لما صدقوا «ماركس» و«لينين» بالجدية التي جعلتهم يثورون!.

كانت تصرخ بغضب:

- لا تبرر إدمانك على الخمرة!.

قطع الحديقة الصغيرة المؤدية إلى بوابة البناية.. دفع بعناء ضلفة الباب الثقيلة.. تسلق السلالم الحجرية القديمة. في الفسحة الصغيرة الكائنة أمام أبواب شقق الطابق الثالث، تمهل وتراجع خطوة إلى الخلف، وتوقف مستندا على حافة سياج السلم، محملقًا بذهول في باب الشقة المفتوح ، فعندما خرجوا بعد منتصف الليل أغلق الباب بنفسه.. أيعود أدراجه من حيث أتى؟!.كان يفكر في المافيا الروسية التي بدأت تزدهر تلك الأيام، لكنه أين سيذهب ومن يؤويه في موسكو الشاسعة، التي لا يعرف عنوان أحدٍ فيها:

- ماذا بك يا «إبراهيم»؟.. صاير جبان!

سخر من خوفه.. كان لا يبغي من الدنيا سوى غفوة على فراش.. شدَّ عزمه وخطا نحو الباب نصف الموارِبِ قائلاً لنفسه:

- الجنة فراش مُتْعب.

ويستلقي على الأريكة منهكًا.. محطمًا، غير مكترثٍ بزوجة صاحب الشقة الجالسة!.

وعبر العتبة.. بعد أربع خطوات جاوز باب الحمام، وقبل أن يدخل الغرفة الوحيدة التفت نحو اليمين إلى المطبخ فرأى سيدة متوسطة العمر جميلة بشعرها المصفف بعناية جالسة على الكرسي المواجه لوقفته. كانت منهمكة بقراءة جريدة. بادرته هي بالتحية وقامت من كرسيها مرتبكة لتشرح له سبب مجيئها. لم يفهم ما كانت تنطق به.. لكنه فهم من إشارات يديها أنهم تركوا البارحة حنفية الحمام تجري حتى خرَّ الماء متسربًا، خلال سقف شقة الطابق الثاني، فاتصلت الساكنة وهي متقاعدة روسية بها؛ كي تتكلف بإصلاح الأمر هذا ما فهمه من لغط لغتها الروسية ومحاولتها رسم كلامها بالحركات وفهم أنها جالسة بانتظار عامل التمديدات. لم يعلق بشيء .. هزّ رأسه وكأنه فهم كل الكلام ليدلف إلى الغرفة ويستلقي على السرير..

كان يقاوم شعورًا غريبًا بفقدان رفيقة العمر التي طارت قبل ساعات إلى المجهول. حاول أن يغفو لكن ملمس جسدها الساخن على ضيق أريكة مضاجعة أول البارحة طرد النوم.. شعور غريب سيبقى يتذكره وهو ينحدر حثيثًا نحو مسافات الوهم والخدر.. شعور اكتسحه بعنف في رقدته المستسلمة لما يجري حوله:

- هل ستتحول هي الأخرى إلى مجرد ذكرى، كما جرى لي مع أصدقائي وأحبائي الذين قضوا في السجون أو في جبهات الحرب أو ضاعوا في أمكنة العالم المختلفة؟!.

كان واثقًا بكل كيانه أنها صارت ذكرى منذُ اللحظة التي غابت فيها مع طفليه خلف بوابة، تؤدي إلى السماء في المطار قبل ساعات معدودة.. هذا الهاجس ظلَّ يلح ويزحم وقته، وبينما كان في الوحدة القاحلة تلك، غائصًا في

الرماد والعجز واللاجدوى، غائصًا في الأريكة الفائحة بعطر جسدها سمع صوتًا يأتي من الشارع.. صوتًا ضاجًّا ينادي باسمه الحركي في كردستان:

- «إبراهيم».. «إبراهيم».. جيتك.. جيتك!

صوتٌ أنهضه من رقدتهِ وجعله يقفز نشطًا نحو الشرفة، ليرى وجه «أسعد»، الباسم يلوح بقنينة فودكا.. يعجز اللسان والقول عن وصف مبلغ بهجته بالقادم.. التكريتي المنقذ بوجهه الصخري وتلقائية حضوره.. وجه من حجرٍ مقدد بشمس حارقةٍ.. رآه أول مرةٍ في موقع «كافّيه» في كردستان. وجذبته كتلة وجهه الحجرية، وضحكته الفريدة وكونه الوحيد الذي لا يحمل سلاحًا في ذلك الموقع، ذلك ما جعله يسأل رفيقًا حميمًا عن سر هذا الكائن الصخري، فهمس بأذنه:

- ملتحق من الداخل.. لكنه تكريتي..

- تكريتي!. أش لون دبرت هذي!.

- أقرباء رفيقنا «حميد»..

فانبثق وجه «حميد» بشواربه الكثة وملامحه البدوية الصارمة.. شعر رأسه كثّ، أنف ضخم متسق مع وجنتين قُدتا من الحجر، لكن ما يخفف صرامة تلك الملامح، عيناه الواسعتان الداكنتان اللتان لا يفارق حوافهما طيف بسمة يقابل بها كل من يلقاه.. أول مرة يرى «حميد» فيها عندما كان في زيارة لأخيه الطالب في الجامعة التكنولوجية في بغداد الجديدة في ربيع 1976، فقدمه له قائلا:

- تكريتي .. لكن شيوعي!

وانخرط الثلاثة بضحك صاخب.. سيلتقي به في معسكرات الجنوب اللبناني عام 1979 حيث كانوا يتهيئون للتسلل إلى كردستان. سينجحون في ذلك.. وسيبقى أخوه في الداخل ويعتقل عام 1980 ليبلغ عن تصفيته في عام 1983 سيعيشان في الفصيل نفسه بأحد المقرات، سيتقاسم مع «حميد» التكريتي كل شيء.. أحلى الأوقات.. أحلى الكلام في يوم الجبل الصعب.. سيقع في حب رفيقة.. سيتزوجان.. وستعير زوجته ذهب عرسهما لخطيبته التي كانت هي الأخرى طالبة معه في الجامعة التكنولوجية ببغداد.. ظل يحتفظ بصور ذلك الزفاف الجميل، الذي تمَّ في القاعدة حيث استعار العريسان كل شيء.. الملابس والحلي.. الفراش والفوانيس.. لكن بغتةً في منتصف الثمانينيات اختفى هو وزوجته التي كانت تتسلل باستمرار للداخل.. ظل يفتقده ويسأل عنه همسًا هنا وهناك.. ولا مجيب إلى أن شاع خبر اعتقاله، فهمس له أحد المسئولين بالقصة التي استغرب كيف فكر حميد فيها أصلًا؟!..

كان غرض نزوله كسب أفراد من حماية «صدام» يمتون إليه بصلة قرابة.. كي يدبروا عملية اغتياله علّ ذلك يغير الوضع السياسي، فتبين أن الشخص الذي كسبه «حميد» لتنفيذ العملية كان يخبر «صدام» شخصيًّا بكل التفاصيل خطوةً.. خطوة!. فقبضوه بهدوء!

وقتها ، شعر بالغضب منه.. من سذاجة ما أقدم عليه. وظل شديد القلق على مصيره ومصير زوجته.. وعلى أثر ذلك التحق «أسعد» بالثوار ؛ مخافة أن يرد اسمه في التحقيق. لكن مأزقه الإنساني الفريد يتجلى في سؤال:

- من يصدقه؟!.

فهو تكريتي أولًا.. والمخابرات العراقية تضخ بالمئات من عناصرها، الذين كانوا يستبسلون في معارك الأنصار قبل أن يُكتشفوا ثانيًا.. فمن يثق بـ «أسعد» بهيئته التي تدعو إلى الريبة بقسماته الصلدة القاسية وبشرة وجهه السمراء الصلبة.. من يصدقه؟!.. وتكريت جذر المصيبة ومنبعها.. قال لنفسه لحظتها:

- الله يساعدك يا «أسعد»!.

قال ذلك وهو يراه مجردًا من السلاح في واقعٍ شديد العنف يستحيل فيه السلاح خلاصًا، سواء بالمقاومة أو بالانتحار في اللحظات الحرجة كما فعل العديد من الأنصار. رغم ذلك كان «أسعد» سعيدًا.. أو هكذا يبدو ، ينكت طوال الوقت ويجيد الحديث بلكنته البدوية ساردًا عديدًا من حكايات الحكمة الطريفة. وقتها لم يخبره عن مدى علاقته بـ «حميد».. فالوقت الذي كان يقضيه في «كافيه» قصيرًا، لم يتح له معرفته بعمق يكفي.. يضاف إلى أنه كان خائفًا.. فصديقه ورفيقه «حميد» وزوجته في المعتقل، فمن يضمن هذا الشكل المقدد الساخر طوال الوقت.. المتسرب إلى قواعد الثوار، والذي يشعرك رغم عدم معرفتك به وكأنه يعرفك منذ الطفولة؟.. من يضمن أن لا يكون مبعوثًا من قبلهم؟!. لكن في « أوردكاه زراعان» الإيرانية بعد نزوحهم مع الأكراد، عقب عمليات «الأنفال»، زارهم في غرفتهما بالمعسكر، فأخرج له صور زواج «حميد».. وقص عليه علاقته البعيدة معه.. كاد يجن وصار يزورهم كل يوم.. ليكتشف خلف هذا الوجه الصخري قلبًا حنونًا يشعرك بالدفء والأمان، وذهنًا لامعًا يلقط كل شيء.

أباح له شدة معاناته مـن عيـون المقـاتلين المتـشككة والملاحقـة حركاتـه في النهار والليل، في النوم واليقظة، وكي يخفف عنه قال ضاحكًا:

- أولا - خلصت من الحراسات والمفارز والقتال، وثانيًا - فترة قـصيرة وعبرنا الحدود!

- ..

يبتسم بشحوب محملقًا بعينين حزينتين ويخرج من صمته:

- ابن عمي آذوني هواي!.

يصمت للحظات، ثم يطلق حسرة من أعماقه مردفًا:

- الرفاق آذوني حيل!.

ظل يلاحقه الأمر حتى في موسكو، ففي يومٍ ثلجي عاصف قـرع بـاب الشقة.. دخل لاهثًا مطعون القسمات.. تهالك على الأريكة القديمة مهدودًا عاجزًا عن النطق:

- أش بيك.. خير.. أشبيك؟!

وهرع إلى المطبخ ليجلـب كأسًـا مـن المـاء. عبّـهُ وكأنـه قـدم لتـوه مـن الصحراء، ثم صرخ ملتاعًا:

- هذي جيتي من المدرسة الحزبية.. تعرف أش يقولون.. تعرف!..

يقولون «حميد» ضابط كبير بالمخابرات وكان مندسًّا بصفوف الحـزب!. جادلتهم لكن الكل يؤكد أن هذا الخبر تبليغ حزبي!. وما بقـى أحـد غـيرك

أسأله.. أنت أش تقول؟!. معقوله كان صديقك يخدعني.. «حميد» عمي يخدعني!.

ولكم يا ناس.. يا عالم راح أشرك.. والكعبة الشريفة راح أشرك!.

ظل ينقل نظره في حيرة بين وجه زوجته المتسائل ووجهه، فماذا يقول؟. ومَنْ يصدق مَنْ في هذا الخراب الذي عمّ كل شيء؟!.. فالواحد منا اكتشف هنا أنه قضى أكثر من نصف عمره واهمًا بمدينة فاضلة، تبين أنها هشة لا تختلف عن أي مدينة تحت وطأة قوانين قسرية صارمة يرزح الفرد في قعرها محتقرًا لا كرامة له، ممكن أن يغيب في أية لحظة في معتقلات سرية رهيبة..

ماذا يقول والمرء بدأ يشك في نفسه وفي كل شيء؟!.

ركّز نظره على قسمات «أسعد» المضطربة والمخذولة، فأدرك إلى أي مدى ممكن طعن الإنسان بالأقاويل التي تمس علاقاته الحميمة.. ومن تلك اللحظة صار يميل إلى الصمت في مثل هذه المواقف.. فهاهو المستنجد به مذبوحًا على الأريكة ينتظر:

- أش تقول.. أنت!.. أنت أش تقول؟!.

انفجرَ بغتة بضحكة عاصفة وسط دهشة زوجته، و«أسعد» الذي سكنت ملامحه بانتظار الجواب:

- مجنون أنتَ.. إذا «حميد» مندس فأنا مندس!

قالها بكل كيانه .. محدقًا بعينين ضاحكتين بالقسمات الصخرية الهائجة، التي بدأت تهدأ وتصفو شاردة، قبل أن يحدث نفسه بصوت مسموع:

- قلت مع نفسي ماكو غيرك يخلصني!

وقفز من الأريكة ليحضنه ويمسك برأسه بين كفيه، ويطبع قبلاته على جبهته، رأسه، وجنتيه.

«سيسمع لاحقًا نبأ إطلاق سراح «حميد» وزوجته.. عن صعود وضعه المادي بفتح شركة هندسة كهربائية سيتوسع عملها في بغداد .. سيسأل عنه عقب سقوط «صدام» فيخبره أحد رفاقه القدامى في ساحة البلدية بكوبنهاجن؛ حيث تجمعوا للتضامن مع العراق الجديد عن عودته للعمل السياسي، وهو الآن صاحب امتياز صحيفة « القاسم المشترك» التي تصدر في بغداد.

كان «أسعد» يغيب عند حافة جدار البناية. رجع إلى الغرفة، فسمع ضجة أقدامه المرتقبة بصخب سلالم الطابق الثالث. استقبله في المدخل الضيق. عانقه، وقبل أن يدخلا الغرفة التفتا نحو المرأة الجالسة في المطبخ، فوجداها ترفع رأسها عن الصحيفة وتحدق نحوهما بخجل. حضّر «إبراهيم» الطاولة الصغيرة. أخرج «أسعد» من جيب معطفه الطويل قنينة الفودكا ، التي لوح بها من الشارع، ومن الجيب الآخر أخرج علبتي سمك سردين وزيتون وقطعة جبن ورغيف خبز أسود. تناول من المكتبة القريبة كأسين صغيرتين. وجلسا بمواجهة بعضهما.. انتبه إلى ساعة الحائط، فوجدها تشير إلى الثانية ظهرًا.. كان «أسعد» يتفحص «إبراهيم» بعينين ضاحكتين نشطتين متحركتين كعيني صقر، ثم انفجر بصوته الأجش لكنه عالي النبرة:

- أش بيك يا ول.. وجهك مثل الميت.. أي وين راحوا للحرب..شو طاروا للجنة.. لو للدنمارك ..لو لسويسرا.. وتعال أقولك ستذهب إليها

بكل الأحوال.. ثم اسمع أنت ليش ما تهيص مثل ما تسوي العالم.. ما دام عندك فرصة وحدك بموسكو العجيبة!.

أخرج منطق الكلام «إبراهيم» من الوجوم والرماد.. فهذا البدوي المعذب يواجه كل شيء بمنطق «عيش اللحظة».. منطقه القديم نفسه الذي وجد نفسه متطبعًا به منذُ الطفولة. كان يعاند الكل ويفعل ما يحلو له.. لا يهمه الكبار وقوانينهم، وبسبب ذلك شبع ضربًا من أبيه وأعمامه والمعلم.. ورغم ذلك تشبث بمنطقه الذي كان المحيط يجد فيه غرابةً وخروجًا على القيم.. ذلك ما جعله يجرب الخمرة والتدخين، وهو في سن الرابعة عشرة.. ويمعن في التنافر مع كل شيءٍ منظم.. ليصل إلى حرية خاصة به .. غير مقيدة بالقوانين أو العرف الاجتماعي، ذلك ما جعله يتطرف في كل شيء.. في الأخلاق.. في السياسة.. في الملبس والكلام.. متحملًا تبعات ذلك في بيئة العراق المغلقة..

مبكرًا ارتبط بالحزب الشيوعي ليس كونه حزب حرية.. بل كونه سريًّا ممنوعًا.. لكنه عندما تعرف على أفكاره في كتب «لينين»، تنافر معه ذاهبًا إلى «تروتسكي» فراح يبشر بأفكاره.. يضاف إلى نظرية «فرويد» في الجنس.. ووحشة «كافكا» .. وغريب «البير كامو» اللامبالي.. طبع غذته الكتب لتلقيه في وحشة الوحدة، فوجد نفسه غريبًا ساخرًا من كل شيء.. يبرر كل شيء عدا خيانة الضمير طبعًا..

عاند الكل حتى وجد نفسه – مجبرًا – يخوض تجربة النضال السياسي وسط الحزب الشيوعي ، المتنفس الوحيد المنادي بمدينة فاضلة حرة

يتساوى فيها البشر في كل شيء.. وما أسهم في تهذيب تمرده وقوعه في شرك غرامها.. فتدله بها كيانًا متفجرًا لا يعرف الهدوء ، منحه أحلى وأمتع اللذات في بيئة مغلقة، وبكل شجاعة.. إذ كانت لا تشعر بالذنب.. فوجد بها شبيهه في الجنس الآخر.. فما كانت تفعله يعد جريمة كبرى بمنظور الأعراف.. ذلك ما وطّدَ علاقتهما .. ورويدًا.. رويدًا وجد نفسه يتنازل عن عرامة تمرده، وينقاد كحملٍ وديع إلى مشيئتها.. ليدخل خضم النضال ويتغرب.. ويحمل السلاح.. ويرى الفظائع.. ويكتشف غور الإنسان العجيب.. واجدًا بموقف طفولته وصباه من الكبار والمجتمع صوابًا لكن علاقته بها عقلته.. وبتعبير أدق كبلته، وجعلته يتحمل بصبر.. بغلٍّ ..مساوئ النخب، التي تبرر حتى الإهانة الشخصية..

ففي الجبل .. اضطر مرتين إلى ضرب رفاقٍ له حاولوا النيل منها.. جعله حبها عاجزًا مؤطرًا بما يفرضه واقع تلك العلاقات الملتبسة، وذلك ما أفقده الكثير من طبعه الأصيل.. هاهو التكريتي الصعلوك يبعث بقوله كل ذلك الماضي بإرثه المحلي.. القادم من المدينة وبشرها.. أحاله إلى إرث التمرد لا في الكتب.. بل إلى شخوص المدينة المنسيين.. إلى أولئك الذين انتحروا بالخمرة.. أو حرقًا في الشارع.. وكلا النموذجين عرفه عن قربٍ؛ فـ «حنتوش» وأخوه «صاحب سلام» انتحرا حرقًا في شارع علاوي الحنطة القديم وسط المدينة لوصول اللغة مع البيت والشارع والناس حدود الخرس.. أما الذي قضى بدكانه مخمورًا بالأخيلة والصبية.. المصور الفوتوغرافي النازح من الناصرية..

«شاكر م» الذي كتب قصيدة شهيرة عن عشقه لصبي جميل، يمر كل يوم من أمام دكانه:

- «إن چان ربك خالگك تسبيّ العباد

هواية أرغب ياحلو تسبيني»

فهو من جسَّد فلسفته عن الوجود العابر .. عن ضآلة الإنسان في غموض الكون، الذي يزداد الإنسان جهلا به كلما اكتشف المزيد.. شموس سوف تموت.. وأكوان بعيدة مستحيلة لا تحيط بها إلا مخيلة الضوء وحساباته.. ثقوب سوداء قادرة على شفط شموس مجرة..

- ما أبخس الدنيا.. والبشر هنا يقيمون الحروب ، يحقدون ، يقتلون يتناحرون ، يتفاخرون.. يتعايرون!

أرجعه هذا البدوي ، صخريُّ الملامح إلى طبعه الكامن.. فوجد في ظهيرة موسكو الفريدة، وبعد ساعات من طيرانها مع طفليه إلى المجهول ، أن القطعة التي خطها المصور الزنجي السكير «شاكر م» كدعاية تحرض الناس على تحنيط لحظتهم فوتوغرافيًّا:

« الحياة لحظة فصوِّرها قبل أن تنفجر»

وجد بها دواءً لوحشته .. وقع التكريتي على أسه الأصيل المنسي، فأقام مجد تلك الأيام.. فلم الوجوم إذن؟!. سأل نفسه بصمت وعبَّ كأسًا أخرى من الفودكا الأكثر صفاءً من الماء. وجعل ينصت لفلسفة بدوي تكريتي حميم ، فتح قلبه دفعةً واحدة..

- يخايب كلنا نموت بكرى لو بعده.. عندك رأى آخر.. لاتسويها مناحة.. هذي فرصة.. وحدك بموسكو.. فرصتك حتى تعرف بشر موسكو اللي كنا نحلم بها وكأنها جنة الخلد، وهي فعلًا جنة بنسوانها لا بالاشتراكية!.

ظل ينصت بلذةٍ إلى قصص يسردها ببراعة عن مغامراته الجنسية.. عن حرارة الأرداف الكبيرة، عن وجوه الروسيات المنتشية لحظة الذروة، عن السهولة التي تنقاد بها الروسية إلى الفراش، وعندما سأله عن عائق اللغة، انخرط في قهقهة صاخبة وعلق مؤشرًا على وسطه:

- شوف.. هذه المنطقة ما تحتاج كلام!

سأله عن بائعة الورد الروسية التي جلبها قبل شهرين إلى هذه الشقة، والتي حظيت بإعجاب زوجته. كانت شديدة الخجل تنظر نحوهما بعينين حالمتين.. غير مصدقتين.. فهم لاحقًا من «أسعد» أنها تمنت أن يكونا زوجًا مثلهما.. أي أنها كانت تتخيل حالمة بوضع شبيه بوضعهما.. فأخبره أنه بدأ يتهرب منها لأنها تلح عليه كي يستقر معها في موسكو.. مجنونة .. علق هازًّا بيده.. أني عفت خطيبة بمدينتي.. بنت عمي يا ول.. بعدين أسمع بلا نصائح بلا مواعظ.. أنا أرى الأمر بهذه البساطة.. مُطَّلَقَة.. متوسطة العمر.. مليئة الجسد.. تقف طوال اليوم بمحطة المترو بمحل الورد.. ما عندها صاحب صار سنين حسب قولها.. يعني بالعراقي «مجيمه». وإجه أخوك من قحط تكريت وكردستان وإيران. راح تظل تتذكرني عمرها كله.. وريتها فنون.. كل قطعة من جسمها تشهد.. أش تريد مني بعد. ذوقتها ست أشهر عسل بدل شهر واحد.

- مسكينة!..

علق باقتضاب على قصة بائعة الورد، فنهض «أسعد» من مكانه صارخًا:

- أنا المسكين. عمري ستة وثلاثين سنة.. لا زواج.. لا استقرار.. شفت الويل وأنت تعرف كل القصة.. راح تشوف غيري.. عندها شغل وولد وأم وأبو.. وبيت صيفي ومزرعة كبيرة.. وأني ما أدري راح تقبلني الأمم المتحدة لاجئ لو راح أظل محصور بموسكو.. لا فلس.. لا إعانة.. لا شغل..

كان وفد من منظمة مساعدة اللاجئين قد قدم إلى موسكو من جنيف لمقابلة أكثر من ثلاثمائة عراقي من الأنصار السابقين، الذين كانوا في طريقهم إلى الدول الاسكندناقية، لكنهم انحصروا في موسكو بسبب اندلاع حرب الكويت عام 1991 .

- بعدين اسمع.. إني أريد أذوق كل الأنواع.. كل واحدة طعمها مختلف..

أمنية تراود البشر سرًّا.. أمنية تبدو مستحيلة، لا تقبلها الشرائع والقوانين.. رغبة في التداخل جسديًّا بكل النساء.. سيكتشف لاحقًا أن النساء تراودهن الرغبة نفسها في مضاجعة أنواع مختلفة من الرجال. كان يمعن في التملي بالوجه المنفعل.. المنهمك بالسرد والتحليل.. بمنطقه في الحياة.. القريب جدًّا من شعاره القديم.. الحياة لحظة.. لكنه سلك في حياته عكس مثله حينما وقع في حبائل التي طارت إلى السماء.. أطفال.. وفاء..

عفة.. ورطة كان ينوء بعبئها، ما كان يلهيه عن ذلك العناء هـو الإبحـار في جسدها الفتّان كل ليلة:

- جرب يا ول.. جرب!

كان يبتسم لنداء هذا البدوي الصاخب الذي أزال قدومـه شـعور الأسـى والوحدة والغم بحديثه وأقاصيصه، يبتـسم ويـصغي لنـصائحه التـي تخـص العلاقة بالروسيات، وكأنه عاش العمر كله في موسكو.. يصغي متخيلًا طراوة الأفخاذ، صلابة النهود، نعومة البشرات بألوانها المختلفة، متابعًا كفي «أسعد» اللتين ترسمان في الفراغ فوق الطاولة الصغيرة بينهما قبب المؤخرات، وبطـرف السبابة رجفة الحلمات. ويفيض في وصف الوجوه في اللحظة، التي ترتفع فيها إلى جلال النشوة والخدر والصراخ:

- اسمع .. المضاجعة مضاجعة وجـوه.. كـل الـلي وصـفته راح تحـس بـه باللمس.. وبكل جسمك.. لكنْ ركزْ عـلى الوجـه والعيـون.. يـا ول الكبـيرة تصغر تصير شابة لما تبدي تفقد وتذوب روحه.

كان ينصت مستغربًا من قدرة هذا البدوي عـلى خـوض تجربـة الجـنس بكل هذا العنفوان والتفاصيل، ولم يمض عـلى وصـوله إلى موسـكو مهربًـا سيرًا على الأقدام عبر الحـدود الإيرانيـة الـسوفييتية ؛ سـوى عـدة أشـهر.. يضاف إلى ذلك أن الناظر إلى شكله مـن الخـارج سـيقدر أن مـن الـصعوبة عليه الحصول على واحدة ؛ لذا يراوده ظنٌّ في بعض اللحظات بأن ما يقصه محض أخيلة، تنضح من مخيلـة مكبوتـة، لكـن بائعـة الـورد التـي جـاء بهـا لزيارتهم، والتي بدت مسحورة بين يديه يطرد ظنه، فيعـود يـصغي إصـغاء تلميذٍ مبهورٍ:

- ابتعد عن الصغيرات.. أكثرهن عاهرات نضجن في عهد «جورباتشوف»، أولا؛ ما يمتعن، لأن يفكرن بس بالفلوس، وثانيًا؛ أكثرهن مريضات، تعرف أش صار بالرفاق البيشمركة منهن.. أمراض جنسية عجيبة.. من السيلان إلى قراد العانة.. والله وحده يدري يجوز ضربهم الإيدز وما يدرون. لكن متوسطات العمر العاملات بالمخازن، محلات بيع الورد، البائعات بسوق الخضار، اللي فاتهن القطار مثلنا، اللي نضجن زمن بريجنييف هذني يا ول نظيفات.. يعطين روحهن بالفراش.. مو بس روحهن يعيشنك.. وإلا منين أشرب وأكل.. الرفيعة ترقص جواك وفوقك، والسمينة جدًّا ما تقدر تتحرك.. اسمع.. اسمع لا تفكر بجسمها تروح تبرد، ركز بس على وجهها، تقوم تصرخ صراخ مخنوق مثل اللي يغرق، وبعدين تقوم تقرط بأسنانها وتْطَلِعْ موجات.. موجات من نصف وجهها. تشوفها جوه الجلد تتموج وتختفي خلف الأذنين.. عالم عجيب ياولد جرب.. جرب.. صحيح الرفيقة مثل أختي.. لكنها أولا ما تدري.. وبعدين أحنه رجال مثل الثيران لا نحبل ولا نجيب.. وهذا من يوازينه.

وأشار بسبابته السميكة المنتصبة من قبضة يده المضمومة، وكأنها فوهة مسدس، إلى وسطه مردفًا:

- نتخبل.. مو تمام!.

لا يدري كيف أمتعه هذا التفصيل المباشر شبه التجريدي للعلاقة الجنسية من زاوية رجل بدوي.. لا يدري لكنه وجده يشبه خطوط عظماء الرسامين الذين صوروا جسد المرأة عارية.. فالكلام هنا يشبه تلك اللوحات، أو جعله يرى التفصيل الفيزيقي للجسد، زائد القصة المروية

بطريقة يصبح فيها الكلام تجسيدًا أكثر حيوية فعلًا من الشريط السينمائي.. وكأنك ترى كل شيء أمام عينيك لحظة القص، وقسمات الراوي الصخرية تستحيل إلى كتلة رائقة من الوهج والماء تبهر الرائي..

- هل سر نجاح مغامراته يكمن في هذا؟!.

لم يتأخر الجواب طويلًا. أخرسَّ فجأة. تجمد وكأنه تمثال بوضع الذهول.. تجمد وكفه المضمومة دون سبابتها، التي كانت تشير إلى ما بين فخذيه سكنت متحولة إلى شبه قطعة نحتْ. مفتوح الفم يحدق نحوه بعينين احمرتا قليلًا بفعل الخمرة، وقنينة الفودكا شارفت على النفاد. مشهدٌ ظل حيًّا يراوده في لحظات السكر والصحو .. لحظة فريدة وجدَ بها ذاته التي ضاعت بين قصة الحب والأيديولوجيا والنضال.. لحظة ذهول البدوي مفصلية كانت بحياته أفضت به إلى علاقة واهية بالأشياء.. علاقة ذكرى متأخرة ووعي بائت.. دفعه بعنف نحو الخمرة والنساء.

استكن يحدق بعينين متسائلتين بالبدوي الجالس الصامت الجامد، وكأن لعنة حولته إلى حجر كما يقول الناس عن أسد بابل.. «أسعد» أسد صامت.. صار أسئلة.. وظل بخباثة بدوي ينتظر أن يُسأل عما ألم به. تخابثَ «إبراهيم» ولم يَسأله.. مستمرًّا في التحديق بصمت نحو كتلتهِ الجامدة، ومحاولًا قدر الإمكان الظهور بمظهر الحياد، وكأنه غير معنيّ بما يفكر.. مما جعل «أسعد» ينتفض وكأن عقربًا لسعته، ليتساءل:

- «إبراهيم».. نسيت أهم شيء!.

باغته السؤال: أش نسيت؟!.

- من دخلنا كانت مَرَه قاعدة بالمطبخ..

- أدري..

- من هي؟!.

أخبره أنها زوجة مالك الشقة، منتظرة قدوم عامل فني كي يعالج نسيانه حنفية الحمام مفتوحة طوال الليلة الفائتة، حينما توجهوا إلى مطار موسكو. لمعت عيناه ببريق غريب، مسد شاربيه. حك رأسه بأصابعه وحرك كفيه يمينًا وشمالًا حركة خبير، ثم رفع رأسه ناظرًا نحوه وقال:

- ليش ما دعوتها تقعد معك!.

كان زوجها «فاديم» قد زارهم في الشقة قبل سفر زوجته، وعلم منه أنها مهندسة كهرباء يسكن في شقتها، وهذه شقته، وأن لها ولدًا من زوجها الأول يبلغ العشرين من عمره، وهو نزيل السجن الآن لجرائم عادية.

- أول مرة أشوفها!..

- .. وإذا..

- ..!

فضل الصمت، شاعرًا أنه في وادٍ، و«أسعد» في وادٍ.

- لا تسكت.. بعدين أنت إذا تبقى بهذا الحال راح يقتلك الحزن.. وتدمنع الشرب!

قام من كرسيه.. تناول معطفه.. دس كفه الضخمة بالجيب الداخلي، وأخرج قنينة أخرى من الفودكا:

- عامل حسابي.. أدري أش لون رؤوس عدنه!.

ملأ الكأسين حتى حافتيهما، وقال مشددًا على مخارج الحروف:

- اطلع من نفسك.. اطلع!

جعلته جملة التكريتي يرى نفسه ضائعًا في مجاهل نفسه. ودَّ لو يخرج حقًّا من ذلك الدهليز الذي بدا بلا نهاية!.

- ارفع كأسك يا ول!

أمره، فمد كفه ليحيط بالكأس، ويرفعه إلى شفتيه:

- في يوم راح ننتبه.. نلقي أرواحنا معجزين!..

- ...

مسح حوافَّ فمه، ونهض «أسعد» قائلًا:

- أنت ما تعرف الرفيقات الروسيات!.

واستدار قاصدًا باب المدخل.. سمعه يتحدث معها في المطبخ بروسية مكسرة، تلاها ضحكٌ صاخب مختلط بصوت ناعم مرتبك. قال مع نفسه مضطربًا:

- هذا البدوي راح يدخلني بمشكلة!.. وسَأُطرد من الشقة!.

أنصت متوترًا إلى صوت الضحك ووقع الأقدام. ظهرا ضاحكين، كان منتشيًا، وكانت خجلة مسلمة قيادها لجسده الضخم. كان يمسك كفها اليسرى الصغيرة بقبضته الضخمة.. بينما التفت ذراعه اليمنى حول

ظهرها. سحب كرسيه، رجع خطوة إلى الخلف، وانحنى كفارس من العصر الوسيط؛ ليقُبِّلَ ظاهر كفها ، ويقول بالفرنسية:

- بونجور مدام!

كان يحدق بذهول نحو قسمات البدوي ، التي تألقت وصارت تتدفق حتى تكاد تسيل رقةً. قال لنفسه:

- يا أيها الملعون وكأنه شخصية من شخصيات «ديستويفسكي» الأرستقراطية في حضرة أميرة!

تلفت باحثًا عن كرسيٍّ، ولما لم يجد هبط جوار قدميها على سجادة الأرض متمتمًا بروسية عندما يلفظها، كأنه يتكلم بلغة بدو العرب المندثرة. ارتكز على ركبتيه يخوض معها في حديث متصل، ثم أشار لها نحو قنينة الفودكا.. هزت رأسها معتذرة، لكنه نهض ليتناول من درج المكتبة الصغيرة خلفها كأسًا ثالثة. وصب فيها. أوقفته عند منتصف الكأس ضاغطة بأصابعها البيضاء الناعمة الصغيرة على ظاهر قبضته الملتفة حول الزجاجة.. ظل إبراهيم يحملق في أصابعها.. في البشرة الرقيقة التي يظهر تحتها بوضوح مجرى العروق.. بوجهها المضرج وعينيها الزرقاوين المنحنيتين على «أسعد»، الذي هبط على ركبتيه جوارها. ورويدًا.. رويدًا غادرها الخجل وتآلفت معه، فراح أثناء الحديث يضع كفه على فخذها القريبة من مستوى جلسته، ويربت في حركة تبدو ظاهرًا شديدة البراءة. وعندما تنشغل عنه بالتحديق عبر الطاولة إلى حيث يجلس صامتًا. كان أسعد يرمقه بنظرة خاطفة مع غمزة سريعة بطرف العين..

- الملعون من أين جاء بهذه الطلاوة كلها.

كان يكلم نفسه فيما يصب «أسعد» كأسًا ثانية لها. وهذه المرة لم توقفه.. كان بين الحين والحين يلتفت نحوه ويقول بالعربية:

- يا ول هذه ناضجة ما تحتاج تعب!.

- أكيد ما مرتاحة بحياتها!.

سيكتشف لاحقًا أن حدس «أسعد» صحيح؛ إذ إنها فعلًا لم تكن مرتاحة بحياتها مع «فاديم» السكير الذي لديه عشيقة سرية.. ستتصل لاحقًا بالشقة هنا كي يرتب لها أصدقاؤه من الذين يعرفون اللغة الروسية لقاءات معه. سأل «أسعد» بعدها بفترة:

- كيف عرفت أنها غير مرتاحة مع زوجها.. هل أخبرتك هي؟!.

قال:

- لا.. لكن مبَيْنه، من رجفة أصابعها بين أصابعي!.

أي فراسة يمتلكها هذا البدوي، وكأنه يقتفي الدرب في أفق الرمل مستدلًّا بالنجوم.. قال في سره ونظر إلى نفسه فوجدها ملبدة.. بلدتها الحياة الزوجية والسياسة.. والإدمان على التعامل مع الزوجة.. والحذر من بقية النساء سواء في حضورها حيث تكون عيناها تترصدانه، وفي غيابها حيث يكون الرأس وقيم الوفاء. ظل صامتًا مبتسمًا شاردًا يتأمل وجه الروسية، الذي بدأ يتورد ويندمج بالعالم الذي خلقه «أسعد» في هذا الوقت القصير.. في ذلك السر العجيب الكامن في المناخ السابق لفعل التداخل بين الجنسين.. في التوهج المتصاعد درجةً.. درجةً .. إلى حدود النشوة. يتأمل نادبًا جمود حواسه، التي قمعتها المؤسسة الزوجية وطهر الأفكار الثورية.

- ما تحكي.. تريدك تحكي!

انتبه على صوته الأجش، فابتسم قائلًا:

- أش أحكي.. ما أعرف لغة!.

- ما يهمْ.. ما يهمْ.. أحكي وهي راح تفهمك!

انفجر في قهقهة صاخبة من أفكار البدوي العجيبة:

- أي أضحك وغازله بالعربي!. وما عليك!

حلت لـ «إبراهيم» اللعبة، فابتدأ يطري جمالها مؤشرًا بيديه نحو عينيها.. أنفها.. شعرها.. شفتيها.. رقبتها.. نهديها.. بطنها.. فخذيها اللتين اتكأ عليهما البدوي بكل ثقة.. كانت تتألق.. وتتألق وكأنها تفهم كل ما يقوله.. نهض «أسعد» من جوارها قائلًا:

- موسيقى.. موسيقى!.

ووضع أسطوانة بوب غربية وأنزل الإبرة فدارت. انحنى أمامها مرة أخرى، وكأنه أمير مادًّا ذراعيه كي تقوم وترقص معه. أمسكت بكفه وقامت إليه. حضنها وراح يدور معها راقصًا في أرجاء الغرفة الواسعة. تابع من جلسته وجهها النشوان الضاحك من طريقة - «أسعد» - في رقصه الغريب.. خليط من إيقاع البعير ، وقفزات الأسد ، مصحوبة بصراخ «الله أكبر»:

- شوفهه.. شوفهه.. ذابت.. ذابت!.

ركّز على ذراعه القوية الملتفة حول خصرها الضامر.. على حركة الوركين العامرتين.. وأصابع يديهما المشتبكة!.

الحياة لحظة.. الحياة فقاعة.. فصورها قبل أن تنفجر!. رسخت من جديد مع هذا البدوي، الذي يدور وبين ذراعيه هذه المرأة الروسية الجميلة المائعة بهجةً، التي كانت قبل ساعة شديدة الحياء تجلس مرتبكة بالمطبخ. مشهد سيظل يتراءى له في خيالات الخمرة والحشيش وهو يلتحف مصاطب منزوية في الأرصفة.. ومداخل العمارات.. ومحطات المترو.. وبيوت المشردين المنتشرة في أرجاء كوبنهاجن شتاءً، لاعنًا ذلك التكريتي الذي وصل إلى السويد، وتزوج بنت عمه التي جلبها من العراق عن طريق كردستان.. ويعيش معها الآن بهدوء.

المتشردة الروسية

منذ بكـرة الـصباح يخـرج «إبـراهيم» مـن الـشقة هاربًـا مـن وحدتـه، فـ«أسعد» بعد أن أحيا فيه كل النزوات القديمة.. اختفى!. يـستقل الحافلـة المكتظة بالروس بوجوههم المرهقـة المتجهمـة، القلقـة وهـم يتوجهـون إلى العمل. يقف وسط الزحمة يبحث عن وجه جميـل يعينـه عـلى قطـع المـسافة وقوفًا.. يعثر على عينين أنثويتين تهتمان به.. ويبدأ ذلك الكلام الـذي تقولـه العيون، ظلال البسمة، التشاغل بـالنظر عـبر الزجـاج والعـودة إلى حيـث يحدق منتشيًا ناسيًا الكل. تظل عينا الروسية تنجـذبان حيـث يقـف راسـخ التحديق وكأنه قطب ممغنط..

يترجل من الحافلة منتشيًا، مكتفيًا بمضاجعة العيون الخاطفـة.. يهـبط سلالم المترو.. يبحث عن عينين جديدتين بين حشود المنتظرين ليـدخل في العربة نفسها التـي تـدخلها وتبـدأ اللعبـة الممتعـة مـن جديـد. الروسـية لا تتحمل طويلا.. فبعد عـدة نظـرات تبتـسم وتظـل تبادلـك النظـرات

بعينين فرحتين ممتنتين، بالعكس تمامًا من العراقية التي سرعان ما تسخط نظراتها، وتبدأ تتمتم بصوت غير مسموع.. عرف لاحقًا من بعضهن أنهن يشتمن الناظر الوقح لأنه بلا أدب. يمارس اللعبة بكل مكان معانقًا تلك الأرواح الأليفة المرفرفة في ألوان العيون.. يتسكع في وسط موسكو، في المخازن الكبيرة، في الشوارع العريضة.. يتأمل المارة اللاهثين هاربًا من ذاكرته المكتظة بحشود القتلى، الذين قضوا في جبهة الحرب مع إيران، في حرب العصابات في الجبل، في الأقبية المظلمة في المدن والجبال، ما زالت وجوههم تتجسد وهم يعانون السكرات الأخيرة في رأسه حال عودته وحيدًا إلى الشقة. فمن صمتها المغبر وعواء الريح في الغابة القريبة، تهب أصوات المعذبين في عمق الظلام، والتي كان يسمعها وهو معصوب العينين بأقبية الأمن العامة ببغداد، أو إلى جواره في ملاجئ شرق البصرة، أو في الجبل حيث يصرخون، وهم يدورون حول أنفسهم مختنقين بغازات الكيمياء..

يهب الصريخ والشخير وهذيان الألم ما أن يحتويه فراغ الغرفة.. فيهرع إلى كأس الفودكا ويعب الواحدة، تلو الأخرى. رويدًا.. رويدًا يتأرجح على حافة الخدر والنسيان، فيسقط في نوم يبدأ عميقًا في الساعات الأولى؛ ليتحول مع أول استيقاظ إلى رؤى مرعبة تطل من الماضي.. أخيلة وجوه شاحبة تتوالى صارخة دون صوت تخطف، قادمة من نقطة ما مظلمة في الأفق لتحتل زوايا الغرفة.. تزدحم الغرفة بهم.. محنطًا في فراشه يحملق بجزع في أولئك الأحباب، الذين فقدهم بلجة ما بين النهرين.. قسماتهم

المرعوبة شديدة الوضوح، فاقعة الصفرة، بعضها مازال ينـزف .. وبعـضها مسود الأطراف.. تضج الغرفة بهم.. يقتربون مـن رقدتـه مـادّين أذرعهـم المستنجدة نحوه.. يحيطـون بـه.. يطبقـون عليـه محـاولين عناقـه.. ينفلـت الصراخ قويّا يصم الأذان في اللحظة ، التي تتناوله الأكف الهلامية فيستيقظ صارخًا يدفع بيديه في فراغ الغرفة.

يسقط في صمت الليـل الـساكن المظلـم.. يـتلمس قـسماته.. يحـدق في الزوايا.. في ستارة النافذة المسدلة.. في الحافـة الرفيعـة التـي تـسرّب ضـوء الشارع الممتد خيطًا شاحبًا حتى حدود المكتبة المنزوية لصق الجـدار المقابـل للأريكة موضع رقدته.. يضيع عليه المكان.. يظن أول وهلة أنه يرقـد عـلى فراش طفولته البعيدة في بيت منزوٍ بطرف الديوانية.. ثم يـستدرك معتقـدًا أنه في ملجأ في جبهة الحرب.. يتلمس خشونة الأريكة فيتصور أنه يرقد على (كرتان) بغلّ بمفرزة في الجبـل.. يـتلمس حافـة الأريكـة.. فيـضيع عليـه المكان تمامًا.. يهمس بحذر إلى نفسه:

- أين أنا إذن؟!.

كابوس أدمنه.. يتكرر بأشكالٍ مختلفة.. لكنه يفضي إلى الـسؤال نفـسه.. يقوم.. يكبس زر الضوء.. يتضح كـل شيء.. وحدتـه مـع ذاكـرة محـشودة بالعنف في المشاعر والمواقف والرؤيـة، ذاكـرة أججتهـا الخمـرة والوحـدة، وسقوط أفخم مدينة فاضلة في نهاية القرن العـشرين، حيـث حـلّ في ذلـك الزمن المفصلي.

- لا علاج إلا بما أبدعـه أبناؤهـا مـن سـائلٍ سـحري أبـيض.. شـديد الصفاء أسموه بالفودكا، يحيل المرء إلى فسحة النسيان.

ينطق جملته الفخمة بالفصحى ويقوم من الأريكة.. يصب كأسا في المطبخ.. يجلس بمواجهة النافذة المطلة على حافة الغابة.. يعبّ بصمت شاردًا من النوم.. من الأخيلة.. من الكوابيس.. من الذاكرة.. يتأمل خيوط الفجر تتسلل من زوايا السماء الغائمة.

هذي الدوامة اليومية كادت تقضي عليه.. فلمرتين اضطر الجيران إلى الاتصال بسيارة الإسعاف حينما أوشك على الاختناق. كان يصل مترنحًا، غير قادر على الكلام إلى باب الجار الذي يتصل بالإسعاف حال رؤيته.. الدوامة المريرة سورته ، فاتصل بـ «أسعد» تليفونيًّا شارحًا وضعه. وعبر الهاتف أحس بـ «أسعد» غاضبًا بشدة وهو يطلب منه التبكير بمغادرة الشقة والتسكع بلا هدف في أي مكان بموسكو، ورؤية الروس في حركة يومهم:

- بغير هذا سوف تموت يا ول!

ظل يصرخ مكررًا جملته في الهاتف، وأضاف:

- أصبر عليّ شويه.. أنا أعرف شنو الحل!.

لكنه اختفى ولم يبر بوعده.. رغم ذلك وجد في نصيحته خلاصًا من ذلك الطحن، في وحدته في الشقة مع الخمرة والصمت والذاكرة الدامية..

هاربًا يجوب صرة موسكو.. الساحة الحمراء الواسعة المرصوفة بحجرٍ خاص لم يكن أحمر، كما تخيل منذُ قراءاته الأولى عن الثورة الروسية في سنيّ فتوته العنيفة.. ساحة كأي ساحة لا علاقة لها بمخيلته الجامحة المائلة إلى تقديس الرموز.. ساحة ممتلئة بالسائحين الأجانب والعاهرات.. والروس

الساعين إلى الحصول على أي مبلغ من الزائرين.. يقف في صف السائحين الطويل أمام ضريح «لينين»، الذي لم يتمكن أبدًا من إكمال كتاب واحد له رغم وفرتها في العراق أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات.. وجدها كتبًا شديدة المحلية، معنية بتفاصيل زمنها وتفتقد إلى المتعة.. فانعطف نحو قراءة من عارض «لينين» واجدًا بكتب «تروتسكي» متعةً وعمقًا نادرين في تفسير الثورة والبشر والوجود.. لا يزال يستنكر طريقة قتله البشعة بفأس في المكسيك..

يقف «إبراهيم» وسط الساحة الحمراء في صف المنتظرين، يستعيد سرد «جون ريد» في كتابه «عشرة أيام هزت العالم».. يتأمل حماس ذلك الزمن وأحلام بشره التي آلت إلى هذا الخراب.. يأتيه الدور.. يدخل قاعة صغيرة فخمة.. الصمت مطبق.. الصف يسير بوقع خطى مكتومة ويحدق بالرجل القصير، صغير الأطراف، النائم بتجويف زجاجته المضيئة بكامل قيافته.. المكان يثير الكآبة.. يحس المرء فيه أنه مراقب من مئات العيون المختبئة خلف رخام الحيطان وزوايا تجاويف السقف والأعمدة.. يفكر بالعديد من أصدقائه، الذين قتلوا في المعتقل على وهم ما بناه هذا الراقد بسلام منذُ 1923. يفكر بعبث الحياة.. يقارن بين ما يثيره هذا المرقد من كآبة وشعور بالخوف، وما تثيره مراقد أئمة الشيعة الشهداء : « الحسين» و«العباس» و«علي» في النجف وكربلاء من مشاعر أمان ورواء ودفء.. الناس هنالك يفضون باكين للنائمين منذُ قرون عبر شبابيك الذهب بما يثقل عليهم من شئون الدنيا.. يقول في نفسه:

- .. أولئك مطلق.. وهذا النائم في الصمت داخل تـابوت زجـاجي ، عابرٌ في التجربة الإنسانية..

ويفكر بضياعه بين الكتب والأيـديولوجيا.. بـالمرات التـي نـزل فيهـا في المعتقل بتهمة الشيوعية، وشبع ضربًا وركلًا معصوب العينـين، مقيـد اليـدين بجامعة حديدية تضيق كلما حركها.. يفكر في المسافة بين الدخول والخروج من باب القاعة المقابل بالعناء، الذي ورثه من عائلته فطـرةً، فـأبوه وأعمامـه كـانوا شيوعيين يحلّون في المعتقل بين الحين والحين منذُ الأربعينيات، وكان ينحاز لهم بمواجهة السلطات ، حتى وجد نفسه يقترب ما أن بلغ الـسادسة عـشرة مـن تنظيمات الحزب السرية ويدخل ذلك المعـترك، الـذي لم يجـد منـه فكاكًـا كـل العمر.. فها هو في موسكو مشردًا وحيدًا مجهول المصير بسبب ذلك.

فكر بالمرات التي كاد يقضي فيها نَحْبَـه في المعتقـل أو في الجبـل، فحمـد الكون على بقائه كي يرى هذا المصير التراجيدي لآخر تجربةٍ للفقراء، الذين حاولوا أن يتساووا مع الأثرياء في الحقوق والواجبات وفرص الحياة. ذلـك ما وطّنَ عبثية أفكاره التي استفزها «أسـعد» البـدوي.. يظهـر مـن البـاب المقابل.. يواجه الطرف الآخر من الساحة الحمراء يعب نفسًا عميقًـا وكأنـه كان في صندوق مغلق.. يواجه كنيـسة فريـدة المعـمار إلى يمـين الـضريح في الطرف البعيد من الساحة، يحث الخطى نحوها، يجدها أكثر حيويـة وبهجـة تعـج بـالروس، المتعطـشين إلى أمكنـة العبـادة، التـي كانـت مغلقـة قبـل «جرباتشوف».. أروقة الكاتدرائيـة وقاعتهـا الفـسيحة تـزدحم بـالروس، الذين يوقدون أصابع الشمع تحت تمثال المسيح المصلوب.. قال لنفسه:

- أيُّ سجنٍ حللت فيه طوال سنين.. الوطن والعائلة!.

وفقاعة الحياة الموشكة على الانفجار.. يغور في أنحاء موسكو مؤجلًا موعد السكر إلى حين عودته في المساء.. تتوالى الأيام.. يتعمق العبث.. يزور السيرك الروسي الكلاسيكي والحديث.. يزور متاحف المشاهير.. يجلس في أعرق المقاهي.. يتخيل كائنات الروائيين العظماء المنبعثين من وجوه أحفادهم المتعبين في الشوارع والحانات والأسواق.. في الصبح والمساء.. لا يمل من مضاجعات العيون.. والروسيات أمتع نساء الأرض في ممارسة تلك اللعبة التي يعتقد أنها ألذ من فعل الممارسة الفيزيقية..

تتلاشى رغبة التسكع.. يترسب من جديد في وحدته الموحشة.. فيعود إلى دوامة السكر. منذُ بكرة الصباح، يتوجه نحو كشك البيرة القريب من الشقة، حاملًا إناءً زجاجيًا يسع خمسة لترات.. يحدق بغضب في الصف الطويل الممتد إلى مسافة كيلو متر..

يتقدم نحو النافذة الصغيرة.. يفسح له الواقف أول الصف.. يبتسم له البائع.. سيظل مستغربًا من سرّ صمت الصف الطويل على تجاوزه.. سيكتشف لاحقًا عندما ذهب مع صديق يعيش في روسيا رأى مشهد خرقه للصف بنفسه.. فعرف أن الروس كانوا يعتقدون أنه من عصابات الشيشانيين المنتشرة بأرجاء موسكو في تلك الفترة.. فأولاً ضخامة حجمه.. ملامحه الشبيهة بملامحهم.. نظرة الغضب التي تسبق تقدمه نحو نافذة الكشك.. الصمت الذي يقابل به بعض من يحتج.. والأهم علاقته بالروس الذين يتجمعون حول الأكشاك طوال اليوم كي يشربوا فقط؛ إذ كان يقدم لهم السجائر والشرب ، ويستمع لهم وهم يحدثونه بالروسية..

يضحك حينما يضحك المتحدث.. وينفعل مبديًا مشاركته حين ينفعل.. عندما سمع «إبراهيم» تفسير صديقه، انخرط في ضحك عاصف حتى سقط على الأرض؛ فنظرة غضبه ليس من الروس بل من طول الصف.. وصمته لعدم معرفته اللغة.. أما السكيرون فلم يجد سواهم في وضعه أنيسًا حميمًا يقبل به ساكتًا.. يعود إلى الشقة.. يجلس بمواجهة النافذة المطلة على الغابة.. يرتشف البيرة مستمتعًا بالصمت وغناء طيور يضج في ساعة محددة من الصباح..

في الظهيرة ينزل إلى محل بيع الخمرة ليشتري المزيد من قناني الفودكا. وعند المساء يبدأ في الشرب الثقيل، فتهجم الأخيلة.. والأرواح.. يتحاور معها بصوت عالٍ.. يصرخ بها.. يلعنها.. يبكي حبًّا وأسفًا على غيابها.. يرقص معها.. يرتعب من قسماتها وهي تتجسد دامية.. ممزقة.. تحرز آخر صرخة ألم.. يختلط كل شيء بعد القنينة الأولى.. فلا يدري هل هو في أحلام اليقظة أم أنه في باطن كوابيس.. يختلط إلى أن يجد نفسه في الصباح مستلقيا على الأرض في الغرفة أو المطبخ أو الممر، فينهض فرحًا على صوت غناء طيور الغابة وهدوء المكان.. يأخذ دشًّا دافئًا، وبعد الفطور ينزل متوجها نحو كشك البيرة القريب.. لتبدأ دورة اليوم من جديد.

انهمك «إبراهيم» في خواء اليوم الذي يقضيه بين كشك البيرة والصعاليك الروس الذين أحبوه.. وبائع الفودكا الحكومي، الذي أمسى يحجز له ما يطلبه من قنانٍ؛ لأنه يدفع أكثر من العمال الروس المساكين الواقفين في الطابور الطويل؛ كي يحصلوا على قنينة بالسعر الرسمي.. يضحك في سره من المفارقة.. فبراتب الأمم المتحدة التي قبلته لجنتها في

موسكو لاجئًا، يستطيع أن يعيش في بحبوحة السكر والتسكع أفضل من مهندس روسي.. كان يسمع لعنات الروس الواقفين بالصف الطويل المنصبة على البائع، الذي حالما يراه يبتسم ويشير له كي يدور من الباب الخلفي.. ألذ ما في الأمر هو أنه يقدر أن يفعل كل ذلك دون معرفة اللغة..

ومع الرشفات الأولى كان يتألق طربًا، وهو يستعيد ملامح الروس الغاضبين في صف البيرة والفودكا ولامبالاته.. ووجه البائع المتواطئ، وهو يطلب من الساخطين الكف عن الكلام.. ذلك ما فهمه من إشارته بوضع كفه على فمه الكبير.. يضحك ساخرًا من نفسه، وممن مات من أجل هذه المدينة الفاضلة.. يضحك من عبث الدنيا والأفكار.

في الغمرة والاضطراب والوحدة، صارت لحظة الغيبوبة بفعل الخمرة هي المبتغى..

لم يتصل به أحدٌ، فاستطاب «إبراهيم» وضعه ليترسب درجة.. درجة في درك السكر ، الذي قاعه قاع.. لذيذ مطلق.. يذيقه الوحشة والدفء في الوقت نفسه. فزَّ من سنة نومٍ أخذته أول المساء.. قفز من رقدته مذعورًا نحو المطبخ ليتأكد من وفرة الفودكا.. فلم يجد سوى وشل قناني.. هرع إلى المدخل.. ارتدى معطفه الثقيل.. وخرج باحثًا عن شقة قريبة تبيع صاحبتها الفودكا بسعر عالٍ.. عاد منتصرًا منتشيًا بقنينتين.. تسلق السلالم الحجرية بنشاط. ما أن اعتلى آخر درجة تؤدي إلى الطابق الثالث، حتى توقف جوار كتلة مكورة على السلالم المؤدية إلى سطح البناية.. فرك عينيه.. لم يزل رأسه غاطًّا في خيالات السكر وأحلام اليقظة.. ظنها أخيلة. أحد البصر فتأكد من وجودها.. كتلة متكورة تحت معطف أسود ثقيل.. خشي من إيقاظها،

فطالما مدّ يده نحو أخيلة الأحباب الذين يزورنه في الشقة، لكن لا يقبض سوى حفنة هواء وخيبة تسعر أشواقه.. استدار عن تلك الكتلة داخلًا الشقة.. ليمارس طقسه المألوف.. في المساء التالي لم يكن بحاجة كي يخرج في طلب الفودكا، لكنه مع هبوط الظلام.. وتقادم الوقت نحو منتصف الليل.. تذكر كتلة البارحة المطروحة على السلالم الباردة الصاعدة نحو السقف.. فقال لنفسه:

- سأخرج لأرى هل كانت البارحة أم لا؟!.

فتح الباب.. جاوز العتبة.. كبس زر مصباح السلالم.. تدفق الضوء شلالًا ليسقط على الكتلة المتكورة بموضع ليل البارحة نفسه. اقترب منها ظانًّا أن أخيلته بدأت تخرج من نطاق غرفة الشقة.. لكنه عندما مدَّ يده ولمس معطفها الثقيل، تأكد أن الجسد المطروح على سلالم المبنى حقيقي.. صعد درجة كي يتبين الوجه المخفي بياقة المعطف الطويلة، فأطل على قسمات امرأة تسقط في نومٍ عميق.. بدت شديدة البراءة وكأنها قسمات طفل.. نزل إلى الفسحة أمام الباب حائرًا.. ودفعًا للشبهات، أطفأ النور ودلف إلى الشقة.. البرد شديد ودرجة الحرارة تقترب من العشرين تحت الصفر:

- ستتجمد!.

قال لنفسه متذكرًا ما قرأه قبل أيام عن مئات الروس المشردين الذين يقضون في الشوارع بردًا كل عام.. ملأ الكأس.. صار كلما عبّ واحدًا ازداد صحوًا، فغادرته الأخيلة إلى أن وجد نفسه ينفجر ببكاء غامض، وكأن عزيزًا جرحه في القلب:

- الشقة فسيحة دافئة والفراش متوفر.. فَلِمَ تدعْ هذه المخلوقة المسكينة تنام على السلالم في البرد؟!.. سأل نفسه، لكنه لا يدري من تكون؟!.. وما قصتها؟. يضاف أنه لا يجيد اللغة.. في لحظة خاطفة تخيل نفسه أنه تعرف إليها في رواية من روايات «ديستويفسكي».. فطالما شغلته تلك الشخصيات المسحوقة المدمنة للخمرة والعذاب؛ حيث لمس باطن عالمها الدفين في حياتها على الورق.. حتى أحبها أشد الحب وهو يجد فيها من عذاب أبيه السكير شيئًا حينما هجرته أمه، وجعلته يعيش في غرفة داخل البيت، وحيدًا مع خمرة ليله وأغاني « زهور حسين».. كان ينفلت في بعض الأيام صارخًا شاتمًا ويضربها في محاولة يائسة؛ كي يستعيدها دون جدوى.. وعندما أدرك محنة أبيه وبدأ ينسج معه علاقة صداقة متأخرة، لكنها لم تستمر طويلًا؛ إذ اضطر إلى الهرب وتركه وحيدًا.. هب من جلسته وجعل يدور كالمسعور بأرجاء الغرفة.. خرج إلى الشرفة.. حدّق في الظلام الشاحب والثلج المتساقط بحفيف خفيف كخطى متسللٍ.. دخل إلى الغرفة.. عبر عتبة المدخل.. استدار نحو المطبخ.. عمَّر كأسًا.. عاد إلى المدخل.. احتدم.. فتوجه نحو الباب المسدود صارخًا:

- ليس عدلًا.. ليس عدلًا!.. ليس عدلًا!.

فتح الباب.. كبس زر المصباح.. انحنى نحوها.. ربت برقة على خدها الأبيض المائل إلى الاحمرار..أبعد أصابعه الوجلة.. المرأة تغط عميقًا في نومها.. شدّد من قوة الربت.. وببطء شديد تحركت الأهداب مرتجفةً.. تباعدت للحظة وعادت تطبق، متضايقة من شلال ضوء المصباح الساقط من سقف السلالم على وجهها مباشرة.. مسح جبهتها بأصابع حنون، وكأنها

زوجته التي أحبها ويعرفها منذ سنوات طوال.. نبضتْ مسامه بـذاك الحنـان القديم الحبيس، الذي كانت تبثه الأصابع عندما يسكر أبوه ويسقط في النـوم على كرسيٍ في حديقة المنزل.. يضطر إلى إيقاظه كـي يـساعده في الوصـول إلى فراشه.. جعلها الحنان الساري عبر بـشرة الخـد تباعـد أجفانهـا كاشـفة عـن فصين أزرقين أكثر صفاءً من ماء البحر والسماء في يوم شديد الصحو.. لبثـتْ على سكونها تدوّر عينيها بين السقف ووجه «إبراهيم» المنحني عليهـا وبـاب الشقة المفتوح، قبل أن تتمسك بذراعه الممدودة لتنهض واقفة.. سحبها برفق نحو باب الشقة. دخلت بصمت.. وتفحصت بعينـين نـشطتا لحظـة أرجـاء الشقة وقالت بالروسية شيئًا فهم أنها تسأل:

- هل يعيش وحيدًا!

أشار لها برأسه بنعم.. انفرجت أساريرها وسألت عن الفودكا. أشـار لهـا بالجلوس على الأريكة.. وجلب من المطـبخ قنينـة وكأسـين. وجـدها تنـضو عنها المعطف الأسود الرث، فبان جسدها الطويل الرشيق.. فخذان ممتلئتـان لا تخفيهما التنورة العريضة البالية. قدمان صغيرتان ظهرتا وهي تنزع حـذاءها المطاطي.. خصر ضيق.. وركان جالستان في الوسط بتناسـق وبـروز مثـير.. بطن ضامر. ومن تحت القميص الممزق، بانت صلابة النهدين الناصعين مـن خلال ثقوب القميص.. لم تكن ترتدي حمالة صدر. صعّد «إبـراهيم» ناظريـه إلى عنقها الأبـيض الطويـل.. إلى قـسماتها المتناسـقة الجميلـة، وهـي تنـبض بالسعادة، حال رؤيتها قنينة الفودكا.. سعادته نفسها، حينـما يعثـر عليهـا في محلٍّ بعد عناء.

لم يكن مستغربًا من هذه الروسية المتشردة والجميلة.. «ديستويفسكي» جعله يلمس عميقًا أرواح السكيرين الروس قبل أن يراهم.. أبدت رغبتها في الشرب.. أخفى القنينة خلف ظهره.. وأشرّ لها كي تذهب إلى الحمام لتغتسل، فحينما سحبها كي يساعدها على النهوض من على السلالم، ورغم أنه يشرب طوال اليوم هبت من كتلتها رائحة عطن خانقة، فأدرك أنها لم تغسل جسدها منذُ أشهر.. بعد طول عناء فهمت المطلوب منها، فهدرت غاضبة وتكورت بزاوية الأريكة متشبثة بمسندها، عندما أمسكها «إبراهيم» من تحت إبطها وتحت فخذيها قاطعًا أنفاسه.. نزعها بقوة من الأريكة وحملها وهي تصرخ بالروسية .. شتائم.. قدّر أنها شتائم. وضعها في حوض البانيو وفتح الماء.. استسلمت فجأة تحت الماء المتساقط من الدش متحولة إلى طفلة فرحة.. غادرها رادًّا باب الحمام خلفه.. أخرج حقيبة كبيرة من الأريكة، وأخرج ملابس كانت زوجته قد تركتها.. حمالات صدر.. قمصان.. بلوزات.. ألبسة داخلية.. أردية منام.. وضبها على الطاولة.. وعاد إلى الحمام.. فتح الباب .. وجدها عارية وسط البانيو مغمورة بالماء ورغوة الصابون.. ترمقه بودّ.

أشارت إليه كي يساعدها في الاغتسال.. دنا من حافة البانيو.. كان جسدها أبيض بياضًا آسرًا مشوبًا بحمرة خفيفة يتموج في غمرة الماء والرغوة.. ظاهرته وأقعت نصف جالسة في البانيو.. دلّك بشرتها براحة يده اليمنى.. مستمتعًا وأطراف أصابعه تنزلق على الظهر الأملس الناصع .. الغريب في الأمر أنه دلك كل جسدها بيديه.. لكنه لم يُستثر!. أكمل غسلها.. ونشفها بيديه.. أجبرها على غسل أسنانها بالمعجون..

جعلها ترتدي ملابس زوجته قبل أن يبدأ الشرب معها.. بعد أن عبت في جوفها عدة كؤوس، شرعت في الحديث باللغة الروسية بوجه منفعل. كان يتأمل نغم الكلام، حركة يديها، ما تبوح به عيناها المتألقتان، تشديدها على كلمات بعينها لفظًا، وكان يرى تجسيدًا حيًّا لشخصية مذلة مهانة من إحدى روايات «ديستويفسكي».. فما تسرده لا يختلف كثيرًا عما أبكاه مرارًا عند قراءة تلك الروايات.. من المؤكد أنها عاشت عذابًا متصلًا منذ الطفولة.. والصبا والشباب.. قد تكون تزوجت من سكير جعلها تدمن.. أو أدمنت بسبب خيانة الزوج.. أو أنها فقدت ولدًا في حادث.. أو أن ولدها أصبح عاقًّا كأن يكون مجرمًا انضم إلى عصابة.. أو تكون شديدة الفقر طردت من العمل بسبب الإدمان.. لكنها بالتأكيد ليست عاهرة.. فجسمها الذي جسه بيده في الحمام كان متناسقًا بضًّا مثيرًا، كانت تستطيع لو - أرادت - أن تستخدمه كوسيلةٍ للكسبِ.. وهذا يرجح أنها امرأة تفتقد إلى الحب والحنان.. امرأة أقحلتها الوحشة ودفعتها نحو الإدمان.. هو الآخر لولا المخاض العراقي الذي اضطره إلى الالتحاق بثوار الجبل، وعلاقة الحب التي ربطته بزوجته لكان مثلها..

كانت تسرع في السرد وقت الغضب.. وتبطئ وقت هدوء القسمات، فيتحول إيقاع الكلمات وكأنها تلقي قصيدة حب رقيقة.. وكان «إبراهيم» يندمج رويدًا.. رويدًا بعالمها حتى أنه عندما شرعت بالصراخ والبكاء، انفجر هو الآخر باكيًا معها وذلك جعلها تغادر الأريكة لتجلس على السجادة المغبرة جوار قدميه.. وتمسك بكفه وتنهال قبلًا عليها. تبللت كفاه بفيض

دمعها الساخن.. أعول مثل طفلٍ فأجهشت بصخب. اعتنقته.. فخفف ذلك من عويلها.. تخافت مثل صوت يضعف.. ويضعف ليتلاشى في الصمت. وعندما سكنت وجدها غافية في حضنه، بعد أن هبط هو الآخر إلى السجادة المغبرة الخانقة.

- تمامًا كما كتب «ديستويفسكي» قبل أكثر من قرن.. تمامًا!

قال لنفسه هكذا لابسًا ثوب القس أليوشا في «الإخوة كرامازوف». سحب جسده من تحتها. وضع ذراعه في وضع الوسادة. تناول الوسادة ودسها تحت ذراعه. هبط برأسها إلى سطحها.. أعدَّ الفراش على السجادة.. وحملها ليضعها عليه. وقام ليجلس على الأريكة.. صب كأسًا عبّها في رشفة واحدة منتشيًا ، وهو ينظر بصفاء روحي افتقده منذ الطفولة نحو هذي المخلوقة المشردة ، الغافية بسلام تحت ناظريه.. منتشيًا من الناصية التي اعتقد أنه قد وصل إليها.. إذ كانت أثناء تقبيلها كفيه تردد:

- يسوس.. يسوس!.

فتخيل نفسه «عيسى» العازف عن شهوات الدنيا.. مذلول شريف من شخصيات«ديستويفسكي»:

- أنا في باطن رواية من رواياته.. وفي موسكو حقا!.

أطربه الوضع، فهذه المرأة التي عثر عليها وحمها، واستمع إليها عدته قديسًا في ساعات وبكت في حضنه وغفت مثل طفلٍ في حضن محب..

أليس ذلك عجيبًا.. فهو في حقيقة الأمر لا يختلف عنها قيد أنملة إلا في طبيعة الظروف المختلفة.. هو بائس الطفولة.. ارتكب من الذنوب ما قد يفوق ذنوبها؛ لذا كان يحس أنه في باطن رواية لا في واقع حقيقي.. تذكر «أسعد» بشدة:

- أين صرت يا «أسعد».. لو كنت معي!.

قال مع نفسه في أول خروجٍ من قالب العائلة المحكم الطاغي:

- لولا سفرهم لما رأيت من يعتبرني المسيح!.

صب المزيد من الكؤوس.. ليطير في نشوة الخمرة والخيال إلى أبعد نقطة.. إلى الطفولة.. إلى خيوط الفجر التي تسللت من النافذة.. إلى غناء العصافير القادم من الغابة المجاورة.. ترنح عند قيامه. جهد حتى استطاع الاستلقاء جنبها.. وغفا غفوة طفلٍ وديع.. أيقظته شدة انتصابه.. نظر إلى ساعة الحائط القديمة كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحًا.. لا يزال في حومة الخمرة وخيالاتها.. تلمس الجسد اللصيق.. كان شبه عارٍ، وثوب المنام الشفاف منحسر حتى أعلى البطن. كان في وضع مختلط فيه كل شيء.. ورائحة ثوب النوم أليفة تتغلغل في حواسه قادمة من نسيجه.. أشعلت شهوته ، وفاقم من تصلب رمحه المشدود، لصقه الجسد الأنثوي ملمومًا بوضع الجنين.. الردفان الضخمان الناعمان الملتصقان بحضنه يؤججان نيرانه العميقة، وهو المحشود بإرث حرمانٍ مخيلةٍ لا ضابط لها ولا حدود .. الرائحة نفسها.. رائحة الزوجة القادمة من ثيابها الحميمة.. لكن اللحم غير اللحم.. هذا أبيض بض شديد السطوع.. التحم بها..

عندما تململت قبَّلها .. كان محتدمًا بغزيرة ثور بري .. استيقظت مباعدة أجفانها ورمقته بنظرة استغراب.. فتح فخذيها الملتصقتين بعنف .. متدفقًا لاهثًا .. محتدمًا .. منصهرًا في فوران شهوة عمياء .. ناسيًا تجلي البارحة.. في اللحظة التي أولج فيها حاولت المقاومة بحركة خفيفة من الفخذين المفتوحتين بقوة جسده .. بصمت حاولت دفعه، ولكنها استسلمت وظلت تحدق نحوه بحياد ، وهو يخترقها عميقًا بعنفوان.. سوف تظل نظراتها الشديدة الحياد المستسلمة.. الشاخصة نحو كتلته الراهزة بشدة تعذبه، حينما يصل إلى الذروة وحيدًا.

لن يكرر العملية ثانية، وهي تتردد طارقة بابه كل مساء بعد أن تغيب طوال النهار، وتأتي جائعة تشكو البرد والبشر.. هكذا ثرثرتها بالروسية فهي لا تكف عن الكلام منذ لحظة دخولها.. كان يقدم لها الطعام والمأوى.. ويستمع إلى سردها الذي ينتهي بالغناء الحزين بصوتها الجميل.. كان ينفعل مع إيقاعه، وكأنه ينصت لغناء داخل «حسن» و«حضيري أبو عزيز».. كانت تغني إلى حد الإنهاك.. تتكوم على الفراش.. وتظل تغني بصوت يتخافت ويتخافت إلى أن تسقط في الغفوة، فيقوم ليغطيها.. أدرك بمرور الوقت أن الخمرة دينها.. لا علاقة لها بجسدها وشهوته.. ظل يداري شعور الذنب من مضاجعة ذاك اليوم الشبيهة بالاغتصاب في الحنو على وضعها.. هو الآخر كان يرى نفسه داخل رواية من روايات الكتاب الروس العظام.

ما استله من باطن أخيلة قراءات صباه المتجسدة في موسكو وألقاه على أرض الواقع شعوره بالعار منها، ففي مساء بارد قُرِعَتْ الباب في وقتٍ مبكر.. استغرب لذلك.. وتساءل عمن يكون الطارق في مثل هذا الوقت.. فتح الباب

فدخلت متوترة.. قدر أنها لم تحصل هذا اليوم على ما يكفيها من البيرة والخمرة.. مثلها مثله في تلك الأحوال.. كان قد أفرغ أخر كأسٍ قبل لحظات ، فلم تجد شيئًا.. أوشكت على الانهيار. كان في اليوم نفسه قد تسلّم راتبه كلاجئ مؤقت.. مسح على رأسها وقال لها بالعربية:

- لا تحزني هيا سنشتري الفودكا!.

فهمت كلامه فورًا، فأسرعت بارتداء معطفها الأسود السميك الرث، والذي نزعته وقذفت به إلى أقصى الغرفة حال دخولها. في الطريق نحو محل بيع الخمور القريب، عشّقتْ ذراعها بذراعه المخبأة كفها بجيب معطفه في وضع، يبدو للرائي وكأن ثمة علاقة حميمة بينهما.. كانت جذلة شديدة الفرح.. وهي تصرخ بالصف الطويل الواقف في انتظار الحصول على قنينة فودكا.. كان لا يفهم من الحوار المحتدم بينها وبين أولئك الروس المساكين الساعين للحصول على ما يخفف من عذابهم.. لكنه أحس بالعار من عيون الروس الساخرة والشاخصة نحوهما من وجوه متعبة، تقف في الصف الطويل وبمختلف الأعمار تنتظر..

شعور مباغت هدم مخيلة الصبا والروايات.. وفي لحظة احتدامها في المشادة مع أحد الواقفين في الصف انسل ما أن أفلتت ذراعه منها، توارى خلف الزحمة. ومن بين الأجساد الضاجة، لمحها تتلفت باحثة عنه.. تسلل إلى العجوز الروسية، التي تبيع الفودكا سرًّا بسعر عالٍ.. ابتاع عدة قناني.. وعاد إلى الشقة. في اللحظة التي صب فيها كأسًا سمع قرعًا شديدًا على الباب.. لبث بجلسته جامدًا، يحاول التخلص من شعوره بالعار من خيانته للمتشردة المسكينة، التي كانت في أقصى

لحظات نشوتها، وهي تتباهى به أمام صف أبناء جلدتها المنتظرين الساخرين منها.. يبدو أنها بنت الحارة والكل يعرف قصتها.

كان يحاول التخلص من عار هروبه منها، فيما القرع يشتد.. وسكونه يشتدّ.. كان غير قادر على الكلام والفعل.. عاجزًا.. تافهًا إزاء شخوص طالما بكى من أجلهم في الروايات.. لكنه هرب منهم دون فهم.. هرب بكل جبنٍ، تاركًا المتشردة وحيدة بمواجهة البرد والروس القساة الساخرين من تباهيها به.. كان يشعر بأنفاسها اللاهثة تخرق خشب الباب السميك.. وهي تنادي باسمه متوسلةً كي يفتح لها.. لكنه نسى كل ما خرف به «ديستويفسكي» في روايته.. كل ما خرفت فيه أخيلته من أوهام.. أصم سمعه حتى تلاشى الطرق.. وهدأ الضجيج..

أفرزته خيالات السكر ثانية إلى أمكنة الرواية وموسكو.. فكر بوضعها البشري.. بسخافة إحساسه بالعار منها.. فهي كائنة مسكينة لا يختلف وضعها عنه إلا في اختلاف التجربة.. لا بل هي أكثر بؤسًا وأمرَّ تجربة منه، فهو عاش مقاومًا من أجل بناء المدينة الفاضلة.. بينما هي عاشت في ظلها واكتشفت أنها قبض ريح.. هي بهذا المعنى أنبل عذابًا منه.. فرغم كونه مشردًا يستطيع أن يشتري ما طاب له من الخمرة والطعام أفضل من عامة الروس..

لعدة أيام متتالية، كان يظل طوال فترة القرع جالسًا يعب من كؤوس الفودكا.. لكن عندما يتوقف ويسود السكون.. وتباشير الفجر تلوح خلف

النافذة.. يقوم مترنحًا.. يفتح الباب بحذر.. فيراها مثلما وجدها أول مرة مستلقية على السلالم الصاعدة نحو السقف.. ملفوفة بمعطفها الأسود الطويل.. فيعود إلى الأريكة وينام..

في فجر داكن أحس بالحنق من نفسه، من ترفعه اللا إنساني على المشردة المسكينة.. فهرع نحو الباب وجدها موضع رقدتها نفسه. اقترب منها، وربت على خدها كما فعل أول مرة.. ومثل أول مرة انقادت معه إلى فراشها المنزوي بطرف الغرفة.. وغفت بعمق ما أن ألقت جسدها عليه.. لم يطل الأمر، فسرعان ما قرر عدم فتح الباب لها مهما كلف الأمر، حينما قرعت الباب كعادتها في المساء، كان إبراهيم وقتها خلف النافذة يحدق بالثلج المتساقط بحفيف خفيف.. حمل جسده بتثاقل صوب الباب.. دور المفتاح، وسحبها نحوه. وجدها تقف مبتسمة وخلفها أربعة أشخاص، لم يتبين ملامحهم إلا حينما دخلوا بصخب وأخذوه بالأحضان. ثلاثة رجال وامرأة يغطون برائحة نتنة، لحاهم كثة وملابسهم شديدة القذارة.. احتلوا الأريكة، وأخرجوا من جيوب معاطفهم الداخلية قناني من النبيذ الرخيص.

انفردت المتشردة معه في المطبخ، وفهم منها أن هؤلاء أصدقاء حميمون حدثتهم عنه فأصروا على رؤيته.. هكذا فسر كلامها، بعد أن بدأ يفهم عديدًا من المفردات الروسية.. قبلته على جبينه وكأنه قديس.. جلس وسطهم ينصت إلى حوارهم وصخبهم.. أرادوا خمرة فأخرج لهم قنينة فودكا كاملة.. عانقوه بقوة.. قبلوه.. لم يحتسِ قطرة واحدة.. ظل يراقب بحذر هذي الكائنات الغريبة، وهي تتشاجر.. تضحك.. تصطخب.. تغني.. تبكي.. نسوه تمامًا في صمته وسطهم.. راحوا يتصرفون وكأنهم في بيتهم.

قامت المرأتان وجلبتا شطائر خبز وبيضًا مسلوقًا.. وما توافر في براد المطبخ من فاكهة وخضرة وقناني بيرة.. نَسوُه في غمرة السكر الذي عصف بهم وجعلهم ينطلقون بغناء بدا حزينًا. بكت المرأتان..واحتدت ملامح الرجال غاضبة.. وقاموا يرقصون ذلك الرقص الثقيل حيث يضخون أرواحهم في بطء حركاتهم المتناسقة. تعرقوا فنضوا قمصانهم الثقيلة.. اللعنة على «ديستويفسكي» كيف غار في أعماق هؤلاء.. قال لنفسه وهو منزوٍ على طرف الأريكة مذهولًا بهم.. بمرح لحظتهم وحزنها.. جوٌّ آسر مغرٍ يجذب أمثال «إبراهيم» جذبًا.. كاد ينفلت بضحك عاصف حينما جلسوا بعد جولة رقص، فلاحظ وشم أذرعهم المليئة.. كان الرجال الثلاثة واشمين سواعدهم شعار المنجل والمطرقة المتقاطعين..

- إذن هم من الرفاق القدامى .

همس لنفسه ساخرًا.. في آخر المطاف تشاجروا بعنف.. ضربوا المرأتين بقسوة. ظل «إبراهيم» جالسًا على الأريكة مذهولًا من تدفق العنف هكذا بغتة بعد طرب ورقص.. كانتا مستسلمتين لأكفهم الخشنة.. فأدرك وقتها لم كانت تأتي في بعض الليالي مزرقة العينين متورمة الوجنتين.. ما كانت تسرده عند عودتها وهي تبكي بدا واضحًا الآن..

كان أحدهم أكثر وشمًا وشراسة ينهال صفعًا وركلًا على بطن المتشردة التي ألفها.. لم يكف رغم خمود حركتها حيث لم تقو بعد دورة الضرب على رفع ذراعيها كي تحمى جسدها.. قفز من مكانه ووقف حاجزًا بينه وبينها. ولم يحس إلا بالقبضات تنهال عليه من الرجال الثلاثة والمرأة التي

قدمت معهم.. لم يبادلهم الضرب بضرب.. تكور ليحمي جسده جوار جسدها الخائر.. في الصباح وجدهم متناثرين، يتوسدون أرض الغرفة غارقين في النوم مثل موتى.. تحسس جسده الوارم، وقام إلى المطبخ.. أشعل سيجارة وجعل يرمق الثلج، الذي لم يزل يتساقط منذُ مساء البارحة:

- كيف المخرج من هذه الورطة؟!.

صرخ بصوت جعلهم يستيقظون.. أقبلوا عليه وكأن ما حدث البارحة لم يكن.. قبلوه على الوجنتين.. والذي ضربه حد الإغماء تهالك على ركبتيه وأخذ كفيه وراح يقبلهما باكيًا هاذيًا بكلمات اعتذار روسية يفهم طرفًا منها.. أما المتشردة التي آواها لمحها تنسل خارج الشقة خجلةً.. عندما خرجوا أيقن أن معرفة مثل هؤلاء البشر في الكتب هي أيسر وأسهل من معرفتهم في الواقع.. لكن كيف السبيل إلى الخلاص من المأزق.. حال خروجهم أتصل بـ«أسعد» وسرد باختصار ورطته، قال له:

- يا ول كم يوم وجايك!. لا تخليهم يدخلون للشقة مرة ثانية!.

جهز «إبراهيم» ما يحتاجه لمدة أسبوع من الأكل والشرب. وحبس نفسه معرضًا عن القرع الشديد أول المساء وآخر الليل وفي الصباح.. تجاهل صراخ المتشردة التي سرعان ما تنخرط في نحيب مؤلمٍ، يقاوم بشدة كي يستطيع تجاهله. كلت يدها.. وقسا قلبه.. بعد أسبوع كف القرع.. بعد

الأسبوع بيومين سمع صوت التكريتي الأجش «أسعد» يصيح من الـشارع باسمه، وينادي:

- جيناك.. جيناك!.

فقفز إلى النافذة المطلة على الحديقة الوسطية؛ ليـشاهد «أسـعد» بـصحبة «شيركو» الشاعر الشاب الكردي!.

الشاعر

- «إبراهيم».. «إبراهيم سلامي»!.

ورمى «شيركو» قامته القصيرة نحو «إبراهيم» حال فتحه باب الشقة. اعتنقه ولبث يشده إلى صدره الصغير لاهثًا، بينما وقف «أسعد» جوارهما عند العتبة يضحك بفرح معلقًا:

- دورت عليه.. كل موسكو.. أدري بس هوه يرهم وياك!.

كان البدوي يشخّص بدقة حاجته في وضعه الملتبس الذي كان غافيًا في مؤسسة الزوجية المصحوب بحلمٍ متأخر بمدينة فاضلة.. بالضبط كان يحتاج إلى هذا الـ «شيركو»، الذي أمعن في عناقه وانغمر في تقبيله بأي ناحية تصلها شفتاه.. كان يردد بصوت عالٍ:

- تعبان.. تعبان حبيبي.. سامحني، أخذني الشرب والنساء منك.. سامحني!.

كان كلام «شيركو» يشعل قهقهة «أسعد» المنتشي بصواب فعله.. بينما «إبراهيم» مشغول بخفقان قلب «شيركو» الصغير بدقاته المصطخبة، وهي

تخترق جسده عبر الجسد اللصيق.. تأرجح على حافة البكاء حاملًا «شيركو» القصير الناحل حتى الغرفة، كأنه يحمل ولده الصغير.. وضعه على الأريكة وبكى.. فاجهش «شيركو» هاذيًا:

- سامحني.. حبيبي.. سامحني!

انتحبا وتعانقا من جديد.. مما جعل عيني «أسعد» المبتهجتين تنضحان بغلالة دمع لم يصل حد الأجفان.. البدوي قاوم بعناء كي لا يبكي شاعرًا تلك اللحظة بثقل وجوده.. كان يعرف أن ثمة علاقة قوية بين «إبراهيم» و«شيركو»، ولكنه لم يكن يدرك أن العلاقة بالغة هذا الحد.. فاضطر إلى مغادرة الشقة بينما كانا يهبطان رويدًا.. رويدًا عميقًا في فسحة الصداقة وتفاصيلها الصغيرة..

غادر «شيركو» الأريكة.. دار بأرجاء الغرفة مقتربًا من النوافذ، الشرفة، المكتبة، يلمس الخشب بطرف سبابته ، ويحدق بالتراب المتراكم طبقات، يشخص صوبه بعينين غاضبتين.. ينحني نحو الوسائد يضربها براحة كفه بقوة فتهب بوجهه غمامة غبار.. يبعد وجهه ضامًّا فتحتي أنفه بالسبابة والإبهام، صارخًا:

- شنو هذا الغبار.. راح يدفنك!.

وخطا نحوه ليحنى قامته القصيرة، ويضع أذنه اليمنى قرب وجهه، وينصت لتنفس «إبراهيم» العسير:

- شوف أش لون تتنفس !.

- بس تشرب كل اليوم.. إني أعرفك.. والله راح تموت.. يا حبيبي!.

نزع معطفه وشمر عن ساعديه. وجلب من المطبخ أدوات التنظيف، وقال:

- «إبراهيم» حبيبي.. تنفسك تعبان. قوم أطلع للغابة.. خذ هواء نقي.. ومن ترجع تلقيني منظف الشقة من التراب!.

لم يشأ «إبراهيم» الخروج وتركه وحيدًا، لكن «شيركو» أصرّ.. جلب المعطف وساعده على ارتدائه.. سحبه من ذراعه نحو الباب. فتحه وقال له:

- ضِعْ في الغابة ساعة.. لا تفكر بأي شيء!.

استدار وخطا نحو بئر السلم المعتم رغم انتصاف النهار، فالسماء ملبدة بغيوم الثلج.. هبط السلالم و«شيركو» الواقف على عتبة الباب يوصيه:

- حبيبي تنفس بعمق.. كل خطوة بنفس عميق!

وأغلق الباب.. وجد «إبراهيم» نفسه وسط الغابة الكثيفة المكتظة بأشجار السرو والبلوط الشاهقة يعب أنفاسًا عميقة من هواء شديد النقاء ودرجة الحرارة تحت الصفر بكثير، ملتزمًا بوصية «شيركو» الذي يصغره بأكثر من خمسة عشر عامًا.. «شيركو».. ردد اسمه بصوت عالٍ فانتشر بأرجاء الغابة.. «شيركو».. «شيركو».. وكأنه يراه أول مرة.. كان ذلك في زمن يبدو الآن بعيدًا مثل أزمان الطفولة، رغم أن الأمر لم يمض عليه سوى أربع سنوات.. كان عمره لا يتجاوز الثامنة عشرة، حينما وقعتْ عينا «إبراهيم» عليه جوار غرفة الضيافة المنعزلة عن مقر في «زيوة» الواقع خلف العمادية على ضفاف الزاب الأعلى.. انجذب نحوه مدفوعًا بقوة غامضة.. كان لا يفارق شابًا فتيًا أخر، جميل الملامح، فارع القامة، حيويًّا، سيعلم لاحقًا أن اسمه «دارا» وهو كردي أيضًا شأنه شأن «شيركو».. سيعرف أنهما التحقا بعد انكشاف شبكة تنظيم داخل مدينة كركوك بوشاية مندس..

هو الآخر انجذب نحو «إبراهيم»، وقابله ببسمة خجولة، عندما تجاذبا أطراف حديثٍ عن شؤون الجبل والحياة.. ستتعمق العلاقة.. سيزداد تعلق «إبراهيم» بالفتى الكردي اليافع.. الذي يخفي خلف خجله روحًا متمردةً تحتاج بيئة فقط كي تتجلى.. كان لا يخفي ما يشعر به.. ولا يداري أحدًا.. شديد العري مع نفسه والآخرين.. لمس «إبراهيم» ذلك حينما مرت بالصدفة ذكرى ميلاد الحزب الشيوعي العراقي في 31 آذار، وقت تواجد «شيركو» بالمقر ..

في الحفل الذي يقام عادة اكتشف «إبراهيم» لأول مرة أن هذا الصبي يكتب الشعر باللغة الكردية، حينما أعلن عريف الحفل عن فقرة ، يلقي فيها قصيدة.. أنشدت كل حواسه، يعيش مشهد ذلك اليوم البعيد بوضوح وسط الغابة.. مستعيدًا دفق الإحساس الأول بالآخر وهو يغور في القلب.. تابعه وهو يظهر من بين حشد المسلحين المالئين ساحة كرة القدم الصغيرة، الممتدة بين أبنية القاعدة المنتشرة على حافة السفح.. أمسك بالميكروفون وحدق بجرأة نحو الوجوه المبتهجة بالمناسبة المقدسة لديهم.. حدق صامتا إلى الحد الذي ساد الهدوء وتلاشى اللغط، منتظرا ما يقوله هذا الفتى الغريب وقتها، والذي لم يمر على وصوله - هاربًا من بغداد، وحلوله في غرفة ضيافة المقر - سوى أسابيع.. كان الجو صحوًا والسماء صافية الزرقة ؛ وذلك ما جعلهم يقولون إن السماء تحتفل معنا.. في المزاج ذاك نطق «شيركو» ، قبل أن يلقي القصيدة قائلا بعربية، تشوبها لكنة:

- أنتم فرحون لكنني حزين.. لا أرى سوى الموت والخراب في بلدي.. حرب.. وموت في السجون.. وقتال في كردستان.. كل شي به موت..

أعتذر عن تشاؤم نظرتي.. وأعتذر عن القصيدة ، التي سألقيها كونها قصيدة حزينة!

وانغمر في الإنشاد منفعلًا يصعد مع الحرف ويهبط معه في معادلة متسقة.. كان «إبراهيم» يحسها.. لكنه كان يريد متابعة تأثيرها على وجوه الرفاق الأكراد العارفين ما ينشد.. فكان ينقّل نظراته بين وجه الشاعر ووجوه المقاتلين الأكراد، الذين كانوا يندمجون في الإنشاد حتى أن بعض الوجوه كانت تتأرجح على حافة البكاء.. عقب الأمسية ، الكل سخروا منه، ولكن بنغمة إعجاب مضمرة كونه شبه مجنون.. كان يقابل ذلك ببسمة صامتة خجولة.. فقط أفضى بما كان يشغل كيانه.. فاكتشف به وعيًا متقدمًا عن هذا الحشد المعبأ بالأيديولوجيا ووهم عالمها.. وكان عنيدًا.. سيفجع لاحقًا بموت صديقه الحميم «دارا» في عملية عسكرية، قام بها ثوار الجبل.. سيظل يحلف عندما يُحاصَر بشك الآخرين صارخًا:

– وروح الشهيد دارا.. ما تصدق.. وروح دارا!.

سيظل يحلف بتلك الروح التي عاشرها وقت المحن.. سيظل وفيًا حتى وهو يغور في عوالم أخرى ، أعمق من فكرة النضال والقتال من أجل مدينة فاضلة.. صرخ «إبراهيم» وسط الغابة ، مكتشفًا في صفاء وحدته سرّ الانجذاب لروح «شيركو» ، واجدًا فيه طيف أخيه وابني عمتيه ،الذين ضاعوا في الأقبية إلى الأبد، إذ لم يُعثر على رفاتهم عقب سقوط «صدام». العناد .. العناد نفسه.. والروح.. الروح نفسها.. لكن «شيركو» أكسبته النجاة من الموت في المعتقل وعيًا مختلفًا.. مما قربه من «إبراهيم» بشدة.. زارهم مرارا في غرفتها المنزوية أسفل سفحٍ في «زيوة».. كان يجلس مضرج الوجنتين مبتسمًا صامتًا، وكان «إبراهيم» يحثه على الكلام دون جدوى..

سيختفي بغتةً عند نقله إلى قطاع آخر، ولكنه سيظل متشبثًا بـ «إبراهيم» وعبق تلك الأيام القصار التي قضاها قربهما في «زيوة».. سيتجلى عندما يلتقيان في موسكو، التي وجده فيها ، بعد أن هربوه عبر حدود إيران مع تركمستان في آخر أيام النظام السوفييتي.. زارهم ، وجلس بصمت خجلاً كما الزيارة الأولى في «زيوه».. وقتها كان كل شيء في روسيا يتهدم : البشر والقيم والدولة الحديدية.. أحس «إبراهيم» أنه بحاجة إلى الانفراد به؛ فدعاه إلى نزهة في غابة قريبة تشبه هذه الغابة ،التي يجول بين أشجارها هذه اللحظة..

في عمق الغابة شكا «شيركو» من الكل، من الفكر ودجل المدينة الفاضلة.. والضياع في مكان لا يعرف لغة بشره البائسين في الأسواق والمترو والشوارع:

- «إبراهيم» هي هذي الاشتراكية!.

ولطم على وجهه مردفًا:

- الروس يستجدون بالشوارع!.

- اهدأ.. اهدأ يا حبيبي.. ودعنا بعيدًا عن هذا الموضوع!

- كيف حبيبي.. كيف؟!

- نتحدث عن موضوع آخر!.

- كيف «سلامي».. إني بموسكو ضايع.. لا فلس.. لا إعانة.. ما أدري وين راح يصفه بيّ الزمن.. ما أعرف .. حتى الطريق لدول اللجوء انقطع!.

كان الطريق سالكًا نحو اسكندناڤيا بالنسبة للعراقيين؛ بحيث كانت الطائرات الروسية تستبدل ركابها العراقيين القادمين من سوريا ودول

الشرق الأوسط في مطار موسكو مباشرةً، وكأن العملية منظمة، لكن «إبراهيم» في لحظة وصوله إلى مطار موسكو قادمًا من دمشق تساءل مستغربًا من تلك الحشود البشرية الغافية في باحات المطار في انتظار السفر، فهمس له الرفيق المكلف باستقبالهم أنهم من اليهود الروس ينتظرون الهجرة إلى إسرائيل.. قالها بسذاجة وكأن الأمر بديهي.

- هنا يكمن السر إذن!.

لكن كل ذلك انقلب، حينما اشتعلت حرب الخليج الثانية لتعطل كل شيء، وتجعل «إبراهيم» ورفاقه يحاصرون في موسكو.

- اسمع «شيركو».. هذه الموضوعات لا فائدة من الكلام فيها!.

- الحل..

.. كان «إبراهيم» قد أعدَّ العدة. دس كفه في حقيبته السوداء. أخرج قنينة كونياك وقدحين من البلاستك.. أبدى «شيركو» خشيته من فقدان الوعي فهو لم يجرب الشرب أبدًا.. أقنعه بأن يتناول قدحًا واحدًا فقط. وبعده سيسمعه قصائده بالكردية، وبصوت عالٍ وسط الغابة.. لكن قبل القراءة يشرح له مضمون القصيدة بالعربية.. راقت الفكرة له فارتشف أول رشفة. كان «إبراهيم» يتمعن في قسماته التي تقلصت من الطعم الحاد للكونياك. سارع بلقم قطعة جبنٍ في فمه وكأنه «يعس طيره». بعد عشر خطوات على الممر الملتوي بين سيقان الأشجار الشاهقة، التفت إليه محدقًا بعينين تلمعان بنشوة أول قدح في العمر وانطلق ينشد القصائد. تاها في الغابة. وظل «شيركو» يشرب القدح تلو القدح، ويرتمي إلى صدر «إبراهيم» معانقًا شاكرًا:

- عالم جديد.. «سلامي».. هذا الشرب عالم جديد .. أحس راح أطير.. أشكرك حبيبي أشكرك!.

أفرغا قنينة الكونياك. وخلف دغلٍ كثيف أغفيا حتى المساء. ومنذ تلك النزهة.. عاد لا يستطيع «شيركو» التوازن والكلام دون الشرب.. وما جعله ينفلت تمامًا قراءته المتمعنة لروايات «ديستويفسكي» التي استعارها منه. صار صريحًا إلى حد الفظاظة. سكنته أرواح «ديستويفسكي» بتلك الطريقة المبدعة الحاملة سمات تجربته. أصبح يحاور بطريقة شكاكة ساخرة من الإنسان اللابس أقنعة القيم والعادات ، المبطن غير ما يظهر. ففي مرة دخل في حوار مع رفيقٍ له بحضور «إبراهيم».. الرفيق ذاك مؤدلج بشدة، عامل مطبعة، مقاتل من الطراز الأول في كردستان، اقتحم عشرات الربايا، الحزب لديه يقترب من مفهوم العشيرة، شديد الطيبة، سخي، من أهالي بغداد، ورياضي سابق، لاعب كرة قدم درجة أولى في الدوري الممتاز، قبل التحاقه بالثوار في الجبل.. كان يتهجم على الروس الذين نزلوا إلى الشوارع قبل أيام ، بعد فشل انقلاب الجيش على «جورباتشوف».. وقتها كان «إبراهيم» و«حازم» العامل و«شيركو» يقفون في ساحة بريجنيسكي، فشاهدوا حشود الشباب الروس يهجمون بصخب وعنف ، محتلين الساحة ومحطمين نصب بريجينسكي البولندي الأصل ، مؤسس المخابرات الروسية أول أيام ثورة أكتوبر1917. حتى أن «شيركو» أصابته بهجة الهياج والتمرد، فركض مع الحشود ليلتقط قطعة صلبة من التمثال المحطم، ويعود مبتهجًا بالغنيمة، غير آبهٍ بشتائم «حازم» المنصبة على الروس الجهلة.

قرب كشكٍ لبيع البيرة، وقف الثلاثة يحتسون ويناقشون المشهد.. «إبراهيم» انسحب مستمتعًا بما آل إليه مسار النقاش.. «شيركو» يدافع بشدة عن الشباب الذين احتلوا الشوارع، و«حازم» يعتبرهم جهلة مغررين بدعاية الغرب وأمريكا؛ لإفشال أول تجربة اشتراكية حقيقية في تاريخ البشرية. ما أن ختم «حازم» آخر كلمة من «الكليشيه» المكررة في ذلك الوقت حتى انخرط الشاعر في الضحك وتهالك على عشب الحديقة.. كاد يختنق من قسمات «حازم» المذهولة، والذي التفت نحو «إبراهيم» قائلًا:

- شنو اليضحك صاحبك؟!

«إبراهيم» كان يدرك أن الضحك سخرية فاضحة من قوله، وصاحبه العامل تعرف على «شيركو» في موسكو عن طريقه.

- ...

لزم الصمت باسمًا، ينتظر خروج «شيركو» من نوبة الضحك العاصف. ومن ذيل الضحكة نهض مشيرًا نحو «حازم» قائلًا:

- يا مجنون وين المؤامرة.. الناس هنا مختنقة ما شفتها.. مختنقة.. يا اشتراكية يا شيوعية.. أي ما شفت الناس تستجدي بالشوارع.. كنا بوهم عجيب.. كيف صدقنا فكرة تساوي الناس بالقوة.. فكرة سخيفة.. كيف يتساوى الذكي ويه الغبي؟!.. بعدين النظرية الماركسية ما إلها أي علاقة بالطبقة العاملة.. شو بزمن ماركس كان العامل يشتغل 12 ساعة.. متى ينام.. متى يأكل.. متى يشوف أطفاله إذا كان متزوج.. يعني كان أغبى الكائنات وقتها.. ماركس كان أكبر كسول وسكير وحالم.. بس يقره ويفكر ويتخيل.. وكتب نظريته!

كان «إبراهيم» ينقل نظراته بين وجه «حازم» المنزعج وقسمات «شيركو» الواثقة من قولها، وهو يجمع بأصابعه نماذج مختلفة من البشر، ويضعها على راحة كفه الأخرى قائلًا:

- تعال جيب أنواع مختلفة من البشر.. أحبسهم بوطن ولازم يعيشون بالطريقة نفسها ، وينطبعون بالمزاج نفسه ، ويفكرون بالطريقة نفسها.. خرط.. هذا خرط مو فكر..

صرخ «حازم» عاجزًا عن الرد:

- «إبراهيم» أنت منين لگيت هذا الكردي المخبل؟!.

- لا تدخلني بالحوار!.

رد «إبراهيم» بخبث! مما جعل «حازم» يكيل اللوم إلى «شيركو» الساخر القسمات.. ذكّره بأيام نضاله في الداخل قبل التحاقه، بأصدقائه الشهداء.. بـ «دارا» الذي يحلف بروحه كلما أراد توكيد شيء.. بعناء أيامه في الجبل.. خطاب شديد العاطفة، يجعل المرء يوشك على البكاء أو الاشتعال حماسًا؛ مما أثار شجن«إبراهيم» للحظات، وهو يستعيد أصدقاءه الذين قضوا في الأقبية والرفاق الذين قضوا تحت ناظريه في الجبل.. لكن الكردي الصغير.. رمق بعينين لا أثر للعاطفة فيهما قبل أن يعلق تعليقًا شديد الذكاء والخباثة:

- أنت مثل العرب!

وصمتَ لثوانٍ.. اشتد حياد «إبراهيم» فسكن يحدق بهما بعينين لا تشيان بأي انفعال.. راوح «حازم» في وقفته، قبل أن يسأل:

- ماذا تقصد؟!.

- تتغنه بالماضي التليد!

- ما فهمت!

علق «حازم».. وجرع رشفة من الزجاجة الكبيرة التي يملأونها بالبيرة، كلما نفدت من الكشك القريب حيث يتكفل «إبراهيم» كالعادة بضرب الصف الطويل بكل جرأة.

- من ينكر أيام النضال.. أحنه نجينا من الموت صدفة.. صح.. لو..لا.. فلا تحكي عن النضال والكفاح.. والشهداء..

صمت مادًّا يده نحو الزجاجة؛ ليرتشف مزيدًا من البيرة الباردة قبل أن يردف:

- لاحظ .. عمارات موسكو السكنية تعرف ما هي الاشتراكية.. بنايات متشابهة بحيث مرات واحد يضيّع بيته.. التصميم نفسه.. الأبواب نفسها.. النوافذ نفسها.. الارتفاع نفسه.. شكل الحدائق نفسه بين بناية وأخرى.. أما الروس المساكين فتراهم متجهمين ووجوههم مهمومة.. وكأنهم ما شافوا فرح بحياتهم!

صمت هنيهة، ثم سارع في القول قبل أن يفتح «حازم» فمه:

- أنا أحكي عما أراه في مدينتنا الفاضلة موسكو لا عن نضالي ونضالك فالمعنى مختلف.. شوية حرك رأسك!.

احتدم «حازم» غضبًا، فجعل يحوص في وقفته قلقًا، غير قادرٍ على الحوار، ثم التفت نحو «إبراهيم» ساخطًا ليكرر:

- «إبراهيم».. أنت منين جايبلي هذا المخبل!

كان «إبراهيم» يدرك أن «شيركو» يتصرف بما يشير له قلبه.. وليس فيما يفعله سرًّا في الظلام.. كان تحت الشمس عاريًا يُرى ويَرى بوضوح، بالعكس من «حازم» تمامًا ، الذي سيسكن فترة معه في الشقة نفسها، ويتركه كل الأيام يعاني وحيدًا، مدعيًا أن لديه عشيقة روسية.. لكن «إبراهيم» كان يعرف أن لا عشيقة روسية لديه، بل علاقة مع شيوعية عراقية ، كانت تعيش في روسيا ، تزوجت من رجل شيوعي من شرق آسيا، تركها في رومانيا مع طفلتها وعاد إلى بلده؛ إذ التقى بها معه أول مرة في المستشفى الروسي، الذي كان يجري فيه فحص العراقيين المقبولين كلاجئين. ما أزعج «إبراهيم» هو الدور، الذي مثله «حازم» أمامه «صورة العراقي الشيوعي الشريف».. سيكتشف لاحقًا أن كل ما نطق به مجرد أكاذيب، فقد كان يبيت مع العراقية القادمة أم الطفلة .. وسيتركها بعد قضاء وطره منها.. ستأتي إليه تتوسطه كي لا يتركها، وسوف يتشاجر معها قبيل سفره.

وسط ضجيج الحديقة الكبيرة المليئة بالسكارى والمتشردين جوار كشك البيرة؛ حيث يمتد صف الروس إلى مسافة كيلومترات.. كان «إبراهيم» يشمت مغتبطًا من جرّاء الوضع البائس الذي وضع فيه «شيركو» «حازم».. كان يرى في شخصيهما معادلة شديدة التجريد.. الكذب بمواجهة الصدق. أدرك من تلك اللحظة قوة الصدق وعدم الخوف، وقدرة المناضل الصوفي في مواجهة الموت في الأسر.. قال لنفسه:

- الصادق أسعد الناس!

- لماذا تسكت؟.. وهذا صاحبك راح يخبلني!.

انتبه إلى «حازم» المضطرب المستنجد من «شيركو» المحدق بتشفٍ نحوه. لا يدري الرفيق العامل أن «إبراهيم» كان، في تلك اللحظة، يحاول بعناء التوحد بروح «شيركو» الفتية؛ كي يصل ناصية البوح لينطلق في خضم موسكو والفودكا، والتحرر من قيد العائلة ووهم الحب والأيديولوجيا..

- شو دخلي!

تنصل «إبراهيم» بخبث أيضًا، فرد «حازم»:

- أنت أش تفرق عنه مثله أديب.. فنان.. مخبل!. ما تحسون بالطبقة العاملة!.

أطلق «إبراهيم» ضحكة مجلجلة في عمق الغابة المتشحة بثوبٍ أبيض ناصع يشبه قلب «شيركو».. وانتبه إلى نفسه فوجدها غارت بعيدًا بين الأشجار الشاهقة الصامتة، التي يتساقط من أغصانها العالية بين الفينة والفينة رذاذ من الثلج، يعانق الممر بحفيف خفيف:

- هذا الصبي يجلب المسرة إلى قلبي!.

صرخ بصوت عالٍ، وكأنه على خشبة مسرح.. واستدار عائدًا.. تابع أثر خطواته بقدميه الهرقليتين المطبوعتين على المسلك الضيق الممتد حتى التلاشي بين تشابك السيقان التي تبدو للناظر، وكأنها تتضافر في مدّ النظر.. كان يشعر بنشوة خالصة.. نشوة فريدة.. سيظل يفتقدها طوال العمر..

نشوة تفوق حتى ممارسة الجنس مع الحبيبة.. نشوة الشعور بالدفء قرب صديق:

- هاهو يهبط عليَّ من السماء مثل وحيٍ.. وأنا أكاد أندثر تحت الغبار وأغرق في الكأس.. وحيدًا.. غريبا!.

كان «إبراهيم» قد ضيّعهُ في موسكو بعد عدة لقاءات، ضاعا فيها في هذه الغابة مع الكأس والشعر والبوح والصراخ والضحك والبهجة، التي لم يدركا إلى هذي اللحظة سرها.. لكنه ضاع بغتةً، وعاد يسمع أخباره من البيشمركة الذين يلتقي بهم صدفة في مبنى الأمم المتحدة، وقت المقابلات لقبولهم كلاجئين أو في الشارع.. كان المقاتلون القدماء يكيلون اللوم له، وهم يرونه يعاقر الخمرة ليل نهار، مندمجًا في طقس السكيرين الروس.. يعاتبونه ويذكرون سوية وضعه قبل الوصول إلى موسكو.. فكان بصراحته الديستوفيسكية يقول لهم:

- لا تلوموني.. «إبراهيم» هو من دلني على هذا السائل السحري.. الذي لا أستطيع أبدًا تركه..

أسرّ له ، باسمًا ، أحد المقاتلين مضيفًا:

- ماذا فعلت يا «إبراهيم» بالشاب المسكين.. لقد جنَّ! لا أدري من أين يجيب الكلمات العجيبة.. يرد على لومنا قائلًا:

«كلكم باطل والخمرة وحدها الحقيقة!.

وحدها تدل الإنسان على ذاته!

وحده «إبراهيم» حبيبي يعرف ما بنفسي!.. وحده»

ليختم الكلام ضاحكًا:

- خبلته يا رفيق خبلته!.

رغم انشغاله بالعائلة والمصير المجهول ، كان يفرد حيزًا من تفكيره للشاعر، الذي غاب في موسكو المحتدمة، وعندما وجده صدفة في مخزن من مخازن موسكو الكبيرة. كان يهم بالدخول لحظة رؤيته لـ«شيركو» السكران وامرأة روسية ضخمة تسد باب الخروج، تفتش حقيبة كل خارج من المخازن، في ظاهرة لم ير مثيلًا لها في العالم كله. أمعن في عناقه وسط دهشة الروس الباحثين عن الخبز واللحم وقتها.. حضنه ونشج هاذيًا:

- سامحني.. حبيبي «سلامي».. سامحني.. دمرني ...!! .. ما أعرف طعمه.. تدري سلامي.. مو بس ما أعرف طعمه.. ما شايفه.. وإذا ذقته فسوف أثق بنفسي وأخترق روسيا كلها.. كل تاريخها من «ديستويفسكي» إلى «إيتماتوف».. سامحني حبيبي.. سامحني.. أنا على وشك اختراق حصن روسيا من ... نسوانها.. أنا عايش وسط بائعات خضرة في سوق شعبي.. سامحني.. أبحثُ عن الحقيقة!.

وانفلت من بين ذراعيه بغتةً ليختفي وسط زحمة السوق.. تلك اللحظة شعر «إبراهيم» بالذنب قليلا، وهو يرى «شيركو» ينحدر في الصدق إلى حد التشرد. فحاول مرات عديدة إيجاد صلة ما به علَّه يعالج ما آلت إليه أمور صديقه الشاعر، لكن الملعون أجاد الغياب وسط بيئة موسكو الشاسعة وبين بائعات الخضرة فيه.. غاب تاركًا لوعةً تسكن روح «إبراهيم».. غاب أيامًا طوالًا.. لينبثق بغتة في شارعٍ ما من شوارع موسكو.. اعتنقه مبتهجًا.. مجنون المزاج، وهمس:

- «سلامي».. حبيبي.. لقد اخترقته.. فأحسست أن كل روسيا فتحت أبوابها أمامي..

منذ ذلك التاريخ ضاع «شيركو» في لجة الجنس وموسكو المشرعة.. هبط إلى قيعان عوالم «تشيخوف» و«ديستويفسكي».. ضاع متخيلا.. ليس متخيلا، بل عاش ما يشبه قصص أولئك الكتاب بكل تفاصيلها، وكأن الزمن عاد مكررًا قصص كتاب الروس القدماء ذاتها.. نزل «شيركو» إلى حضيضٍ وجده جميلًا .. وهاهو ينبثق من غيب اللجة والضياع في موسكو الشاسعة.. ينبثق بصحبة الصعلوك «أسعد» التكريتي، الذي وضعه جواره واختفى.

- أي بهجة يضعني فيها هذا الكيان الفتي.. أي بهجة!.

هتف «إبراهيم» عند حافة الغابة والمساء على وشك الهبوط: أيُّ رحلة أخذته إلى الأشجار والأخيلة حتى نسى نفسه وسط الثلج وكثافة الأشجار والبرد؟! أيّ دفء يبعثه خاطر صديق حبيب منتظر؟!

- أي دفء؟!

هتف بصوت عالٍ في خواء الشارع، ودلف إلى مدخل العمارة.

فتح «شيركو» الباب محدقًا بعينين قلقتين قائلًا:

- وين صرت حبيبي.. وين صرت.. صار لك ثلاث ساعات.. قلت لك اشتمّ هواء!.

تلمس ذراعيه ثم ضمه إلى صدره هامسًا:

- أدري بك مجنون مثلي!..

وجد «إبراهيم» الشقة نظيفـة، لا أثـر لرائحـة الغبـار فيهـا.. كـل شيء مرتب، المدخل، الطاولة، السرير، المكتبة، أدوات المطبخ، الحمام:

- حبيبي لو باقي ثلاثة أيام كان قتلك الغبار!.

مكث مع «إبراهيم» أيامًا يسرد فيها تجاربه في عـالم الـصبايا الروسـيات وبائعات الخضار والمنظفات.. عالم لا يستطيع المرء رؤيتـه في الـشارع. عـالم شبه العاهرات الصغيرات، اللواتي تمكن «شيركو» مـن الولـوج إلى بيئـتهن الاجتماعية بالصرف عليهن مما كان يستجديه من الرفاق.. كان يطلـب دون خجلٍ من كل رفيق يبعث له قريب من اسكندناڤيا مبلغًا. وكـان يجهـر لمـن يطلب منـه أنـه سـوف يـصـرفها عـلى العـاهرات الروسـيات الـصغيرات الجميلات؛ لأنهنّ أكثر صدقًا منه..

عالم يشبه كثيرًا أجواء المسحوقين في روايات «ديستويفـسكي».. وكـأن الزمن قد توقف منذُ مطلع القرن العشرين.. نـساء يكـدحن ليـسكرن في المساء.. سكيرات.. مطلقات.. يبحثن عن عشيق ولو لليلة واحدة، وصبايا يمنحن أنفسهن بيسرٍ لمن يصرف عليهن وجبة طعام.. عذاب بـشر يعـانون الوحدة والعوز، لكنهم شديدو الصراحة والبوح، لا يخجلون من شيء..

هذا ما استنتجه «إبراهيم» وهو ينصت لحكايـات «شـيركو» الممزوجـة برهافة حسه.. أخبره عن بائعة خضرة جميلة الوجه.. لكنهـا سـمينة جـدًّا.. صديقة صاحبته التي تعرّف عليها في السوق.. أرته ألبـوم صـورها فباغتـه جمالها الشاخص من الورق المصقول.. وصفها بدقة.. رشاقتها.. ضـحكتها الصافية.. بهجة قسماتها الفتية.. شعرها الأشـقر الطويـل المتـأرجح خلـف

قامتها في الريح.. ثم راح ينقل عينيه بين كتلتها العظيمة الجالسة جواره على الأريكة والصورة إلى أن وجد نفسه ينفجر بالبكاء، بكت معه وعانقته.

العديد من القصص الشبيهة لهذه قصّها «شيركو» عليه، فاتحًا أبواب القاع الروسي ومساكينه.. لم يكن يتصرف بالفطرة فقط، بل بوعي فلسفي يبرر كل خطوة من خطواته.. صرخ في إحدى لحظات تجليه:

- اسمع «سلامي» البنات حمامات.. متى وضعت لهنَّ القفص هربن.. لا تكن أنانيا وغيورا!.

- ...

- الأمير «ميشكين» على حق.. لكن «ديستويفسكي» شديد العفة!.

لم يعلق «إبراهيم» بكلمة منتظرًا دائرة أفكار «شيركو» تكتمل في الربط بين الغيرة والبنات الحمامات والأمير «ميشكين» وعفة «ديستويفسكي».

- ...

- ما ينقص الإنسان بشكل عام هو الصدق.. أما نحن العراقيين فالصدق لدينا أندر من الذهب.. عدا أننا أكثر البشر تشبثًا بالغيرة والشرف.. لكننا نفعل كل المحارم وأعظمها في السر.. أليس كذلك؟!

ركز عينيه بعد سؤاله المباغت في عيني «إبراهيم»، اللتين اضطربتا وهما تطلان خطفًا على عالم السر الدفين المستحيل البوح.. ركّز محركًا طرف فمه حركة خبيث يتصنع براءة السؤال.. تمالك «إبراهيم» وضعه بعناء قائلًا:

- أكمل.. أكمل.. لم أفهم ما تومئ إليه!.

استرخت قسماته مغادرة انفعالها المريب، صب كأسًا من النبيذ ورشف منها قطرة.. أعاد الكأس بحركة بطيئة كادت تقضي على هدوء «إبراهيم» المنتظر، وحدق بعينين ثابتتين.. مفتوحتين قائلًا:

- خاف يزعجك كلامي يا حبيبي، وأنت المتزوج من الحبيبة مثلما أخبرتني دائمًا..

- ...

- فمن المؤكد أنك تغار عليها بجنون.. وكلامي ضد الغيرة!

صرخ به «إبراهيم»:

- بلا مقدمات.. أنت تعرف أني أكرهها!

- اسمع «سلامي».. البنات الروسيات أكثر صدقًا منا نحن الثوريين.. أكثر صدقًا من صاحبك العامل.. فعندما تجوع تقول لك: إني جائعة.. وعندما تشتهي غيرك تقول.. ففي غرفة واحدة في بيت أهلها، وبعد أن صرفت عليها كثيرًا، وهي مبالغ تافهة حتى بالنسبة لنا نحن المتشردين.. قالت: تريد الصحيح أنا لم أحبك يومًا. ولدي حبيب من أبناء جلدتي، ولكنه لا يستطيع أن يصرف عليّ مثلك.. كانت سكرانة لكنها صادقة.. كانت تخشى من غيرتي من ثورتي.. وهذا ما كان يفعله أي إنسان روسي أو غير روسي.. فكيف بي أنا ابن كركوك.. لكنني في تلك اللحظة رأيت العظيم الأمير «ميشكين» متجليًا أمامي في أحرج لحظاته.

قطع الكلام ليرشف رشفة أخرى من كأسه، قبل أن يردف متسائلًا:

- أتعرف ماذا فعلت؟

سأله «إبراهيم» المذهول:

- ماذا؟!.

- قلت لها لنذهب فورًا إلى حبيبك.

وفعلًا أخذتها إلى حبيبها الفتي المسكين، لا تدري مبلغ فرحها. ظلت تقبلني طوال الطريق.. وفي بيت حبيبها الصغير جعلتها تدخل إلى غرفة نومه، وبقيت في الصالة أنصت متوجعًا إلى صراخ لذتها، الذي لم اسمعه أبدًا رغم أني ضاجعتها أكثر من عشرين مرة.

كان «إبراهيم» يحدق مبهورًا.. صامتًا.. شاردًا.. ذاهبًا إلى عمق أبعد من الكلام.. مندهشًا من قدرة «شيركو» على الهبوط إلى النقطة العميقة الغامضة في الإنسان.. وكأنه من شخصيات قاع روسيا في روايات كتابها العظام:

- اسمع.. «سلامي».. أي بؤس كانت تعيشه معي تلك الروسية الصغيرة المسكينة، وهي تمنحني جسدها كل مساء.. كنت أظن أول الأمر أنها تريدني بكل كيانها.. هنا يكمن بؤس البشر.. في تلك اللحظة التي تمنح فيها نفسك دون رغبة حقيقية..

- ...

- تسكت «سلامي».. تسكت.. حقك أنت عايش بالوهم.. تحت الغبار.. وحدك.. لازم تطلع وتشوف.. اسمع تدري ماذا فعلت الصغيرة الروسية بعد ما وديتها لصاحبها.. جننتني بالفراش.. وجعلتني أصل إلى القول بأن البنات حمامات، متى وضعت لهنَّ القفص هربن..

أخمده الكشف العميق لنوازع النساء الدفينة.. للمعادلات الغريبة التي أثارتها قصص «شيركو».. أخمده ، وهو يستذكر عدد المرات ، التي انفجر فيها محاولًا وضع زوجته.. حمامته في القفص.. وخصوصًا عندما حلاّ وسط رجال العصابات في كردستان، فوجد المرات عصية على العد في قصته، مات اللسان ، وبقي «إبراهيم» يحملق بشرود في وجه «شيركو» الجميل، الذي احتدم غاضبًا وهو يلتفت صوب بشر وطنه ، قائلًا باستنكار:

– لو يسمع كلامي أي من أصحابك العراقيين يقولون عني قوادًا !.

– ..

– اسمع.. وصلت لقناعة أن كل علاقاتنا الاجتماعية، العائلة والمدرسة والشارع والأحزاب يعني حياتنا كلها غلط!..

– ..

– علاقات مزيفة.. كذب.. نفاق.. تملق.. قسوة.. جبن.. ادعاء.. وحتى أنا وأنت.. ولو ننظر بصدق وبعمق.. لما نقوله ونفعله لما اختلفنا عما يفعله الآخرون!.

– ...

– وكل ذلك مغلف بمبررات أخلاقية تبدو لفظيّا عظيمة!

– ...

كان «إبراهيم» في حياد معذب يقيس كلام الشاعر الكردي، الذي يبدو ليس مجرد كلام، ولكنه قول ينفي الثوابت.. كل الثوابت .

- الصبية الروسية اللَّعوب أكثر صدقًا من زوجات شرقنا المدعيات!.

استدرك عندما لمح قسمات «إبراهيم» تقسو متلبدةً:

- عداك.. يا حبيبي.. وعدا كل محب حقيقي.. مثلك، فأنا أعرف كيف تحبان بعضكما!.

لانَ وجه «إبراهيم»، فراح يتملى في عالم «شيركو» وحكايته العجيبة.. حدثه عن طفولته في حي كردي فقير بطرف كركوك.. عن اضطراره للعمل بعد وقت المدرسة كصباغ أحذية؛ كي يعين عائلته المكونة من عشرة أطفال، أكبرهم لا يتجاوز السابعة عشرة وثمانية منهم بنات.. عما كان يتعرض له من مضايقات من الرجال في السوق:

- كنت أشعر يا «سلامي» أن الرجال في مدينتي مجرد وحوش لا قيمة أخلاقية لديهم، فمن كان يريد إغوائي رجال ، يبدون محترمين لديهم أسر وأباء أطفال بعمري، ليس واحدًا بل الغالبية.. ذلك ما جعلني أتطرف في العناد وأحرز في أعماقي حقدًا عاجزًا.. وأنت تعرف يا حبيبي مدى لؤم العاجز.. فقد كان لابد من الخروج كل يوم؛ كي أصبغ أحذية عديد من أولئك البرابرة، متحملًا في ذل دعواتهم مقابل مبالغ مغرية.. كنت ألزم الصمت لاعنًا الفقر وأبي، الذي مات باكرًا ليتركنا في بيت إيجار، عشرة مع أمي المسكينة التي تخدم في البيوت.. أكرر لعنتي كلما أحتك بي واحد من أولئك الرجال!.

لم يستغرب «إبراهيم» قصص «شيركو» بل وجد بها سلوى، فهو الآخر تعرض إلى نفس ما تعرض له صديقه الصغير لكن بمدينة في جنوب

العراق.. وكانت تجربته أكثر مرارةً إذ كان شكله جميلًا، مضاف إلى أنه عاش طفولة تشبه طفولته، فهو أيضًا نشأ وسط عائلة كبيرة مكونة من العدد نفسه، والفرق أن أباه كان سكيرًا عاطلًا عن العمل.. وبيتهم يتكون من غرفة مما جعله ينشأ في الشارع والسوق، ويختلط باكرًا بمن هم أكبر سنًا منه، غير مبالٍ بما سيحصد من عذاب، وهو يواجه أقرب الناس أو الذين كان يعتقد أنهم أقرب الناس وهم يحاولون غوايته.. هم متزوجون أيضًا.. والمصيبة أنهم ثوريون.. قضوا سنين في السجون وكانوا مثالًا لـ «إبراهيم» وجيله..

يدرك «إبراهيم» أن التوازن في معادلات كهذه مستحيل.. فقد يستطيع المرء التوازن ظاهرًا.. ولكنه في الأعماق يكون غير ذلك. وهذا ما كانه طوال القصة.. تصنع البطولة.. أحب.. وعاند وتزوج الحبيبة، ناضل وكاد يقضي نحبه، فبدا ظاهرًا وكأنه أكثر تماسكًا من الفولاذ.. مضمرًا كل تلك الجروح التي أثارها «شيركو» ببوحه.. لم يثرها بل نكأها، واضعًا كيان «إبراهيم» في قلب عاصفة، دون أن يدري.

- اسمع «سلامي».. اسمع..

وارتشف كأسًا أخرى من الخمرة دفعةً واحدةً، وتلوى كأنه ديك موشك على الذبح.. راح يفرك رقبته براحة كفه فركًا شديدًا. أحس «إبراهيم» أنه يريد البوح بسر.. لكنه يخشى.. سحبه إلى صدره واضعًا رأس «شيركو» الساخن لصق قلبه، وقال:

- صغيري.. لا تقُلْ إلا ما تريد قوله، فإذا كان ما تريد قوله ثقيلًا فلا تقله إلا لمن يتحمل سرك!.

دفن رأسه بشدة تحت إبط «إبراهيم»... وأجهشَ بعنف.. وعندما تمالك نفسه من جديد باح بمحنته:

- «سلامي».. حبيبي.. أحلف بالعرق الذي علمتني شربه.. أحلف به وبكَ أنني أستنكر كل حياتي.. كلها «سلامي».. كلها.. اسمع، ما مزق قلبي هو سذاجة أمي.. شكوت لها من مضايقة الكبار في السوق والنهار.. لم أفصِّل، ولكنها فهمت وصارت عصبية طوال أيام، إلى أن جاءت من عملها في مساء يوم، وهمست في أذني على انفراد أنني لن أذهب إلى سوق المدينة في المساء لصبغ الأحذية..

فرحت للخبر وتخيلت حالي، أقضي ما بعد وقت المدرسة باللعب مع أقران طفولتي في الشارع.. أشبعتها قبلًا لقرارها الرحيم بتخليصي من ذلك الهم العنيف. لكن أردفت بوجه سعيد، بأنها وجدت لي عملًا موسميًّا لدى رجال شرفاء يختلفون عمن رأيتهم في أسواق المدينة، رجال ورعين، متوحدين مع الخالق.. يجوبون قرى كركوك البعيدة، دراويش الطريقة القادرية.. قالت لي سأكون خادمًا للشيخ في جولاته بين القرى.. «سلامي».. حبيبي.. حزمت أمري ورحلت معهم..

بعد ليلتين بعث الشيخ في طلبي بعد منتصف الليل.. راح يحدثني عن العفاف والصوفية والكون الغامض وطهارة الروح.. كلمات من العسل، جعلتني أتأرجح على حافة النوم.. فبعد عنف وسوقية أسواق كركوك وجدت بوجه الشيخ وجه نبي، وذلك ما جعلني أغفو بعمق في حضرته.. لكنني استيقظتُ موجوعًا مختنقًا.. لأجد يا سلامي الشيخ القائد يخنق أنفاسي.. فوقي بكل ثقله

وكان قد جردني من كل ملبسي.. حقدت على أمي التي دفعتني إلى تلك اللحظة.. «سلامي».. اغتصبني شيخ من شيوخ الطريقة القادرية بإحدى قرى كرميان.. «سلامي».. «سلامي».. أنت أول من أبوح له بهذا السر، الذي خنقني منذ الطفولة.. فلمن أقول.. وماذا أقول؟!

صمت قليلًا ليردف:

- «سلامي».. أليس كذلك؟!.

- ...

- ليش ساكت؟!

بدا «إبراهيم» قلقًا حائرًا.. مستغرقًا مع نفسه في حوار:

هل أفضي له بما جرى لي في طفولتي البعيدة، في العاشر من عاشوراء، عندما سهرت مع رفاق طفولتي حتى الصباح.. وفيما كنت أشاهد تفاصيل المقتل غلبني النعاس وسط الزحمة ففكرت في العبور إلى مدرسة قريبة.. فتسلقت السياج، وفي الرواق رقدت على البلاط البارد.. كان الوقت صيفًا وعلى إيقاع معركة الطف ونحيب النسوة غفوت، لأستيقظ على ألم في مؤخرتي.. ألم شديد.. كان عمري وقتها ثماني سنوات.. لم أجرؤ على فتح عيني.. ظللت أنصت، وأنا في أقصى حالات الرعب إلى اللهاث الغريب المنصب من خلف رقبتي، مستسلمًا عاجزًا إلى أن خفت، فرأيته رجل بعمر والدي وسط مكتب مدير المدرسة.. أدركت بعد ذلك أنه كان الحارس، الذي جعلني مضطربًا شكاكًا بالبشر كل العمر.. هل أفضي لـ «شيركو» بالقصة القديمة كما أفضى إليّ.. أم؟!

- «سلامي».. قل شيئًا؟!.

- اسمع حبيبي!.

ومشط بأصابعه المتصلبة كأنها أسنان المشط، شعر «شيركو» المبعثر، مكملًا:

- لست وحدك؟!.

- ماذا تقصد يا «سلامي»؟!

- جرى لي ما جرى لك؟!

سحب جسده من صدر «إبراهيم» مذهولًا، وحدق طويلا بعينين مفتوحتين، لم تطرفا لحظةً قبل أن يسأل:

- صحيح «سلامي».. صحيح؟!.

كان يلهث مضطربًا متشككًا من أن «إبراهيم» قال ذلك ليخفف عنه.. كان ينتظر تفصيلات:

- وأول مخلوق أسرّ له بذلك هو أنت يا «شيركو» حبيبي؟!.

- كيف.. كيف.. جرى الأمر؟!.

بتفصيل في المكان والزمان، وما أحس به في لحظة السحق تلك، وما فعلته بنفسه لاحقًا قصَّ على «شيركو» كل شيء.. وعندما ختم كلامه، انفجر «شيركو» بنشيج صاخب يقطعه بهذيان، يصب فيه لعناته على كل شيء.. الوجود والدنيا:

- حبيبي.. «سلامي».. أنت متعذب من كان عمرك ثماني سنوات.. حبيبي.. وما تقدر تقول لأحد!.. حبيبي دمرتني.. وخليتني أعرف سرك مع الخمرة..

- ...!

- حبيبي.. «سلامي».. حبيبي.. لا تسكت.. فكر معي.. أي مجتمع منحط كنا نعيش فيه.. الشرف هو العلامة المغلفة لكل العلاقات في الخارج.. والانحطاط هو الراسخ في الداخل والأسرار!.

- ..

- شو هم ساكت «سلامي».. من يستطيع البوح بمثل هذي الأسرار سوانا.. وأحنه تمردنا على العائلة والمجتمع والسلطة وخاطرنا بحياتنا.. وتشردنا وقاتلنا بالجبال.. وأكلنا المر والعشب.. وفقدنا أعز الأحباب.. ومع كل هذه التجارب لم أجرؤ على البوح لك.. مثلما لم تجرؤ أنت.. لولا الشرب الذي كنت أستاذي فيه.. ولولا «ديستويفسكي».. من المستحيل عليَّ قول ما قلت.. فماذا يكمن في أرواح العراقيين من أسرار وعذابات؟!.

- بس الله والعراقي يعرفان يا «شيركو»!..

- بربك «سلامي».. بربك.. كيف نصل إلى النقاء.. كيف؟!

لم يفهم ما قصده الشاعر، فمكث في الصمت:

- لا تسكت «سلامي».. لا تسكت! يبدو أن كل شي غلط بحياتنا.. كل شي..

لم يكن «إبراهيم» بالغًا هذه الناصية من الـوعي.. فأصـبح في تلـك اللحظة أسيرًا لما يفوه به «شيركو» المتسائل في اللحظة تلك:

- «سلامي» مرة قلت لي مثل عندما كنا في الجبل.. مثل يثير الـضحك.. لكنه حقيقي.. أريدك أن تذكرني به الآن:

فكر «إبراهيم» قليلا ثم قال:

- أي مثل تقصد؟!..

ذكرني بطرف منه!.

- لا أتذكره بالضبط!.

صمت قليلًا وراح يركز ناظرًا خلال النافذة بشرود، قبل أن يقول:

- «سلامي».. تذكرت القصة، كنت تحكي عن مصور زنجي أسود وشاعر..

ضحك «إبراهيم» بصخب، رائيًا وجه المصور الناحل بقسماته الـصغيرة وعينيه الصغيرتين المحمرتين، وهو يجلس عـلى كرسـيه أمـام دكانـه ينظـر بصمت نحو المارة عصر يوم، قال:

- الحياة لحظة ..الحياة فقاعة.. فصورها قبل أن تنفجر!.

- عظيم.. هي كذلك فقاعة!. هيـا قـم معـي.. سـوف آخـذك إلى قـاع روسيا الذي ضيعني عنك طوال الشهرين الفائتين.. قم يا حبيبي المسكين.. قم حتى تشوف الصدق عاريًا بلا أقنعة.. لا تقل إني متزوج.. تعـال خـض التجربة لترى نفسك والآخرين.. هيا لنخرج الآن!.

سحبه من ذراعه.. كان الوقت بعد منتصف الظهيرة بقليل:

- خذ حمامًا والبس أحلى ما عندك!.

قال ذلك بلهجة آمرة.. ومثل مخدرٍ، انصاع «إبراهيم» لتعليمات «شيركو» الجاد. غسل جسده بعناية.. حلق ذقنه ولبس أحلى ما لديه. على السلالم الهابطة نحو البوابة المزدوجة.. أردف بعد أن رمقه جانبًا بعينين، تبسمان بخبث:

- ستجننهن يا «سلامي»!.

لفحهما هبوب خفيف لريح مثلجة ما أن جاوزا البوابة:

- كل ما يجري الآن يشبه الروايات؟

قال «إبراهيم» ذلك لنفسه.. وتبّسمَ.. لم يشأ سؤال «شيركو» بمن يكنَّ.. ذلك ليس مهمًّا الآن.. ليس مهمًا.. فلا مكان للمنطق في تجربة كهذه.. فـ «شيركو» الخجول الذي كان قبل أشهر لا يعرف طعم الخمرة يقوده الآن إلى عالم غامض يشبه الأحلام، يشبه كائنات الورق.. يقوده إلى وسط موسكو عبر باطنها، حيث استقلا مترو الأنفاق.. في محطة ما قال له:

- هيا «سلامي»!.

ومد يده الصغيرة ليشبك أصابعه بحنان لا يشبه حنانًا آخر!. أفضي بهما السلم المتحرك الطويل جدًّا الصاعد إلى باحة صغيرة وباب ضخم مزدوج.. دفعه «إبراهيم» بقامته الفارعة وكتلته الضخمة.

- «سلامي» نحن في وسط موسكو.. في حي من أحيائها القديمة جوار الساحة الحمراء!. يعني بشريان الرفاق الروس!. تعال شوف البشر.

سلكا طرقًا ضيقة تفضي إلى طرق أكثر ضيقًا.. مرا بفسحة سوق خضر منتشر في ساحة مدورة، وسط بنايات قديمة الطراز.. توقف «شيركو» عند بعض الباعة الروس الواقفين خلف بضائعهم المكونة من المواد المختفية من أسواق الحكومة.. وأنواع الخضراوات والفواكه.. كان يدخل في حوار قصير مع أحدهم ، ويعود إلى «إبراهيم» الواقف وسط السوق، وكأنه يقف في باطن سوق ، يصفه «مكسيم جوركي» المولع بهذه الأمكنة والأجواء.. لم يجد رغبة في سؤاله عما يتحدث به مع الروس.. كان منقادًا.. مخدرًا.. مذهولًا.. يفكر في الطريقة ، التي استطاع بها «شيركو» الولوج إلى عالم الروس بهذه السرعة، رجع من حواراته مع الباعة غاضبًا ليقول:

- أدري مجنونات مثلنه.. مسكينات مثلنه «سلامي» مثلنه.. أكيد عذاب روحهن خلاهن يسكرن البارحة حد النوم ونسيان الدنيا.. الحياة لحظة سلامي.. وإلا تكذب هي عليّ مثل ما كذب - «أبو علي» - مسئولي الحزبي عندما اختفى بغتة وعافنا وسط المدن!.

«إبراهيم» المتأنق كان لا يستوعب معادلات «شيركو» المعقدة والذي يبدو أنه يحاور نفسه وسط سوق خضرة في قلب موسكو القديمة.. كان يؤكد أن فقاعة الحياة ستنفجر عاجلًا أم آجلًا، وهو يقول مواصلًا الكلام عنهن:

- أكيد واصلن الشرب وظللنَّ في الشقة!

دلفا في زقاق فرعي، أفضى بهما إلى شارع عريض، تمتد على جانبيه بنايات قديمة جدًّا.. عَبرَ نفقٍ تحت الجادة ، انتقلا إلى الجانب الآخر. كان «إبراهيم» مسرورًا سرورًا خفيًّا من هذه المغامرة الغريبة، التي يقوده «شيركو» إليها.. وكان يتساءل مبتسمًا وهو يحدق بقامته القصيرة، التي يجرها جرًّا على الممرات الضيقة بين أكداس الثلج على الأرصفة مسرعًا، يتقدمه بعدة خطوات:

- إلى أين يأخذني هذا المجنون؟!.

انعطفا نحو زقاق شديد الضيق، معتم.. وبعد عدة أمتار توقف «شيركو» أمام بوابة من الخشب الصاج الحائل اللون.. بوابة شاهقة عريضة قديمة.. بعناء دفعها بكل كتلته، فأسرع «إبراهيم» في الدخول إلى ممرٍّ مظلم واسع، لم يستطع في الوهلة الأولى تبيان معالمه. وبعد لحظات هجمتْ عليه رائحة هي مزيج من العفونة والبيرة والدخان وخليط من البصل والثوم ورائحة لحم الخنزير المسلوق. وبحركة لا إرادية سد أنفه بالسبابة والإبهام، وقطع تنفسه للحظة.. أتاه صوت «شيركو» المسترخي:

- ستتعود.. الإنسان أحقر كائن في التعود!.

إلى يسار المدخل، صعدا سلمًا حجريًّا يفضي إلى الطابق الثاني.. خفت رائحة العطن قليلًا. وبانت من نوافذ حيطان السلالم صفحة السماء الغائمة بسحب الثلج البيضاء.. درابزين السلم متآكل الخشب، مسود من القدم والأوساخ، الحيطان حائلة اللون تقترب من لون الفحم والرماد.. حدق في

قامة «شيركو» الذي يسبقه على السلم الصاعد بعدة درجات فوجدها رمادية بائسة، ناداه فالتفت متطلعًا متسائلا بقسمات، بدت كأنها امتصت لون الجدران، وحدهما عيناه شخصتا نحوه ساطعتين:

- ماذا بك «سلامي»؟!

- وين ما خذنا؟!

- ما بقى شيء حبيبي.. راح تشوف بعينك!.

قطعا ممر الطابق الثاني العالي السقف الممتد من السلم حتى نافذة الجدار المطلة على الشارع.. استدار «شيركو» وقرع بابًا إلى اليمين.. انتظر دقائق قبل أن يعاود القرع بكفيه قرعًا غاضبًا.. استند «إبراهيم» إلى حافة النافذة الزجاجية الطويلة، متخيلًا في لحظة خبث خيبة صديقه، الذي بدا واثقًا وهو يقوده إلى ما وصفه بالروح الروسية المعذبة أبدًا.. المخدوعة أبدًا.. والتي استدعت حسب قوله كتابة ذاك الأدب العظيم في القرن التاسع عشر. خيبته عندما تكل يداه من القرع.. والباب لا يفتح..

بدا الإرباك على جسده كاملًا.. يقرع بعنف وينضح، حتى بدا مثل نبع ماء في قمة. صار يتصبب مبللًا قسماته المضطربة، وهو يلتفت بين نوبات القرع صوب وقفته المسترخية على حافة النافذة.. صار القرع مجنونًا مصحوبًا بكلامٍ بالروسية قدره بذيئًا إذ اختلط بشتائم عربية وكردية شديدة البذاءة. وبغتة انفتح الباب.. وظهرت خلفه امرأة في أواخر الثلاثينات، قصيرة القامة، تترية الملامح، بدت كأنها استيقظت للتو من نوم ثقيل، منزعجة من

الضجيج، ولكنها عندما وقع نظرها عليه انفرجت ملامحها وأخذته في الأحضان. همس في أذنها فانفصلت عنه؛ لتأخذ يد «إبراهيم» باحترام وتسحبه عبر عتبة الباب.. ضايقته رائحة خانقة هي مزيج من الفودكا والبيرة ودخان السجائر وعرق بشري وشرائح لحم خنزير مقلي.. كاد يسد منخريه، لكنه عدل عن ذلك، و«شيركو» يصرخ مستنكرا بالعربية:

- لا.. لا «سلامي».. لا!.

أنزل ساعده الأيسر الحر متحملًا فظاعة الرائحة.. أجلسته على كرسي رث جوار أريكة أكثر رثاثة، ممزقة القماش مكسورة الأذرع ، صرّتْ بصخب حينما جلس «شيركو» عليها.. هبطت على الأرض العارية قرب قدميه، وقالت شيئًا فهم منه أنها تدعوه لشيء.. أجابها بهزة من رأسه، فنهضت لتخطو نحو طرف الغرفة المؤدي إلى فسحة ضيقة صفت فيها أشياء المطبخ.. لاحق جسدها القصير الممتلئ وخلفيتها البارزة قليلًا من خلال ثوبها القديم الفضفاض، قال «شيركو»:

- هذه صاحبتي!

كانت تكبره بأكثر من عشرين عامًا.. أجال «إبراهيم» طرفه بأرجاء الغرفة الصغيرة.. الجدران وسخة، السقف عال جدًّا، في الزاوية المقابلة للمطبخ سرير فراشه مبعثر، وتحت النافذة العالية ثمة كتلة هائلة ساقطة بنوم عميق على أريكة تكون آخر قطعة من أثاث الغرفة..

أطال التحديق بالكتلة التي يتعالى شخيرها متقطعًا. تأملها.. تأمل المكان، نقوش السقف، الشباك العريض بزجاجه المزدوج، وجه

«شيركو»، الذي بدا مهمومًا وكأنه رجل البيت، هذا الجو، الذي بدا غريبًا أول وهلة أحسه بعد دقائق شديد الألفة، وكأنه زاره منذ زمن بعيد.. بعيد قبل الحروب الأخيرة.. قبل الجبل.. قبل ورطة الحب والعائلة.. قبل ذلك بكثير.. فاستسلم للذة تخصه دون كل البشر.. رائيًا نفسه يعيش لحظات ذاك الزمن البعيد الذي استقام حيًّا بهذه الغرفة وسط موسكو.. حيث كان يقضي الظهيرة وحتى المساء مبحرًا في غرفته المقطوعة بحاجز خشبي عن غرفة أبيه.. مبحرًا بأمكنة «ديستويفسكي» في «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كرامازوف» و«الأبله».. غرف وصفها الكاتب بدقة وبإيجاز..

قاده «شيركو» إلى باطنها ليحيى لذة مزدوجة.. لذة التذكر وخيال القراءة.. في الوقت البريء.. ولذة الدخول في فضائها الفيزيقي وفي روسيا بعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا.. جعل يسترخي رامقًا أشياء الغرفة بعيني ذاك الصبي، الذي أذهلته القراءة الأولى لروايات «ديستويفسكي».. اتكأ على ظهر كرسيه وكأنه يحلم.. ذاك لم يفت على «شيركو» المراقب انفعالات وردود فعل «إبراهيم» منذ لحظة الدخول، فقال:

– النائمة البائعة السمينة المسكينة التي أبكتني صور شبابها عندما كانت رهيبة الجمال كما أخبرتك من قبل!.

– ...

– «سلامي».. ستلمس مدى عذاب الروس، الذين كنا نعتقد أنهم في الجنة!.

أقبلت المرأة ذات الملامح التترية حاملة ثلاث كؤوس صغيرة من الفودكا. وزعتها رافعة كأسها عاليًا، فرفعا كأسيهما ليرنّا مع كأسها في فضاء الغرفة الرث، قبل أن ينزل في الأحشاء حادًّا ليمنح «إبراهيم» أخيلة مضافة. فظن أنه حقًّا في باطن رواية، وهو يراه يحتدم في حوارات حادة مع التترية حتى أنه كاد أن يضربها فلطم جبهته، مما جعل «إبراهيم» يسأله :

- ما المشكلة؟!

- مجنونات.. يشتغلن من الصباح حتى المساء واقفات على أرجلهن.. ليصرفن الأجر على الأصدقاء.. أتعرف لِمَ لم يخرجنّ إلى السوق هذا اليوم؟ لأنهن كن سابقًا شيوعيات ويحتفلن اليوم بالسكر العنيف بذكرى ثورة أكتوبر التي ستصادف غدًا.. تخيل يا سلامي.. تخيل!.

- لهذا السبب تتخاصم معها!

- نعم.. نعم!

لفظها مشددًا على وقع المفردة مستنكرًا صيغة السؤال؛ مما جعل «إبراهيم» يزداد نشوة، وهو يوقن بأنه فعلًا يغور في باطن رواية من طراز فريد، فيها أخيلة قراءة الصبا وخلاصة تجربة الاشتراكية في القرن العشرين، التي أفضت إلى المشهد المجسد شخصيات بائسة معذبة لا تختلف عن عذاب «صوفيا»، أو أي شخصية من شخصيات تلك الروايات المكتوبة في نهاية القرن التاسع عشر.. شخصيات مذلة مهانة.. لكن بصيغة تناسب عصرها.. خسارة من يظن أنه بنى مدينة فاضلة يفقدها هذه الأيام.. ما كان يضيف للمشهد مزيدًا من اللذة هو انفعال وحرارة وعنفوان «شيركو» وهو

يتشاجر مع صاحبته الروسية عن ضرورة التعقل. كان يرى به «راسكولنيكوف» المنخور، وهو يدعو أخته وأمه إلى التعقل ورفض زواج أخته بالتاجر البخيل.. كان الحوار بين «سورخي» وصاحبته التترية يتخذ بعدًا خطيرًا وقت الاحتدام، وكان «إبراهيم» يستمتع راشفًا المزيد من كؤوس الفودكا.. حتى أنه صرخ في لحظة:

- ماذا بك.. دعها وشأنها.. أنت مجرد عابر.. عابر!.

أشعله الكلام.. فصرخ:

- «سلامي».. أدري أني عابر لكنها سيقضى عليها عندما أغادر!.

أطربه الرد، فهتف في داخله:

- إنه مثل نبي.. هذا الصبي الشاعر!.

فصمت يتملى المشاجرة.. الصبي الشاعر.. الغرفة الصغيرة.. مدركًا الفارق بين حسه وحس صاحبه الكردي المجنون.. فـ«إبراهيم» كأنه يجلس في غرفته ببيت أهله القديم بطرف الديوانية يغور في عالم الكلمات، بينما «شيركو» يغور في عالم بشر موسكو.. نسوتها المطلقات.. المتروكات.. في وقت شحوب الزمن الطويل الذي أوهمهم في المساواة والعدالة.. يغور في عذاب الروس.. زمن لا يختلف إلا في الشكل عن عذاب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذي صوره «ديستويفسكي».

في غمرة اللذة تلك.. كان يستمتع والحوار تحول إلى مجرد شتائم بذيئة يعرف معناها «إبراهيم».. التترية تشتمه وكأنه أليفها الذي تعود على ذلك.. هو يفعل كذلك، وكأنه يعرفها منذ عشرات السنين. وفيما كان يتأمل

المشهد وكأنه بمواجهة خشبة مسرح.. التفت نحو حفيف كتلة عظيمة، قدمت من ناحية الأريكة الرثة تحت نافذة الغرفة العالية، فرآها تخطو متنمرة صوبه تمامًا. وكأنها تسير في حلمٍ. وبصمت هبطت جالسةً على فخذيه. وقربت وجهها الجميل كوجه صبية من قسماته المرتبكة، التي لم تستوعب بعد الموقف، لتأخذ شفتيه وتمصهما مصًّا أذهله، إذ أحس أنها تمنح روحها بالكامل من خلال شفتيها..

لن ينسى تلك اللحظة ما تبقى من العمر.. الحركة والقبلة أنهت شجار «شيركو» مع صاحبته، فصمتا يحدقان في المشهد.. كان «إبراهيم» مذهولا بالطقس.. بالأخيلة.. بهذا الاقتحام المباغت لكتلة عظيمة كانت ساكنة.. بالقصة المحتشدة بالأحداث خلال دقائق!. استسلم للشفتين الخبيرتين ظانًّا أن الأمر مجرد لحظة عابرة لا تذهب أبعد.. لكنها هبطت لتتكوم جوار ساقيه، وتأخذ قدميه إلى حضنها العظيم وتجرده من جوربيه، وتبدأ بتدليكهما بأصابع خبيرة. تلفَّتَ مشربك القدمين كطائر وقع في فخّ باحثًا عنه، فوجده قد غادر الأريكة مع صاحبته باتجاه زاوية المطبخ. لاحق خطوه المتأني ولفتاته بوجهه المبتسم بخبث.. كان لا يفهم ما تتمتم به المنكبة على ساقيه مع كل قبلة، ترصع ظاهر وباطن قدميه الضخمتين.. اشتدّ مأزقه، فصرخ به:

- تعال يا مجنون.. خلصني!.

شخص نحوه ضاحكًا.. وتمهل في خطوه عامدًا، يركز على شفتيها الصغيرتين المكتنزتين كشفتي طفلة، الملامستين برقة صلابة قدميه.. هبط

نحوها هامسًا بصوت شديد الرقة، وسحبها برفق كي تنفصل عن ساقي «إبراهيم»، الذي نهض فورًا، وكأنه تحرر من سجن:

- لنغادر الآن!.

قال بصوت آمر.

- اصبر دقائق ولا تجرح الناس!.

ردَّ بحدة وانهمك في الحديث معهنَّ، عرف لاحقًا بأنه تحجج بمشاغل؛ كي يتمكنا من الخروج.. في بئر السلم قال «شيركو» مسرورًا:

- أول مرة أرى مثل هذه الحالة.. تستيقظ من النوم إلى حضنك مذهولة.. حبتك «سلامي».. حبتك!.

أطلق ضحكة صاخبة معلقًا:

- ولك مجنون يا حب مع هذي الحثالة!

- ...

احتقنت ملامحه موشكة على الانفجار، و«إبراهيم» يردف:

- أنت تعيش، وكأنك في باطن رواية من روايات «ديستويفسكي»!..

- ...

راح يتلفت محتدمًا حواليه وسط الشارع العريض المغمور بالثلج، متحاشيًا التحديق مباشرة في وجه «إبراهيم»، المستمر في التعليق والتحليل وربط سلوكه بأخيلة الكتابة إلى أن انفجر صارخًا:

– كافي «سلامي».. كافي.. أنت الْراح تخبلني.. هذا اللي شفته رواية.. شفت بشر يا حبيبي.. بشر معذبين، ما يختلف عذابهم عن عذابنا بشيء. بشر «سلامي».. بشر.. ليش تحتقرهم.. ليش.. تعرف ما وصفتك به.. تعرف؟!.

– ...

– قالت هذا قديس.. قديس.. أخذ قلبي.. قديس..

– ...

– «سلامي» أنت اللي عايش بالخيال.. بكائنات الورق حسب تعبيرك!. «سلامي».. في الشقة التي كنا فيها تكمن روح الروسي المعذبة..

– ...

لم يستطع «إبراهيم» ردًّا.. ارتبك شاعرًا بالعار، فلزمَ الصمت:

– ..

– ليش تسكت؟!

سأل بغضب، ثم أردف:

– يا حقير.. كيف تفكر بهذه الطريقة... أنت أستاذي في الخمرة والقراءة والحياة.. كيف وأنت تقابل حرارة استقبالك من المسكينات بكل هذا الترفع والاحتقار.. لنجرد كل شيء.. كل شيء.. بلا فلسفة ولا تعقيد.. امرأة تستقبلك في شقتها لأول مرة بحفاوة، تقدم لك كؤوسًا من الفودكا.. لو تعلم كم يعانين من متاعب في يوم العمل الشاق كي

يوفرن قنينة، وأخرى تقبلك وتدلك قدميك مرددة بالروسية أنت قـديس.. أنــت حلمــي.. أنــت سري.. وتقــول عــنهما حثالــة.. لا ، نحــن الحثالــة يا «سـلامي».. نحـن.. الحقـراء القتلـة، القـادمون مـن حـرب عـصابات وطاحونة قتل لوثت أرواحنا بدوافع غـير حقيقيـة.. أوهـام الأيـديولوجيا جعلتني يا «سلامي» أصوب بندقيتي نحو صدر جندي عراقي ابن جلـدتي مسكين وقع في كمين.. أرديته قتيلًا وكنت فرحًـا، وكـأنني قتلـت «صـدام حسين» في وهم آخر.. نحن المشوهون.. نحن يا «سلامي».. نحن الحثالة.. ولسن بائعات الخضرة الروسيات الوحيدات المسكينات..

- ...!

خلد «إبراهيم» إلى الصمت، يداري شعورًا عنيفًا بالعار.. فكل ما تفـوه بـه الصغير حقيقي.. فمن كان يعيش في أخيلة الكتب والروايات هو.. ومن كـان يفسر ما يجري أوائل تسعينيات القرن العشرين في روسيا وفق منطق القراءات هو ، وليس «شيركو» الذي غار عميقًا في تفاصيل أبسط الروس وأصدقهم.

على مقعد في عربة المترو جلسا صـامتين.. متقـابلين، يتحاشـيان النظـر مباشرة في وجوه بعضيهما.. كان «إبراهيم» يحملق بشرود في هيئته المنعكـسة على زجاج النافذة المعتم، وهو يخترق باطن موسكو، يحملق مستعيدًا تجربته المرة مع المتشردة الروسـية.. التـي حـرض عـلى حـضورها منطـق صـديقه الواضح والصريح..

شعر بنفسه تغوص في عار جديد، يـضاف للقائمـة الطويلـة الكامنـة في عمقها الدفين. وبغتةً أنهد في البوح بما كان يثقل كيانه، فقـد أدرك بأنـه لـو

كتم مشاعر تلك التجربة عنه فستظل إثـمًا يعذبه كل العمر، يضاف أنه لا يستطيع البوح بها لأي إنسان سواه، فانهد في اللحظة، التي تلاشى فيها ظله المعكوس الزجاج عند دخول عربتهما دائرة الضوء الباهر في محطة.. ساردًا بإيجاز قصته مع المتشردة الروسية مركزًا على لحظة المضاجعة، وعينيها الزرقاوين الناظرتين إلى قسماته الثائرة المهتاجة، وهو يحاول الولوج فيها.

وتوقف طويلًا في وصف حركة اعتراضها، وهي تحاول إزاحته عنها بدفعه بساقيها المنثنيين المفتوحتين، وشدة دفعه بصدره القوي، كي يحافظ على وضعهما المنفرج، وتخافت مقاومتها لحظة الولوج..

وصف إمعانًا في إذلال نفسه تفاصيل اللحظات تلك بدقة، سكون عينيها المفتوحتين المحملقتين بحياد، وكأن ما كان يقوم به يجرى مع أخرى.. أمعن في وصف حالته وهو يرهز لاهثًا ناضحًا فوقها، ثم صَمَتَ منصتًا إلى دوي المترو الضاج، لسكون عيني «شيركو» المحملقتين باتقاد ، الموشكتين على الغضب، لأصابعه الناعمة ، التي راحت تفرك جبهته ، وكأنه يعاني صداعًا.. عاود الكلام نافثًا خلاصة ما كان يعذبه بصمت ،منذ تلك الليلة:

– اللي راح يظل يعذبني إلى الأبد يا صديقي شكل عينيها، سكونها.. الدهشة الباردة.. سكون أطرافها.. برودة بطنها.. حتى أنني أزحت قميصها القديم، كاشفًا نهديها البيضاوين بحلمتيهما الداكنتين الذابلتين.. فركتهما ..كانتا ميتتين.. لم أهتم بل رحت أرهز مثل ثور.. مثل ثور حتى لحظة القذف.. كنت مجرد ثور!.

كانت قسمات الشاعر الغضة تتكسر ألمًا في إنصاته المرهف!

– شعرت بالذنب.. بعد تلك التجربة.. وصرت أتهرب منها.. لم أعد أفتح لها الباب، رغم أنها تظل تدق أكثر من ساعة!

– ...

تفتتت ملامح «شيركو» ألمًا.. لتتماسك غاضبةً مرعدة منذرة، فغادر صمته متسائلًا عن تفصيل، بدا هامشيًا لـ «إبراهيم»:

– ماذا فهمت من هذرها وهي تدق الباب؟!

– لا أدري.. لكن ما استطعت فهمه أنها كانت تتوسل كأسًا من الفودكا!.

– وما فتحت الباب!.

– طبعًا .. طبعًا!

قال ذلك وحدق في خياله المتفتح في عتمة زجاج نافذة المترو.. قال ذلك وتمنى لو أن صديقه الشاعر الصغير لا يحلل على طريقة «ديستويفسكي».. لو يستوعب بوحه ويداريه.. لم يكمل بقية القصة، عن شعوره بالعار منها، عندما حضنت ذراعه في طريقهما نحو خمارة المحلة.. عن هروبه منها لضغط نظرات الروس المستخفين.. الساخرين من المشهد.. قدر أن ذلك سيغضب صديقه غضبًا شديدًا.. لزم الصمت منتظرًا.. وجلًا من ملامح «شيركو» التي تنمرت.. توهجت.. مشرئبةً في وقدتها، وكأنها تحترق هذه اللحظة التي ضجت بصراخه بالعربية وسط عربة المترو:

– وتركتها «سلامي» تنام بالبرد على سلالم العمارة..

- ...

في المسافة بين محطة المترو والشقة، في عمق ليل موسكو الثلجي أحس «إبراهيم» بخواء كينونته التام.. أحس بصحبة الشاعر الكردي الفتي أنه في دنيا غير هذه الدنيا.. دنيا نظيفة حيث الداخل هو الخارج.. لا أسرار فيها.. كانا يسيران بصمت ينصتان لوقع أقدامهم المكتومة على الممرات المغطاة بالثلج المتساقط من سماء باهتة الظلمة.. امتد صمته ثقيلًا موجعًا، فدفع «إبراهيم» إلى سرد بقية القصة قائلًا لنفسه:

- هيا.. إنها فرصتك كي تتخلص من شعور إثم سيسمم حياتك إن لم تبح به.. هيا.. هيا!

ربت على كتف «شيركو» المتلفلف بمعطفٍ ثقيل.. توقف محدقًا نحوه تحت نور مصباح الشارع المجاور للشقة، فبادر «إبراهيم» قائلا:

- اسمع.. في ليلة فتحت لها الباب.. وذهبت معها إلى محل بيع المشروبات القريب، كم كانت فرحة بحيث لفّت ذراعها بذراعي.. لكن عندما وصلنا إلى الصف الطويل، رأيت السخرية المصحوبة بالتعليقات بعيون الروس التي لاحقتنا.. ذلك جعلها تترك يدي وتتشاجر معهم.. شعرت بالعار منها فهربت!.. وكلما أتذكر لحظة هروبي، أشعر بالعار يا صديقي.. أشعر بالعار!

قفز «شيركو» كمن طُعن بخنجر ، لاطمًا بكفه المفتوحة جبهته المعروقة، وهدر بالكلام:

– وتقول لي وين ما خذنه للحثالة.. اللي شفتهم والمتشردة أنظف من عدنا.. وأنظف من رفاقك اللي كانوا يعذبون ويعدمون ويكذبون على بعضهم البعض.. ما حثالة إلا إحنه.. فتّحْ عينيك يا حبيبي.. فتّحْ عينيك.. أسمع إني أحقر منك.. وكلما أتذكر الماضي أخجل منه كله.. من الطفولة والنضال وكردستان وكل شيء سويته بالسر.. إني أحقر منك.. لكن اللي وصفتهم بالحثالة علموني أش لون أرجع إنسان.. وأنت حبيبي لازم تشوف مثل ما شفت..

– ..

– لا تسكت «سلامي».. لا تسكت.. اسمع أنت كاذب كبير.. تكذب على نفسك.. والمتشردة أصدق منك على الأقل بإحساسها بجسدها.. تخون زوجتك بسهولة، وتخجل من اصطحاب متشردة سكيرة مسكينة اغتصبتها، وهي التي لجأت إليك طلبًا للدفء وكأسًا وقليلًا من الحنان.. اسمع أنا لا ألومك يا حبيبي.. لكن

وهنا صرخ بصوت كأنه من زجاج:

– لكن الإنسان حقير.. كلنا حقراء.. كلنا دون استثناء!..

ورفع ذراعه كي يربت على كتف «إبراهيم» العالية، ليقول بصوت شديد الخفوت:

– حقراء.. حقراء.. غير قادرين على الحب!.

كان الكلام يضرب عميقا بروح «إبراهيم»، الذي أوهم نفسه بحب زوجته طوال أكثر من عشرين عامًا.. فهو حقًّا هش، ضاجع أول متشردة

ما أن غابت، وكأنه يضاجع عاهرة لأول مرة ناسيًا كـل ذلـك العنفـوان في الفراش معها في كل الأمكنة.. عاود الإنصات وصاحبه يردف تحـت ضـوء مصباح الشارع ورذاذ الثلج المتساقط بهدوء:

- «سلامي».. كنت تظن أنك بلغت في الحب عمقه مـع رفيقـة عمـرك قبل هذه التجربـة، لكـن يـا «سـلامي».. الحـب شيء صـعب.. صـعب.. لا يحس به من تلوث بالثقافة.. الكتب.. السياسة.. وتخيل نفسه يستطيع أن يغير المجتمع.. فاضطر للتخفي والكذب والسرقة وقتـل الخـصم.. ألـيس هذا حالنا يا سلامي؟!

- ...

- الحب براءة..بساطة.. يحس به حقًّا الإنسان البسيط.. سـاعي بريـد.. معلم مدرسة بقرية.. فلاح.. بدوي.. ابن المحلة العامل.. أما نحن الحقـراء فقد صعب علينا.. يجب أن نتعلم الحب مـن بائعـات الخـضرة الروسـيات اللواتي عافتهن الدنيا..

- ...

- لا تزعل «سلامي» ما أقصد أتعبك.. لكن وجدت بالبشر المسحوقين صدق من لا مصلحة له في الدنيا، سوى بعيشها وقول ما يريد قوله!..

- ...

- لست واعظًـا.. لكـن أقـول كـل ذلـك لأن بائعـة الخـضرة الـسمينة المسكينة التي أبكتني صور شبابها، تعلقـت بـك بجنـون، وسـوف تعمـل المستحيل لتفوز بك في الفراش!.

كان يظن أن «شيركو» يخرّف في خضم العالم، الذي دخل فيه بعنف وبوقت قصير مفعمًا بقراءات الأدب الروسي.. رغم أنه في الحوار جاس كيان «إبراهيم»، الذي يهرب من اللمسة تلك بتجاهل كلام الصبي الشاعر الذي يقدح ذكاءً.. أوهم نفسه بذلك واعتنقه على السلالم المؤدية إلى الطابق الثالث، حيث واصلا الشرب والحديث عن خواء الإنسان إزاء الآخر والوجود في المواقف الحاسمة. أمعنا في الكشف، فصلا تجربة الجبل.. قسوة المواقف.. ضياع الحق.. اختلاط المعايير.. قارنا ذلك بالبشر الواقعين تحت سيطرة الديكتاتور؛ حيث كل شيء يلبس ثوبًا ليس له..

وفيما هما بذلك الحال رنّ الهاتف.. لم تكن لديهما الرغبة في الردّ.. كان التليفون أقرب لموقع جلوس «شيركو»، الذي شخص بعينين متسائلتين نحو «إبراهيم» منتظرًا الإشارة.. لم تكن لديه أية رغبة في الكلام مع الآخرين.. لكنه فكر باحتمال أن المكالمة من الدانمارك، فشعر بغتة بشوق عنيف لسماع نبرة صوتها، قبل أن يغرق في هذا العالم الغريب الممتع.. أشار له كي يرفع السماعة. وجعل يتأمل قسماته التي طفقت بمغادرة خدرها مع تطور حواره مع المتكلم في الطرف الآخر.. طوّل الحوار، مما جعل «إبراهيم» يسأل:

- مع من تتكلم؟

غمد سماعة الهاتف بكفة، وانخرط في ضحكة عاصفةٍ مرددًا:

- «سلامي».. أخذت عقلها.. تريدك الآن وإلا ستنتحر الليلة!.

وعاد يرطن بالروسية، مرددًا اسم الشارع ورقم البناية والشقة!. لم يحزر «إبراهيم» من تكون، فسأل ما أن وضع السماعة:

- من هي؟!.

- يا حبيبي.. ما عرفت.. من هي.. بائعة الخضرة الروسية السمينة.. جنت بِك.. تريد المجيء إلى الشقة.. تقول إنها ستأخذ آخر مترو، وستكون في المنطقة القريبة من سكننا مع صاحبتي.. «سلامي» جننتها.. دون كل من عرفتهم عليها من البيشمركة.. أنت الوحيد الذي جنت بك، وستأخذ آخر مترو كي تفوز بقربك!.

ـ ... وماذا قلت لها؟!

- أعطيتها العنوان.. ألم تسمع؟!

- سمعت.. لكن!

قاطعه:

- بلا لكن.. تريدني أصير حقير مثلك فأقول لها لا تجيئي؟!

ـ..!.

- بعد ساعة سيقرعن الباب!.

- ماذا تريد؟!

سأل «إبراهيم» بسذاجة! و«شيركو» منشغل بصب المزيد من الفودكا في الكأسين، ويجيب ساخرًا:

- لا تغشم نفسك «سلامي».. تريدك الليلة كلك.. وبلا كـذب.. أنـت تريد وإلا ما بادلتها البوس.. هذا واحد.. الثاني كن مـرة «زوربـا» اليونـاني كي لا تـدخل النـار بتركـك المسكينة التـي جننتهـا تبيـت ليلتهـا وحيـدة بالفراش!..

وغرق في قهقهة أربكت «إبراهيم» المـضطرب، المحملـق بقـسماته التـي تبدل انفعالاتها حسب موضوع الكلام.. فكلامـه، عـن «زوربـا» ومقولتـه سمعها أول مرة منه.. إذ إنه لم يطلع على روايـة «كزنتـزاكيس»، نـبرة تـشي بظلال سخرية وخبث، أحـس «إبـراهيم» بتحولـه مـن أسـتاذ إلى موضـع اختبار من تلميذ ذكي، لكن سرعان مـا تعـود الملامـح إلى سـويتها، فتبـدو شديدة البراءة ناصعة كوجـه طفـل.. لم تقـرع البـاب بعـد سـاعة.. سـاعة ونصف. بدا القلق واضحا عـلى قـسماته وحركاتـه وكلامـه مقابـل هـدوء «إبراهيم»، الذي شعر أنه يتخلص من محك هو الخاسر فيه بكل الأحوال.. هذا ما كان يردده صوت عقله بصمت.

- ما بك؟!. كأنك لا تسمع ما أقول!

- «سلامي» أفكر بهن.. يجوز ضيعن العنوان.. لا.. أكيد!.

- يجوز سـكرت ورجعـت نامـت مثـل مـا شـفناها مـن دخلنـا شـقة صديقتك!

هزّ رأسه قائلا بحماس:

- لا.. لا.. أنت ما تعرفهن.. ما تعرف..

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فانقض عليه، ألصقه بأذنه اليمني وأنصت.. ثم رطن بالروسية ووضع السماعة قائلًا:

- قلت لك.. «سلامي».. قلت لك.. ضيعن المكان.. هيا!.

- إلى أين؟!

رمقه باستغراب وهو ينهض من الأريكة متناولًا معطفه، وأجاب وكأن الأمر لا يستدعي مثل هذا السؤال:

- نجيبهن!.

غادر «إبراهيم» الأريكة.. نظر إلى الساعة الموضوعة على درج المكتبة.. كانت تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. ومن حافة المكتبة وخلف زجاج النافذة، بان الثلج المتساقط ندفًا صغيرة يهبط من فوق غطاء مصباح الشارع المتدلي. تابع الندف الصغيرة المدورة في هبوطها البطيء، وهي تختفي خلف حافة النافذة السفلية غير آبه بصوت «شيركو» المهموم يستحثه على الإسراع. أحس بغبطة من يستيقظ من حلم جميل، ويظل مناخه عالقًا بالحواس.. فهاهو يشرع في الخروج في ليلة ثورة أكتوبر المثلِجة عام 1991 بصحبة شاعر مجنون، بحثًا عن امرأتين رآهما أول مرة في الظهيرة.. غبطة من تخلص تمامًا من مشاعر الذنب الدونية.. وكأنه لم يتزوج قط، ويعيش كل تلك السنين القاحلة مع امرأة واحدة، أوهمته أن الدنيا دونها خواء.. لم يزل يحبها.. أو يظن هكذا.. لكنه يعيش غبطة عصفور أفلت من قفص إلى رحابة السماء.. شعور قوي أحاله إلى لحظة تشبه هذه،

حينما طاردهم الجيش في الأنفال حتى دخلوا الحدود التركية.. غبطة الخلاص المزدوج من المؤسسة الحزبية، ومن موت كان شبه أكيد. وقتها حضنها بقوة في الظلام الدامس قائلًا:

- لقد نجونا!

لبس معطفه الثقيل.. ودرج خلف «شيركو»، الذي فتح باب الشقة وبدأ النزول على السلالم.. أغلق الباب وتبعه. عندما جاوز باب البناية الثقيل المزدوج لفحته الندف البيضاء، فسكنت خطاه محدقًا بدهشة في البياض الغامر كل شيء، الأبنية.. الأشجار.. لعب الحديقة.. العشب.. النوافذ والأبواب.. اندفع خلف «شيركو» مستمتعًا بغبطة فريدة، هي مزيج من شعور بالتحرر من قفص أخر.. ولذة دخول عالم عاشه في مطلع حياته بعالم الروايات.. ولذة مصاحبة صبي مجنون.. وغرابة القصة وهما لا يعرفان إلى أين يتجهان..

كان «شيركو» يشتم ويلعن كلما مرَّا قرب محطة أو موقف حافلة فارغ.. أوقفتهما عدة مرات دوريات الشرطة..كان «شيركو» يستعين بهم سائلا عن المرأتين دون جدوى.. قرب الساحات ومحطات المترو، شاهدا عديدًا من طوابير البشر واقفة أمام بوابات مغلقة، تذكر «إبراهيم» أنها محلات كان يشتري منها الفودكا، فتعجب من ذلك؛ فالمحلات تفتح أبوابها في الثامنة صباحًا، فلماذا يقفون طوابير طويلة منذ الثالثة.. قال لـ «شيركو» ذلك.. فذهب نحو طابورٍ وعاد ضاحكًا؛ ليقول:

- «سلامي».. هؤلاء رفاقنا العمال الشيوعيون الروس.. يقولون : إن الاحتفال بثورة أكتوبر تقليد مقدس لديهم، وهم هذه الأيام لا يستطيعون

شراء الفودكا بسعر السوق السوداء؛ لذا يبكرون كي يحصلوا عليها بالسعر الرسمي.. تخيل «سلامي».. تخيل.. خمس ساعات تحت الثلج من أجل قنينة فودكا!..

- يا للمساكين!

قالها «إبراهيم» دون عاطفة.. قالها بغبطة الحالم.. كان فعلًا يعيش التفاصيل كالسائر في نومه.. ناظرًا بعينين سارحتين إلى «شيركو» الذي ينفجر بين مكان مفترض لهن ومكان ثانٍ غاضبًا لاعنًا.. ظلَّ مدهوشًا من حرارة مشاعره العاصفة وكأنه عاشرهن كل العمر. بعد ساعة من الدوران في الشوارع والساحات، التفت نحوه قائلًا:

- ما الحل؟!.

ردّ «إبراهيم»:

- نعود إلى الشقة، فسوف يتصلن مرة أخرى، فَضَبط اسم الشارع ورقم البناية والشقة!.

حتى تلك اللحظة كان «إبراهيم» يظن أن ما يجري يشبه الحكاية، لكن ما أن عادا إلى الشقة وجلسا منهكين على الأريكة حتى رنَّ الهاتف. وصف لهن المكان وأرقام الشارع والبناية والشقة.. بعد دقائق ضج جرس الشقة عنيفًا، جعل «شيركو» يقفز نحو المدخل سائلًا عن الطارق، ليتأكد خوفًا من مافيات السرقة الروسية، التي انتشرت تلك الأيام بكثافة. جاء صوت صاحبته الغنج المبتهج بالوصول.. فتح الباب.

كان «إبراهيم» يقف مستندًا إلى إطار باب الغرفة الوحيدة، يحدق غارقًا في غبطته بالوجه الجميل الطفولي للسمينة، التي كانت تلهث موشكة على الاختناق من جرّاء السير الطويل وسلالم الطوابق الثلاثة. لكن عندما وقع بصرها على «إبراهيم».. ابتهجت.. وهرعت نحوه هاذية بالروسية مفردات يعرف طرفًا منها.. تعني حبيبي.. حياتي.. ومثل من يستيقظ من حلم أطل على وضعه البشري وقصته، وكأنه أغلق صفحات الرواية، فقابلها بحياد.. أعطاها خده بدل شفتيه لتطبع قبلة من نار. وجلس جوارها على الأريكة متحاشيًا الالتصاق بجسدها المتوقد متجاهلًا نظراتها المتوسلة، والغبطة الغريبة، غادرته فجعل يحدق بحياد فيما يجري قائلا في سره:

- لا تنحط.. فهل من المعقول أن تستبدل شريكة عمرك الجميلة بهذه الكتلة المشوهة التي لا تعرفها.. لا تنحط.. ولا تنقَدْ للشاعر الممسوس!

تلبك الجو.. والسمينة جعلت تتوسل، فشخص «شيركو» نحوه بعينين غاضبتين قائلًا:

- ليش تأذي المسكينة.. جننته وتتركها.. «سلامي».. معقول خطية!.

- لا تحرجني.. ولك ما عندي كل رغبة في مضاجعتها!

لا يدري بماذا وشوش بأذنها.. لكنه رجاه كي يدعها تنام جواره على الأريكة أو الأرض، قائلًا:

- إنها تقول فقط كي أسمع أنفاسه!

كان «إبراهيم» تلك اللحظة يأسره شعورٌ عميق بالذنب، أرجعه إلى القفص القديم البعيد في الدانمارك. كان محاصرًا بأنفاسها، ملمس جسدها

الأبيض الناعم، لهاثها، أنفاس أولاده، أنفاس القصة في الجبل والمدن ومعسكرات اللجوء.. محاصرًا بالضمير الجمعيّ.

- لكن لا أريد يا حبيبي!.

- يعني أقول لها ذلك

- نعم!

صمت دقائق قبل أن يخبرها، تكسرت قسماتها ألمًا قبل أن تنفجر في نحيب عاصف، وكأنها فقدت أعز مخلوق.. شخص نحوه بعينين تقدحان بالنار قائلًا:

- «سلامي».. أ أنت قاسٍ إلى هذا الحد؟!.

- ...

حملق في كتلتها العظيمة الناحبة، في وجه «شيركو» الموشك على البكاء، في وجه التترية المحزون ، التي راحت تربت على ظهرها في محاولة لتهدئتها.. توارى شعور الذنب الخاطف للمشهد الدرامي الغريب الدائر تحت عينيه، ليس ثمة ممثلون، ثمة بشر يتألمون حقًّا. رفيقه الحميم، صاحبته التترية، وصديقتها السمينة الناحبة التي بدأت تهذي:

- من المؤكد أنها تستحضر حكاية عمرها الخاسرة الآن!

قال «إبراهيم» في نفسه، وقد وجد في تمنعه قسوة حقًّا:

- ما الضير في منح هذه الكائنة البائسة لحظات سعادة عابرة ولمرة واحدة فقط!؟

فكر في نفسه وتساءل:

- أليس من الأنانية ترك هذه المسكينة تتعذب؟!.

لم تكف عن النحيب، بل تصاعد مع محاولات «شيركو» والترية مواساتها.. لا يدري بما كانت تهذي به.. وبأية كلمات كانا يواسيانها، لكنه تأمل الكتل الثلاث المهمومة المعذبة بوجوهها النازفة ألمًا.. وكفوفها الحائرة في تنقلها بين العيون والخدود والظهر وكأنها تعين الكلام. كان يرمقه بين الحين والحين نظرات لوم متمتمًا بالعربية:

- شوف.. شوف!

صار شديد الفضول، فسأل:

- ماذا تقول؟!

كان يمسك بذراعها التي تحاول ضرب وجهها:

- «سلامي» تتمنى الموت!.

عصفت به رغبة في الضحك شديدة.. كبتها بعناء مسرعًا إلى المطبخ ليصب كأسًا كبيرة من الفودكا. عبها دفعة واحدة وتمنى لو تلبسه روح «أسعد» التكريتي، الذي عرف كيف يصور حياته قبل أن تنفجر.. صب كأسًا أخرى. وسرى بجسده خدرٌ لذيذ سامعًا النحيب واللغط بالروسية يأتي من الغرفة. اقترب من نافذة المطبخ المطلة على الغابة البيضاء. تأمل سكون الأشجار وندف الثلج كفت عن التساقط. رجع إلى الغرفة.. وجدَ الكتل الثلاث لم تزل مشتبكة الأصابع تلغط، قال بهدوء:

- سأدعها تنام جواري، لكن هذي أخر مرة أراهما فيها!.

- مثل ما تريد.. آخر مرة!.. أخر مرة .

وهبط جالسًا جوارها على الأرض هامسًا بأذنها.. توقفت عن البكـاء.. وحدقت نحوه بعينين فرحتين، غـير مـصدقتين. مـسحت دموعهـا ببـاطن كفيها.. تمسكت بحافة الأريكة كي تُنهِض كتلتها العظيمـة.. أخـذت رأس «إبراهيم» وقبلته. وقالت شيئًا لـ«شيركو» الـذي أسرع إلى المطـبخ وجلـب خبزًا وقطع لحم.. أكلتهما بفرح. أحس «إبراهيم» بإنهاك ورغبـة في النـوم.. قامت لتفرش في زاوية الغرفة البعيدة بكل نشاط. عـدلت وضـع الفـراش ونظرت نحوه برغبة.. تجاهلها وخطا نحوه ليستلقي جـوار الحـائط معطيًـا ظهره لها. أطفأ «شيركو» الضوء ونام على السرير الضيق مع التترية. لبث في العتمة جامدًا مفتوح العينين يحدق بالحـائط الفـارغ، ويـنـصت إلى أنفاسـها اللاهثة القادمة من خلفه.. قدر أنها تنتظر نوم الآخرين كـي تقـترب منـه.. جرى الأمر بالضبط مثلما قدر.. زحفت بذراعها أسفل ظهره.. دفعهـا أول مرة بعنف، لكنها عاودت الكرة مرات إلى أن لانَ قليلا.. قليلا:

- سأدعها تفعل ما تريد!.

قال أخيرًا في نفسه مستسلمًا لأناملها الخبـيرة ليعـيش تجربـة جديـدة. عـلى ضوء الفجر المتسلل من النافذة المجـاورة، في الفـضة الباهتـة المختلطـة بعتمـة الغرفة وجد نفسه يركز على قسمات وجهها التـي بـدت شـديدة الفتنـة وهـي تذوب.. كان يخوض فيها متتبعًا دوائر اللذة المنحدرة من خط منتصف الوجـه إلى جانبي القسمات، وينصت لأنفاسها الناهجة، التي تكتم بعناء صراخ اللـذة كي لا توقظهما.. كان ينفذ نصيحة «أسعد» بالضبط.

استيقظ في الصباح وكأنه هبط من عالمٍ آخر على صوت يغني بالروسية قادمًا من المطبخ.. فرك عينيه وأمعن النظرَ من جديد بأرجاء الغرفة. لم يكن هنالك أحد.. سمع وقع أقدام تقترب. ظهرت من باب الغرفة بوجهها المتلألئ المسرور، وكأنها أسعد امرأة في العالم.. وخلفها وقف «شيركو» وعلى وجهة ابتسامة خبيثة، ينظر نحوه بعينين ثعلبيتين، وكأنه يقول رأيت البارحة كل شيء. كان «إبراهيم» غير مكترث، لكن ودّ لو يبقى وحيدًا.. ظل مرتبكًا واجمًا إلى أن نهض الثلاثة قائلين:

- سنخرج!

عندما أُغلق الباب، وجد نفسه وحيدًا من جديد.. ليس مثل تلك الوحدة عندما تركته وطارت إلى السماء، بل كان متشوقًا للدخول في المزيد من المغامرات في هذا العمر الفقاعة.

.. فليرْمِها بحجر

تمدد «إبراهيم» مسترخيًا على الأريكة يحدق في الصباح. لبث إزاء النافذة ساعات.. ينصت بسكينة تامة إلى الأصوات الخافتة القادمة من الخارج.. ينصت مستمتعًا بالوحدة، وهو يستعيد أصغر تفصيل منذ طيرانها مع طفليهما إلى اللحظة التي خرج فيها «شيركو» مع المرأتين.

أقل من شهر، انفتح له عالم عجيب كان يفور في الخارج.. بينما يقبع هو في زاوية منسية مملة معتمة، تثقل زمنه القصير بتفاصيل شديدة التفاهة عن لعب دور الزوج الوفيّ والأب الصالح، وتقنين الحياة في مواعيد محسوبة: النوم والأكل والجنس.. ولولا تجربة كردستان التي جعلته يتصارع مع المحيط، في مواجهة الخطر الكامن بقصف الطائرات اليومي، شبح الموت الحائم مع كل مفرزة يعبر فيها كمائن، التجمد في قمم الجبال في عز الشتاء، ومقاومة رجال العصابات المحرومين، وهم يحاولون الإيقاع به.. لما ظل قابعًا في تلك الزاوية، التي سرعان ما اكتشف عاديتها وثقل قيودها في دمشق؛ إذ تحولت فيه الزوجة إلى رقيب يحسب عليه كل خطواته وتصرفاته..

سنة واحدة أطل منها على بؤس المؤسسة.. لكنه كان محاصرًا بعيون طفليه وتاريخ تعلقها المجنون به وغموض مصيرهم.. لكن بعد طيرانها ووصولها إلى الدانمارك بكل ما يحمله ذلك من أمان وجد نفسه مهيأً لخوض غمار هذا العالم الذي ظل ثاويًا في أعماق نفسه يتوق إليه، توقه القديم عندما كان يحلم في صباه ، وهو يتدله بالقراءة ، بالعيش في أمكنة بعيدة غريبة وسط أقوام آخرين..

هاهو حلم يقظته الذي رافقه منذ الطفولة والصبا يتحقق بالضبط.. وسط الروس في شقة بطرف موسكو وحيدًا، يتسكع في الأمكنة والزوايا والأسواق شاردًا حالمًا دون أن تثقله الهموم، يدور دون أوراق تثبت شخصيته، لا يدري، ولا يهمه ما تخبئ له الأيام.. يتجول مستعيدًا لحظات حلمه الشارد القديم، وهو يعانق الوجوه الغريبة، الملفوفة بالأسرار، الراطنة بلغتها المبهمة.. يبادل كل من تلتقي به عيناه البسمة..الشيوخ والعجائز، الشابات والأطفال، ويروح في لعبة ممتعة متخيلًا قصص حياتهم المختلفة، مرتبًا حكايته الخيالية حسب انفعال الوجوه وما تشي به القسمات من تكوين..

لعبة ممتعة يمر فيها الزمن خفيفًا جميلا.. ممتعًا مع البيرة وكؤوس الفودكا، التي يتناولها بشكل متقطع طوال الليل والنهار.. يساعده في غزارة الأخيلة الكم الهائل من الروايات، والتي قرأها عن حياة الروس منذ «ديستويفسكي» حتى «إتيماتوف».. قصص المناضلين الشيوعيين الأوائل في «أم» «مكسيم غوركي»، قصص الأنصار الروس في الحرب العالمية الثانية، التي كانت تملأ

مكتبات قواعد الأنصار في كردستان، كان يشعر أنه يفهم ما يقولونه رغم معرفته القليلة جدًّا بالروسية، يتجول بنشوة الحالم.. ثم دخوله العاصف من قاعها المنسي.. المتشردة السكيرة ثم الشاعر وبائعتي الخضرة..

- مدد.. مددددددددددددد!

قفز من الأريكة صارخًا وهو يشعر بغبطة طير يجوب الأعالي. وركض مثل مجنون نحو المطبخ.. تلقف قنينة الفودكا وصب كأسًا.. أفرغها في جوفه دفعة واحدة وصب الثانية والثالثة.. ظل يعب ويصرخ، يعب ويهذي من غبطة لم يسعها قلبه الصغير.. استعر صراخه، صار مبهمًا وكأنه يصدر من حيوان بري لحظة تساقط ندف الثلج بكثافة من جديد.. يصرخ ويهذي ناطقًا بأسماء أشجار ..بشر.. سواقي ماء.. بساتين.. يهذي ويصرخ إلى أن سقط على السرير، وراح في نوم عميق.. ليفز عند منتصف الليل محدقًا حواليه في أشياء الغرفة الغارقة في عتمةٍ باهتةٍ .. في السقف.. في النافذة.. في كفيه المتيبستين متسائلًا:

- أين أنا؟!

وقليلا.. قليلا عادت به أشياء الغرفة والنافذة، وندف الثلج التي لم تنقطع وبقايا بخار السكر ؛ إلى غبطته التي ما زالت قوية، فنهض نشطًا يصرخ من جديد، وهو في طريقه إلى المطبخ لملء كأس أخرى من الفودكا صبها في جوفه، ثم انطلق يدور بين المطبخ والممر والغرفة ، يغني بصوته الأجش.. يغني ويشرب.. يصرخ ويشرب.. يضحك قائلا:

- مرة واحدة.. مرة واحدة خلصت من الحرب بالجبهة والخوف من كلاب السلطة.. ومن الحزب ورجال العصابات والموت بالجبل.. ومن

العائلة.. مرة واحدة.. مـددد.. مـرة واحـدة.. ولكـم صرت طـير.. والله طير.. شوفوا راح أطير.

وراح يدور بأرجاء الغرفة رافًّا بذراعيه.

كان أحيانًا يصحو قليلًا من دوار الغبطة والسكر، فيجد نفسه وحيدًا وسط الشقة التي عاد الغبار يتراكم على الأرض والأريكة والسرير والمكتبة والحيطان وكل شيء.. يقترب من الهاتف الميت المغبر متسائلًا:

- وين صار «شيركو»؟!

فمنذ هبوطه بئر السلم في ذلك الصباح لم يظهر، ولم يتصل.. وكأن كل ما جرى لـ «إبراهيم» كان حلمًا أو أخيلة سكر، رواية قرأها منذ زمن بعيد، يفزعه الصحو والغبار، صمت الشقة والنافذة المطلة على سكون أشجار الغابة الشاهقة الواقفة بسكون لابسةً ثوبها الأبيض الناصع وكأنها نذير موت.. تفتح بابًا إلى تفاصيل عمره العنيف.. في دوامة الدم بجبهات قتال الحرب مع إيران وفي الجبل.. في المعتقلات حيث فقد أخاه وأعز الأحبة.. دوامة جعلته يغامر في محاولة للحفاظ على كينونته، التي كان أو ظن أنها تكمن في العائلة؛ ليكتشف هنا في موسكو أنها كانت وهمًا آخر من أوهام العمر الفقاعة.. يتلفت في الخواء المحيط به، في الصمت، في وضعه البشري شديد الاضطراب، يصرخ بغتة:

- الصحو جحيم.. جحيييييييييييم!

يصرخ في طريقه إلى المطبخ والقنينة ليحيي دورة الغبطة؛ كي يستعيد جناحيه.. لا يدري كم من الزمن مرَّ عليه.. بين الصحو الطارئ.. وغبطة السكر العاجِّ بأحلام اليقظة. اختصر أوقات خروجه إلى محل بيع الخمور القريب. وذات ليلة طُرِق الباب طرقًا شديدًا جعله يستيقظ من غفوته.. انتظر قليلا ليتأكد.. فعاود الطرق أكثر شدةً. قرر أول الأمر عدم فتح الباب، فالوقت أول المساء وهو الموعد الذي تأتي فيه عادةً المتشردة الروسية. أراح ظهره على مسند الأريكة متجاهلا القرع؛ الذي تواصل مما جعله يغادر جلسته مقتربًا بحذر من الباب، فسمع صوت بالعربية يقول للآخر:

- خاف مات صاحبنا ياول .

عرف به صوت «أسعد» التكريتي.. فتح الباب فوجد أكثر من ستة رفاق يقفون خلف «أسعد» ضجوا حالما رأوه، حضنوه واحدًا.. واحدًا، ودخلوا.

لم يعد وحيدًا.. تحولت الشقة إلى ملجأ حقيقي لكل من يجد نفسه دون سكن في موسكو من «البيشمركة» القدماء؛ خصوصًا من تلك الوجبات التي كان الحزب الشيوعي يرسلها في بعثات إلى الاتحاد السوفيتي الموشك على التفتت وقتها.. عشرات من النساء والرجال ممن قاتلوا في الجبل وتعبوا كانوا يتخلصون منهم في بعثة لغرض الدراسة.. وآخرها كان أثناء وجوده في الشام، قبيل حرب الخليج الثانية أي عام 1990؛ حيث بعثوا أعدادًا كبيرة جدًّا من أولئك المقاتلين كبار السن ؛كي يواصلوا دراسة كانوا قد قطعوها قبل أكثر من ثلاث عشرة سنة..

سيكتشف لاحقًا أن قبولهم لم يتم بسبب كونهم رفاق نضال.. بل إن منظمة الحزب في موسكو رشت الموظفين الروس ممن كانوا في لجان القبول.. عشرات منتشرون في مدن وجمهوريات بعيدة لم يستطيعوا إكمال دراستهم.. كانوا متعبين.. أعداد منهم جرحوا أو أصيبوا بغازات سامة في «الأنفال».. أعداد أخرى خرجت بوقت أبكر.. أنهكها القتال بين الثوار أنفسهم، والذي كان يحتدم بين الحين والآخر طوال الثمانينيات قبل «الأنفال» بين «الطالباني» من جهة و«البرزاني» والشيوعيين من جهة أخرى..

أولئك المساكين وجدوا بالشقة مكانًا يبيتون فيه ليلتهم، وهم يقابلون لجانًا من الأمم المتحدة؛ كي يحصلوا على توطين في بلد آخر. عادت الأيام التي يبيت فيها وحيدًا نادرة. أسعده ذلك وأحزنه في الوقت نفسه.. فقد تخلص من وحشة الصحو المرعب، ولكنه خسر غبطة الأجنحة في السكر وأحلام اليقظة.. في المقابل انغمر في حوارات عنيفة مع المقاتلين القدماء، الذين وجدوا بالشقة منتدىً للحوار، أوجد مناخًا جعلهم يصارحون بعضهم عن همومهم، وما كان يثقل كاهلهم في التجربة العنيفة..

كانوا لا يستطيعون التعبير عن تلك الأفكار والأحاسيس هنالك في الجبل خوفًا من السجن كما حدث لعددٍ من المقاتلين الشبان في أعقاب مذبحة «بشتاشان» ممن وجدوا في توريط المقاتلين بقتال داخلي جريمة، جهروا مطالبين بإجراء انتخابات علنية لاختيار قيادة جديدة، فكان مصيرهم السجن والتعذيب حتى أن أحدهم، ويدعى «منتصر»، مات تحت التعذيب بيد رفاقه. أما البقية فقد تشتتت بين متمرد تطرف وانسل إلى

إيران، مكونًا تجمعًا شيوعيًّا صغيرًا شديد التطرف، ومن أُذِلَّ فبقى في المقرات يعاني هستيريا تشبه الصرع بين الحين والحين، عرف إبراهيم بعضًا منهم، كان أحدهم في الموقع الذي كان فيه.. حاول مرات عدة جره إلى الكلام عن تلك التجربة، فكان يلتفت حواليه مذعورًا.. قبل أن يحدق نحوه بعينين فزعتين قائلا:

- الله يخليك غيِّر هذا الموضوع!.

ثم يلوذ بصمته، وقسم أُبعِدَ إلى الخارج.. التقى «إبراهيم» بأحدهم لاحقًا، وسمع منه تفاصيل ذلك الرعب الذي عاناه في فترة التحقيق، في سجن غرفة من الطين والحجر بموقع على الحدود الإيرانية بقاطع «أربيل». كان سقوط التجربة السوفيتية ووضع الروس، الذي احتك به المقاتلون محرضًا على إعادة النظر فيما كان يجري من تفاصيل في تجربة الجبل.. يضاف إلى ذلك الفودكا وما تمنحه الخمرة للإنسان من شجاعة .. زائدًا بوح «إبراهيم» و«أسعد» و«شيركو» الذين، كل حسب تجربته، شجع الآخرين على البوح. في جلسة، حدثهم «إبراهيم» عن كيفية تعامل البيشمركة مع المعتقلين.. عن ذلك الإذلال المريع لهم بسلوك يشبه سلوك سجانيه في المعتقل:

ردّ أحدهم:

- لكننا نعاملهم بالمثل!

- وتلك الخطيئة الكبرى!

جاوب «إبراهيم»، وأردف:

– قد أوافقك في تبرير العنف المقابل رغم عدم إنسانيته وشرعيته.. لكن اسمع ما سوف أحكيه لك. في ليلة من الليالي حصلنا على قنينة خمر وتعرف أن الشرب ممنوع.. لكن كان مكتب فصيل هم من دعوني. وبعد عدة كؤوس شربناها في البستان المجاور، قال مسؤول المكتب لي:

– أتريد يا «إبراهيم» تنفس شوية عن نفسك!.

لم أفهم فقلت له:

– ماذا تقصد؟!

قال:

– أنت معتقل أكثر من مرة وذقت ضربهم.. تعال بوقت حراستي بعد ساعة، واضرب مثل ما تريد وأش لون ما تريد. أختره واحدا من العملاء، أتريد تدخل جوه لو تريد أطلعه وتأخذه على التل وتموته ضرب!.

رفضت عرضه، مدركًا أي ذلٍ يومي يمارسه هذا الرفيق وأمثاله من تلك الكائنات المسكينة القابعة في عتمة غرفة معتمة، شباكها الوحيد فتحة دائرية بحجم مرآة مدورة صغيرة، حتى أن لون بشرتهم صار بلون الزعفران.. الضرب هنا ليس له علاقة بالتحقيق.. بل ممارسة سادية كان يضحك لها بعض الرفاق.. لا يضحكون فقط، بل كانوا يتندرون بها ملتذين.. أليس كذلك؟!

– ...

– لم تسكت؟!

- ..

- كنت واحدا منهم؟!

سيشاهد «إبراهيم» بعد أكثر من عشرة أعوام، وهو في المصحّ ذلك الشخص نفسه، الذي دعاه إلى وليمة التعذيب، يعود بطائرة خاصة في برنامج بثته قناة «العربية» الفضائية عقب سقوط «صدام» على يد الأمريكان؛ حيث اصطحبته من مطار الأردن إلى مطار بغداد إلى مدينة الثورة، وكان يذرف الدموع قبيل اللقاء بإخوته في بيت فقير بمدينة الثورة ببغداد. وسوف يشاهده لاحقًا أمام عدسات التلفزة يقف خلف «عدنان الباججي»، قياديًّا في حزب ديمقراطي عراقي.. شاهده صدفة في المصحّ فعفط عفطةً عظيمة على ديمقراطية الأحزاب الجديدة؛ مما جعل الممرضة تهرع إليه متسائلة:

- ماذا أصابك؟!.

- لاشيء.. لاشيء!.

ردد متمالكًا أعصابه.

تحولت شقة موسكو إلى منصة للتطهر.. جعلت كل من يحلّ فيها يعترف بما اقترف أو عانى من فظائع، عندما كان يقاتل من أجل مدينة العدل والفضيلة. قال «أسعد»:

- اسمعوا يا جماعة.. تدرون بماذا اعترف لي «أبو سنية» في الأوردكاه بإيران.. قال لي : والله ظلمناكم.. يقصد أنا وابن عمي. ما سَلَخْناكم.. ولما انسحبنا بالأنفال خليناكم تمشون بالمقدمة خاف توقعونه بكمين!.

يبدي الجالسون امتعاضهم.. فالأمر جريمة بحق «أسعد» وابن عمه. فالصدف وحدها جعلتهم ينجون من نار الجنود العراقيين المهاجمين، وبنادق الرفاق المصوبة نحوهما من الخلف.. قال «نادر» الذي كان صامتًا طوال الجلسة:

- احمد رَبَّكْ.. فكل ما جرى لك ما يساوي شيء، قياسا بما جرى معي قبل خمس سنين عند التحاقي!.

شخصت العيون نحو «نادر» منتظرة.. تضرج وجهه وابتدأ ينضح، بدا أنه تورط في الكلام. لما طال صمته حثه «أسعد»:

- ما تحكي؟ بعد منين خايف.. كلها شهر شهرين، وراح نتفرق بين الدول!.

ركَّز «إبراهيم» نظره على كتلة« نادر» التي صغرت تحت وقع العيون المحملقة بفضول.. فهو يعرفه عن قرب.. يشتركان في الاهتمام بالأدب والكتابة، وأسرا لبعضيهما عن أمكنة عيشهما في المدن. فعرف أن «نادر» من البصرة، التحق في أواخر1981. ولكنه لم يخبره عن التجربة التي تبدو مريرة.. لاحظ أن «نادر» يفرك كفًا بكف مثبتًا عينيه القلقتين على المنضدة المكتظة بالكؤوس. امتد الصمت لدقائق أخرى.. قبل أن يرفع بصره نحو «إبراهيم» وكأنه يستنجد به، ابتسم مشجعًا وملأ له كأسًا من الفودكا.. تناولها بأصابع ترتعش ودلق كل ما بالكأس في جوفه.. أغمض عينيه وارتد متكئًا على ظهر الأريكة وكأنه يستجمع قواه، ثم فتح عينيه واعتدل في جلسته قائلًا:

- هربت من الجبهة. وبقيت مختفي أكثر من سنة. ما أعرف وين أروح.. ثقلت وجوه الأخوة والأخوات والأقرباء اللي كنت أتنقل بين بيوتهم..

وكنت أحلم بالوصول إلى كردستان والقتال بصفوف الأنصار اللي كنا نسمع أخبارهم من إذاعة صوت العراق من دمشق.. وصدفة التقيت بزميل دراسة كردي من أيام الجامعة. سألني عن أحوالي فأخبرته، وكان يعرف قربي من الشيوعيين فسألني : لماذا لا تلتحق بهم في كردستان؟ قلت له: هذا حلم.. كيف الوصول إليهم؟ ضحك وقال: أنا أوصلك.. قلت له بلهفة: كيف؟.. قال: يدخلون لقريتنا القريبة من العمادية بالليل.. ويتوزعون ببيوتها، يأكلون وينامون ويطلعون قبل الفجر..

تواعدنا بعد يومين في بغداد.. رتبت كل أموري.. وأخذني إلى قريتهم. ما أريد أطوّل الموضوع كيف عبرنا نقاط التفتيش اللي تيبس دمي مع كل وقفة.. وكيف أخذني إلى أماكن وقرى مختلفة، قبل أن نصل بسلامة إلى تلك القرية. مرت عدة أيام قبل ما تمر المفرزة.. ما تدرون كم فرحت لما شفت الرفاق بأسلحتهم في جامع القرية.. دمعت عيوني وأنا أسلم عليهم.. أخبرهم زميل الدراسة الكردي بقصتي. فأخذوني معهم عند الفجر.

قطعوا بي جبالًا وعرة ووديانًا وسهوبًا إلى أن وصلنا إلى إحدى القواعد.. وبعد يومين استراحة بدأ التحقيق معي. ومن سوء حظي، لم يكن في القاعدة أحد من شيوعيي البصرة يعرفني.. ظللت أشرح بالتفصيل عن الحياة بالبصرة ذاكرًا عشرات الأسماء التي أعرفها، ووصفت كيف جرت حملة 1981 وفصلت كل شيء عن حياتي. لكن لم يصدقني أحد وشككوا في كل ما قلته.

وفي ليلة من الليالي الشديدة الظلمة.. أيقظني رفيقان: يريدوك الرفاق؟!. رابني الأمر وصدق ظني إذ ما أن عبرت عتبة باب القاعة حتى وثقا ذراعي إلى الخلف بالحبال وعصبوا عيني. تساءلت مذعورًا: لماذا؟! لماذا؟!. قال أحدهم بصوت جاف: أسكت ولك بعدين تعرف!. لا أدري إلى أين أخذوني.. فقد ساروا بي مسافة بدت لي وأنا معصوب العينين طويلة، بعدها أمروني بالوقوف. وقفت منصتًا لحفيف الأردية واحتكاك البنادق، للصمت الذي استمر أكثر من خمس دقائق، قبل أن أسمع صوتًا يقول بلهجة تهديد: «اعترف بكل شيء نعفو عنك.. وإلا راح تشوف نجوم الظهر».. جعلني التهديد شديد الغضب، فأكدت بقوة أن كل ما قلته عن نفسي هو الحقيقة. زاد التهديد وبقيت مصرًّا إلى أن أحسست بلطمة هائلة أسقطتني أرضًا، كدت أنفجر باكيًا لا من اللطمة بل انهضمت.. فلم يخطر ببالي أبدًا أن رفاقي سوف يضربونني.. لكنني لم أبكِ فقد يفسرونه محاولة لإثارة عطفهم. فلزمت الصمت، متجاهلًا صاحب الصوت الأجش.. يردد مهددًا اعترف.. اعترف.. ليعقبها بكلمات بذيئة.

كنت أردد ما قلته سابقًا بين فترة وأخرى.. مما أثار غضبهم فألقوني أرضًا وشدوا ساقيَّ بعصا وحبل، وراح أحدهم يضربني على راحة قدمي بعد أن جردني من الحذاء.. كنت أتمزق بصمت.. أتألم بصمت.. وبقيت مصرا على أقوالي.. وضعوني في السجن وهو غرفة شديدة العتمة وسط المشبوهين.. جِفِتْ وملأَ جسدي القمِل. لا أدري كم بقيت مسجونًا، فظلمة الغرفة ضيعت الأيام.. كانوا يأخذونني بالليل لأدخل الدورة نفسها.. جرِّبوا معي أشكال التعذيب.. غطسوني بحوض النبع في عِزِّ برد

الشتاء، وحشروا بين فخذيَّ، نباتا أخضر بأوراقه إبر تحرق مثل النار، شطت للسماء.. طفوا السجائر في صدري.. كل ما يخطر أبالكم سووه وياي!.

قاطعه «إبراهيم» متسائلا:

- فيم كنت تفكر.. بماذا كنت تحس؟!.

- ما كنت أفكر بشيء.. عدا أنني سوف أقتل مظلومًا بيد رفاقي. وعندما أخذوني في أحد الأيام ليلا.. ومشوا بيّ مسافة طويلة جدًّا، قال لي السائر خلفي: حُكِم عليك بالإعدام!. ونحن في طريقنا لتنفيذه. تصورته يمزح.. لكن عندما أسندوني إلى جدار صخرة. وابتعدوا.. قلت في نفسي يبدو أن الأمر جّديّ. ثم سمعت نفس صاحب الصوت الأجش يتلو قرار الإعدام كوني عميلا للمخابرات العراقية، حاول الاندساس بصفوف الثوار. سمعت صوتًا يأمر فصيل الإعدام بالتهيؤ، ليضج بعدها صوت سحب البنادق، تلك اللحظة الخاطفة ندمت على التحاقي.. على هروبي من الجيش.. وتأسفت على نهايتي.. ووجدت نفسي أصرخ هاتفًا:

- يعيش الحزب الشيوعي العراقي.. المجد والخلود للشهداء.. المجد والخلود للرفيق الخالد فهد وسلام عادل!.

لم أتوقف عن الهتاف منتظرًا رشق الرصاص، الذي أتوقعه سيخترق جسدي في اللحظة القادمة.. بما يشبه الهستريا ظللت أهتف بصوت مجنون.. إلى أن شعرت بأحدهم يمسك ذراعيّ المتخشبتين ويحل وثاقي.. ظننت أن الأمر سينتهي إلى هذا الحد، لكن الذي فك وثاقي همس بأذني

أنهم أجلوا التنفيذ أيامًا عدة. وتكرر المشهد ثلاث مرات.. وفي كل مرةٍ أصاب بهستريا الهتاف. لم يعودوا بي إلى غرفة السجن في المرة الثالثة، بل إلى غرفة القيادة ليقدموا لي الاعتذار . سأله «أسعد»:

- ما سألتهم ليش؟؟!

- نعم سألتهم قالوا : إن السلطة سربت أكثر من خمسين عنصرًا من المخابرات العراقية بالوقت بنفسه الذي التحقت به.. هذا ما اعترف به عدد من الذين انكشفوا!.

سأل «إبراهيم»:

- وبقيت من الواحد وثمانين حتى «الأنفال»؟!.

- طبعًا.. غير نضال.. بعدين حقهم الرفاق بالشك!

علق آخر:

- عِمَتْ عَينَكْ أش لون صَبرْ عِنْدَكْ!

سرح «إبراهيم» بعيدًا وهو يحملق بقسمات «نادر» الشديدة السمرة متخيلا نفسه عانى مثلما عانى في تلك التجربة، مختبرًا درجة إيمانه بالنضال فتوصل إلى.. لو أنهم حجزوه ليوم واحد في السجن لعبر الحدود بوقت مبكر إلى إيران.. أما لو ضربوه كما فعل رجال الأمن العراقي به عند اعتقاله، لظل حاقدًا إلى الأبد، ولكفر بالسياسة والأحزاب.. فاء إلى نفسه ولم يبح بهذا الشعور كي لا يجرح «نادر» المجروح أصلًا.

***

سيكتشف مزيدًا من الأسرار التي تتفتح في جلسات الشرب اليومية.. في زحمة الشقة العجيبة، سيختفي الخطاب الحماسي الذي كان سائدًا في الجبل، ليحل خطاب أكثر حيادية وأقرب للإنسان.. سيتحدثون بشجن وأسف على أصدقائهم، الذين قضوا في المعارك.. ويتمنون:

- لو لم يقتل فلان.. لكان معنا الآن!

سيطلع «إبراهيم» على أسرار.. وأسرار.. فأحدهم جاءوا به ليلًا. وقالوا:

- سيبقى لديك عدة أيام!

مذعورًا يتلفت، وجهه ورقبته مليئة بالخدوش، لا يستقر لحظة بمكان.. كان معه بالفصيل نفسه.. قليل الكلام، لا يكاد يرفع عينيه وخصوصًا عند الكلام مع الرفيقات، وفعالًا يدير الشؤون الإدارية.. ومحبوبًا من الجميع.. تبين أنه حاول اغتصاب مالكة الشقة الروسية التي يسكن عندها، فقاومته واتصلت بالشرطة التي تبحث عنه الآن. سيتحول بعض من ثوار الأمس إلى مهربي بشر، يتقاضون مبالغ سمسرة بين مافيا الروس والأحزاب، التي تسهل وصول العراقيين إلى الدول الاسكندناڤية.. سيتحول بعضهم إلى صعاليك، يشربون طوال اليوم كحال «إبراهيم».

أحدهم - وكان شجاعًا في معارك الجبل - قضى غرقًا وهو سكران بنهر موسكو في ظروف غامضة. سيختفي البعض نهائيًا..

تبين بعد سنوات أنهم تزوجوا من روسيات في بقاع متفرقة، هاجرين كل حلم عدا العيش بسلام وتكوين أسرة.. ستبقى الشقة تحتشد كل ليلة

بالجدل الحاد.. لكن «شيركو» لم يظهر.. مرّ أكثر من شهر ولم يظهر. كان غيابه يقلق «إبراهيم».. كان يتمنى حضوره الجدل والنقاش المتفجر كل ليلة والذي طال كل شيء في كردستان..

في ليلة من الليالي العاصفة تلك.. تحلق خمسة حول المائدة في الشقة. وكان «هوشيار» المستشار السياسي للفصيل المشرف على سجن قاطع بـ «هدينان» حاضرًا.. يحملق عبر زجاجتي نظارته الطبية بقلق طوال الوقت.. ازداد نحولا وشحوبًا.. وعندما سأله «إبراهيم» عن سبب ذلك النحول، قال: من الروسيات أصبت بكل أنواع الأمراض الجنسية.. أريد أعوض سنين القحط بالجبل.. أريد أعوض وعمري فوق الأربعين.. أريد أعوض يا «إبراهيم»..

كان كلامه يثير عاصفة من الضحك والتعليقات البذيئة.. إنه نفس الشخص الذي كان يوفر «العرق» سرًّا في كردستان، ويدعو «إبراهيم» إليه في البستان المجاور، الذي عرض فيه المسؤول العسكري مرات كي يأخذ ثأره من العملاء المسجونين..سأله «إبراهيم» عن مصير السجناء بعد قرار الانسحاب في الأنفال فأجاب:

- ما أدري نقلوهم إلى الفوج الثالث!.

قال أحد الرفاق الشباب:

- صفوهم قبل الانسحاب بساعتين!

سقط صمت مباغت، فالكل يعرف السجناء عن قرب وقت الحراسات، وهم يقطعون الحطب، أو يخبزون الأرغفة، قطعه «هوشيار» بصوت ملهوف:

- من وين سمعت؟!

تبّسم الشاب بملامحه الناعمة الجميلة رادًّا :

- كنت هناك!

تساءل« هوشيار» لاهثًا:

- أخبرني عن الأمر بالتفصيل.. بالتفصيل!.

- خلف مقر الفوج الثالث بوادٍ عميق، حفروا قبورهم بأنفسهم.. كان بعضهم يبكي..وبعدين رميناهم!

-...

- كنتُ أحدَ الرامين!

قالها بنشوة عمّقت الصمت.. وجعل الكل يحملقون نحوه بعيون مرتبكة. أدار «إبراهيم» عينيه في وجوه الحضور، فاجتذبه وجه «هوشيار» الذي ازداد شحوبًا.. وابتدأ يرتجف بكل جسده.. وبعناء كان يحاول قول شيء.. ناضل مقاومًا حتى يستطيع السؤال:

- حتى «رعد»!

- ...

رأى «إبراهيم» وجه «رعد» بوضوح.. كان خبازًا ظل طوال فترة سجنه يعد التنور ويعجن ويخبز.. شابٌ ابن السابعة عشرة ورطه خاله، الذي يعمل بالمخابرات ليندس وسط الثوار.. اعترف بعد عدة أيام.. وظل

مسجونا من عام 1981 حتى 1988، فارتبط مع الثوار بعلاقات حميمة، وكان يفضي لهم بهمومه الصغيرة، ويكرر «كل شيء ولا تعدموني بعدني شاب صغير»..

صاح «هوشيار» بصوت مرتعش، وهو يرتجف ويلهث كأنه على وشك الاختناق:

- ليش ساكت.. حتى «رعد»!

- نعم حتى «رعد»

انفجر «هوشيار» ببكاء عاصف، وأخذ يلطم على جبهته، فوقعت نظارته على الطاولة، كان يردد:

- ليش.. ليش.. ليش؟!.

إلى أن سقط على الأرض منهكًا، حملوه إلى السرير المنزوي بطرف الغرفة، وعادوا ليكملوا الحوار والشرب، محاولين الوقوع على سر انهيار «هوشيار» المباغت.. وسر علاقته بالقتيل «رعد» دون جدوى.. فقد كان طوال الوقت يشترك في التحقيق ويشرف على السجن.. في تلك الأثناء قرِع الباب، فقام «إبراهيم».. سحب ضلفته وصرخ بفرح.. كان «شيركو» يقف فاتحًا ذراعيه، فأعتنقه دون أن ينتبه إلى الواقفين خلفه.. الأولى «جميلة» رفيقة قديمة يعرفها من أيام الجامعة، فارقها ليلتقي بها في كردستان فترة قصيرة جدًّا.. وجدها متعبة جدًّا، تلزم الصمت طوال الوقت، علم من الآخرين أنها عاشت تجربة عنيفة عند أسرها من قبل قوات «جلال الطالباني»..

وقتها حثها على الكلام، ولكنها رفضت بهزة من رأسها وقسمات تكسرت ألمًا وكأنه نكأ جرحًا دفينا.. لم يمهله الوقت، إذ سارعوا ببعثها في زمالة دراسية إلى موسكو، بعد مقتل ثلاثة إخوة من إخوتها بالمعارك.. الآخر «وسام» ، الذي شعر «إبراهيم» بغبطة لمقدمه في هذه الليلة، وفي مناخ الموضوع المتأجج المستمر منذ انهيار هوشيار، فرحب بهما مركزًا على «وسام»:

- بعثتك السماء هذه الليلة.. بعثتك السماء!.

قالها متجاهلًا نظرات «شيركو» المستغربة.. عانق الرفيقة مرحبًا، ومن خلف ظهرها غمز له بعينه اليسرى بخبث، فهو يعرف أنه مستغرب من استقباله الحار لـ «وسام» فهو في الجبل لم يكن يبادله حديثًا.. بل لاحظ في كثير من الأحيان أنه كان يتحاشى الحديث معه أو التواجد جواره في المكان نفسه، حتى أنه لم يبد أسفًا لإصابته بطلقة دوشكا شلّتْ ذراعه، عندما عثرت على سريتهم طائرات الهليكوبتر جوار قمة من قمم جبل كارا، فقُتِلَ أكثر من عشرين مقاتلًا.. وقتها سأله عدة مرات عن سبب جفائه ذاك، فكان يهز رأسه ويقول:

- مزاج يا عزيزي مزاج!.

كان «شيركو» يحدق نحوه بريبة قائلا:

- تضم عليّ شيء يا «سلامي»..

يضحك ويرد هاربا من الموضوع:

- قلت لك مزاج فقط!.

لخص «إبراهيم» للقادمين ما جرى من حوار حتى سقوط «هوشيار»، فاتسع النقاش الدائر حول السؤال، الذي أعاد إبراهيم صياغته وهو يحدق مباشرةً في عيني «وسام» اللتين ارتبكتا، فغض طرفه ناظرًا إلى الطاولة، وفاركًا كفيه المشتبكتين بعنف:

- هل كان من الصحيح ممارسة العنف مع المعتقلين مثل ما تفعل سلطة «صدام»؟!

ما انفك «إبراهيم» يذكي الحوار متطرفًا ضد كل عنف.. تعمّق الحوار وسُرد عديد من قصص التعذيب، التي كانت تثير مزيدًا من الاختلاف بين رأي يجيز العنف، ورأي يعتبره لا يختلف عن ممارسة جلادي النظام متسائلا:

- كيف إذن لو كنا في السلطة؟!.

ثلاثة ظلوا صامتين طوال الحوار.. «شيركو»، و«جميلة»، و«وسام»، كان الأول يتنقل بعينيه الذكيتين بين ملامح «وسام» المرتبكة في إطراق طوال الحوار، والناظر إلى الكؤوس المنضدة تارة وإلى النافذة تارة أخرى، وقسمات «إبراهيم» المتوهجة الملاحق بنظراته كل حركة تأتي من «وسام»، متجاهلًا الكل في محاولته سبر ما كان يضمره «إبراهيم»، ومنتظرًا لحظة البوح، فهو خبر «إبراهيم» جيدًا وعاد يدرك كل خطط حديثه:

- إنه يخفي سرًّا يتعلق بـ «وسام»!.

هتف في نفسه وكاد يطالبه بالبوح.. لكنه تريث مرددًا في صمت:

- اصبر.. اصبر ..لا تفسد الأمر!.

وأصغى إلى «إبراهيم» الذي شرع في سرد قصة، أخرجت الموضوع إلى مدى أبعد من ممارسة التعذيب، إلى جدوى رفع السلاح:

- اسمعوا كنت في مفرزة تثقيفية؛ أي كنا في جولة بالقرى المحيطة بالمقر.. مجموعة من الرفيقات والرفاق بصحبة «سلام تحياتي»، الذي كان يحاضر في جوامع القرى على الفلاحين.. وكان معنا رفيق من الفوج الثالث، خرج لتوه من سجن القاطع.. وكان قد أودع السجن بسبب الشك. ولعدم وجود دليل ولشجاعته في المعارك ولسلوكه في السرية وحب رفاقه أطلقوا سراحه.. كان ينتظر مفرزة تتجه إلى الحدود الإيرانية.. كان كل ليلة يفز صارخًا مفزوعًا من نومه وكأن أحدهم يهمّ بقتله.. ألححت عليه كي يخبرني ما سر هذه الحالة ومتى أصابته، فهمس في أذني:

- أتصون السر!

- نعم

وعدته وقتها، ووفيت بالعهد طالما كنا في الجبل، لكن الآن ونحن في موسكو شبه ضائعين، و«محمد» وهذا اسمه وكلكم تعرفونه، عبر الحدود منذ وقت باكر إلى إيران وعاش في الأوردكاه.. أجد من الضروري إخباركم بقصته.. جوار نبعٍ وبعيدًا عن الرفاق، حكي لي لِمَ أُصيب بكابوسٍ يتكرر؛ إذ يرى أحدهم يطبق على رقبته بشدة حتى يكاد يختنق، فيصرخ مذعورا ويهب من نومه مثل مجنون. قال:

- أصابني هذا الكابوس منذ تلك العملية!.

وصمت طويلًا محدقًا نحو أفق السماء الضيق البادي بين امتداد السلسلتين الجبليتين.. اغرورقت عيناه وتكسرت قسماته ألمًا، وكأن ما يريد سرده يحدث تلك اللحظة.. لم أحثه على الكلام.. تركته يتفاعل وينسجم مع الذكرى، طمعًا في القصة إلى أن تمالك نفسه وعاود القول:

- كنا في عملية مشتركة مع مقاتلي «البرزاني»، نصبنا كمينًا لجنود ينزلون من الربيئة إلى النبع لملْء قِرب الماء.. كان المكان خطرًا، تسللنا قبيل أذان الفجر وكمنّا حول المسلك المؤدي إلى النبع.. كنت العربي الوحيد في المجموعة وموقعي عند رأس الكمين.. والخطة تقتضي ضربهم والاستيلاء على أسلحتهم والانسحاب بسرعة.. مع خيوط الفجر..

كنت أول من رآهم ينحدرون من الربيئة.. ثلاثة رجال، تبين أنهم من أفراد الجيش الشعبي ومن أهالي الناصرية.. مدينتي.. فتصور ماذا جرى لحالي.. ارتبكت فالمكان خطر جدًّا، والكلام كان ممنوعا.. كنت أنصت ممزقًا وهم يتحدثون، لاعنين اليوم الأسود الذي أشعل فيه «صدام» الحرب على إيران.. وشاكرين آمر القاطع الآدمي، الذي ساعدهم بهذه الإجازة؛ كي يكونوا قرب أولادهم في عيد الفطر.

عبر أغصان شجيرة البلوط دققت في ملامحهم السمراء.. كان أحدهم يشبه خالي بالضبط.. القامة نفسها، الملامح نفسها، الصوت نفسه، اللحظة تلك خاطفة.. شلتني تمامًا. فلم أنتبه إلا على ضجة الرصاص، فانتبهت مصوبًا نحو الأجساد الثلاثة الصارخة المفزوعة، وهي تستدير راجعة هاربة

من باطن الكمين.. بمواجهتي.. أطلقت نحوهما غريزيًّا، ورأيتهم يسقطون الواحد بعد الآخر نازفين شاخرين.. لم يكن خالي معهم، فقد سألت عنه من التحق من أبناء مدينتي، فأخبروني أنه حي، لكن الكابوس ظل يلاحقني، مخربًا فكرة النضال المسلح، أصبحت كسولًا، متذمرا، أستثار بسهولة.. فأبديتُ رغبتي في ترك الحركة المسلحة.. مما جعلهم يلقون بي السجن ، ساعدهم على ذلك وظيفتي السابقة، وصمت!

سألته:

- ماذا كنتَ تشتغل قبل أن تلتحق؟!.

فأجاب بما أذهلني:

- مفوض أمن.. كنت في السيطرة المؤدية من دهوك إلى القرى التي يسيطر عليها البيشمركة.. وكنت أتساهل كثيرًا مع الأكراد والملتحقين.. إلى أن وجدت أن وجودي بذلك الجهاز جريمة، فتركت كل شيء والتحقت!. مما شفع لي عند الرفاق سلوكي طوال سنتين في نقطة التفتيش!.

صمت «إبراهيم» المتوهج وعبّ كأسًا أخرى من الفودكا البيضاء، مستمتعًا بدهشة العيون المحملقة، وهي تنتظر مزيدًا من حكاية «محمد» المقاتل المسكين. وَحْدَهُ «شيركو» كان يحصر بصره بين وجه «إبراهيم» وقت الحكاية التي كان واثقًا من صدقها، اشتداد ارتباك «وسام»، واثقًا من أن حكاية «محمد» ما هي إلا مدخل لما يريد أن يفجره «إبراهيم»، قال في نفسه بصمت:

- لم أكن أدرك مدى درجة خبثك يا «سلامي»!.

وتبسَّمَ مضيفًا بصمت:

- خبيث وجميل!..

سأله أحد الحاضرين:

- أين «محمد» الآن؟!.

أجاب «إبراهيم»:

- آخر مرة شفته عام 1989 صدفة في طهران وسط «كوجه مروي»، وبعد عشر دقائق من الحديث أدركت أنه لم يعد يمتلك عقله.. كان يتحدث حديثًا غير مترابط، عبارة عن هلوسة وهذيان عن قدراته الخارقة.. وكيف زرعت الاستخبارات الإيرانية كاميرا دقيقة في جسده تصوره أينما حلّ!. لم أسخف كلامه، عانقته متصنعًا شاغلًا، وعرفت لاحقًا من رفيق نزل الأوردكاه «كرج» نفسها بضواحي طهران، أن الإيرانيين عذبوه بشدة بعدما وشى به أحد العراقيين كونه مفوض أمن عراقيًّا، ثم مقاتلًا بصفوف الشيوعيين في كردستان.. وضعوه في زنزانة انفرادية طوال سنتين فأصابه ما أصابه!.

علق أحدهم:

- رجل صاحب ضمير!.

وافقه الحضور بتعليقات مختلفة.. ظل «شيركو» وحده ينتظر ما سوف يفجّره «إبراهيم» المثبت عينيه على كتلة «وسام» المتكور بجلسته صامتا مرتبكًا، وكأنه في مكان بعيد، وبين يقظة وأخرى يحدق بفزع وارتباك في

وجوه الجالسين، متحاشـيًا الـشرر المنبعـث مـن عينـي «إبـراهيم»، اللتـين لم تغادرا لحظة واحدة كتلته المتضائلة في تحجرها بزاوية الحلقة:

- هيا «سلامي».. هيا اهتك الستر!.

هتف «شيركو» بصمت محملقًا بقسمات «إبراهيم»، النـشوانة بتـسخيف فكرة حمل السلاح من أجل فرض الحق:

- هيا حبيبي اضرب ضربتك!.

وكأنـه اسـتجاب إلى نـداء «شـيركو» البـاطني، انتـصب واقفًـا محـتقن القسمات ليقول:

- ماذا تقولون برفيق قتل بريئًا تحت التعذيب؟!.

استنكر عديـد مـن الحـضور معترضـين عـلى صـيغة الـسؤال.. وعـلى استحالة الفكرة.. لاحظ «شيركو» تصاعد نشوة «إبراهيم»، الذي أسكتهم بإشارة من يده مفجرًا قنبلته:

- وهو جالس بيننا هذه اللحظة؟!..

سقط صمت مباغت.. وجعلوا يحدقون بوجوه بعضهم البعض. وحده «شيركو» كان واثقًا من أن السر يتعلق بـ «وسام»، الذي رآه يحتقن وينـضح بغـزارة مطرقًـا لا يبـادل الآخـرين النظـرات. تخابـث «إبـراهيم» مطـيلًا الصمتَ، ومستعيدًا اللحظـة التـي اطلـع فيهـا عـلى ذلـك الـسر، فجلـس ليسترخي إلى مـسند الأريكـة، مبحـرًا في الوجـوه الـسكرانة المذهولـة.. في

تعبهـا.. في حيرتهـا.. في ضـياعها.. وهـي تنتظـر كـشف القاتـل الجـالس وسطها.. ففي ظهيرة صيفية حارة بـوادي «زيـوة» أسرّ لـه رفيـق توطـدت علاقته به إلى حدود الأسرار.. أسر ضاحكًا من حيرة أحد المسؤولين العائد لتوه من اجتماع مع حزب «البرزاني»، المطالـب بمـصير اثنـين مـن أعـضاء تنظيمه السري، اللذين اعتقلتهما مفرزة من الأنصار الشيوعيين من بيتهما في قرية «سواره»، ولم يعرف عنهما شيئًا بعد ذلك قائلًا:

- أنا أعرف أين هما؟!.

سأله «إبراهيم» بلهفة:

- كيف تعرف؟!

- ماتا جوه إيدينا أنا ورفيق آخر!.

- لماذا.. لماذا؟!

- القصة طويلةّ!

أصرَّ «إبراهيم» على سماع تفاصيلها.. لكـن ذلـك الرفيـق كـان لا يريـد سرد التفاصيل قائلًا:

- لا تلحّ.. تمرضنا بعد تلك القـصة.. مـا أريـد أتـذكر بالتفـصيل.. مـا أريد.. لكن سوف أقص عليك باختصار شديد، مفرزة من الرفـاق وقعـت بكمين واستشهد به رفيق بمدخل قريتهم.. فدخلنا القرية ووشى لنا فـلاح بهما.. أخذناهما .. وبكهف بعيد بدأنا نضرب.. ونـضرب.. بعـد أن شـددنا أيديهما للخلف.

كان «إبراهيم» يتخيل المشهد بوضوح.. حتى كأنه كـان معهـم في ذلـك الكهف حالًا بجسد أحد الفلاحين لحظة القيد والضرب، التي عـانى منهـا في زنازين الأمن العامة العراقية مرات عدة:

– ما توقعنه يموتان.. كنا نضرب بحرقة.. بلا فائدة! لم يعترفا أبدًا لأنهما بريئان، هذا بعدين عرفناه!

أنشدَّ «إبراهيم» متوترًا:

– وماذا بعد؟!.

– ظلا يرددان: آو.. آو يعني «مـاء» باللغـة الكرديـة.. مـا أعطيناهمـا.. ونص الليل سمعنه شخيرهما.. والفجر وجدنهما ميتين!

وقتها أحس «إبراهيم» بطعنة، سأله:

– ماذا فعلتم بهما؟!.

– خفنا وأخبرنا المسؤول.. فأمرنـا بـدفنهما في الكهـف نفـسه، وعـدم الحديث بالموضوع إطلاقًا.

سيقرأ «إبراهيم» خبرًا بجريـدة الزمـان أواخـر التـسعينيات في صـفحة المجتمع عن حفلة عقد قران ذلك الرفيق في قاعة بلندن.

تصنع «إبراهيم» السخرية، وكأن الأمر مسلٍّ؛ كي يصل إلى اسم الرفيـق الذي كان معه، فقال ضاحكًا:

– خرب إبليسكم.. أش لون دبرتم الحفر؟!.

فتبسم قائلًا:

- حملناهما إلى حفرة وغطيناهما بالحجر!.

وباغته «إبراهيم»:

- من كان وياك؟!.

ما ضيَّع على «شيركو» التشخيص هو غزارة العرق الناضح على قسمات الرفاق شاحبي الوجوه.. المخرسين.. المحملقين بذهول في «إبراهيم»، وكأنه القاضي العادل الذي سوف يشير إلى القاتل مبرئ ما عداه..

- ما أجمل خبثك يا حبيبي.. ما أجملك قويًّا متألقًا، ترمق الوجوه واثق النظرات.. حبيبي «سلامي».. كم أحب خبثك!.

هتف «شيركو» في نفسه مكملًا بنشوة:

- هيا حبيبي لقد ضيعني خبثك.. فما عدت أعرف من هو القاتل وسط الحضور الناضح، وكأنهم في عزّ ظهيرة تموز عراقية، لا في ليلة شتوية من ليالي موسكو الثلجية.. كنت واثقًا من أنه «وسام» قبل هذا الصمت الرطب، الذي أثقلت فيه على الكل.. ضيعني خبثك.. ضيعني.. يا لجمال ورشاقة حركاتك، وأنت تملأ كأسك بالفودكا البيضاء، واثقًا مبتسمًا في بحر الصمت الذي أغرقتنا فيه.. هيا حبيبي.. الكل ينتظر.. الكل وكأنهم يخفون السر نفسه، الذي تبغي فضحه.. هيا.. هيا أوهمتنا.. هيا!.. بدأت أنضح!.. تكاد توهمني بأني الفاعل..

شمل «إبراهيم» الوجوه الخرساء المبحلقة نحوه بذهول بنظرة ثقيلة، وهو يرفع كأس الفودكا بمهل إلى شفتيه هاتفًا في نفسه:

- ما أضعف الإنسان!

رشف على مهلٍ وعاود التحديق، كان يمر خطفًا على وجه «شيركو» الشاخص بعينيه القويتين نحوه:

- لم أكتشف مقدار هذا الخبث العظيم الذي تخفيه يا حبيبي بوجهك الذي يبدو بريئًا.. لم أكتشف إلا في هذه اللحظات!

هتف «شيركو» في نفسه.. ثم صرخ بصمت:

- إذن أي عذاب عانيته في حياتك يا صديقي حتى صرت إلى هذا الحال!

وضع «إبراهيم» الكأس على الطاولة، وحدق مليًا في وجه «شيركو» المترقب قائلًا بصوتٍ مكسور، وكأنه يفقد ضميره بهذا البوح:

- «شيركو».. هو الجالس جوارك!.

استدارت الوجوه الناضحة نحو «وسام»، الذي تضاءل من هول المفاجأة.. فأمعن في تكوره ضامًّا ركبتيه المثنيتين إلى صدره، وبدأ ينود سابحًا بنضحه.. محملقًا كلما ارتد بحركته البندولية إلى الخلف نحو «إبراهيم» بعينين محمرتين، فيهما مزيج من الحقد والتوسل وكأنه يقول:

- ليش.. ليش فضحتني ليش؟!.

وحده «شيركو» كان متماسكًا ينتظر ردة فعل الجالس جانبه، ناقلًا نظراته المتقدة بين وجه «إبراهيم» المتألق، ووجه المتكور الذي اسودَّ بغتةً. تنحنح «إبراهيم» كاسرًا الصمت بعد لحظة فقط، فاتجهت نحوه العيون التي بان الاسترخاء في قاعها، ليقول محكمًا الطوق حول «وسام» تمامًا بذكر اسم الرفيق، الذي كان معه لحظة الإجهاز على الكرديين، واصفًا بكثافة المكان وفعل القتل وجريمة إخفاء الدليل والاتفاق مع مسؤول المفرزة على إخفاء الأمر حتى على الرفاق الذين معهم.. أوجز ذلك بجملٍ قصيرة مكثفة، جعلت «شيركو» يهتف في نفسه وهو يشاهد«وسام» يتبدد:

- قتلته.. قتلته.. لا.. «سلامي».. لا.. لا!.

حاصرته العيون من جديد منتظرةً قوله.. كف عن النود.. فلَّ ذراعيه المعشقتين حول ساقيه.. أنزل ساقيه من الكرسي.. عدل جلسته ببطء شديد.. رفع عينيه ومررهما على الوجوه واحدًا.. واحدًا.. بلع ريقه بصعوبة، والعيون تتابع تفاحة آدم تتحرك مضطربة وسط رقبته..

هتف «شيركو» في نفسه:

- قاسي «سلامي».. قاسي!.

وهو يشخص نحو قسمات «إبراهيم» التي بلغت ذروة نشوتها، وهي تسحق رفيقًا مسكينًا مشلولة إحدى ذراعيه.

- ر..ف...ا..ق..

نطق الكلمة بعناء وخجل، وأضاف جملة يتيمة:

- إنها أوامر الحزب!..

- ...!

غار الصمت أعمق في الوجوه!.

أردف بصوت مرتعش.. غير واثق:

- كنا صغارًا ومتحمسين!.

- ...!

- كنا نضرب ووجوه رفاقنا اللي ماتوا من التعذيب أمام عيونه!.

- ...

واجهه الصمت عاصفًا.. ضاجًّا بالوجوه التي سرعان ما تنمرت.. الجالس إلى يسار «وسام» سحب كرسيّه عدة خطوات مبتعدًا.. قال أحدهم بصوت واهن:

- كنت أظن أن ما تقوله يا «سلامي» مجرد خيال!.

ردد البعض عبارات مشابهة، قبل أن يبدأ الهجوم الكاسح على «وسام». أربعة فقط كانوا ساكنين «جميلة» و«وسام» و«شيركو» الجالس لصقه إلى اليمين، و«إبراهيم» عبر الطاولة، الذي كان يتفحص وجوه المتكلمين، وعلى شفتيه بسمة ساخرة.

- قاتل.. مجرم!

صرخ أحدهم بوجه محتقن وتناول ما تبقى بكأسه!.

- حقير.. تافه.. تستأهل السجن لا اللجوء!

نبَّ آخر، فاتسعت بسمة «إبراهيم» الساخرة؛ فالمتكلم الأخير الأكثر شراسة كان معه في الفصيل، وكان يذهب مع أحد المسؤولين إلى عمق الوادي؛ ليساهم في تعذيب رفيق مشكوك فيه أُعدم لاحقًا، وكان يسر له بما كان يفعلونه به من فنون التعذيب!.

- بلا ضمير.. أنت بلا ضمير!.

صرخت «جميلة» التي كانت صامتة منذ دخولها، وراحت تردد بصوتها الناعم المجروح:

- بلا ضمير..بلا ضمير.. بلا ضمير!

ألهبتِ الحاضرين، فانهالوا بالشتم وبذيء الكلام والبصاق، فانهار «وسام» راكعًا على الأرض وراح في نحيب طويل.. في اللحظة تلك هب «شيركو» صارخًا بالجميع:

- كافي.. كافي.. كلنا بلا ضمير.. كلنا..

أخرسهم فجعلوا يحدقون نحوه، عائدين إلى كراسيهم، وهو ينحني على «وسام» الراكع، ويحيطه بذراعيه في محاولة لإنهاضه قائلًا:

- كلكم مساكين.. كلنا مساكين!

ولثم رأس «وسام» بشفتيه هامسًا:

- قم.. قم يا حبيبي.. قم!..

بصمت ساعده على النهوض.. مسح جبهته بمنديل، وهو ينظر بعطف نحو قسماته المغضنة بألمها قائلًا:

- عذبوك فوق عذاب روحك.. المساكين عذبوك!.

ألبسه معطفه.. وسار به نحو المدخل، وقبل أن يتوجه إلى البـاب التفـت نحوهم، وقال:

- كلكم مساكين.. كلنا!.

صمت برهـة، ومـسح بعينيـه الوجـوه وجهًـا.. وجهًـا، وهتـف بنـبرة مرتعشة:

- من كان منكم بلا خطيئة فليرمِها بحجر!.

فيما هو يهم بقطـع المـدخل، ردد بـصوت واضـح مـشددًا عـلى مخـارج الحروف،

- بلا خطيئة!

كررها ثلاث مرات في المسافة الفاصلة بين باب الغرفة وباب الشقة.

أنصتوا لصوت الباب وهو يغلـق، سـاقطين في صـمت ضـجَّ بوجيـب قلوبهم الراكضة..

لا تتركني وحدي

كحاله طوال العمر ، أدرك متأخرًا.. «أنه كان يُنظَر إليه كمكان للمبيت ليس غير، في مدينة موسكو الشاسعة العسيرة ووضعها المضطرب أول التسعينيات».. أدرك ذلك بعد أكثر من خمسة أعوام، عندما أخبرته «جميلة» بالسبب الدفين لمبيتها في شقته، رغم اعتراض أخيها الكبير، الذي كان يسكن موسكو أيضًا مستأجرًا شقة.. لكنه لا يستطيع استقبالها خوفًا من زوجته المتسلطة.. هذا ما باحت به لـ «إبراهيم» وهما يسكران في شقتها، بغرفتها الوحيدة والشبيهة بشقته في موسكو، فهي الأخرى تقع في طابقٍ ثالث، يشرف على حديقة وسط البنايات.. قالت له:

– منعني عدة مرات من المبيت في شقتك.. حاججته: وين أبات لما أجيء إلى موسكو لمقابلة بعثة منظمة مساعدة اللاجئين وين؟!.. وأخي الديوث المقرن يصمت مكسور الرقبة.. ما يقول تعالي عندي.. كنت أختم كلامي .. بأنك أشرف منه وأكثر إحساسًا بالأخوة.. كان يصمت.. يصمت كأي جبان!.. وكأنني لست أخته.. وشرفه حسب القيم، التي يطالبني فيها بعدم المبيت في شقة تعج بالرجال.

- الحقير.. ينسى قصة حياتي.. وما عانيته من مشاق!.

- ...

كان «إبراهيم» قد اضطر في وضعه البائس إلى اللجوء إلى شقتها الضيقة في طابقٍ ثالث من بناية ضائعة وسط كوبنهاجن، غير قادرٍ على التعليق.. إذ خَبرَ مزاجها المتقلب المجنون جيدًا، فمرات عديدة ألقته صافعة الباب إلى الليل والبرد عقب حوار حاد اختلف فيه معها، فوجد نفسه ضائعًا يبحث عن مأوى.. محطة مترو.. مدخل بناية.. أي مكان مغلق يجد فيه شيئًا من الدفء.

حينما أتى بها «شيركو» أول مرة إلى شقته لم يكن قد رآها قبلا ، ولم يتسن له معرفتها عن كثب في تلك الليلة الصاخبة الحوار، لكنه كان في بعض اللحظات حينما يحلّ الصمت، يمرر عينيه على تقاطيعها مندهشًا !! وجنتان حجريتان.. شعر خشن منفوش يكسر المشط.. عينان صغيرتان ساقطتان في تجويف عميق وسط وجه كبير.. أنف ضخم مفروش بنسب تتنافر مع كتلة الوجه.. وشفتان.. العليا مثل خيط رفيع، والسفلى مكتنزة.. الجبهة واسعة ومحدبة تتقدم القسمات.. أما الذراعان فطويلتان لا تتناسبان مع قصر قامتها. لكنه لاحظ أن لها بشرة سمراء شديدة النعومة، مشدودة، ملساء، لو أن المرء عند مضاجعتها، غطى وجهها متخيلا وجهًا آخر لوجد في النوم معها متعة خالصة:

- يا لسفالة مخيلتك!.

يستنكر نفسه مشيحًا ببصره بعيدًا عنها في محاولة للاندماج من جديد في الجلسة وحوارها العنيف.. لكن ملامحها الصامتة؛ وهي تنصت مشمئزة مما

يُكْشَف من أهوال جعله يحس عمق عذابها، ويستعيد كل ما سمعه عنهـا مـن لغطٍ وأقاويل وحكايات، وقتهـا اتخـذ موقفًـا منـاصرًا لهـا دون أن يعرفهـا.. فـ «إبراهيم» أكثر الرجال في تجربة الجبل شُوّهَ بلغط كلامٍ ، يصدر مـن رفـاقٍ فاقدي الضمير.. ليس هو فحسب، بل عندما يتأمل المرءُ عميقًا الشأن كلـه.. يجد أن الكل شُوِّهَ بهذه الطريقة أو تلك.. لذا لم يلق بالًا لما سمع.. عن أصـلها القروي كونها من مدينة «الثورة» بطرف بغداد الشرقي.. عائلتها نزحـت مـن ريف العمارة بعد ثورة 1958.. وشاركت بحماس في المد اليساري.. ونـشأت على تلك التقاليد. ذلك ما جعلها تقدم بشجاعة على كل ما لا تجرؤ عليه المرأة العراقية المسلمة في السبعينيات.. فأول ما أقدمت عليـه (وكـان ذلـك وقتهـا يشكل خرقًا للقيم العراقية السائدة) هـو إقـدامها عـلى العمـل كممرضـة في مشفى مدينة الثورة.. وكان ذلك الفعل خارق الجرأة في بيئة تعتبر الممرضات مجـرد عـاهرات .. عـزم «إبـراهيم» ، وهـو يغـور في قـسماتها شـاردًا عـن المتحاورين، على سؤالها عن كل ما سمعه عنهـا في أقـرب فرصـة.. وكـان في أعماقه يجلّ جرأتها محتقرًا الرفيق الذي قال معلقًا بخبث:

- لو كانت اسمًا على مسمى حقًّا لما تطوعت كممرضة!.

نبٌّ آخر سوف يقتـل بقـصفٍ كيماوي في الأنفـال، ويدفنـه «إبـراهيم» بيديه:

- كانت تريد تستعرض وقاحتها!.

- ...

- تركت العمل بعد أشهر!

فسأله «إبراهيم»:

- كيف عرفت هذه التفاصيل؟!

فأجاب:

- كانت جارتنا تسكن في الشارع المجاور لشارعنا بقطاع أربعين بالثورة!.

علق رفيق كبير السن، كان ينصت بروية إلى الحوار:

- عندما تحكون عن الناس ضعوا الضمير قدام عيونكم.. أما عندما تحكون عن رفيقتكم خلوا الضمير هو اللي يحكي!

مما استدعى جارها إلى محاولة مداراة قول الشيخ بالقول:

- إنها شجاعة كمّلت دراستها في كلية الآداب.. وبالحملة على رفاقنا عام 1979 اختفت.. وظلت مختفية.. عام 1982تمكنت من الالتحاق سرًّا بقاعدة «قرة داغ» بقاطع السليمانية.

لكنه عندما استدار رفيقهم كبير السن، همس جارها في أذن «إبراهيم»:

- ما قعدت راحة.. لعوب.. شدّت الكل!.

تذكر «إبراهيم» كل ذلك، وهو يتملى قسماتها الصخرية المصغية في جلستها المتوترة عبر المنضدة.. فانتابته رغبة جارفة في الضحك وتجسدت ملامح ذلك الرفيق الجادة أمامه وسط الجلسة، وهو يرنو إليه منتظرًا ما سوف يعلق به حول ما قاله عن لعبها.. وعبثها بقلوب الرفاق.

لم يفهم سرّ تحامل ذاك الرفيق المسكين، الذي دفنه على عجل بحفرة موضع دوشكا فصيل الإسناد القديم، إلا عندما أفضت «جميلة» له في ليلة صادف فيها مبيتهما وحدهما في الشقة قصة حياتها العنيفة.. فعقب تلك

الجلسة العاصفة والتي اكتشف فيها الجميع فداحة ما اقترف في شعاب الجبال من فظائع بحق الإنسان.. وسؤال «إبراهيم» الذي أسقطهم في الصمت والنوم:

- هذا في صفوفنا ونحن نعتبر أنفسنا أكثر إنسانية، فماذا يجري إذن في صفوف الحزبين الكبيرين؟!.

كان يقصد«البرزاني» و«الطالباني».

- ..

- وإذا حسبنا مذابح «صدام»، فمن الخاسر إذن؟!

- ...!.

- لمَ تسكتوا.. العراقي.. أليس كذلك؟!

- ...

صرخ عندها «إبراهيم»:

- طز بيكم وبالسلطة وأحزاب المعارضة وكفاحكم المسلح..طززززززززز!.

وانتهى الحوار بعفطة عظيمة انطلقت من فم «إبراهيم»!.

لم يأتِ أحدٌ في الأيام التالية، فسقط «إبراهيم» من جديد في دوامة السكر والتسكع، ومتعة التملي في المترو والمقاهي والمتاحف والأسواق بالأشياء، وأشكال الصبايا بعيونهن الضاحكة المقبلة بيسر إلى لعبة المضاجعة من

بعيد، والدوران بين الساحات العامة؛ حيث كان يقف طويلًا يتابع العمال الروس، وهم يسقطون نصب «لينين»، وبقية رموز الثورة الشيوعية، مستعملين المطارق اليدوية للمنحوتات الصغيرة، والرافعات الضخمة للكبيرة..

كان يتلفت حواليه، فلا يجد ثمة من يكترث لضجيج المطارق وأجزاء الجسد الصخري المتهاوي على عشب الحدائق وأسفلت الساحات. الغريب في الأمر أنه لم يعد يفكر في زوجته وطفليه، وكأنه فارقهم إلى الأبد، تأمل هذا الإحساس فوجده غير دقيق، ليصل إلى إحساس أغرب.. كأنهم لم يوجدوا ألبتة.. فكان يبتسم بغبطة ويتوجه إلى أقرب كشك للبيرة.. يقف تحت شجرة متلفعًا معطفه الثقيل يرتشف، وينظر بلا مبالاة نحو السماء الملبدة بغيوم الثلج البيضاء قبل أن يؤوب إلى الشقة ليواصل الشرب مبحرًا في أخيلته.. يحاورها.. يشتم أحيانًا.. يصرخ.. يشرب.. ويشرب إلى حد الانطفاء.

كان يترك مصباح بئر السلم مضيئًا؛ كي يستطيع رؤية الطارق من ثقب الباب.. صحيح أنه لا يستطيع رؤية الوجه.. لكنه يستطيع رؤية الواقف حد الصدر. فالمتشردة الروسية السكيرة قرعت الباب لليلتين متعاقبتين، وفي المرتين تَجَنبت الكلام عله يفتح، ولكنه عرفها من معطفها الأسود الطويل فلم يفتح الباب، سامعًا صوت شتائمها يختلط بوقع خطاها الصاعدة على درجات السلم إلى حيث ترقد.. قدر أنها كانت تأتي في الأيام السابقة.. لكنها تعود حينما تسمع الضجة والصراخ بلغة غريبة عليها.. في ذلك المساء المثلج عاد مبكرًا إلى الشقة، وفيما كان يعد لوجبة العشاء سمع

قرعًا شديدًا على الباب.. جمد مطفئًا الطباخ.. عاد القرع بعد ثـوانٍ. سـار عـلى أطراف أصابعه مقتربًا من الباب، انحنى نحو الثقب.. لم تكن المتشردة، ولكنـه سكن منتظرًا إلى أن سمعها تقول:

- أي وين صرت؟!.

عندها فتح الباب، فقفزت إلى الخلف مذعورة:

- خوفتني!.

تعانقا، سألته وهي تحدق عبر كتفه إلى المدخل:

- اليوم وحدك!.

أجاب:

- وحدي من يوم النقاش اللي كنت حضرتيِه!.

عَلّقَت ، وهي تنضو عنها معطفها:

- حبيت صراحتك.. الكل يعرف .. والكل يغمض عينه ويسد أذنه!.

عاد إلى المطبخ فتبعته.. وجلست إلى الكـرسي جـوار النافـذة. اتكـأت وراحت تتابعه بعينيها، وهو يقلي شرائح من اللحـم ويقطـع الخـضر ليعـد السلاطة. كان «إبراهيم» لا يكف عن سرد النكت والمواقـف الطريفـة عـن عالم رجال العصابات الضيق والخطر، متطرقًا إلى مخيلتهم الجامحة.. حـدثها عن «بيوتش» القرية الحدودية، التي كانـت مقـرًّا ومـا فعلـت بهـم الـصبية الكردية «سورين»:

- كنا نحلم بها جميعا ليل نهار. وصار اليوم بلا معنى دونها!.

- ...

- كنا نتخاصم ونغار من بعضنا البعض!.

ضحكت بصخب، أضاف:

- ويوم انتقلنا لغير مقر ذاك اليوم صار عزاء!.

قامت ورتبت المنضدة معه، فتح قنينة الفودكا قائلا:

- أتشربين؟!

- صب لي.. هو اللي يعيش بموسكو ست سنوات ما يصير سكير!.

أدرك «إبراهيم» من جملتها أنه مقبلٌ على دراما جديدة، لم تتضح ملامحها إلى تلك اللحظة، ولكنه أحس بها دانية تلوح خلف قسماتها التي اعتمت حال فراغها من جملتها.. علق بنبرة جهد؛ كي تبدو شديدة البراءة:

- موسكو سيئة إلى هذا الحد!.

شخصت نحوه بعينين مهتاجتين وتناولت كأسها.. دلقتها مرة واحدة في جوفها.. مسحت طرفي فمها.. لم تتناول شيئًا يخفف من قوة الفودكا، بل بَلّتْ طرف سبابتها بلسانها، ووضعته في صحن الملح ومصته، ثم تناولت شريحة خبز أسود وشمته معلقةً:

- هكذا تُشْرَبُ الفودكا!.

هتف في نفسه:

- أصيلة.. سكيرة أصيلة يا عيني!.

أضافت:

- جرب هذه الطريقة!

وجد في الفودكا مع الملح والخبز طعمًا مختلفًا، وكأنه يدخل الروح الروسية التي ابتكرت هذا الطقس.. بعد عدة كؤوس توهجت ملامحها، وقالت:

- يبين الليلة ما راح يجيء أحد!.

حدق في ساعته اليدوية.. كانت قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، قال:

- ما أعتقد.. المترو أقفل!.

قامت من كرسيها المظاهر لخزانة المطبخ قائلة:

- لننتقل إلى الغرفة!.

أرخت رأسها إلى مسند الأريكة القديمة، وحدقت في النافذة المقابلة عبر مكان جلوسه.. لم يلق بالًا أول الأمر.. كان منشغلا في ترتيب الصحون والكؤوس على الطاولة، ولكنه عندما فرغ وجدها لم تزل تحملق بشرود في النافذة. التفت نحو النقطة التي ترنو إليها ، فرأى ندف الثلج تتساقط ببطء، هابطة من العتمة الكائنة فوق قبعة مصباح الشارع المتدلي.. عاود التحديق نحوها، فأحس أن قسماتها تكتنز ألمًا مبرحًا بدأ بالفوران.

- «جميلة» ماذا بك؟!.

وكأنها بركان انفجر صرخت بوحشية:

- كل شيء في حياتي غلط.. كل شيْ!.

- ...

صمت «إبراهيم» منتظرًا كي تفضي بما في نفسها من آلام.

غادرت بنصفها الأعلى مسند الأريكة قائلة:

- يعني العراقية اللي تناضل يكون هذا جزاءها!.

لم يعلق «إبراهيم»، فكل شيء غامض بالنسبة له!.

- تصبح مهجورة في بلدة بعيدة بروسيا.. وحيدة حتى إخوانها ما يسألون عنها!.

وجد «إبراهيم» فرصة للسؤال:

- لماذا هذا الشعور بالوحدة؟!.

- لماذا.. لماذا.. أنت ما تعرف قصتي.. ما تعرفها..

صمتتْ قليلاً لتقول:

- صب لي كأسا!.

تناولتها من يده.. عبّتْ كل ما فيها، ووضعتها على الطاولة قائلة:

- بعد ذلك الحوار تمنيت من كل قلبي أن أنفرد بك لأحكي لك كل شيء.. فلم أجد إنسانًا رجلًا أو امرأة من الرفاق أو المعارف يستأهل سماع

عذابي.. وكنت أخاف.. أو أنا متأكدة من راح يسخرون مني، إذا حكيت اليهم ما مدفون بنفسي!.

- ...!.

لم يعلق.. لكنه هتف في نفسه بغبطة:

- .. لو كانت زوجتك وأولادك معك لما عرفت شيئًا! فأي عالم سري سينفتح لك يا «إبراهيم»؟!.

- اسمع أنتم الرجال من أقسى الكائنات في الطبيعة!

- يا ستار!

علق ضاحكًا وقرر في نفسه السكوت، والإنصات فقط.

- بتشجيع من إخوتي الشيوعيين، قدمت على إعدادية التمريض حالما أكملت المتوسطة.. فقامت قيامة المدينة وصار «قطاع أربعين» جحيمًا، وكأنني حينما أعود من المستشفى قادمة من الماخور.. وهنالك اكتشفت أن الممرضات اللواتي غالبيتهن من المسيحيات كائنات ملائكية، يتحملن قسوة الرجال سواء من يأتي كمراجع أو من الموظفين وحتى الأطباء..

قررت أن أستمر، لكن يبدو أن العائلة لم تتحمل ضغط الناس، فحاصرتني فتوقفت.. بعد ذلك قلت لنفسي سوف أستقر قريبًا، عندما تعلق بي شاب من أهل المحلة وخطبني.. لكن ما أن أخبرته بأنني فقدت غشاء البكارة في علاقة عابرة، عندما كنت مراهقة، حتى انقلب كل شيء.. تصنع أول الأمر لاعبًا دور التقدمي والجنتلمان.. لكنه تحول شيئًا فشيئًا

إذ أحسست أن مشاعره تبرد إزائي.. كف عن تقبيلي، بل أصبح يتحرج من اللقاء بي.. فقلت له: مع السلامة.. وأكملت دراستي في كلية الآداب..

وفي تلك الأيام أواسط 1979 بدأت الحملة فاعتقلوني.. وفي أقبية الأمن العامة ببغداد أرونا الويل.. وتعرضنا جميعنا إلى الاغتصاب..

في الحال، خطر على «إبراهيم» سؤالها عن ذلك السر الذي شغله منذُ عام 1980، حينما حلّ هو الآخر نزيل زنزانات ذلك المكان مشتبهًا به، خطِفَ من بارٍ في شارع أبي نواس.. فقد كان يسمع كل ليلة أصوات نساء ناعمة تنادي الحارس وتبادله الهمس والضحكات، حتى شك بأن ثمة علاقة حميمة قامت بين السجينة والجلاد، قاطعها متسائلًا عن سرّ مثل هذه العلاقة وكيف تنشأ، فقالت:

- أليست المرأة بشرًا؟!..

- بلى!

- إذن فعدد من المعتقلات يستسهلن الأمر بعد الاغتصاب، وإسقاطهن سياسيًّا فيجدن بتلك العلاقات متعة وهنّ المكبوتات طوال حياتهن، مضاف إلى عناية السجان بهن بشكل خاص.. كنا نلومهن بحذر خوف أن يَشين بنا.. فكانت الواحدة منهن تجيب: أنتن ما تدرين أش لون شبان حلوين ضباط الأمن!.

رجعت إلى قصتها قائلة:

- أيدت الاعتراف وتعهدت بعدم العمل السياسي، لكنني لم أكف. اتصلت بأخوتي المختفين، وكنت أساعدهم بالسر أوفر مكانًا يباتون فيه

أو وثائق، يستطيعون التحرك بواسطتها إلى أن انكشف الأمر عندما اعتقل رفيق وانهار، فاختفيت وأش لون أيام تلك.. شفت الضيم.. واكتشفت حقارة الرجال.. فالعديد ممن اختفيت ببيوتهم من الرفاق والأصدقاء تحرشوا بي ليلًا متسللين من جوار زوجاتهم فتصور!..

قال «إبراهيم»:

- إنهم كلاب لو انهم فعلوا معك ذلك!.

راحت تقسم أغلظ الإيمان، وهو يقول في ذات نفسه:

- وبلا ذوق أيضًا.. فلو كنت المرأة الوحيدة المتبقية على الأرض بعد طوفان ثانٍ فسوف أفضل العادة السرية عليك!.

واستدرك مؤنبًا نفسه:

- لا تكن حقيرًا إلى هذه الدرجة!

وعاود الانتباه إلى ما كانت تقول:

- عندما وصلت إلى كردستان سرًّا.. تخيلت أنني وصلت إلى بر الأمان.. وأنا أستيقظ في الأيام على صوت الرفاق وضحكاتهم.. ونكاتهم.. ونشاطهم. قلت مع نفسي: سأجدكِ هنا.. وتنقلت بين عدة قواعد «قره داغ»، بيتوش ثم ناوزك- لأستقر في بشتاشان. وفي يوم وقع نظري على «قاسم» أحببته.. كان حنونًا.. وجدت به تعويضًا عن كل خسارات عمري.. وعزمنا على الارتباط.

سمع «إبراهيم» لغطًا عن رفيقة قبيحة الشكل انتقت أجمل رفيق.. .. لكنه لم يعرف بقية القصة أو أن ساردها تركها مبتورة فلم يتابع مصائر

شخوصها.. بل يتذكر فقط ما خلص إليه الرفيق ذاك «كان الحرمان مركبًا في الجبل؛ حيث تستحيل رائحة الأنثى وصوتها أيًّا يكن شكلها مصدرًا للأخيلة والعذاب»

- أتكون هي؟!

صمتت ومدت يدها إلى كأسها المملوءة.. وشربتها بالطقس نفسه، رشفة واحدة مع قليل من الملح والخبز المشموم، قال «إبراهيم» في نفسه:

- كم تشرب هذه المجنونة؟.. ستتسمم!..

وضعت الكأس بذراعها المرتجفة.. وراحت تلعن الحزب والكفاح المسلح وكردستان وأباها وأمها وأخوتها والدنيا وكل شيء.. شتمت.. وعندما ذهب غضبها انفجرت في عويل وراحت تلطم على جبهتها بكفها اليمنى المفتوحة.. فقام إليها وأمسك كفها واضعًا رأسها على صدره.. مرددًا:

- اهدئي.. اهدئي.. لا شيء يستأهل هذه اللوعة.. لا شيء!.

تحول النحيب قليلا.. قليلا إلى بكاءٍ خافت، تلاشى بعد قليل، كان «إبراهيم» تواقًا لمعرفة بقية القصة.. أيكون النذل تركها ما أن تمكنا من التسلل إلى الأراضي السورية، بعد أن قضى وطره منها في تلك الظروف الصعبة كما حدث لبعض من الرفيقات؟!.. قال:

- ماذا جرى بعد ذلك؟!.

مسحت عينيها بمنديلها الأبيض، وقالت:

- في أيار 1983حوصرنا في موقع منعزل ببشتاشان. كنا ثلاثة رفاق ورفيقتين.. قررنا عدم المقاومة.. فالمعركة بالأساس لم نكن مؤمنين

بها.. فجماعة «أوك» هم إخوتنا في النضال.. فأسرونا.. وضعونا في الغرفة نفسها ووقف أربعة في حراستنا. وفي الصباح التالي تحركوا بنا باتجاه مقراتهم.. كنا نسير في الوسط يتقدمنا رفاقنا بوجوههم المكسورة الحزينة أمامنا وخلفنا يسير المسلحون.. تسلقنا قمة عالية مغطاة بالثلج.. وفي فسحتها العريضة وعلى الطريق الضيق المؤدي إلى الوادي التالي سمعت أحد المسلحين السائرين خلفنا ينادي على المسلحين، اللذين في المقدمة فما كان منهما سوى الابتعاد يسارًا عن رفاقنا الثلاثة عشر خطوات. وسحبنا أحدهم بعنف إلى الخلف. وبشكلٍ مباغت، أطلق الأربعة النار باتجاه الرفاق الثلاثة.. وأمام عيوننا سقطوا الواحد بعد الآخر.. جن جنوننا فرحنا نصرخ بفزع، وركضنا صوب أجساد الرفاق المبعثرة على الثلج.. رميت نفسي على «قاسم» كان يشخر نازفًا من صدره.. أخذته إلى صدري فنقع قميصي بنزفه.. لحد الآن أشعر بدمه الساخن يجرى على صدري.. بقيت أصرخ.. وأصرخ إلى أن فقدت الوعي!. وعندما استيقظت وجدت نفسي في غرفة دافئة إلى جوار رفيقتي.

يحملق «إبراهيم» في قسماتها الصخرية، وهي تلين عند سردها.. مفكرًا بقوتها الروحية الهائلة التي تحملت ذلك المشهد الدموي، وهي ترى فتاها المنتظر يُقتل أمام عينيها، ظلت تردد مثل مجنونة:

- على صدري..على صدري

- ...

- دمه جرى على صدري.. بين ثديي.. غرقني.. أش لون أنسى؟!

وانفجرت مرة أخرى صارخةً منتحبةً،وعاودت اللطم هذه المرة على نهديها البارزين لطمًا قاسيًا، فأسرع ليمسك بذراعيها ويحضنها مهدئًا إلى أن غادرها النحيب فراحت تبكي بصوت خافت.. أدرك «إبراهيم» وهو يحضنها أنها عندما خسرت ذاك الرفيق الجميل، لم تجد بديلًا، لاسيما أنهم بعثوا بها عقب فك أسرها مباشرة إلى سوريا ثم موسكو في بعثة دراسية.. لتكتشف في الأقسام الداخلية للطلبة الأجانب القادمين من كل العالم، وبأعمار بين الثامنة عشرة والعشرين، أنها لم تكن تلك الجميلة التي كانت تظن، وسط ذاك الجمال القادم من مغارب الأرض ومشارقها.. من جنوبها وشمالها.. وتلك العلاقات المفتوحة؛ وخصوصًا للقادمين من بيئات مغلقة.. «إبراهيم» نفسه زار أحد الرفاق الساكنين في أحد هذه الأقسام، فأصابه الذهول تلك الليلة، وهو يرى ما يجري في تلك الغرف المفتوحة.. جعل يهمس بأذنها:

- كفى بكاءً.. كفى.. فالحياة لحظة.. فقاعة.. سرعان ما تنفجر!.

نطقها بطريقة ساخرة جعلها تنتقل فورًا إلى قهقهة، بدت كأنها تصدر من مجنون لتقول:

- منين جبت هذا المثل.. عيده..

أعاده وحدثها بتفصيل عن المصور الزنجي «شاكر م» واللافتة، التي خط عليها العبارة والمعلقة فوق باب الدكان، وتعلقه بكل صبي جميل يمرق من أمام محله.. أبهجتها الحكاية، لكنها كانت ترغب في مواصلة سردها عما جرى لها بعد الأسر في كردستان فواصلت، ولكن بتماسك هذه المرة:

- لم يصدق الرفاق عودتنا، لكن بعد أيام بدأت مصيبة من نوع آخر.. فما أن علم بعض الرفاق بمقتله؛ حتى تقربوا ملمحين في الكلام تارة والإشارة في أخرى برغبتهم في علاقة.. وقتها كان «قاسم» مالئ كياني كله.. كنت أشمه بالهواء وطعم كل شيء فعلناه في الخفاء في الكهوف والغابات طريًا يبكيني.. فكنت أبكي طوال النهار ونزفه الساخن، ما زلت أحسه على صدري، وصدى شخيره قبل أن يغمى عليّ أسمعه إلى الآن كلما بقيت وحيدة..

قال «إبراهيم» في نفسه:

- هاهي سوف تقودني إلى دورة جديدة من النحيب واللطم!.

وفجأة ذكرت اسم «أبو الوسن» قائلة بلهجة مشوبة بالاحتقار:

- حتى أن هذا المخربط «أبو الوسن» عرض عليَّ الزواج.. تصور!.

علق «إبراهيم»:

- يبدو أنك تعرفينه!.

- أش لون ما أعرفه جارنا بقطاع أربعين بالثورة، وكان شرطي مطوع!

عندها اتضح أمامه كل شيء.. فوجد فرصةً كي يغير مجرى حديثها المؤدي إلى النحيب واللطم، فسارع قبل أن تواصل سردها بقول أثار فضولها:

- إذن فأنت من كان يلومها عندما وقع بتلك المصيبة!

- أي لوم.. وما هذه القصة؟!.

سألته بفضول وملأت كأسها.. وجد «إبراهيم» الفرصة سانحة كي يقضي على رغبتها في الندب وسرد المأساة، التي يجد فيها العراقي ملهاته، وكأنها العاشر من عاشوراء، مكررًا إلى الأبد قائلًا:

- اسمعي هذي القصة يا «جميلة».. اسمعي.. كنا معا في الفصيل، وكان مثار سخرية الكل.. وأنتِ تعرفين في الوجبات أن كل ثلاثة يتشاركون في صحنٍ واحد. فقالت زوجتي: لماذا لا يشاركنا «أبو الوسن»، فالمسكين لا يجد أحدًا، وذلك يجعله أكثر عرضة للسخرية في وقوفه والصحن بيده متلفتًا باحثًا عن أحدٍ وسط قهقهات الرفاق..

ناديت عليه، ومن ذلك اليوم.. أصبح يتناول وجبته معنا.. منحه ذلك توازنًا معقولًا.. فقد كنا في الفصيل جديين.. متهمين بالتطرف.. وشدة التعلق بالمثل، لم يقل أحدٌ ذلك بصراحة، لكن كانوا يسمعوننا كلامًا من هذا القبيل..

لكن في صباح ما زلت أتذكره إلى هذه اللحظة.. كان مشمسًا والسماء صافية الزرقة .. رأيته مقبلًا عبر الوادي الضيق من ناحية غرف الضيوف

الثلاث.. كان مسئولًا عن ترتيب مبيت الضيوف العابرين مرتديًا نظارة سوداء عريضة العدسات، لم أكترث بالأمر ظننت أنها إحدى طرقه لجذب الأنظار.. فلم أنتبه لوجهه الوارم.. كنت مشغولًا كليًّا، فبعد الفطور يجب أن أخرج بمفرزة إلى الفوج الثالث مع محقق القاطع، بعدما قام مندس بتفجير مخازن العتاد.. عندما ذهب لملء قدح الشاي، همست زوجتي:

- ضاربيه.. ضاربيه!

لم أصدق فالعنف نادرًا ما يحدث بين الثوار.. لكنه حينما عاد بالأقداح لاحظت، ثمة كدمات طرية على وجهه.. ناولنا القدحين شاتمًا أحدهم وهذه عادته، فكلما سخروا منه يروح يشتم دون أن يحدد أحدًا وبصوت خافت يُسمِع من لم يسخر منه مثلنا، لم يكن لدي وقت حتى للتفكير.. وخرجت مع المفرزة لأعود بعد ذلك بأيام.. وجدت أن قسماته مجرحة مسحوقة حد التشوه.. قلت لزوجتي:

- بأي قسوة ضربوه!

الكل يلزم الصمت مبتسمًا، وثمة من يصرخ بأعلى صوته بين الحين والحين:

- يمة «الدوخين».. أش عمل بيه!.

و «الدوخين» هو حبل بمقام الحزام يشد السروال الكردي العريض.. والمسكين عندما يسمع تلك الصرخة التي يضج بعدها الجميع بالضحك، يزداد وجهه تشوهًا.. لم يطل الأمر فعرفته مفصلًا من صاحبي المحقق، الذي حقق في الموضوع، قال لي ضاحكا:

- تحرش برفيق شاب من السرية الخامسة!.

انخرطت جميلة بضحكة عاصفة صارخة:

- تحكي جد!

- اسمعي .. المسكين لم يستطع النوم، والشاب الجميل يغفو على الفراش المجاور بوجهه الأبيض الغض المشع،.. لم يستطع.. وبنص الليل، وسوس له الشيطان فلم يشعر إلا وبيده تدب في الظلمة تحت البطانية وتعثر على عقدة «الدوخين» وتحلها. انتظر قليلا فلم تصدر من النائم حركة.. زحزح الخيط والظاهر أن الرفيق الشاب فزّ لكنه ظل ساكنًا لكي يتبين الأمر، ففسره صاحبنا قبولًا، فحاول خرط السروال، وما أن أمسك بحافته بقوة، حتى أطبقت كف الشاب القوية على المعصم المتسلل دافرًا الفراش، توسل «أبو الوسن» بصوت هامس كي لا يفضحه. وبصمت شدّ سرواله وطلب منه الخروج إلى الوادي.. تبعه بصمت في الممر الوسطي الضيق بين أجساد الضيوف النائمين.. سار به إلى عمق الوادي، وهنالك انهال عليه ضربًا.. كان المسكين يعتذر ويتوسل قائلًا:

- اضرب.. اضرب بعد بس لا تشتكي للحزب!

وعندما تكل قبضة الشاب.. يعتقد أنه أشفى غليله، فيعود به إلى القاعة، لكنه يفور بعد فترة وجيزة، يوقظه من جديد طالبًا منه أن يتبعه.. فيخطو خلفه بصمت إلى عمق الوادي، متحملا دورة ثانية من اللكم والنطح والشتم.. كان يكرر متوسلًا كي لا يفضحه، ويرجعان إلى القاعة.

تكرر الأمر طوال الليل أكثر من أربع مرات.. وتحمل قبضة ذاك الشاب القوي دون أن يتأوه؛ طمعًا بكتمان ما فعله، لكن الشاب ومع خيوط الفجر

الأولى أبلغ الرفاق. فما كان منهم إلا حجزه في غرفة فارغة متروكة بفصيل الضيافة، بعد ساعات من خروجي في المفرزة.. هذه التفاصيل الدقيقة سردها الطرفان للمحقق، الذي علق ضاحكًا:

– المسكين أول ما واجهته لطم على جبهته المتورمة، وصاح «يا بوية راحت القاعدية» وهي درجة حزبية في الترتيب التنظيمي للحزب الشيوعي!

أطلقت «جميلة» ضحكة مجلجلة معلقة:

– أش لون حمار هذا!.

هدأت وقالت بوجه منتشٍ:

– لكن أش لون ذكرني.. واعتبرني سببًا من أسباب مصيبته!.

قال «إبراهيم»:

– أغرقتنا السماء بثلاثة أيام متتالية لم يتوقف المطر فيها هي الأيام، التي حُبس فيها في غرفة الضيافة.. لا تدرين كم شعرت بالحزن. ذهبت لزيارته في الغرفة القديمة، وجدته مستلقيا على بطنه دافنًا رأسه بالوسادة وكأنه يودّ الغور فيها. كنت متعاطفًا معه بشدة، غافرًا فعلته.. كلمته بهذا المعنى.. وقلت له سأكلم رفيقنا المحقق كي يطلق سراحك.. وفعلًا ذهبت إليه وتحاورنا، فهو الآخر كان نزيل سجن الحلة من 1963 – 1967 مع صديق شاعر من أبناء حينا أسرّ لي عن خفايا عالم السجن الغريب.. فذكرته بما كان يجري في سجن الحلة من تحرش جنسي بين الرفاق قائلًا:

- ظروفنا تشبه ظروف السجن في بعـدها الاجتماعـي.. حرمـان وبيئـة مغلقة!

وافقني، فطلبت منه أن يطلق سراح المسكين.. وفعلًا كتـب لي ورقـة إلى الحرس، أخذتها فورًا فأطلق سراحه. في الصباح نفسه، التحـق بالفـصيل.. كنا نحاول ردم الحفر المحيطة بقاعة الفصيل والمطبخ، والتي تجمعـت فيهـا مياه الأمطار بحمل الحصى والتراب من مجرى الوادي. فـصاحبني في حمـل كيس جنفاص مفتوح نحمله من الجانبين مسافة أكثر مـن خمـسة وعـشرين مترًا. في تلك المسافة بين مجرى الوادي وقاعة الفـصيل، كـان لا يـستطيع أن يبادلني الحديث، وكان يشعر بالذنب وبفداحة مـا أقـدم عليـه، فـراح يحـاور نفسه بصوت مسموع، وكأنه يؤدي دورًا على خشبة مـسرح.. فكنـت أحيانًـا أكاد أبكي على ما يفضي به، وأحيانًا أكاد أنفجر ضاحكًا.

صمت قليلا ليأخذ نفسًا ورشفة من كأسه، صاحت به:

- شو سكتت.. كمل بروح جدك.. كمل!.

قالت مسرورة.. وأشعلت سيجارة. لاحظ «إبراهيم» تلاشى علامـات الحزن من قسماتها ليحل تضرج جعلها تبدو طرية. أسرّهُ تبدل حالهـا، لكنـه توجس من طريقة نظراتها العميقة، والتي تكاد تلتهمه أثناء الحديث، حثتـه قائلةً:

- كمل.. حبيبي كمل!.

- ما جعله ينفجر مكلمًا نفسه هو صمتي، كان يتوقع أن أكيل اللوم له.. كان يحتاج مني بالذات اللوم والتقريع، فقد كنت من القلة الذين لم يسخروا

منه طوال ثلاث سنوات قضيناها معا في تلك القاعـدة. كنـت أحمـل طـرفي الكيس بصمت، وأحدق به جانبيًّا.. كان أقصر مني بكثير. وكانت وجنتـاه مزرقتين مليئتين بالخدوش وبقع الدم المتخثرة.. تمكنت من رؤية هالـة زرقـاء كبيرة تحيط بعينه اليسرى المرئية من جهتي، والتي يخفيها تحت نظـارة سـوداء عريضة. بعد وجبتي تراب وحصى نقلناهما، وفيما كنا نضع الكيس على أرض المجرى، صرخ شاتمًا نفسه، وكأنه يشتم شخصًا آخر مجسدًا يقف أمامه:

- كلب ابن الكلب.. ولك ما تستحي عمرك أربعين سـنة، وتمـد أيـدك على «دوخين» رفيقك!.

كدت أنفجر ضـاحكًا.. فاختنقـت محـدقًا إلى جهتـي شـاردًا بعينـي إلى السفح الأخضر البعيد، وهو يستمر بكيل اللوم:

- ولك ما تستحي بكبر ابنك.. ما تستحي!.

كان لا يحدق ناحيتي أبدًا، بـل يرمـي بـصره أمامـه في طريقنـا إلى قاعـة الفصيل:

- ابن الحذاء أنت أش گلـت لنفـسك لمـا مـدت أيـدك بالظلمـة.. أش گلت؟!

- ...

كان لا ينتظر مني شيئًا.. ويصمت كلما وصلنا قرب الرفاق المنهمكين في ردم الحفر في المطبخ والساحة.. لكنه يعاود الحوار مـا أن نبتعـد إلى المـسافة التي لا يسمعه فيها سواي:

- سجنوك.. الله يطيّح حظك.. سجنوك.. مثل أي مندس لو عميل... تستأهل.. حمار.. تستأهل!

نفض الكيس الفارغ قبل فرشه على الأرض، ثم واصل:

- لا.. لا.. والله ما تستأهل.. كل ظروفك عكس وكلها سببها الرفاق.. خربوا حياتك!

صمت ونحن نعبئ الكيس بالتراب والحصى.. التفتُّ إليه هذه المرة بشغف.. صرت شديد الفضول لمعرفة كيف خربوا حياته. وجدته صامتًا يتموج الألم تحت بشرته المتورمة، مثل موجة تصعد حتى الشعر وتنزل لتختفي تحت الحنك تمامًا.. أحسسته حاقدًا على الوجود برمته.. عزمت على سؤاله عن ذلك، لكني تراجعت قائلًا لنفسي:

- لا.. لا.. سأخرب كل شيء!.

فرحت ألقي بالتراب والحجر على الكيس المفروش، وكأن أمره لا يعنيني.. فواصل:

- أي نعم هم اللي حطموا حياتك وَوَصّلوك لهذا الحضيض.. ثلاثة أيام.. سجنوك الرفاق ثلاثة أيام.. أخ كانت أش طولها.. عمر.. شيبتك .. وأنت تكتشف أش لون خربوا حياتك.. ظلوا كلما تريد تستقر وتتزوج يوقفون بوجهك.. بالثمانية وسبعين تعرفت على وحدة بسفرة حزبية، وما بقى غير تودي الخطابة. وصارت الحملة قالوا: لازم تختفي رفيق.. قلت لهم: وخطيبتي قالوا: أوامر حزب.. كنت أظن يوم.. يومين.. شهر.. شهرين.. طولت القصة وقالوا: لازم تطلع للخارج..

بألف يا «علي» دبرت جواز ووصلت بيروت، وبها تعرفت على شابة فلسطينية تشتغل بأرشيف مجلة الجبهة الديمقراطية الفلسطينية «الحرية» ، وردت تتزوج، قالوا: لا رفيق لازم تسافر لليمن.. ليش.. ليش؟!.. قالوا: ضرورات تنظيمية.. سافرت.. وراحت عليك.. وباليمن.. اشتغلت معلم رياضة بمدينة «أبين»، وهناك تعرفت على معلمة يمنية بالمدرسة اللي تشتغل بها.. وقلت مع نفسك: هذي المرة انحلت عقدتي.. وصارحتها فطارت من الفرح.. ولما خبرتهم قالوا: يا زواج رفيق يا زواج.. عدنا كفاح مسلح بكردستان.. حَضّرْ نفسك بعد شهر تسافر لسوريا حتى من هناك تتسلل إلى أرض الوطن وتكمل الطريق..

ما عاندت يا حمار.. ما عاندت مثل ما سووا بعض الرفاق.. بقوا هناك باليمن صار عندهم أطفال وعائلة.. صحيح طردوهم أول مرة من الحزب، لكن بعدين مشت أمورهم ورجعوهم للتنظيم.. لكن أنت حمار.. حمار.. حمار.. تنفذ كل ما يقولون.. دون عناد.. ولا نقاش.. حيل تستأهل.. كل ما يصير وياك..

وهنا بكردستان..خربوا عليك أخر فرصة.. الرفيقة اللي التحقت من الداخل.. كانت تضحك وياك وتمزح.. وتنكت.. يعني صارت صديقة.. وقلت بعد ما استشهد زوجها راح أسِدّ مكانه وأخفف عليها الوحشة.. وهي جارتنا ومن عائلة فقيرة.. يعني من ثوبي.. لكنهم الرفاق الخبثاء وسوسوا بأذنها.. الخبثاء.. فرفضتني.. رفضتني!

وعند هذا الموضع، أضمر «إبراهيم» عنها ما علق به المرحوم الذي توقف صامتا.. طلب منه إنزال الكيس المعبأ بالتراب والتفت نحوه للمرة الأولى والأخيرة طوال حواره الطويل قائلا:

- «لو أتشوفه» يقصد «جميلة» ما تگدر تباوع بوجهه..

- ...

- القرد أحلى منها.. ورفضتني!.

قطع «إبراهيم» القصة ضاحكًا بخبث وسألها:

- لماذا رفضت ذاك المسكين!.

وحملق في ملامحها التي أبرقت وأضاءت، قال مع نفسه:

- انفعال المرأة نفسه كلما أصبحت أنوثتها موضع الحديث!.. النشوة مكررة في وجه زوجتي وأختي والرفيقة والزميلة وحتى عمتي وخالتي وأمي، عند مزاحي حول علاقة حبهن بالزوج.. ويوم الزواج!

أطلقت ضحكة عاصفة وتوردت وجنتاها مترقرقة بشكلٍ أذهله، وقالت مع غنج في صوتها الذي صار ناعمًا بغتة:

- حمار.. يفكر أتزوجه بعد الشهيد.. حمار!.

أزعجته بردها فتذكر كيف عثر عليه ليلة قصف المقر في فجر اليوم التالي واقفًا على رأسه، المحشور في دغل شجرة كثيف وسط السفح، واقفًا بشكل مستقيم بحيث ظنَّ أول الأمر بأن سروالًا معلقا بشكل مقلوب.. نزل عدة أمتار ليتأكد، فصرخ بالآخرين كي يأتوا ليساعدوه..

- .. ليش سكتت؟

قالت له بصوتها الغنج، وتفاصيل قسماته المطعونة المتورمة المزرقة النابتة وسط الدغل، تحرز صرخة فزع لا توصف باقية رغم تشوهها، تتجسد قريبة من عينيه ضخمة.. صارخة إلى الأبد وهو يسحب الرأس المحشور بأناة من بين حشد السيقان المحيط به، بينما الرفيقان الآخران يمسكان بالجسد من الساقين والبطن.. فاء إلى «جميلة»، وهي تسأله:

- وين صار جاري الحمار.. هنا بموسكو لو وصل للسويد؟!.

أجابها ساخرًا:

- لا هذا.. ولا ذاك.. صعد إلى السماء..

- ماذا تقصد؟!.

صمت برهة وجيزة، وشخص نحو النافذة.. الثلج ما زال يتساقط بغزارة.. والليل صار لونه باهتًا.. عاد إلى التحديق نحوها. كانت تنتظر الجواب مترقبة حركة شفتيه، وكان حائرًا، فلو أخبرها بمصيره ستعود إلى الولولة والندب، وإذا لم يخبرها سيظل نادمًا لعدم الرد على تطاولها بهذه الكيفية الساخرة على ميت محروم، كان يردد دومًا.. خاف أستشهد وأصير مثل « جبر من .... أمه للقبر».. حزم أمره فسرد عليها تفاصيل مقتله، وقبل أن تشرع في البكاء والندب.. وضع كاسيت فلامنكو إسباني.. وقام يرقص وسط الغرفة محركًا جسده على إيقاع أصوات المغنين الناعبة والتصفيق وكعوب الأقدام الضاربة الأرضية الخشبية بنسق فريد.. جعلت تصرخ مذهولة:

- يا الله.. يا الله.. أش لون ترقص حلو!.

وقامت ترقص إلى جواره حتى تعبا.. جلست قائلة:

- عندك شرب!.

كانت القناني والكؤوس فارغة. لم يجد في أدراج المطبخ شيئًا، ارتدى معطفه قائلا:

- عشرة دقائق فقط وعدنا شرب!.

- يا محل مفتح بهذه الساعة!.. سأجيء معك!.

كانت تلبس معطفها.. وعلى السلالم شبكت ذراعها في ذراعه. وظلت تضع رأسها على كتفه طوال الطريق إلى البناية، التي تبعد خمسين مترًا عن بنايتهم حيث العجوز، التي تبيع الفودكا بشقتها بسعر السوق السوداء وعلى مدار الساعة.. كانت تشكو من الرفاق الذين يدرسون في موسكو متهمة إياهم بترك رفيقاتهم، والتعلق بالشابات الروسيات العاهرات حسب تعبيرها:

- من العاهرة الروسية يقبلون كل شيء.. لكن من رفيقتهم بنت بلدهم يحسبون عليها حركاتها وسكناتها!.. ويشردون منها!

كان يقول لها:

- أنسي كل شيء.. الحياة لحظة.. الحياة فقاعة..

فكانت تكمل صارخة تحت الثلج:

- خلِّي نصورها قبل ما تنفجر!.

انتبه إلى التحوير في المثل، فأراد جس النبض فقال:

- متى؟!.

- الليلة.. الليلة.. وين كنت مضموم!

أصرّتْ على الصعود معه إلى شقة العجوز الكائنة في الطابق الأول.. وكانت تزيد من التصاقها به. وفي طريق عودتهما، أحس برغبة شديدة في الهرب مما سيجري بعد ساعة في الشقة.. رغبة خَبَرَها جيدًا حينما صحبته المتشردة الروسية إلى محل بيع الخمور وتركها هاربًا، وهي تتشاجر مع صف الروس المنتظرين دورهم للشراء.. هنا مع «جميلة» ليس دافعها الشعور بالخجل والترفع، بل دوافعها مركبة.. فقد لا يستطع تخيل نفسه في الفراش معها، ليس كونه شريفًا.. عفيفًا.. فهو اكتشف نفسه سافلًا مركبًا بالسليقة في تجربتيه السابقتين، يضاف إلى أنه تحرر تمامًا من الشعور بالذنب لخيانته، لأنه تحرر أصلًا من هاجس العائلة، لا بل وكأنه لم يتزوج أصلا.. يريد تصوير الحياة قبل أن تنفجر.. لكن ليس مع هذا الشكل.. فما كان يأسره بالمرأة ليس أعضاؤها الجنسية المجردة، بل ما كان يمور في وجهها من انفعال، يضفي على القسمات الجميلة سحرًا، يتجلى في اللحظات السابقة للذروة.. كان يردد دائمًا:

- المضاجعة.. هي مضاجعة وجوه لا فروج!.

فكيف المهرب.. وإلى أين؟!. كان يسأل نفسه وهما يصعدان سلالم الطابق الثاني. وفي الفسحة المؤدية إلى باب الشقة انفصل عنها.. وأدخل المفتاح بالثقب وأداره.. كانت تحتك به من الخلف ضاحكة، فتنتابه

قشعريرة ورعدة ينكمش لها جلده.. تهالك على الأريكة منهكًا.. صامتًا بينما راحت تغني:

- ربيتك زغيرون «حسن».. ليش أنكرتني

عيني حسن!

وتنحني نحوه لتقرص وجنتيه المتصلبتين، قبل أن تستدير نحو المطبخ قائلة أنها ستجلب الثلج والليمون والحمص المسلوق. ما أن غيبتها الثنية، حتى ملأ كأسًا حتى الحافة ودلقها دفعة واحدة في جوفه.. عبّ الثانية قبل أن تعود.. وبعد دقائق بدأ يحس بالخدر يسري من رأسه حتى قدميه.. كانت مستمرة في الغناء في المطبخ بصوتها المرح.. ثقل رأسه وصوت خطاها المقتربة يرن وكأنه قادم من زمن آخر.. تبسم في وجهها وسمعها تصرخ في دهشة قائلة:

- «أش بيك يا معزه طَيرِت نص البُطِل بلحظة!».

وجلست جواره منهمرة بحديث ما.. ورويدًا..رويدًا راح يتأرجح على حافة النوم فاتحًا عينيه بعناء.. متصنعًا الإنصات إلى ما تقوله، دون أن يفهم شيئًا إلى أن لم يعد باستطاعته فتح عينيه.. فأطبق أجفانه.. اقتربت منه وراحت تمسح جبهته برقة، وتناديه بحنان:

- أگعد يخايب.. أگعد.. أرجوك لا تتركني وحدي!

كان يهبط إلى قاع النوم على وقع بكائها المكتوم.

استيقظ مع الفجر.. حملق حواليـه.. عـلى الطاولـة القنينـة فارغـة، وإلى جواره على طرف الأريكة وجدها مكورة، تغفو وقسماتها تنضح ألما.. صرخ في صمت:

- حقيييييييييييييييييييييييير!.

مجد الغرف

وقف ضاحكًا يوشك على فرد ذراعيه، تحت مصباح بئر السلم الخافت.. فرك «إبراهيم» عينيه وشخص محدقًا مرة أخرى بعمق.. الشكل ليس غريبًا.. الواقف المبتسم يلوذ بالصمت ولا يحرك ساكنًا وكأنه يختبره.. لم يشأ سؤاله من يكون.. ففي نظراته وقسماته ما يشي بمعرفة وطيدة:

- من يكون؟!.

ما أربكه أن القادم لم يكن معه أحدٌ. فعادة ما يأتي الزائر الجديد بصحبة رفيق زار الشقة سابقًا. فكيف عرف المكان والعنوان؟!. لم يطل الصمت المربك؛ إذ ظهر من خلف ثنية السلالم النازلة «محمود» ضاحكًا.. وقبل أن ينطق الواقف، الذي استكمل فرد ذراعيه، صرخ «إبراهيم»:

- «عزيز»!

تعانقا بقوة.. صارا كتلة واحدة لاهثةً، مرددين شتائم عتب وحب، فآخر مرة رآه «إبراهيم» في بارٍ يقع على شارع «أبو نواس» ببغداد في يوم الجمعة المصادف 6 ـ 6 ـ 1980.. وقتها كانت الحملة قد اشتدت فلجئا ،

هاربين ، من الديوانية إلى بغداد.. اختفيا في شقة الوزيرية المقابلة لمعمل القطن الطبي، التي كانا يسكنانها أيام دراستهما الجامعية، وهي في الحقيقة مشتمل يتبع بيتًا كبيرًا يصل إليه الداخل بواسطة دهليز طويل، يفضي إلى ثلاث غرف : التي إلى اليمين كانت غرفتهم، يُصعد إلى بابها الحديدي بسلم من ثلاث درجات.. ومن باطن الغرفة المستطيلة الواسعة، وفي نقطة التقاء جداريها البعيدين ينفتح سلم حجري يؤدي إلى فسحة مبلطة؛ حيث المرافق والحمام، ثم سلم ذو ثلاث درجات يؤدي إلى السطح..

لم يكن «عزيز» جالسًا معه على الطاولة نفسها ، بل كان يجلس في آخر حديقة البار الواسعة مع ثلاثة من أبناء مدينته. في خضم الحوار مع اثنين من أصدقائه.. أحدهم كان ملاحقًا بسبب اعتراف مسئوله، نسى «إبراهيم» وجود «عزيز»..

وفي ممر الخروج انقضوا عليهم.. ليقضي «إبراهيم» أكثر من شهر معتقلا بدائرة بغداد. عندما أطلقوا سراحه لعدم ثبوت الأدلة، لم يجد أحدًا ممن كان يختبئ في الشقة.. فالكل غيّر مكانه. ومن ذلك اليوم لم ير «عزيز» إلا هذه اللحظة.. يعني ذلك أنه مرت أكثر من عشر سنين.

قال «إبراهيم» وذراعه تلتف حول كتف «عزيز» البعيدة، وهما يدلفان إلى الغرفة يتبعهما «محمود»:

- عمر الشقي بقي!

فضجّ «عزيز» بالضحك:

- أكيد.. أكيد وإلا ما التقينا!.

أردف «إبراهيم»، وهي يهوي بكفه الضخمة على ظهر «عزيز»:

- وأكبر أناني شفته بحياتي..!.

هدر «عزيز» بالضحك مرة أخرى، وقال:

- وره كل هذي السنين وما نسيت!

- أش لون أنسي يا نذل أش لون انسي!.

يتذكر ذلك المساء بوضوح شديد.. كان قد أكمل دراسته وخدمته العسكرية واشتغل.. بعثته دائرته إيفادًا إلى بغداد. وكالعادة كان يأوي إلى الشقة التي توارثها أبناء المدينة، وكان «عزيز» لا يزال يسكنها لأنه لم يكمل دراسته بعد. في الدهليز المظلم الطويل تحسس المفتاح، الراقد في الجيب الخارجي لحقيبته اليدوية، فكل من سكنها في فترة ما لديه مفتاح، ومن حقه المبيت فيها، كلما قدم إلى بغداد في زيارة.. كان يرشح من نافذتها المطلة على الممر، ضوء خفيف، عبر الستارة المسدلة.. أنصت جوار الباب.. ثمة أصوات تتهامس.. قرع ثلاث مرات قرعًا خفيفًا بسبابته المعقوفة. همدت الأصوات.. عاود القرع بوتيرة أعلى.. جاوبه رنين الباب المعدني المتلاشي في سكون النافذة. أخرج المفتاح وحشره في الثقب. وفيما كان يديره انفتح الباب وظهر خلفه «عزيز» يبتسم بارتباك، وخلف القاطع الخشبي، الذي يقسم الغرفة إلى قسمين أمامي وخلفي .. توقف مدهوشًا، فسارع «عزيز» قائلًا:

- أعرفك على صديقتي «سندس»!

استقامت بنصفها الأعلى الناحل مادةً ذراعها الرشيقة العارية مرحبة بصوت ناعم، أطبق على كفها الصغيرة هزَّها غارزًا عينيه في عينيها الوديعتين.. بدت شديدة البراءة للحظة. تشبثت بكفه عندما حاول أن يسحبها ضاغطةً ضغطًا متناوبًا يقوى ويترقق. كان «عزيز» يقف مراقبًا المشهد بعيني صقر. كان الوقت صيفًا، وكانت شبه عارية ترتدي ثوب نوم أحمر بدا ساحرًا على ضوء مصباح الغرفة الناري. تحاشي «إبراهيم» التحديق الطويل في تفاصيل جسدها الرشيق جدًّا والمثير تحت الثوب الشفاف، مركزًا الحديث معه، ومبديًا عدم اكتراثه بها، حتى أنه لم يلقِ نظرة على جسدها من الخلف، عندما نهضت متجهة نحو السلم قاصدة الحمام. سأله: وين صدتها؟!.فضحك قائلًا: كانت صاحبة صديقنا «جعفر»، الساكن في الشارع المجاور، تشاجرت معه عند زيارتي له، تركت شقته غاضبة، تبعتها حتى أرجعها له، لكنها أصرت على السكن معي مؤقتا لحين تدبيرها سكنًا، فآويتها منذ شهر، لكن وقعنا بالحب، قال «إبراهيم» في نفسه معلقًا على جملة عزيز الأخيرة: الأناني بدأ يقدم!. علق ضاحكًا: يعني راح تتزوجها!. ارتبك ردًّا: لا هذا ليس قصدي!. سمعا وقع خطاها النازلة على السلم.. قرر «إبراهيم» مغازلتها بعينيه، فاستجابت بيسرٍ، سأل «إبراهيم» :

- ما عندك عرق؟!

- لا..

كانت تغمز له عندما ينشغل «عزيز» عنها.. قال وهو يدس يده في جيب قميصه ليخرج دينارًا ويمد ذراعه نحو «عزيز»:

- أجلب لنا قنينة من نادي الإسالة!.

تناول الدينار مضطربًا.. تضرجت وجنتاه.. وراح ينقل نظراته بين وجه «سندس» و«إبراهيم».

أردف «إبراهيم»:

- كلها ثلث ساعة!.

وربتَ على ظهره، قالت بغنج:

- سأعد العشاء!.

تسمَّر لائذًا بالصمت.. وبدا أنه يحاول أن يجد مخرجًا، وفجأة أشرقت قسماته قائلًا:

- «إبراهيم» نروح سوه!..

وأضاف بخبث:

- فأنا مشتاق إليك جدًّا يا صديقي!.

لم تنفع معه حجج «إبراهيم»، بالتعب، بل زاد إصرارًا عندما ألحت «سندس» عليه:

- أتركه معي.. ما أريد أبقى وحدي.. أخاف!.

لف ذراعه حول كتف «إبراهيم» وسحبه نحو الباب، غير آبه لصوتها المتوسل:

- أتركه الله يخليك!.

ففوت عليه الفرصة التي بقيت محتدمة، رغم مرور كل تلك السنين.. فقد قضى ليلةً مبرحةً على السطح و«عزيز» يضطجع مع «سندس» عاريًا في الزاوية البعيدة، يضربه صوت آهاتها التي لا تكتمها، وخوار «عزيز» الشبيه بخوار ثور.. سمفونية حية.. فريدة لم ينسها حتى هذه اللحظة، وكأنها تجري تحت ناظريه، وهو يحدث «عزيز».. عزف أوجع جسده.. ووتره طوال الليل.. لم يخفت إلا عند مطلع الفجر.

قال «محمود» ببلاهة:

- عمن تحكون؟!.

لم يجبه أحدٌ.. كان «عزيز» يقول بصوت عالٍ:

- ما تدري كم مرة قلت لك.. أني ويه العاهرات ما أعرف أبوي.. أناني.. وكلب.. بعد أش تريد أكثر من هذا!.

- أدرى بيك!.

- اسمع «إبراهيم».. وبعدني أناني حتى هذي اللحظة مع العاهرات، رغم زواجي قبل أربع سنوات!.

لم يصدق أحدهما الآخر قصة زواجه بعد تلك الحياة السرية العاصفة التي عاشاها.. مراهقان في الديوانية، ثم شابان في شقة الوزيرية العجيبة التي كانت ملجئًا للكل.. فمن لم يجد مكانًا يبيت فيه من اليساريين طبعًا يستطيع المبيت فيها، ومن يُستهدَف من عصابات العنف التابعة للاتحاد الوطني، وقت الجبهة الوطنية، يبعثون به إلى الشقة كي يقضي فيها وقتًا إلى أن

تهدأ الأمور، ومن نسى نفسه في بار، فلم يجد وسيلة نقل تقله إلى مكـان سـكنه البعيد يأتي سيرًا على الأقدام إليها.. وكل عاهرة لا تجد زبائن أو مكانًـا تقـضي ليلها فيه تقرع الباب وتدخل وكأنه بيتها.. ليس العاهرات فقط بل عديـد مـن النساء اللواتي يهربن لمدٍ مختلفة من عسف الأزواج..

حلّـت نـسوة كرديـات متوسـطات في الـسن تـزوجن في بغـداد.. ومسيحيات شديدات البياض.. وعربيات قرويـات، سـمراوات قادمـات من أطراف المدن.. وأخريات حـضريات تبـدو علـيهن النعمـة.. يـصبحنَ مشاعًا بطبيعة الحال، لكن الواحدة منهن تختار واحدًا منهم كرفيق تـستمتع معه في المضاجعة.. تبكي حينًـا.. وتـضحك عنـد الـذروة حينـا.. عـدا أن الغرفة تكون أحيانًـا مقـرًا لاجتماعـات خلايـا الحـزب الـشيوعي الـسرية، ومكانًا للقاءات غرامية مـع زمـيلاتهم في الجامعـة، حيـث يُبَلـغ قبـل أيـام الآخرين بعدم الحضور أو مغادرة الشقة في وقت معين.

باختصار كانت نافـذة عجيبـة، تعرفـا مـن خلالهـا عـلى بـشر ومـصائر وخصوصًا عالم المرأة العراقية شديد الغموض.. تذكرا في الجلسة كل تلـك التفاصيل وسـط بلاهـة «محمـود» المنصت مدهوشًـا مـن غـزارة الوقـائع الجنسية، قال «عزيز»:

– رغم القلق وعدم الاستقرار والخوف ما شفت أحلى من تلك الأيام!.

صمت لبرهة وجيزة، ثم أردف:

– شوف عشت هنا وضاجعت أشكالًا، ولكن.. لم أذق ألـذ مـن تلـك المسيحية البيضاء، مرصوصة اللحم، مشدودة الجلد، الهاربـة مـن زوجهـا، والتي اختارتني دونكم!.. أتتذكرها؟!

تجسدت فورًا بجسدها المثير أمام عيني «إبراهيم».. وكانت امرأة غريبة.. لم تدع طوال أيامها العشرة التي قضتها في الشقة، أحدًا يضاجعها سوى «عزيز» الذي وفَّر لها الحماية من الاغتصاب بملازمتها طوال الوقت. وكان عندما يخرج لشأن ما يأخذها معه مخاطرًا باحتمال القبض عليه معها.. ففي أغلب الحالات يقوم الأزواج بإبلاغ الشرطة عن اختفاء الزوجات.. كانت تجلد الجميع في الظلام، وهي تصرخ طوال المضاجعة، وتهذي باللغة الآشورية لتنفجر باكية في آخر الأمر..

وفي المرة الوحيدة التي تركها فيها «عزيز» حاول ثلاثة من النزلاء إقناعها بمضاجعتهم دون جدوى، كانت ترد إنها ليست عاهرة.. وإنها أحبت عزيز.. وكان هذا غير مقنع.. فهي بعد أيام ستعود إلى زوجها وبيتها، وعن أي حب تحكي هذه العاهرة، التي تضاجع عزيزًا وسط مجموعة من الشبان المزدحمين في غرفة بائسة.. الوقت يمر سريعًا. كانوا يخشون عودة «عزيز» دون أن يحصلوا على شيء.

وفي أقصى حالات الهياج هجموا عليها.. فجعلت تضرب وترفس وتصرخ وتعض وتنشب أظافرها، مثل قطة وحشية.. مزقوا قميصها وحاولوا تكبيل يديها.. لكنها كانت قوية كلبؤة.. مزقت وجوههم بأظافرها .. صرخت .. عضت .. شتمت بالآشورية.. وعندما تعبت تكورت؛ حتى لا تمكنهم من فتح أزرار بنطالها الكاوبوي الضيق.. إلى أن قرع الباب بعنف فابتعدوا عنها مخذولين.. استقامت وعلى ملامحها شموخ، جعل أحدهم يهوي عليها بصفعة جعلتها ترتفع عن الأرض قليلًا؛ لترتطم بالجدار مطلقة آهة ألم.

ردّ «إبراهيم»:

- هي تِنِسي يا «عزيز».. نارها بقلبي حتى هذي اللحظة!.

علق ضاحكًا:

- فطمتكم كلكم!

أطلق ضحكة شماتة.. لكنه أضاف:

- كانت لعنة.. تعتقد أنا سعيد لما نمت معها.. لا.. لا.. هي لعنة.. ما أنسى ذاك الجسد أبدا والله.. ما أنسى.. تقدر تتخيل أثرها؟!.. ولك شلتني.. خربت كل لذاتي مع النساء.. تدري زوجتي أش قد حلوة.. ورغم كل جمالها.. أسمع صراخ وبكاء تلك المسيحية، وأنا عاري بالفراش مع زوجتي.. كلما تذكرت رعشة جسدها بالذروة .. أبرد.. وما لقيت غير حل واحد خلصني من المشكلة.. هو.. أغمض عيني، وأتخيل شكلها وصراخها وبكاءها ورعشتها ولونها ونبضها فأستمر بالمضاجعة بنجاح!

نبَّ «إبراهيم» مقهقهًا:

- سافل أصيل! سافل مرتب!.

فضج «عزيز» بضحكة صاخبة قائلًا:

- مثلك تمامًا!.

كان «إبراهيم» يلتفت بين الحين والحين، مسلطًا عينيه على ذهول ملامح «محمود» الصامت، الذي لا يعرف كيف يشارك في مثل هذي المواضيع،

وباب السياسة وما يجري للدولة الشيوعية مسدود، فكلما حاول إيجاد ثغرة، سدها «إبراهيم» مركزًا على موضوع الجنس.. وحتى عندما تطرقا إلى فترة الحملة على الشيوعيين والديمقراطيين، أواخر 1978، حيث أصبحت الشقة ملجأ لمن يهرب من محافظات الجنوب، إذ إن الحملة ابتدأت من البصرة لتبلغ ذروتها في بغداد أواخر 1979؛ فكانت تمتلئ حتى أن «إبراهيم» في يوم ما لم يجد عند عودته في ساعة متأخرة موطئ قدم كي يقف براحة ويغفو، فعلق تعليقه الشهير قائلًا:

- أريد أنام وين أوقف؟!.

حتى عند تناول هذا الموضوع كانا يركزان على غرابة الهاربين، فواحد ضبط وهو يسطو على بيوت الجيران ليتلصص من النوافذ غير المسدلة.. وآخر يطفئ السجائر على جلد ذراعه مجربًا هل يستطيع الصمود عند اعتقاله، وآخر يفزّ بعد منتصف الليل باكيًا شوقًا إلى زوجته وابنه الرضيع، وآخر كان يضحك طوال الوقت ويقول:

- صاعد أضرب جلق!، وآخر يقرأ طوال الوقت غير آبه بما يجري. والغريب أن الشقة لم تكبس مطلقًا رغم أن عديدًا ممن اختفى فيها اعتقل؛ إذ يبدو أن كل من اعتقل لم يعترف على مكانها في حالة نادرة. رغم ذلك لم يركزا على صمود أولئك الرفاق.. وعندما أراد «محمود» أن يلقي الضوء على هذا الجانب قائلا:

- أبطال الرفاق اللي صمدوا!.

حدقا نحوه باستغراب، وواصلا حديثهما عن أشياء لا يجرؤ أحد على البوح بها، متطرقين إلى ما كان يجري في كردستان من محاولات لإسقاط الرفيقات اللواتي وقع عديد منهن بحبائل المسؤولين، قال «عزيز»:

- ما تدري «إبراهيم» أش كان يصير بينا بالليل بموقع نوزنك. القاعة تشترك بحايط مع غرفة «يوسف» عضو اللجنة المركزية.. ونص الليل نسمع عبره صراخ الرفيقة، التي تدعي مراعاته لكبر سنه، وهي تصغره بعشرين سنة.. صراخ يذبح ذبح يا «إبراهيم».. في يوم شطت.. نهضت من الفراش، وطلعت من القاعة وردت أقتحم غرفته.. قتلني القواد ابن القواد قتلني.. الليل كله يضاجع وأحنه قتلتنا الجلق!.

نبّ «محمود»:

- لا تشوهوا قيادة الحزب!.

كانوا قد أتوا على قنينة الفودكا الثانية.. التفت عزيز نحوه قائلًا في سخرية:

- أعد ما قلته.. أعده.. يرحم والديك!

فكرر «محمود» بكل جدية وبلاهة ما قاله.. جاوبه بعفطة عظيمة.. فحدق مبهوتًا بـ «عزيز» ثم التفت نحو «إبراهيم» الذي أطلق عفطةً أعظمَ، مما جعله يقول بصوت ضعيف:

- هاي أنتم أش لون مناضلين!.

- مناضلون غصبن عنك!..

وأردفا ضاحكين:

- وإذا ما يعجبك.. نشگ حلقك!.

واستمرا في الحديث عن تلك التفاصيل، التي يعتقد أنها تمس مقدساته.. هو نزيل المدرسة الحزبية في موسكو في آخر أيامها، قبل أن يلغيها يلتسن ويطردوا.

لم يشف غليل «إبراهيم» صَفْعِ «محمود» في موقف الحافلات أمام مطار موسكو في ذلك الصباح البارد.. لا يزال يحمل في قلبه غيظًا منذُ تلك الليلة الأخيرة، التي حرمه فيها من مضاجعة زوجته التي عادت مثل ذكرى قديمة، تكاد تندثر في صخب أيام موسكو.. كان يعد ويرتب في ذهنه كي يثير موضوعًا بعينه يفضي إلى السخرية منه، لاسيما بعد علمه أن «محمود» بمرور الوقت أصبح مثار سخرية رفاقه في المدرسة الحزبية، الذين قصوا عنه عديدًا من حكايات فشله في مضاجعة روسية واحدة، ممن يصادفونهن في حفلات خاصة، حتى أنهم وفروا له جوًّا خاصا بعد أن أوصوا به إحداهن.. فانفردت به موصدة باب الغرفة بالمفتاح، غط في نضحٍ حتى ابتلت ملابسه، وراح يحدثها مرتبكًا عن الشيوعية ونضال العاهرات الروس في حرب الأنصار أثناء الحرب العالمية الثانية، مما قرأه في روايات الحرب التعبوية التي تطبعها دار التقدم الروسية لتصبح مادة تثقيفية لشيوعيي العالم. لم يقترب منها. تذكر كل ذلك و«محمود» يحاول أن يفتح باب السياسة بالحديث عن المؤامرة التي حيكت ضد الاشتراكية.. أسكته «إبراهيم» قائلا:

- رجاءً بلا سياسة.. لعبت نفسنا منها!

أيده «عزيز» قائلًا:

- أسمع لما كنتم تقاتلون بالجبل، شفت الناس هنا أش لون تكره الشيوعية.. صديقي روسي قال لي بما معناه: حتى الماء النازل من الحنفية يكره الشيوعية.. حولوا الناس إلى عبيد.. بيروقراطية ومخابرات.. رشوة وفساد.. واللي يعترض يضيع.. مثل ما يجري عندنا بالعراق بالضبط.. عمموا الفقر.. إلا لطبقة ضيقة هي القيادات الحزبية وقادة المؤسسات ومن يحيط بهم.. وصار الأجنبي يقدر يضاجع الشابة الروسية مقابل وجبات الغذاء والسينما وما شابه.. سترى بنفسك يا «إبراهيم» سترى..

والتفت نحو «محمود» قائلا:

- أكيد أنت شفت بالمدرسة الحزبية!

- ...

- قل هذا غير صحيح؟!

علق «محمود» بصوت واهن متردد:

- صحيح لكن...!.

- بلا لكن وفكنا من هذا الحديث المتعب.. اللي راح يقودنا لانفعالات مؤذية.. فأتذكر إخوتي الثلاثة، اللي راحوا بمعارك مع جماعة «جلال الطالباني».. وبعدين أشتمك وأشتم حزبك.. والعالم كله!..

- ..

صمت محتقن القسمات.. فسارع «إبراهيم» قائلا:

- اهدأ.. اهدأ.. جرّ كأسك.. وخلينا نحكي عن أول مرة ضاجعنا فيها!.

وخطف نظرة إلى وجه «محمود» الذي تبسّم بارتباك.. وضع «عزيز» كأسه على الطاولة، وحملق بعينين مضيئتين نحو النافذة، وكأنه ذهب بعيدًا وقال:

- أي هذا الموضوع اللي يريح!.

قال «إبراهيم» فورًا:

- قص لنا يا «عزيز»!.

حملق «عزيز» في خبث للحظات، قبل أن يتساءل:

- ماذا تقصد بالضبط؟!..حدد.. صبي.. حمارة.. عاهرة!.

فغر «محمود» فاه ونقل نظره بين الاثنين، فوجدهما يبتسمان وكأن ما قاله عزيز شيء عادي ومألوف، فهو طالما سمع همسًا عن أولئك الذين يمارسون الجنس مع كل شيء حي.. كان يظن أن مثل تلك النماذج غريبة الأطوار.. مريضة.. ليس لها أدنى درجة من الوعي.. لا.. بل كان يردد مع نفسه كلما سمع مثل تلك القصص: هذا مجرد خيال.. وهاهو في هذه اللحظة يسمع رفيقين من أبناء مدينته.. مناضلين.. صمدا في المعتقل عدة مرات، وقاتلا بكل شجاعة في كردستان وتشردا، وأحبّا وتزوّجا.. ولديهما أطفال بعكسه؛ فهو لم يستطع أن يوفق وضعه البشري بين النضال السري والزواج..وبقولٍ أدق لم يجد رفيقة تتعلق به، رغم احتكاكه بعدد كبير من الرفيقات في العمل

السري ببيوت حزبية.. يسمعهما يتحاوران وكأن ذلك جزء من ماضيهما المشترك.. سألهما وفي صوته رعشة:

- يعني.. يعني.. أنتم مضاجعين.. كل شي!.

تبادل «إبراهيم» و«عزيز» نظراتٍ متواطئة ليعلق «إبراهيم» قائلا:

- على كل حال!.. لا تسأل.. اسمع فقط!

وثبت عينيه على «عزيز» قائلًا:

- لا تصير خبيث وتفضحنه.. أقصد أول تجربة ويه عاهرة، ويه متزوجة، ويه باكر.. أول مرة اتنام مع امرأة وتذوقه!.

- صار واضح.. اسمعا:

«في أول مراهقتي عملت في مقهى أبي اللي يديره أخي الكبير تعرفوه شيوعي، شقي، سكير، مقامر، نسونچي .. طيب، كريم، ثرثار، متلاف كل التناقضات بيه ومعروف في المدينة كلها، وكان قاسيًا معي.. إذا تأخرت أو أخطأت أو نسيت شيئًا.. يضربني بقسوة بعصا يخبئها في خزانة المقهى.. كان لا يعاقبني أمام الناس، بل عندما يخلو المقهى من الرواد، إما في الظهيرة أو في ساعة متأخرة من الليل قبيل غلق المقهى.. بالمقابل كان يعطيني أجرة يومية مقابل عملي.

تتذكرون مقهانا اللي هو عبارة عن باحة كبيرة في آخرها غرفة صغيرة، تحوي الموقد وأدوات الشاي من قواري واستكانات وأركيلات وفحم، وفي داخلها باب صغير يؤدي إلى المغاسل والمرحاض.

حرموني من اللعب بالشارع.. من المدرسة للمقهى، حتى واجباتي كنت أحلها بغرفة الموقد الحارة. ومثل ما قلت لكم بدأت أحلم، ومن زملائي في المدرسة سمعت عن العادة السرية فجربتها في ليلة تحت الغطاء، بعد أن نـام إخوتي المتكدسين معي في غرفة طويلة بلا أثاث.. وجدت بها لـذة غريبـة، فرحت أمارسها كل ليلة تقريبًا..

كنت أرتبك في الصباح شـاعرًا بالـذنب.. إلى أن تبـدل موعـدها حينـما وجدتُ يومًا على قنفة في طرف المقهى مجلة الشبكة نسيها أحـد الـرواد مـع عـدة جرائـد أتـذكرها حتـى هـذه اللحظـة، المنـار، كـل شيء، والراصـد. تصفحت المجلـة في الظهـيرة فأنـذهلت مـن أجسـاد النسوة العاريـات.. وكانت صورة الغلاف الملونة لـ «برجيت باردو» شبه عارية، إلا من قطعـة قماش صغيرة جدًا تغطي شقها الذي بدا صغيرًا..

يضاف إلى صور بالأسود والأبيض داخـل الـصفحات وهـي بأوضـاع مختلفة مثيرة، من الخلـف ..مـن الجوانـب ..مـن الأمـام..رافعـة الـساقين، منحنية ..تنظر من بين فخذيها الرشيقين الأملسين اللـذين بـدوا كعمـودين شاهقين، فكنت أتتبع الساق من الكعب حتى المؤخرة قليلا.. قليلا..

تلك الصور سببت لي ما كنت أعتقده كارثةً.. خبأتُ المجلة في زاوية من غرفة الموقد المكتظة. ودأبت على إخراجها في الظهيرة، عندما يخلو المقهى لأقلبها على مهل إلى أن أستثار وينتصب، فأداعبه على مهل خلف بناء الموقد جالسًا على الأرض، في زاوية لا يستطيع الداخل للغرفة أن يراني. أصبحت أمنية يومي هي انتظار لحظة أذان الظهر ومغادرة أخر جليس، وفي ظهيرة من ظهائر تموز الحارق.. تأكدت من فراغ المقهى والشارع من الناس،

فأسرعت إلى مجلتي المضمومة في فجوة مهملة حاشية القنفة، وبدأت بتقليبها رافعًا ثوبي إلى ما فوق خصري، وفيما كنت أداعب وسطي .. متخيلًا جسد «برجيت» حيا يتحرك لصقي، سمعت صوت أخي المدوي يصرخ:

- حمار..ماذا تفعل؟!.

جمد الدم في عروقي.. ماتت يديَّ، فانحل قضيبي وسقطت المجلة.

قرع الباب قرعًا عنيفا أيقظهم من المشهد الحار.. أسرع «عزيز» وغاب في المدخل.. سمعه «إبراهيم» يفتح الباب، ويدخل في حوار بالروسية مع امرأة.. عاد بعد دقيقتين ليقول مستغربًا:

- هذي واحدة سكيرة، تقول أريد حبيبي «إبراهيم»!.. ولك وين لقيته ما صار لك وحدك بموسكو غير شهر ونص!.

- أصرفها وبعدين أسولفلك!.

- ما تقبل.. قلت لها غير موجود تقول تكذب.. فقط أخبره أني في الباب!.

- راح تخرب الجلسة بس تدخل.. أعطيها ما تبقى بالبطل من فودكا.. وأصرفها!.

وأشار «إبراهيم» إلى القنينة المنتصبة وسط الطاولة الصغيرة.. تناولها «عزيز» وخطا نحو المدخل.. سمعاه يدخل بالحوار من جديد، ليتحول إلى

شبه مشادة، انتهت بغلق باب الشقة بعنف، ليظهر بعدها على عتبة الغرفة مدهوشًا يحدق نحو «إبراهيم»، قائلًا:

– شبعتني شتائم، تقول أني لست متسولة «بنت العاهرة».. أنا حبيبة «إبراهيم».. قلت لها: روسي ما يعرف أش لون صار حبيبك.. رمتني بخرطوش طويل من فشار الروس اللي بالحضيض، وقبل ما أَسِدِ الباب خطفت «البطل» من يدي.. «إبراهيم» هذي وراها قصة لازم تحكيها إليّ..

– بعدين.. بعدين.. خلينا نسمع قصتك بالأول!.

انتبه «إبراهيم» إلى «محمود» وقسماته النحيفة السمراء، التي أمعنت في غبائها، وهو يستمع إلى هذه التفاصيل، ويرى مشهد الروسية أمام ناظريه قبل لحظة.. فقال في نفسه:

– من المؤكد أنه يتساءل الآن عن أية أسرار نكتم!.

قال «عزيز»:

– أين كنت بالضبط؟!.

وانهمك بفتح غطاء قنينة فودكا جديدة.. ذكره «إبراهيم» معيدًا آخر مشهد تمامًا كما رسمه قبل طرق الباب عن سقوط المجلة في زاوية خلف موقد المقهى، فاستعاد «عزيز» مناخ المشهد من جديد، وقال:

– بدأت أرعش.. تيبس ريقي.. قفزت من مكاني.. وقفت وتمنيت أطير من الباب وأضيع بغير هذي الدنيا، بالسماء.. أخفيت قضيبي باللباس وعدلت ثوبي.. وتوقعت راح يكسّر العصا على رأسي. لكن ظل ساكت ما أدري ليش.. ساكت ويتمعن في وجهي، وكأنه يفكر بأمر ما، فقلت مع نفسي: يمكن يفكر أش لون يعاقبني، بالعصا، بغيرها..

ولما هز رأسه، والتفت جهة الموقد المليء بالجمر ارتعدت وراحت أسناني تصطك بصوت مسموع، وأنا أتخيل الجمر يلامس جلدي، زاد رعبي فبدأت أبكي.. صاح بيّ: أسكت حمار.. لا تبكي مثل النسوان.. أسكت.. قال ذلك بلهجة مرحة.. سكت. وانتظرت والتوتر بدأ يخف لما شفت بسمة خفيفة، لاحت بطرف عينيه «معنى ذلك أنه بمزاج رائق وغير غاضب مني» قلت مع نفسي بشك.. مد يده الضخمة وسحبني بعنف إلى صدره، عانقني وضربني بقوة على ظهري بكفه المفتوحة، قائلا: صرت كبير وما أدري!.. أخذني إلى أول قنفة قريبة وجلس أمامي وقال: أسمع ما أقوله يظل سر بيني وبينك ما تطلعه لأي بشر.. وافقته. فشدّد وإذا سمعت طالع لغيرنه راح أسلخ جلدك. هززت رأسي مؤكدًا فقال: لازم تنام ويه مرة من لحم ودم!.

لم أصدق ما أسمعه.. هل من المعقول راح أنام ويه واحدة؟!.. هذا الحلم المستحيل وقتها أو اللي يبدو بعيد.. بعيد، قلت لنفسي ذلك، وأخوي يكمل: بكرى الظهر حضر حالك.. أسمع راح تدفع أنت ثمن المضاجعة.. كنت ساكت وهو يقول أقطع أجرة أسبوع.. من عملك بالمقهى. وقتها كنت مستعد أدفع أجرة سنة ليس أسبوع. ما نمت تلك الليلة ومارست العادة السرية «وأنا أتخيل العاهرة اللي وعدني بها» أكثر من مرة. وعند ظهيرة اليوم التالي وبعد خلو المقهى وقت القيلولة أقفل المقهى وقال:

- هيا بنا..

ما أنسى ذاك اليوم أبدًا.. كانت ظهيرة حارة جدًّا.. نهاية تموز. والشوارع خالية من البشر.. كان يسير أمامي بعدة خطوات.. وكنت أكاد أطير.. لا.. لا.. كنت طاير من الفرح. لما أتذكر الآن بعد أكثر من عشرين سنة، أشوف نفسي بحالة من الفرح الغريب ما أحسست بمثله بعد ذلك أبدًا، رغم مضاجعتي لعشرات النساء من مختلف الأجناس.. كنت أسير خلفه وكأنني ذاهب إلى جنة الخلد.. ولم أكن أدري وقتها.. أن تلك التجربة ستفتح علي أبواب جهنم والمرأة وأظل ألهث وألهث دون أن أرتوي..

المهم عبرنا الجسر الخشبي القديم باتجاه الصوب الكبير.. كان النهر الصغير مليئًا بالصبيان العراة.. انحرف يمينًا، ثم عبر الشارع العريض، وهبط على السلالم الحجرية للزقاق المجاور لمحكمة الديوانية القديمة. غمرتنا أزقة الجديدة بظلالها الباردة.. كنت أحث الخطى خلفه. وكان صامتا لا يبادلني الكلام.. لا بل لم يلتفت نحوي مرة واحدة..

وعندما استدار مع حافة جامع السنة باتجاه الكرفت، بدأت أشك، فالطريق يؤدي إلى بيتنا.. بدا خطوي يضطرب، وأنا أتخيل أنه أعدّ لي كمينًا في بيتنا كي أجلد من قبل إخوتي الكبار. تلكأت.. فأحس عندما تخافت صوت قدمي.. التفت وحثني على الإسراع. ومن باب جانبي لخان الحصن والحمير في الكرفت قرع الباب، فخرج الحارس العجوز مرحبًا.. وغادر بينما دخلت مع أخي. قال بصوت قوي: بيض وجهي وصِرْ رجلا عن حق. لم أفهم فالخان واسع وفيه أحواض طولية للعلف وقدور ماء وحشيش

وعدة حصن تجوب في المساحات العارية، وتحت سقيفة تلتف على امتداد ثلاثة جدران..

وقبل أن أسأل اندفع باب الخان الخشبي المردود، ودخلت امرأة تلهث ملفوفة بعباءة سوداء.. وعندما وقع نظرها علي قالت: ياه هذا أخوك.. بعده زغير.. أخاف يفضحنا!..

فرد بجد:

- لا.. لا تخافين سرك في بئر!

كنت مرتبكًا.. بدأت أنضح وهو يوصيها: انتبهي بعده ولد.. هذي أول مرة، فلم أدرك إلا بعد أن تركنا أخي لوحدنا قافلا باب الخان من الخارج.. أنها جارتنا زوجة شرطي النجدة «مشكور»، والتي ولدها زميلي في الصف نفسه، ويلعب معي في المدرسة والشارع. وكانت تزورنا كل يوم تقريبًا.. يعني مصادقة أمي وتساعدها بالتنظيف والطبخ.. وكنت أناديها «خالة». فكرت بكل هذا ما أن أغلق الباب وصرت وحيدا جوارها.. كانت تنظر نحوي بحنان وتبتسم بينما تبللت ملابسي وكأني غطيت بالنهر.. أخذتني من يدي وسارت بي نحو ظلال السقيفة جوار المعلف.. لم تنطق بكلمة واحدة ولا أنا طبعا.

كنت أشعر بالذنب، وأنا أخطو جوارها حتى فسحة مغطاة بالتبن.. نزعت عباءتها وفرشتها فأنحسر ثوبها الأحمر القصير عن فخذين بيضاوين متينتين من الخلف، أنسياني كل ما يتعلق بالشعور بالذنب.. عدلت أطراف العباءة فوق التبن وكانت ترمقني بين الحين والحين بعينين متوهجتين..

قامت وأخذتني إلى حضنها. قبلتني على وجنتي ورقبتي هامسة: لا تخاف.. لا تخاف.. وهي تحاول حبس الرجفة بجسمي.

وقليلا.. وقليلا بدأت أحس بدفء جسمها. وتوترت.. وبخبرة راحت أصابعها تجوس أنحاء جسمي، وتمص فمي بعد أن رفعت ثوبها .. التحمت بها .. همست: أكمل .. توترت إلى الأقصى، ثم همدت .. إليّ الثانية.. وقتها لم أفهم ما تعنيه ..

وعندما جلست على العباءة وأجلستني جوارها وراحت تمسح بشرتي بعد أن جردتني من ثوبي.. كنت أحس بدغدغة لذيذة وشفتاها تجوبان أنحاء جسمي.. إلى أن تهيجت من جديد. فاستلقت فاتحة ساقيها الطويلتين إلى الجانبين وجرتني فوقها وهمست: ارضع.. ارضعْ.. ودسَّت الحلمة في فمي. وفيما كنت أرضع.. قادتني إليه.. كان ناعمًا.. ساخنًا.. لينًا أخذني إلى عالم غير عالم الخان والتبن.. وملأت شمي رائحة جسدها وملابسها وشعرها، التي هي مزيج من روائح المسك والبخور والحناء والدارسين والبهارات، فطردت رائحة الروث والتبن والتراب..

حتى تلك اللحظة لم أجرؤ على النظر في وجهها، إذ كنت أغمض عيني.. لكنني فتحت عيني القريبتين من قسماتها.. كانت تقضم أسنانها، ويتموج في وجهها شيء يصعد وينزل. وكانت تنظر إلى الجهة اليمنى.. فشخصت إلى حيث تنظر.. فرأيت حصانًا أسود قريبًا جدًّا يحدق نحونا بينما تدلى .... طويلا متوترًا يكاد يبلغ الأرض.. تتموج تحتي وتكتم الصراخ، وما فارقت عينها الحصان الذي بدأ ينخر ويرفع ..... ويضربه بجدار

بطنه ضربات متتالية إلى أن صرخت وعضتني بصدري، مطبقـةً سـاقيها عـلى وسطي بعنف توافق مع صهيل الحصان.. مما جعلني أشخص نحوه مرة ثانيـة فرأيته يرفع قائميه الأمامين ويخبط بهما الهواء في هياج.

وصمت «عزيز» فجأةً.. فوجد «إبراهيم» نفسه من جديد في المكان.. تلفت محملقًا حواليه، فرأى «محمود» مضرج الوجه يفغر فمه، ويركز نظراته على شفتي «عزيز» المطبقتين منتظرًا المزيد من التفاصيل أو نهاية القصة التي بترها، ولم يكملها لينقل إلى موضوع يتعلق به قائلًا:

- فتحت عيني هذي التجربة، وبقيت أعمل لدى أخي دون مقابل.. إلى أن وجدت السكة!.

سأل «محمود» بلهفة:

- أش تقصد بالسكة؟!

- عرفـت الـدرب.. بـدأت بـالجيران.. فكثـير مـن المتزوجـات إمـا مهجورات وإما ما يشبعوهن أزواجهن.. هذا عدا اللي عندهن مشاكل.. المهم وجدت الطريق سهلًا.. شيء واحد يتأكدن منه هو سكوتك.. فـإذا عرفن أنت سراني يشبعنك. ولما بنيت علاقة مع جارتنـا الـلي ضـاجعتها بالخان، عرفت أن أخي الزنديق ما يعطيها ولا فلس من أجـرتي!.. فهـي تريد تتمتع يعني ليست عاهر.

صمت لحظة وعقب معلقًا:

- خربتْ نظرتي للنسوان!.. صرت أشك بكل واحدة حتـى بـأخواتي.. بنسوان إخوتي.. وتصورت أن كـل جاراتنـا ممكـن النـوم معهـنّ فوقعـت

بعشرات المشاكل وشبعت ضربًا من كثرة حماقاتي، لكن كنت ما أجـوز لأن مرة أصيب ومرة أخيب..تعودت على القحاب وصرت أناني مثل ما تعرف يا «إبراهيم» وما زلت.. غير أني متـزوج وعنـدي طفلـة، لكـن لما أشـوف واحدة بمكان أنسى كل شيء.. وأتنافس مع أعز صديق.. لا حتى مع أبوي وأعمل المستحيل حتى أزيحه وأحصل عليها!.

والتفت نحو «إبراهيم» قائلا:

– الدور عليك يا «إبراهيم».. خبرنا عن أول مضاجعة.. ثم تَبصرني بسالفة هذي الروسية السكيرة، اللي دقت الباب وتقول أنت حبيبها؟!.

وقهقه بصخب مرددًا:

– حبيبها.. حبيبها بنت العاهر!.

أثناء ما كان «عزيز» يعلق ويحلل تجربته.. كان «إبراهيم» في غمرة شعور عميق بالغبطة من كل ما يجري له في موسكو.. غبطة دائمة جعلته يـضحك طوال الوقت في حضور الآخرين.. غبطـة كـان مـن المستحيل حـضورها وسط زوجته والأولاد.. بـالعكس كـان وجـودهم يـوتره، وهـي تحـاصره طوال الوقت:

– لا تشرب.. أين تذهب.. مـاذا سيكون مـصيرنا؟!.. سنـضيع!. مـا معنى وجودنا هنا وسط هذا الشعب السكير؟ ما الحل والطـرق انقطعـت؟ وأنت تضحك.. ما مهـتم لا بيّ ولا بالأطفـال.. ولا بالمـشكلة.. تـضحك وتـشرب.. وتتـسكع وكأنـك سـائح.. إذا خلـصت فلوسـنا ويـن نعطـي وجهنا؟!.

كان يدرك أن كل أسئلتها مشروعة.. لكن ماذا بيده؟ حاله حال مئات العراقيين المحاصرين في موسكو بانتظار رحمة المهربين ومنظمة الحزب الشيوعي في موسكو.. ثم لماذا ينكد يومه بكل هذه الهموم.. والأمر سواء إذا حُلَّ فبها وإذا لا.. فبها أيضًا!.. ومن هذا المنطق القريب جدًّا من منطق الحياة فقاعة.. الحياة لحظة، كان مبتهجا في أسوأ الأحوال..

لذا تفاقم الوضع بينه وبين زوجته التي ما برحت تحاصره وتكيل له اللوم.. حتى وصل في بعض الليالي إلى نفوره منها في الفراش، فتأجج غضبها وحولت الشقة إلى جحيم يهرب منه إلى السكر كي يتمكن من تحملها.. ليس الشرب فحسب بل وجد في السكر حد الإغماء مخرجًا يلاشيه فيعود لا يسمع ما تقول. ذلك زاد من تعقيد الوضع، فأمعنت في حربها إلى الحد الذي أحس في ليلة من ليالي الجحيم تلك برغبة جارفة في تهشيم قسماتها المتنمرة الصخرية الوقحة، وهي تنق وتلح وتلوم فأمسك بقنينة فودكا مليئة من عنقها الرفيع بقبضته المشدودة. رفعها عاليًا وهو يقفز من الأريكة التي يجلس عليها «عزيز» و«محمود» الآن. فصمتت مذعورة وتكورت على نفسها.. وبدلا من ضربها، هوى بالقنينة على أم رأسه فنزف بغزارة وسبح بالدم والفودكا.. فتحولت فورًا عائدةً إلى وضعها القديم، حيث كانت الأنيسة المحبة الحانية العطوف. فحضنته لاهثة مذعورة.. جففت جرحه، وعاملته بشجن قديم، يعود إلى بداية قصتهما، ولكنها في الصباح عادت إلى الزن واللوم والنكد..

سرح مع كل ذلك في الوقت الذي كان به «عزيز» يعلق على تجربته الجنسية الأولى.. وفكر بلمحة خاطفة في وضعه الجديد بعد سفرها رائيًا

وجه ذلك الروسي الأنيق بربطة عنقه المتناسبة مع بدلته لونًا والحامل حقيبة دبلوماسية، والذي كان يحدق نحوه طوال الوقت وهو يضحك بصخب معلقًا على كثير من الأحداث، التي مرت به بسخرية لصديق درس في روسيا ويعمل فيها. صخبه ضجَّ عربة المترو وجعل ذلك الروسي الأنيق يقترب من صاحبه، ويطلب منه أن يسمح له الجلوس مع «إبراهيم»، وعندما سأل صاحبه الروسي عن سبب رغبته بالجلوس مع «إبراهيم» أجاب فورًا:

- أريد أعرف سر بهجة هذا الإنسان!، وهل يوجد في هذي الدنيا ما يبهج إلى هذا الحد؟!.

همس له صاحبه بما قاله الروسي، وعن دعوته لجلسة شرب على حسابه..

- المجنون يظنني أسعد إنسان في العالم!..

علق على قول الروسي.. ورفض الدعوة ممعنًا في قهقهته الصاخبة.. ومتشبثًا بالحياة الفقاعة.. يمسك بها لحظة فلحظة.. فالعمر يمضي مرة واحدة.. وكل يوم لا يتكرر أبدا.. تأمل كل ذلك مستمتعًا بغبطة الأجنحة، وسط هذا البوح وفي الشقة نفسها التي كانت جحيما قبل سفرها.. و«عزيز» يلحّ طالبا منه البدء.. عبَّ بقايا كأسه وحملق بـ «محمود» الفاغر فمه والمنتظر بلهفة حكايته.. تنحنح وكأنه على منبر وقال:

- تعرفون عشت مدللًا لصيقًا بأمي طوال الوقت.. تأخذني إلى حمام النسوان إلى وقت متأخر.. وإلى هذه اللحظة أتذكر مثل حلم واضح حشد النسوة العاريات المنهمكات في فرك أجسادهن بالليف ورغوة الصابون..

وكانت تدافع عني كوني صغيرًا كلما عارضت صاحبة حمام الدوجي دخولي.. وكنت أكبر دون أن تنتبه إلى ذلك. وكما تعلمون اضطرت أمي إلى إكمال تحصيلها العلمي لتصبح معلمة بوقتٍ مبكر كي تعيننا. وكانت تسافر في كل عطلة صيفية إلى المزارات البعيدة.. أخذتني معها إلى مرقد الإمام الرضا في إيران.. وإلى كل المزارات الموزعة في أنحاء العراق.

وفي إحدى السفرات صحبتنا شابتان كانتا تعملان مع أمي معلمتين في المدرسة نفسها إلى دمشق. أخبرتني أمي أننا سنزور الست زينب هامسة لي: بأنهما «تقصد الشابتين» من عائلة هي من أشرف العائلات وأبوهما شيخ من شيوخ عشائر أرياف النجف أوصاها بهنَّ، ويعتمد عليها في ذلك. أتذكر الحديث بالضبط؛ إذ إن ما حدث لن يُمحى من ذاكرتي إلى الأبد. وقتها كنت ما بين.. وبين.. أتأرجح على حافة البلوغ.. أفز مرات نص الليل أو وجه الصبح على بلل في لباسي الداخلي.. أو أجد نفسي منجذبًا لسيقان امرأة انحسر عنها الثوب أثناء جلوسها مع أمي في الباحة.. أو لأخرى تتعرى في الغرفة عندما تأخذ أمي مقاسها لخياطة ثوب.. ويجذبني كثيرا شكل جاراتنا المنحنيات أثناء كنس باحات بيوتهن..

لكن إلى ذلك الوقت، لم أعرف العادة السرية، ولم يحدثني أحد عن الجنس والمضاجعة وأشياء المرأة.. كان كل شيء غامضا.. لا بل زادني غموضًا شدة تعلق أمي بي، كنت أقضي معها كل وقتي عدا وقت المدرسة.. باختصار كنت شديد البراءة قبل تلك السفرة.. أجلستني السمراء الواسعة العينين إلى جوارها في الحافلة، بينما جلست أختها البيضاء الممتلئة جوار أمي. قالت:

- تعرف اسمي يا «برهم»!

- لا!.

- «حكيمة».. اسمي «حكيمة»!

كنت أشم عطرًا مثيرًا ينبعث من جسدها الساخن الملفوف بالعباءة، وهي تحدثني بهمس مقربة شفتيها من أذني.. سألتني عما أفعله في وقت ما بعد المدرسة، وهل لدي علاقات بصبيان أو صبايا، وهل أحببت واحدة. وعند حلول الظلام والحافلة تقطع الصحراء باتجاه الحدود، سألتني أن أضع رأسي على فخذها إذا شعرت بالنعاس.. وفعلا بعد ساعة هويت برأسي إلى طراوته.. دفعت بجسدها بشدة نحو النافذة، فأتاحت لجسدي الصغير التكور على الكرسي، بينما أعلى كتفي ورقبتي ورأسي يتوسد فخذها البعيدة والمرتفعة قليلا كوسادة لصق زجاج النافذة.. وبدأت تقص لي قصة بصوت هامس ناعم عن الأميرة والصبي الصغير ..كيف لوعها؛ لأنه لم يدرك سن الحب بعد..

لم أكن وقتها أعي أن قصتها تدور حولي إلا في الأيام التالية.. كانت تحكي بصوت مرتعش حزين عن قصر الأميرة السجن، وعن صبيها الذي تراه من نافذة غرفتها العالية يلعب في حديقة أمام أسوار القصركل صباح.. كانت كلماتها تتسرب كحفيف، وهي تمسّح شعري بأصابعها الناعمة، إلى أن سقطت في النوم مخدرًا بهمسها وعطرها ودفئها وحنوها دون أن أعرف نهاية القصة.. في ضاحية الزينبية التي كانت وقتها غير ما رأيناه العام الفائت، فالشوارع كانت غير مبلطة بعد، والقبة فقيرة البناء غير مطلية بالذهب كما الآن.

سكنّا في نزل فيه عدة غرف للإيجار.. أنا وأمي في غرفة، والبنتان في غرفة تجاور غرفتنا.. كنت ألبي كل طلباتهما: شراء الوجبات من المطاعم المجاورة، حمل الماء إلى غرفتهما، وقت الصلاة ليتوضأ، الخروج معهما لزيارة مقام الست، أو التسوق من المحلات المجاورة. وفي الليلة الثانية جاءت البنت السمراء، وطلبت من أمي السماح لي بالنوم في غرفتهما مدعية أنهما لا تشعران بالأمان من النزلاء العازبين الساكنين في الغرف المقابلة.. وفعلا كان المؤجرون يرابطون في الغرف تاركين أبوابها مفتوحة، يحملقون بهنّ عند الدخول أو الخروج. قالت لي أمي:

- البنات أمانة في رقبتي.. نم بغرفتهما !.

فرحت في داخلي وأنا أستعيد ملمس أصابعها على رأسي، وفخذها على خدي، وذلك الدفء الغريب والمختلف عن حضن أمي الذي شعرت به معها.. لكني قلت:

- وتبقين وحدك!

- متعودة ابني.. متعودة!

أخذتني إلى غرفتهما العارية من الأثاث.. كنت أسير خلفها حاملا فراشي والغطاء. ومن نوافذ الغرف المطلة على الباحة رأت عيون رجالٍ تجوس في أثر خطوها وهي تسير أمامي بخطوتين، فأحسست فعلًا بأن مبيتي معهما سيجلب لهما الأمان ويخيف من تسول له نفسه السطو.. وقتها كنت قد سمعت قصصًا عن عمليات سطو تجري في الظلام، على السطوح وفي الغرف وباحة البيوت من أفواه النساء، اللواتي يأتين إلى أمي ليخطن

الملابس فيهمسن شاكيات مما يتعرضن له في الظلام، دون أن يستطعن المقاومة أو الصراخ أو إخبار أحدٍ خوف الفضيحة، وذلك ما جعلني أترصد في ليالي الصيف مع حلول الظلام ما يجري في الأسطح المجاورة لسطح بيتنا من جهات ثلاث، فرأيت من يعبر الحيطان الواطئة الفاصلة بين السطوح.. بعض من تلك الأشباح ينزل إلى الحوش بواسطة السلالم، والبعض الآخر يندس بين النائمين على السطح، وأخرى تعبر إلى السطوح البعيدة.. حركة غريبة تجري بسكون الليل وفي صمت وضعني في حيرة وعجب، جعلني أسهر منتظرًا تلك الأشباح حتى تعودتها قبل طلوع الفجر.. وعندما أخبرت أمي قالت مؤنبة:

- ليش تتجسس على الناس، مالك شغل!. ولا تفك حلقك بالشارع ولا تقول لأحد!.

وعندما ترى بعينيّ تساؤلًا وعدم قناعة بكلامها تزيد قائلة:

- هذا شرف الناس، ويجوز يصير قاتل ومقتول لو حكيت!.

أقفلتِ الباب بالمفتاح.. وتناولت من يدي الفراش وبسطته في الفراغ الضيق الفاصل بين فراشها وفراش أختها التي وجدناها مرتدية ثوب نوم أحمر ناعم النسج وضيقا، أبرز تفاصيل جسدها المرصوص.. كنت أخالس النظر إلى قسماتها الناصعة البياض وشعرها الأسود الطويل، الذي أراه أول مرة مسدلًا يكاد يصل إلى كاحل قدميها. بينما «حكيمة» السمراء ترتب وضع فراشي.. شخصت نحو النافذة المطلة على الباحة، والأخرى المقابلة المطلة على الشارع فوجدتها مقفلتين والستائر مسدلة بإحكام. هبَّ عطر

قوي انبعث من جسد البيضاء المنهمكة في فرد شعرها بمشط خشبي، وهي تحدق بمرآة مدورة ممسوكة من طرفيها بحاملين خشبيين.. لم تكن منتبهة لوجودي، ولم تكن في مواجهتي وذلك أتاح لي التمعن في صدرها الناهد وخصرها المليء وفخذيها المفتولتين فتلا.. ابتسمت للمرآة ثم راحت تدندن بأغنية «حسين نعمة»:

«فرد عود يلشاتل العودين.. خضر ياويلي».

أدرت طرفي نحو «حكيمة» الراكعة على ركبتيها، تغطي الفراش القطني بالشرشف.. جذبتني مؤخرتها الرصينة والبارزة وخصرها الناحل، ورشاقة ساقيها العاريتين إلى ما فوق الركبة بقليل. توهج شيء في جسدي.. شعرت برأسي يسخن وتهبط الحرارة سارية عبر رقبتي إلى الأحشاء والأطراف.. ارتبكت و«حكيمة» تلتفت نحوي، بعد أن أتمت تعديل الفراش.. حملقت بوجهي الذي تضرج ضاحكة، وقالت موجهة الكلام إلى أختها:

- شوفي «رشيدة».. أش لون خجول.. شوفي عيني.. من أروح لك يا عيني فدوة!.

وقتها فقط عرفت اسم البيضاء التي جاست بعينيها السوداوين الواسعتين في وجهي وجسدي مبتسمة، لتقول بصوت أشد نعومة من صوت حكيمة:

- لا تستحي أحنه مثل أخواتك الكبار.. لا تستحي راح تسولف لك «حكيمة» قصة قبل النوم!.

وعادت تفرد شعرها وتتمرى.. مستني «حكيمة» بكتفها في طريقها إلى الحقائب المركونة في زاوية الغرفة. نزعت ثوبها الأسود الطويل بسحبه من الأعلى، في اللحظة التي غطى فيها الثوب وجهها شخصت عيني نحو ساقيها وفخذيها المتينتين الرشيقتين اللامعتين سمرةً، تحت مصباح الغرفة الناري المتدلي من السقف العالي .. استدارت في حركة متعمدة لتصبح بمواجهتي فرأيت مدى ضمور بطنها وضيق خصرها وتكور نهديها الصغيرين الصلبين من تحت الثوب الداخلي الشفاف.. أحسست أنها تتعمد ذلك؛ لأنها كانت لا تحدق نحوي مفسحة المجال لعيني الفضوليتين التملي بمفاتنها.. أو كنت أظن ذلك في تلك اللحظات. لبست ثوب نوم أسود عريضًا وطويلًا أخفى جسدها حتى الكاحلين.. وفكت ضفيرتيها الطويلتين، فانتشر شعرها المائل إلى شقرةٍ خفيفة مغطيًا ظهرها وهابطًا حتى أسفل مؤخرتها المرصوصة، وراحت تفرده أيضا بمشط خشبي أخرجته من حقيبتها.. ازداد توهجي وموج رائحة فريدة هبَّ من شعرهما، من أصابعهما، من ثيابهما، من حركتهما، فرحت أجوس بعيني متنقلا بين جسديهما وأشياء الغرفة، جذبتني أشياء حقائبهن المفتوحة والمبعثرة القريبة من موضع وقفتي، مشدات صدور مختلفة الألوان، ألبسة داخلية ضيقة صغيرة الحجم صارخة الألوان، وكأنها ألبسة أطفال تختلف عما تستخدمه أمي.. علب تجميل مفتوحة، قناني عطر:

– عيني «إبراهيم».. ليش واقف!. أقعد على فراشك.

انصعت فخطوت عابرًا الفراش القريب، لأهبط على فراشي يخالط ارتباكي، لذة غامضة تنبثق من الفراشين المحيطين والمرأتين المنهمكتين في طقوس ما قبل النوم.. من مكاني على الفراش فكرت بأمي لحظة فحزنت من أجل وحدتها في الغرفة المجاورة، وتمنيت الرجوع والنوم جوارها.. لكن «حكيمة» أقبلت مشرقة الوجه وجلست على فراشها إلى يميني جهة باب الغرفة، وقالت بصوت خفيض:

- إبراهيم أتخاف من الظلام؟!.

- لا!.

فنادت:

- رشيدة.. طفي الكلوب!

تابعت خطاها المتمهلة المتجهة نحو زر المصباح المجاور للباب، ذراعها العارية المليئة البيضاء، ترتفع مبرزة سبابتها لتضعها على النتوء الأسود، عيناها الكحيلتان تشملان أرجاء الغرفة، ثم.. طق.. فغرقنا في ظلمة بدت للوهلة الأولى كثيفة مصحوبة بصمت وكأننا سقطنا في عالم آخر. حبست أنفاسي منصتًا لخفيف خطى «رشيدة»، التي اقتربت لتهبط على فراشها إلى يساري.. سمعت جسدها يستلقي معانقا الفراش. ظللت أحملق بالسواد رائيا عددًا لا يحصى من نقاط بيض لامعة، تظهر وتختفي مثل لمح البرق.. فركت عيني وحملقت من جديد فتلاشت، و«حكيمة» تمسك بكتفي، وكأنها تراني قائلةً:

- أنطرح عيني!

أرخيت جسدي منزلقًا إلى الفراش.. سحبت يدها وهمست:

- اسمع عيني.. اسمع راح أكمل القصة اللي سولفتها إلـك بالـسيارة.. ما عرفت أش لون انتهت لأن غفيت بنصها.

- أي..

قلتهـا بـصوت مـرتعش، فرائحـة جـسديهما الفـائرين مـلأت أنفـاسي وأربكتني.

- قرب مخدتك من مخدتي حتى تسمع زين.

ولم تنتظر.. سحبتها ورأسي بعناية.. صرت أسمع أنفاسها وعندما تصمت في فاصلة قصيرة تستوجبها الحكاية، يختلط لهاثها بضربات قلبي بضربات قلبها بلهاثي الذي أحاول بمشقة حبسه.. لخصت القسم الأول منها، ثم راحت تفصل الباقي عن محنة الأميرة العاشقة التي بعثت صديقها العصفور كي ينتبه الصبي إلى شباكها.. فعاد يجلس كل يوم من الصباح حتى المساء، يحدق في النافذة العالية والأميرة ترسل له القبلات وتنفث الحسرات حالمة بوصاله. كانت تسألني من وقت لآخر، عندما أهمد سارحًا في خيالي مع الأميرة والصبي، متخيلا شكل القصر والأميرة وارتفاع النافذة والصبي والبستان وصباح القصة ومساءها ولوعة العاشقين:

- «برهم» نمت!.

فأهمس:

- لا.. لا!.

فتواصل الكلام عن فشل محاولات الأميرة الكثيرة للقاء الصبي؛ لما يحيط بالقصر من حراس وأسوار وجواسيس، فمن المستحيل النزول إليه في البستان..أو جعله يدخل من باب القصر.. ففكرت بوسيلة تجعله يصل غرفتها سرًّا.. فكلفت جاريتها كي تفتح باب السور الخلفي للقصر كي يدخل الصبي.. ففعلت. فأنزلت من شرفتها سلمًا من الحبال تسلّقه الصبي في الظلام، فأخذتهُ إلى حضنها بلهفة.. تسلل النعاس إلى عيني فانسدلت أجفاني ببطء شديد مطبقةً وغبت في أعمق غفوة.

لا أدري كم بقيت غافيا.. لكنني استيقظت على أصابع ناعمة تسللت من تحت ثوبي وراحت تسيح بأنحاء جسدي بخفة، من أسفل القدمين وحتى حلمتي صدري. تململت فسكنت الأصابع على بطني حيث كانت في طريقها إلى الأسفل. همدت منتظرًا.. عادت تجوب ممسحة بشرتي بحنان. شعرت بلذة فريدة، والأصابع تداعب وسطي الذي بدأ يتوتر..

وبعد عدة دورات شملت كل جسدي.. أخذت يدي اليمنى القريبة من موضع فراشها ووضعتها على نهدها الصغير الحار.. رحت أتلمسه منتفضًا راجفا، وجرفتني رغبة عنيفة في الالتصاق بها. زحفت غريزيًّا مقتربًا من جسدها.. لفحني لهب ينبثق من عريها وهي ترفع غطاءها لتسحبني إليها. أخذت شفتيّ بشفتين خبيرتين. كنت مستسلمًا لشفتيها.. لساقيها، لأصابعها التي تشبثت بوسَطي المتوتر الصغير.. لذراعها تتسلل من تحت خصري لتلتف حول ظهري.. كانت عارية تماما، تمسك بأصابعي من القفا وتجعلها تجوب على بشرة جسدها الكاوية..

لا أدري ماذا صار بيّ.. أريد الذهاب أبعد.. فأخذت ألتصق بها بشدة.. أحاول الدخول فيها.. الغور في أحشائها.. اشتعلت..ذبت.. كدت أفقد الوعي..شرعت بالبكاء.. كبحت دموعي.. رفعتني.. صرت فوقها تمامًا.. تصاعد لهاثها.. كتمت آهات خافتة، فاردة ساقيها وساحبة وسطي إلى ما بينهما. أطبقت بساقيها ملتفةً حول ظهري .. تناسقت حركة جسدينا فجعلت أهز بجسدي على إيقاع حركتها .. رحت أزأر ولهاثي يختلط بلهاثها المصحوب بصرختها المكتومة . تصاعد الزئير إلى ذروته.. استرخى جسدانا.. أنزلتني بكفين حنونتين ودفعتني إلى فراشي معدلة الغطاء على جسدي. لبثت ساكنًا مستمتعا بما جرى غير قادرٍ على النوم.. تجرفني الرغبة بين اللحظة والأخرى إلى مد يدي نحوها.. لكني لم أجرؤ..

بقيت مطروحًا على ظهري، أحملق في عتمة السقف الذي بدا قريبًا، أستعيد حنان أصابعها وطعم ثدييها الصغيرين وحرارة فخذيها الرشيقتين، ولحظة الولوج في شقها الرطب الحار، غير مصدق وكأنني كنت في حلم، فوجدتني أمد يدي إلى وسطي الذي بدأ بالقيام وأرهف السمع إلى أنفاس «حكيمة» السمراء، وهي تنتظم وتلقيني إلى اليأس من تكرار الأمر من جديد. في اللحظة تلك سمعت دبيبًا خافتًا يصدر من يساري، فسكنت قاطعا أنفاسي.. تصنعت النوم منتظرًا إلى أن شعرت بأصابع ذات طعم مختلف، تتسلل لتجوب بأنحاء جسدي العاري، فأنا لم أرتدِ ثوبي الذي نزعته «حكيمة» عني بعد.

وقطع «إبراهيم» قصته ليصب كأسًا.. رنّ سائل الخمرة الأبيض في الصمت الكثيف.. رفع رأسه ليحملق بوجهي «عزيز» و «محمود»

المذهولين السارحين بعيونهما الشاردة في تحديقها نحوه، وكأنهما مخدران. فـزّ «محمود» قائلا:

- كمّل.. كمّلْ!

هدر ضاحكًا وقال:

- أش أكمل!. فاللي جرى مع «رشيدة» لا يختلف إلا قليلا!

هتف «عزيز» بلهفة:

- لا تصير لئيم.. سولف الباقي!.

- قابل أني مثلك!

رد «إبراهيم» غامزًا إلى ما فعله معه في شقة الوزيرية قبل أكثر من عـشرة أعوام.. وقرر أن يقص باختصار شديد ليضع في قلب «عزيز» حسرة.. أمـا «محمود» فسيكون الأمر مضاعفًا.. فهو يُجلد مرتين: الأولى من القصة نفـسها كونه لم يذقه بعد، والثانية لنقص لذة الوصول إلى تفاصيل القصة كاملة، فكـر في نفسه، بينما «عزيز» يتوسل وشيء من الليونة ألمّ بصوته الخشن:

- «إبراهيم».. سولف الفرق القليل!

رشف رشفة من الفودكا وترك ظهـره يـسترخي عـلى الأريكـة؛ ليبحـر شاردا إلى كون «رشيدة» البيضاء المخبوء تحت الغطاء الجالب للغبطة، كلـما قام من تحت ركام السنين كما في هذي اللحظة وهو يشرع بتخليقه من جديد بالكلمات.. فاء إلى الثلج المتساقط خلف النافـذة وصـمت الليـل وسـكون المنتظرين شروعه بالكلام، فأردف:

- لم تكن متمهلة مثل «حكيمة».. كانت أصابعها تمسح بشرتي بعنف، تعصر، تقرص حد الألم. وعندما وجدتني مستثارًا سحبتني فورًا إلى جوارها تحت الغطاء. كانت عارية تبث نارًا مثل فوهة التنور. حركتني حرگ.. قربتْ رأسي من صدرها الكبير وحشرت حلمة ثديها في فمي.. لازلت أحس بطراوتها بعد كل تلك السنين. أطبقت شفتي عليها ورحت أمص غريزيًّا. لحظات وصارت هي فوقي.. أقحمتني بعنف في المرة الأولى، وفي الثانية راحت تلعب برقة وهدوء أمتعني.. تصعد فوقي.. تنزل.. تعطيني ظهرها مبرزة مؤخرتها المرصوصة. تصعدني فوقها، فأكاد أنزلق لملاسة وطراوة وصلابة جسدها المرصوص العاري، باختصار كانت عملية وجربت كل شيء.. علمتني الكثير!.

مع أذان الفجر دفعتني إلى فراشي، فغفوت منهكًا!.

استيقظت في الصباح على صوت ترتيل آيات قرآنية.. لبثت تحت الغطاء محاولا تذكر المكان الذي أنا فيه، فعجزت.. أزحته قليلا.. قليلا.. فرأيت البيضاء تركع على ركبتها مرتدية ملاءة الصلاة البيضاء ومنهمكة في التلاوة بصوت عذب.. بحثت عن الأخرى، فرأيتها منهمكة في القيام والقعود على سجادة حمراء، مبسوطة في الطرف المقابل.. تواريت تحت الغطاء شاكًّا بما جرى ليل الأمس:

- أكنت في حلم؟!.

هتفت في نفسي منتظرًا إلى أن سمعت صوت «حكيمة» توقظني بحنان.. فنهضت متطلعًا نحوهن بذهول. لم يبد على حركاتهن ما يوحي

بشيء، وكأن ما جرى لم يكن، إذ كنَّ يتصرفن بتلقائية وبراءة لا تختلف عن تصرفهنَّ نهار البارحة.. ظللت طوال نهار اليوم التالي حائرًا، أتتبع بعيني انفعالات وجوهيهما علّي أجد ما يشير إلى ما حدث في الليلة الفائتة دون جدوى.. كن يمدحنني أمام أمي بحيث تضرج وجهها فخرًا.. بقيت طوال النهار مذهولا بانتظار المساء وطقوس الاستعداد للنوم، وتكررت الليلة الأولى في الليالي السبع المتبقية.

- ألم ترهن عند العودة!

- أبدًا..

أجاب «إبراهيم» وصمت طويلًا، قبل أن يضيف:

- خرّبن وضعي.. صرت مثل المجنون.. أهيج فجأة.. فأخرج بعزِّ الظهر ونص الليل أدور مثل ثور مستعد اقتحام أي أنثى تصادفني في شارع خالٍ.. فنصحوني بالذهاب إلى مضارب الغجر في الفوار بطرف المدينة، ثم عرفت دروب عشرات بيوت الدعارة السرية المنتشرة بالجمهوري والعسكوري والچلبية والإسكان، لكن لا العاهرات ولا العادة السرية أشفيا القلب.. بالعكس خلني أحلم بليالي نزل الزينبية وكأنها جنة فقدتها إلى الأبد.. ولم يوازن وضعي الهائج إلا انشغالي بالسياسة.. وحلم مدينة «ماركس» الفاضلة، فصرت أستحي.. وإذا دبرت واحدة فبالسر.. إلى أن وقعت بالحب وتزوجت، فخفف ذلك كثيرًا من هجوم روائحهن، التي تهب غفلة لتأخذ عقلي كلما سرحت!.

علق «عزيز» قائلا:

- تدري هذا يعتبر في أوربا اغتصابًا!

- ماذا تعني؟!.

سأل «إبراهيم» مستفهمًا.. فمنظوره لهذا الفعل كان محددًا بفعل الجنس قسرًا من قبل الكبار الذكور مع الصغار من الجنسين، أو الرجل حين يضاجع امرأة رغمًا عنها.. هذا ما كان يقرأ عنه ويراه في السينما، ويتداول بشأنه في حوارات مع أصدقائه الكتاب والشعراء في المدينة!.

- يعني ما دمت قاصرًا، ومارستا معك الجنس، يعني ذلك اغتصابًا!.

فعلق «إبراهيم» ضاحكًا:

- أجمل اغتصاب.. يا ريت كنت أغتصب بهذه الطريقة كل مساء!

- ...

وقهقها بصخب، ثم أضاف «إبراهيم»:

- نعم.. لو كانتا في المدينة نفسها أو في دار مجاورة، لكفاني ذلك شر عشرات المغامرات التي كادت تودي بحياتي!.

- ..

لم يسألا بل حدقا نحو «إبراهيم» في وضع الإنصات، راغبين في سماع المزيد من قصصه المتصلة بالتجربة التي رواها.. قال «إبراهيم» في نفسه بغبطة فريدة تخصه وحده:

- ما ألذّ هذه اللحظات.. وأنـا أسـتعيد كـل هـذه التفاصـيل المنـسية.. تفاصيل تجلب البهجة في الخاطر.. أما حينما يقصها الإنسان فكأنـه يعيـشها من جديد في غمرة غبطة لا مثيل لها.. وكل هذا مـستحيل الحـدوث، لـولا طيرانها وتركي وحيدًا مع نفسي، التي فقدتها فيها وفي خضم الحرب وتجربة الجبل والنضال.. آه ما ألذ وجهي الجالـسين المنتظـرين، عـلى جمـر، ترتيـب قصة أخرى يستحيل عليَّ تذكرها قبل غيابها في ذلـك الفجـر، خلـف بـاب الممر المؤدي إلى الطـائرة!.. مـا ألـذّ وجهـيهما رغـم حبـي لواحـدٍ ومقتـي للآخر!..

نب «عزيز» نافد الصبر:

- أهلكتنا ما تبدي!.

- اسمعا.. اسمعا.. كنت حائر يا قصة أبدأ بها.. لكن سأحكي لكما عن تجربة مدتها لا تتجاوز دقائق.. لكنها كانت من الممكن أن تودي بحياتي!.

اتسعت عيونهما مركزين التحديق نحوه وهو يصب كأسًا جديدة، وقبل أن يشرع بالكلام قُرِعَ الباب قرعًا شديدا.. بادله عزيز نظراتٍ فهمس له:

- إذا السكيرة الروسية فقل لها غـير موجـود، وإذا واحـد مـن جماعتنـا فأدخله!.

تعالـت ضـجة مـشادة حـال فـتح البـاب.. مـشادة بالروسـية لم يفهـم «إبراهيم» منها شيئا، أما «محمود» فهو لا يفهم شيئًا مما يدور حوله.. وكأنـه يعيش في كوكب آخـر غـير الأرض؛ إذ كـان يحـدق ببلاهـة نحـو المـدخل

الضاجّ بلغطٍ تحول إلى صياح عنيف بالروسية.. سمعا بعدها بالباب يطبق بعنف، ليظهر في إطار باب الغرفة «عزيز» بوجهه المندهش، وقف ساكنًا تحت الإطار يحملق نحو «إبراهيم» غير المكترث بصمتٍ بدا متعمدًا، قبل أن يخطو نحو الأريكة قائلا:

- اسمع ولك أنت راح أتجنني!.

- ماذا بك.. ومن كان في الباب؟!

سأل «إبراهيم» دون مبالاة، ولما لم يجد جوابا أضاف:

- هل كانت السكيرة!.

- لو كانت لما تعجبت، لكن كانت واحدة أسمن من «سعادة المطهرجي» وتقول أريد حبيبي «إبراهيم».. ولك ما تَفَهِمني أش لون وأنت ما تعرف روسي، وما صار لك شهر وحدك بموسكو!. راح أتخبل متى أتكمل قصتك حتى أعرف السر؟!.

- ...!

لزم «إبراهيم» الصمت مبتسمًا، وغبطته تتعمق إلى حدود لن يبلغها في مستقبل الأيام أبدًا إلا حينما يضيع وقت الأزمات في الحقول لساعات، ثم يعانق تراب الأرض وعشبها عابًّا عطرها المخدر. غبطة أخذته إلى وجه «شيركو» المجنون المختفي منذ أيام، فتجسد وجهه وهو يتمزق لعذاب هذه الذوات الروسية الضائعة والباحثة عن وهمٍ، عنه.. «إبراهيم» الواهم أصلا.

أضاف «عزيز» بصوت جهوري:

- اسمع صرفتها.. وأكلت باقة من الشتائم والفشار الروسي المرتب مال اللي بالحضيض.. ولا يهمك.. متعود على لسانهن السوقي.. يهمني أعرف أسرارك الجديدة.. لكن بعدين.. الآن خلي نكمل ما وصلنا.. قصة الدقائق اللي ممكن تقتل فيها بسبب الرغبة والجنس..أكمل «برهم» أكمل..

- كان ذلك أوساط السبعينيات، في العطلة الصيفية، سافرت للموصل ونزلت في فندق درجة ثالثة.. أبكر صباحًا للعمل كصباغ في إحدى المدارس.. الغرفة التي كنت أنزل فيها ضيقة تزدحم بثلاثة أسرّة. الفسحة الوسطية ممر مستطيل بالكاد يسع لشخصين.

كان النزلاء يتبدلون في كل ليلة وأكثرهم من القرويين القادمين من أرياف الموصل البعيدة.. كنت لا أعيرهم اهتمامًا بهم، فعمليًا كنت أعود إلى الغرفة في ساعة متأخرة.. أقضي غالبية ما بعد وقت العمل في التسكع بأنحاء المدينة، التي أنزل فيها للمرة الأولى.. أفقت في يومٍ من النوم على صوت أذان الفجر المصحوب بصرير باب الغرفة. فأدركت أن أحدهم خرج للوضوء كما يحدث غالبًا.. لبثتُ أنصت إلى أصوات المؤذنين يتردد صداها قبل أن تتلاشى في السكون. فكرت في غفوة قصيرة.. أردت أن انقلب على جنبي لكنني جمدت شاعرًا بمن يرصد حركتي.. قطعت نفسي، وباعدت أجفاني قليلًا.. قليلا وببطء شديد. على ضوء الفجر المتسلل من النافذة المفتوحة، في خليط الفضة والسواد.. رأيت وجه قروية تجلس على السرير المقابل مدلية ساقيها وتحملق بوجهي بعينين واسعتين..

وجه أبيض مضيء، مندهش مؤطر بشال أحمر مشدود تحت الحنك، وجه فاتن تلك الفتنة الفريدة، التي تحرزها فتيات قرى الشمال البعيدة عن المدن.. جمال بري بريء ساكن، يشخص نحوي بذهول وكأنها تحلم. نقلت نظري دون أن أتحرك بين وجهها والباب المردود.. أرهفت السمع، وأنا أقيس المسافة بين المغاسل الكائنة في طرف الممر المقابل والغرفة.. لم تغادر عيناها وجهي.. اتسعت في وجهها المنير ظل بسمة.. لم أفوت ثانية.. قفزت من السرير. وبقفزة واحدة صرت جوار الباب.. أغلقته بإحكام.. كانت تتابع حركتي بعينيها الواسعتين.. أزحت ثوبها الفضفاض، فرفعت كفلها لتسهل العملية. ازداد وهج عينيها يخالطه خوف ولذة. وعندما التحمت بها شدتني بعنف، وكأنها كانت على وشك بلوغ الذروة..

لم يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة.. أسرعت نحو الباب، فيما كانت تعدل ثوبها وتندس تحت الغطاء الخفيف.. سحبت السرقي وأعدته كما كان.. قفزت إلى سريري لأخفي رأسي تحت الغطاء.. وجدت جسدي يرتعد على وقع أقدام تقترب من الباب.. ومن فتحة صغيرة بالغطاء عملتها بإصبعي رأيت قرويًّا بسرواله العريض وشاربه الكث وقسماته القاسية، يقف في إطار الباب المفتوح، يعدل حزام مسدسه المخبوء تحت سترة خفيفة، ويناديها كي تقوم للوضوء وتصلي الفجر.

- ولك.. لو مقتول!.

نبّ «عزيز» وسحب نفسًا عميقًا.. وكأنه كان يختنق..

- صحيح ما تحكيه لو خيال!.

علق «محمود» وهو يبلع ريقه..

- أهمله «إبراهيم»، موجهًا حديثه لـ «عزيز».

- ليست هذه فحسب.. وقعت بعشرات المواقف المشابهة وكنت فيها على حافة القتل!. لولا السياسة وزوجتي لصرت مجنونًا في بحثي عن جنة المعلمتين المستحيلة!.

علق «عزيز» ساخرًا:

- يعني صرت شريف لمن تزوجت!

- أقول بصدق طوال الفترة كنت أكبح كل نزواتي!

- ونجحت!.

شطح «إبراهيم» مستعيدًا تجربتيه مع المتشردة وبائعة الخضرة الروسيتين، وقال في نفسه:

- من المستحيل البوح لصديق طفولة وصبا ومراهقة ونضج مثل «عزيز» بهذه التجربة، فسوف يظل يسخر مني، مستخدما مثله الأثير الذي يطلقه على مثل هذه الحالة:

«صام.. صام.. وفطر على جرية»!.

تكوينه نقيض تكوين «شيركو»، فـ «عزيز» سافل بالسليقة، يعامل النساء بعقلية تاجر.. كونهن عاهرات بطبيعتهن.. أكد له ذلك مرات وهو يحدثه عن بنته الصغيرة بنت السادسة التي تطيل الوقوف أمام المرآة لتفرد شعرها معلقًا .. «سلامي»، إنهن عاهرات بالغريزة.

- نعم.. نجحت!

نطقها «إبراهيم» بطريقة منفعلة.. مسرحية، فرمقه «عزيز» بعينين متخابثتين قائلًا:

- أما أنا فزادني الزواج جنونًا بمذاق النساء المختلف!.

صمت قليلا ليضيف:

- لكل واحده.. طعم فريد مختلف!

- ...

- .. وهذا لا يخفي عليك يا «إبراهيم»!.

- ..

- ولو تحضر واحدة.. أصير خرقة وأبوس رجليها بحضوركم إذا تريد!.

صمت قليلا.. حملق في وجه «إبراهيم » بعينين ودودتين.. مدّ ذراعه إلى كأسه.. عبه رشفة واحدة، وقال:

- «إبراهيم» لدي إحساس كأنك لم تتزوج أصلًا!

- أنت تبدو كذلك أيضًا .

رد «إبراهيم»، والتفت نحو «محمود» الصامت المذهول، قائلًا بمرح يبدو شديد البراءة:

- الدور عليك.. قص علينا تجربتك الأولى!

حوصر «محمود» بعيون النديمين السارحين المنتظرين.. وجسديهما الموشكين على الهجوم.. أحس بعيونهما تبث جمرًا يكوي سكون عالمه البارد.. الخاوي.. المستكين.. المنساب بنسقٍ كان يعتقد أنه الصحيح.. حيث كان صارمًا مع نفسه.. يقمع كل رغبة وغريزة.. منشغلًا بما يجري في المدينة.. مقهى والده.. المدرسة.. في قراءة كتب الفلسفة والتحليل..فدخل نفق طهر الموقف.. الطهر القامع الذي كان يعيب على جسده حتى حالة الانتصاب الصباحي الغريزية.. فماذا يقول كي يتواصل معهما!.

- وإذا ما عندي حتى تجربة أولى!

نبا بصوت واحد:

- خاف ما عندك سلاح!.

وهجما عليه ضاحكين.. أمسكه «إبراهيم» شالًّا حركة ذراعيه ورجليه، مفسحًا المجال لـ «عزيز»، وهو يجرد «محمود» من لباسه الداخلي؛ كي يتأكدا من رجولة هذا الكائن الغريب.

اليهودية الجميلة

وقف «إبراهيم» على رصيف المحطة الطويل وسط الحشود.. تحسس حقيبته الصغيرة المعلقة على كتفه، فاطمأن لوجود قنينة الفودكا، وراح يتملى المسافرين المنهمكين بسحب حقائبهم، الصاعدين والنازلين من وإلى عربات القطارات المنتظرة على الأرصفة.. أكثر من خمسة أرصفة عدها.. وجوه.. ووجوه تخطف.. بعض منها يرمقه بفضول، وهو يرتدي بيريه جندي زرقاء من ذلك النوع الذي كان يرتديه في جبهة الحرب العراقية الإيرانية، ويتطلع بوجه كل مارٍّ مبتسمًا.. أول يوم يكون فيه صاحيًا إلى هذا الحد. اتفقا على عدم البدء بالشرب قبل صعود العربة.

في باحة المحطة المسقوفة، الرخامية الجدران، العالية الفسيحة المكتظة، قال له «عزيز»:

- شوف هذا الأوجرد (طابور الانتظار بالروسية) .. أحسن لك تخرج إلى الأرصفة وتتفرج على الناس!

شخص إلى حيث يشير.. الصفوف تمتد من شبابيك التذاكر حتى بوابات المحطة، مرصوصة.. يكاد الواقفون يلتصقون ببعضهم البعض.

- يعني ساعة!

- زين إذا طلعت بساعة!.. لكن لا تضيّع نفسك.. قطارنا على الرصيف الأول.. إذا ما رجعت يعني أنت هناك!.

الغروب بدأ يهبط بهدوء قادمًا من أفق الرصيف.. كفَّ عن التملي بوجوه الرجال الروس.. فأغلبها متجهمة واجمة مهمومة.. تزيدها السماء المدفونة بالغيم قتامةً.. خلف سقيفة الرصيف العالية، بدأت ندف الثلج تتساقط بصمت.

- كل شيء يغري بكأسٍ من الفودكا!.

هتف مع نفسه ببهجة، لكنه سرح منشغلا بملاحقة وجوه النساء وجهًا.. وجهًا.. متخيلًا شأنها، فهذه عاشقة، وتلك هجرها حبيبها.. هذه مستثارة تصلح للفراش فقط، وتلك الناعمة للجلوس في مقهى منعزل، هذه صاحبة العينين الواسعتين اللعوب المتطايرة النظرات غير المستقرة تصلح للمضاجعة مرة واحدة.. لا.. لليلة.. لا.. لأسبوع.. ويبتسم من أخيلته منتشيًا.. ومتطلعًا إلى الرحلة التي ستستمر طوال الليل.. فبعد أسبوع قضاه «عزيز» في الشقة على أمل الحصول على موعد لمقابلة بعثة جنيف، التي قدمت خصيصًا؛ لمقابلة العراقيين المحاصرين في روسيا، عرض عليه السفر بصحبته إلى «كييف»؛ حيث يدرس ويسكن.. فعلق:

- لكن ما عندي أي وثيقة تثبت شخصيتي!

- ما عليك.. أهم شيء تسكت لما نصعد، وإذا سألك المفتش فظل ساكت، أنا راح أجاوب وأرتب الأمر!.

رأى في الأمر مغامرة جديدة، يضاف أنه ملّ الشقة التي أصبحت يومًا بعد آخر، وكأنها شقة الوزيرية في بغداد وقت الحملة على اليسار أواخر السبعينيات، ملاذًا لعراقيين لا يعرفهم قادمين من محافظات الجنوب والشمال، متكدسين فيها خوفًا من الاعتقال..

في موسكو أيضا تحولت شقته إلى ملاذ لعراقيين في طريقهم إلى بلدان اللجوء قادمين من ليبيا، الجزائر، أوزبكستان. سوريا.. إيران.. ومن شتى البقاع.. طباخون. عمال.. موظفون.. مهندسون.. معلمون.. مقاولون.. غالبيتهم من اليسار.. نصابون وشرفاء.. كبار وصغار.. بعضهم متطرف.. والبعض معتدل.. يناقشون كل شيء.. ينتقدون كل شيء.. يعبون الفودكا.. يتخاصمون.. يتعانقون.. يصرخون.. ساردين قصصهم في محطات المنافي الأولى، ويذهبون ملهوفين إلى المواخير ليضاجعوا عاهرات روسيات مراهقات من جيل «جورباتشوف».. لا يتعاملن بالروبل.. بل بالدولار فقط.. كان يستحيل عليه طردهم.. فالشقة محطة أولى إلى أن يعثروا على سكن. وافق فورًا، تاركًا «شيركو» يقيم فيها بعد أن أوصاه:

- لا تطرد أحد!

فردّ فورًا:

- قابل أنا مثلك!.

ملمحًا بخبث إلى موقفه من المتشردة الروسية.. شرد مع كل هذه التفاصيل في وقفته جوار جدار الرصيف العالي المنتهي بسقيفة مقوسة، مضاءة بمصابيح مدلاة منتشرة، وكأنها أقمار من نار بدأت تتلألأ مع هبوط

المساء.. عاود ملاحقة وجوه المسافرين.. نظر إلى ساعته، وفكر في التسكع بأرجاء المحطة.. جاب القاعة.. مرَّ جنب عزيز.. لم يتقدم سوى أمتار في الصف.. طمأنه بأن لديهم وقتًا. وحذره من فتح القنينة، فأيقظ رغبته بكأسٍ، والتي نسيها في خضم ملاحقته لوجوه الروسيات الباسمة الأليفة.. تركه متجها نحو البوابة الكبيرة، عازما البحث عن عجوز لمحها عند دخولهما تبيع الفودكا والبيرة قرب خطوط العبور.. وجدها في المكان نفسه والمعروض قرب قدميها على حاله.اشترى ثلاث علب بيرة أجنبية، وانسل عائدًا إلى باحة المحطة المزدادة اكتظاظا..

توجه نحو بوابة الرصيف الأول.. انتقى مصطبة ذات مساند تشرف على الخارجين والداخلين، أرصفة القطارات المجاورة، يستطيع من عليها رؤية نهاية السقيفة، وندف الثلج المتكاثفة في هبوطها البطيء. فتح سدادة القنينة الأولى وعبها.. انتشرت في أوصاله النشوة معيدة مجد ليالي السكر السابقة.. اتكأ مسترخيا يتأمل بعينين حالمتين المارة، الجدران، عربات القطار، السقف المقوس، نتف الثلج، المصابيح المدلاة، وجوه المخيلة، الشقق، بشرها المذعورين الخائفين الحائرين في بغداد وموسكو.. فتح سدادة قنينة البيرة الثانية ساخرًا من «عزيز» المصلوب في «أوجرد» روسيا العظيم؛ حتى يحصل على تذكرتين.. قبل أن يطبق على فم العلبة ردد:

- بصحتك.. حبيبي «عزيز» وبصحة «بوشكين» و«جايكوفسكي» و«تشيخوف»!، و«بلغاكوف»، و«ديستويفسكي»، و«تولستوي»، و«مايكوفسكي»، و«تروتسكي»، و«لينين»، و«ستالين» و«خروشوف»،

و«بريجينيف»، وعزيزنا «جورباتشوف»... يـا «عزيـز»!.. أش لـون صـاير حمار وتتحمل كل هذا الانتظار.. وين تريد بيّ الليلة؟!.

وكأن الشق الأخير من الكلام ضربه عميقًا:

- حقًّا إلى أين؟!.

وحملق في أفق الرصيف المعتم.. مسح بعينيه الحـزينتين عربـات القطـار المنتظر.. عائدًا إلى مشاهد مرت به تـتجلى هـذه اللحظـة في نـشوة التأمـل، فالقطار منذ تلك التجربة صـار سرًّا يلـف طفولتـه البعيـدة.. شـيئًا شـفافًا وكأنه حلم مرّ في النوم مرة واحدة.. لكن حُفِـرَ في الـروح.. سرح بعيـدًا.. بعيدًا.. رأى فيها جسده الصغير وهو لم يتجاوز الرابعة من عمـره، محشورًا في عربة قطار حديدية عارية محشودة بأجساد الركـاب المتلاصـقة.. العربـة متجهةً من الديوانية إلى بغداد في فجر يوم صيفي، ثـم وجـه امـرأة نحيـف ترتدي فوطة سوداء.. بيضاء الوجـه.. نـشطة.. تحملـه عـلى كتفهـا وسـط حشود هائلة تملأ ساحة واسعة.. عرف لاحقا أنهـا الجـدة ـ «أم حمـد الله» - أخت جدته أم أبيه، يتذكر شدة الحر.. والمتطوعين بقمصانهم البيض، ذوي العلامات الحمر المشدودة حول أعلى الأذرع..

- هل ما يتذكره جرى حقا، أم أنه أخيلة تشكلت مما سمعه من كـلام في محافل العائلة؟!..

ما يحسم الأمر.. شدة وضوح المـشاهد.. العربـات الحديديـة المحتـشدة بالركاب.. تزاحم الناس على الصعود.. التوقف في كل محطة لحمل المزيد.. بهجة الوجوه رجالا ونساءً.. ثم.. اللحظة التـي رفعتـه فيهـا أخـت جدتـه

وسط الحشد البشري الهائل، طالبة منه أن يرى الزعيم «عبد الكريم قاسم»، الذي تقول إنه ظهر في شرفة عالية بعيدة.. فشخص صوب ما تشير إليه، ولكنه لم يرَ شيئًا سوى كتلة بشرية هائلة بدت كقطعة واحدة، تهتف بحياة الزعيم في صراخ هستيري!.

يستعيد تجربة ركوب قطار أول مرةٍ مثل حلم فزّ منه للتو في جلسته الشاردة وهو يحملق بالعربات المضيئة.. وبحركة الرؤوس الكثيفة بأردية الركاب الثقيلة وقبعات رؤوسهم المنفوشة الفرو.. يحملق بهم وكأنهم ظلال.. أخيلة.. سارحًا مع جموع البشر الهادرة، التي من المستحيل نسيان الوجوه السمراء المرحة الحيوية.. وفوران الحماس والتصفيق والهتافات التي سوف يعيها لاحقًا.. وسَتُسْرَدْ له تفاصيل ذلك التجمع الهائل، عندما ينضج ويتدله في السياسة.. فيعرف أنها كانت وفود أنصار السلام في تجمعها ببغداد عام 1959، فترسخ صورة تلك الذكرى بكل أبعادها..

سيظل يفكر بالعربة العجيبة التي أقلته مع تلك الحشود..

سيظل يحلم بتكرار تلك الرحلة التي لم تتكرر أبدا..

سيتسلل في صباه مساء كل يوم من دكان عمه الحلاق في شارع «فكتور أبو العرق» إلى محطة القطار.. يقف على رصيف المحطة منتظرًا اللحظة، التي يتعالى فيها صفيره قبل الظهور في أفق السكة.. سيحملق حالما بالسفر فيه.. لكن لا يدري إلى أين؟!.. فكل عائلته وفروعها متكدسة في مدينة الديوانية، لم يسكن أحد منها لا في الريف ولا في مدن أخرى كما هو حال زملائه في المدرسة.. سيقف رامقا العربات.. وجوه بشرها.. الصاعدين والنازلين.. حتى يبدأ القطار بالتململ، وتنتظم ضربات محركه الرتيبة..

سيهب وكأنه سوف يفقد شيئا.. يلاحق العربات المتحركة ببطء أول الخطوات، ثم مهرولًا جوارها على الرصيف، يلوح للمسافرين الجالسين خلف نوافذه المضاءة.. يطير من الفرح عندما يلوحون له باسمين..

سيركض عندما تزداد سرعته؛ ليقف عند حافة الرصيف الأخيرة مخذول العينين، يتابع ذيل القطار المتلاشي في أفق الغروب.. قبل أن يستدير ميممًا شطر باب المحطة، شاعرًا بحزن غامض عميق، يجعله يسير ساهيًا طوال طريق عودته إلى دكان عمه، الذي سيضربه لغيابه المتكرر كل مساء.. ولزومه الصمت عند سؤاله:

- وين كنت؟!.

لم يكف عن التسلل وقت قدوم القطار والعودة الكسيرة.

انفصل عن مسند المصطبة.. منتشلًا نفسه من رذاذ حزن أول المساء المتساقط منذ طفولته، وهو يؤوب من المحطة القديمة المجاورة وقتها للجندي المجهول، ليمرَّ بمدرسة الإرشاد الابتدائية، بيت «فارس العصامي»، مكتبة الجندي وصاحبها «سيد نعمة» الغاط وسط أردية الجنود والكتب المجلات القديمة، صيدلية البيرماني، الشفاء.. متسائلًا:

- هل كان ذلك الطقس بشيرًا بضياعي بين المنافي؟!.

- هذا ما بت الآن واثقًا منه!.

ردّ على سؤال نفسه، وخاطبها بصمت:

- هأنذا أجلس بانتظار جاري وصديق طفولتي؛ كي أركب القطار، الذي سوف يسير في الظلام ليفضي بي إلى مدينة لم أرها.. هأنذا أتطابق مع

ذاك الطفل الحالم الذي كنته.. وحيدًا على مصطبة رصيف.. وحيدًا أقرض الوقت بالأخيلة والأحلام.. وحيدًا أشرد إلى طفولتي البعيدة.. وحيدا أحتسي البيرة وأضيع بوجوه صبايا روسيا المرحة..

فتح سدادة القنينة الثالثة ورشفها بهدوء قطرة.. قطرة وكأنه ظامئ في بحر رمل.. وهو يتابع بسرور ندف الثلج، التي صار هبوطها في مخاريط الضوء المنحدرة من مصابيح السقف مجسمًا بفعل ظلام الأفق.. صعدت به النشوة، فمدّ يده في الحقيبة؛ ليفتح سدادة قنينة الفودكا ويرتشف قليلا:

- أول مرة أنتظر السفر غير قلقٍ!.. موعودًا برؤية أمكنة جميلة وبشر مختلفين.. قال لي «عزيز» في محاولة إقناعي بالسفر بصحبته: أسمع «سلامي».. أخذك لجو راح تتذكره كل عمرك.. مثقفين عرب من تونس، المغرب، عرب 1948 إسرائيليي الجنسية.. دروز من الجولان.. لبنانيين.. أنواع وأشكال من شتى بقاع العرب.. ومن مختلف المشارب والانتماءات.. شيوعيين.. يساريين متطرفين.. قوميين.. يمينيين.. «إبراهيم» راح يتجننون لما يشوفوك.. تكتب قصة.. مناضل متعرض للتعذيب.. قاتلت بجبهة الحرب العراقية الإيرانية.. هربت لكردستان وقاتلت سنوات طويلة.. سيرون بك «جيفارا» بهذا الزمن الجايف.. فتعال معي.. وراح ما تندم أبدا !.

ارتشف رشفة ثانية من فم القنينة.. أحكم سدادتها ودسها في الحقيبة منتشيًا بسريان خدر خفيف بأوصاله، ومن شتائم «عزيز» التي ستنهال عليه حال رؤية القنينة مفتوحة.. ومن نشوة الحياة.. نشوة، لم يكن يعيها في كلام أمه المردد كل يوم، عندما ترى أباه يمعن في الشرب من الصباح إلى المساء، قائلة في تعليقها على شرب أبيه اليومي للعرق:

- شوف يمه.. هذا الهوا ماكو أطيب منه

- ...

- أبوك ما يعرف قيمته!.

على مصطبة، في محطة قطارات بموسكو لا يعرف حتى اسمها، وفي انتظار السفر إلى مدينة لا يعرفها.. وفي بلدٍ لا يعرف لغة قومه، في هذه اللحظة أدرك بوضوح عمق كلام أمه.. إنها تعني نشوة الحياة التي يحس بها هذه اللحظة.. نشوة فريدة.. مطلقة..

- هل عاشت أمه تجربة تشبه تجربته حتى أدركت لذة الهواء؟!.

لا يدري.. لكنه بعد كل ذلك العنف الذي وسم حياته يمسك بمغزى أن يعب الإنسان نَفْسه بأمان:

- هأنذا اجلس حرًّا.. لا أحد يسأل عن هويتي.. سائبًا كندف الثلج التي أراها تهبط ببطء في مخروط الضوء الناري.. حر.. ومتشهٍ كالطبيعة كما هتف «والت ويتمان» قبل قرن .. أرنو إلى عمري العنيف باسمًا.. ساخرًا.. لسلامتي من ميتات أكيدة كانت عربات قطار العراق تضمرها لي..

أرنو إلى ذلك الماضي فرحًا هازئًا من «كيريغارد» الذي وسم أفعال الحياة وكل شيء بالندم.. فإن تتزوج تندم وأن لا تتزوج تندم .. وان كذا تندم وإن عكسه تندم، في معادلة أجدها سخيفة جدًّا في جلستي الحالمة على مصطبة الرصيف الأول بانتظار «عزيز»، الذي سوف يتيح لي الوصول إلى مدينة قد أكون حلمت بها..

لدي فلسفة أخرى معنية بنشوة الحياة.. الهواء الطيب الذي يفتقده الراحل إلى عالم الظلام.. أنا أسعد البشر هذه اللحظة.. أنتظر سافلًا جميلًا على مصطبة وأحلم.. أنتظر بنشوة لخلاصي من موت، كان أكيدًا في بقعة العراق الدامية.. أحملق في عربات القطار المضيئة المنتظرة أمامي على سكتها بانتظار الركاب..

مرتين أخذني مثل هذا القطار نحو المجهول.. والمرتان فيهما فزع حقيقي.. الأولى حينما اعتقلوني عام 1980 وكنت جنديا احتياطيًّا من حديقة بار على «أبي نواس».. وقضيت ردحًا في أقبية الأمن العام، ومن ثم الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع بباب المعظم ببغداد، والتي قررت بعد التحقيق أن تطلق سراحي.. لكن ما أثار استغرابي أنهم أرسلوني إلى الفرقة الخامسة عشرة في عين زالة غرب الموصل، بدلا من الفرقة التي أخدم بها وهي الأولى ومقرها في مدينتي الديوانية.. ما يحز بنفسي حتى اللحظة هو ملبسي الرث الممزق ويداي المكبلتان.. والمأموران المكلفان بإيصالي.. كانا يصغراني بعشر سنين.. كنت أخجل، حينما تسقط عينا شابة مسافرة عليَّ مقيدًا ..

الثانية تكررت مرات عديدة .. حينما ساقوني جنديًّا عام 1982 إلى جبهة البصرة.. نصحني زملائي الجنود في الوحدة بالفوز بنهار مضاف، عن طريق السفر ليلا بالقطار النازل إلى البصرة، حيث أقضي الليل نائمًا.. أتذكر ذلك الزحام العجيب الكراسي مليئة، الممرات توسدها الجنود المتعبون.. أرفف الحقائب ينطرح فيها الجنود.. أتذكر الآن بوضوح كيف كنت أحشر جسدي على أرض الممر، بين صفي الكراسي متكورًا في الأمتار غير

المشغولة، متحملا الأذرع والسيقان التي توقظني بين الحين والحين.. وكل ذلك العذاب من أجل الالتحاق كي أقاتل وأموت.. ثم الهروب وكردستان.. الكمائن.. والصدف.. طززززززززززززززززز..

أنا في انتظار السفر هذه المرة دون الشعور بالخطر.. أنا نشوان بلذة الدنيا.. والفقاعة التي لم تنفجر بي بعدُ!.. وعدني صاحبي بالنوم طوال الليل على أسرة في القطار، وعندما سألته كيف؟.. أسهب في وصف عربة النوم والأسرة الأربعة المتكونة من طابقين متقابلين وفسحة ضيقة بينهما.. ذلك شحذ مخيلتي، وجعلني أشد تَوَقًا إلى الوصول إلى لحظة النوم في قطار، يشق عباب الليل إلى مدينة مجهولة بالنسبة لي.. أنا الخارج من معمعة العراق سالمًا، أتحسس بلذة الآن نسمة هواء تتسلل إلى رئتيّ.. ألمس بها نشوة الدنيا.. وأحتدم برغبتي في خوض مجهول مدينة صاحبي «عزيز».

أقبل باسمًا يلوّح بالتذكرتين، ورمى بجسده الذي بدا عليه الإنهاك جوار إبراهيم قائلا:

- ماتت رجليّ!.

ناوله «إبراهيم» علبة بيرة، فبهت أول الأمر، ثم تلقفها بلهفة قائلا:

- وكأنك تقرأ ما براسي!

فتح سدادتها وعبها دفعة واحدة.. سحب نفسًا عميقًا وحملق بـ «إبراهيم» متعجبًا ليقول:

- منين جبت البيرة؟!

فأخبره.. فتملى قسمات «إبراهيم» النشوانة المرحة وصرخ:

- أخ.. فتحت الفودكا!. قلت وأنا بنص الأوجرد «ودّع البزون شحمة»!.

وهجم على الحقيبة ليتأكد.. أخرج القنينة ورفعها عاليًا إزاء الضوء قائلا:

- زين ما خلصتها!.

ردها قائلا:

- أسمع بقى ثلث ساعة.. والشرب ما يكفينا.. وأش لون لو عوزنا بنص الليل.. غير نتجنن.. راح أشتري قنينة ثانية احتياط من العجوز!

ونهض بنشاط ليغيب في الزحام، ويظهر بعد دقائق ملوحًا بالقنينة العارية، فرحًا قبل أن يدسها في الحقيبة قائلا:

- تأمن الوضع.. قم لنصعد!.

نهض «إبراهيم» مغمورًا بالنشوة.. وتطلع نحو العربات المضاءة الممتدة حتى أول السقيفة.. وخطا خلف «عزيز» مفعمًا بشعور مبهم، جعله يشم عبق مغامرات يضمرها القطار، الذي ظل يحلم بالسفر فيه كل العمر.. مغامرات لا يدرك ماهيتها، وكأن حلم الطفولة بالسفر نحو مجهول.. نحو عالم جديد مختلف.. سيتحقق، وسيلمس بعضًا من تلك الأحلام المدفونة في النفس..

- مجرد حدس.. قد تكذبه التجربة..

هتف بنفسه السارحة وحث الخطى.. عند باب يصل إليه المرء بأربع سلالم حديدية، التفت «عزيز» قبل أن يضع قدمه على أول السلم، ليتأكد من وجود «إبراهيم» قائلا:

- هذه عربتنا!

وتسلق السلالم.. لحقه واستدار يمينًا عابرًا الباب الذي فتحه؛ ليجد نفسه في ممرٍّ ضيقٍ تحده من اليمين نوافذ عريضة تطل على الرصيف، ومن اليسار أبواب غرفٍ ضيقة كعلبة.. كان عزيز قد وصفها.. أبواب تفتح بالسحب إلى الجانب.. تفضي إلى باطن العلبة الضيقة؛ حيث تتقابل فيها أربعة أسرة: كل اثنين راكبين على بعضهما.. لم يجدا أحدًا.. أبدى «عزيز» ارتياحه لخلو الكابينة من مسافر قد يكون مزعجًا.. نزع معطفه الثقيل.. ألقاه على السرير.. وفتح منضدة صغيرة كانت مصفوفة بجدار العربة قبالة الباب.. رفع حامل التثبيت ليبسط عليه سطحها، ودس كفه في حقيبة «إبراهيم» فورًا ليخرج قنينة الفودكا المفتوحة ويرتب الأشياء.. واضعًا كأسين من البلاستك على دائرتين محفورتين على سطح المنضدة الصغيرة.. كيس الزيتون.. قطعة خبز أسود.. شرائح لحم مدخن.. وعلبة كوكاكولا هاتفًا:

- هسه نبدي!.

وصب مالئًا الكأسين حتى الحافة.. ورفع كأسه هاتفًا:

- بصحتك يا أكبر صعلوك شفته بحياتي!.

تريث «إبراهيم» في الرشف لامسًا حافّة الكأس والسائل الأبيض لمسًا طفيفًا.. كان لا يريد أن يسكر ويغيب في هذي الغرفة، التي يحل بها أول مرة

متوجهًا إلى مدينة سوف يحل فيها أول مرة أيضًا.. لم يفت ذلك على «عزيـز» الخبيث، فقال:

- اشرب حتى ننام وما نفز إلا بـ «كييف»!

- والطريق؟..

سأل «إبراهيم».

- مـا راح اتـشوف شيء غـير الظلمـة بالـشباك للـصبح.. يعنـي حتـى نوصل!. فأحسن شيء نشرب بسرعة وننسطل!.

سرح «إبراهيم» إلى ليل قطار الجنوب؛ حيث كان يخبئ في جيـب بدلتـه العسكرية نصف لترٍ من العرق المسيّح العراقي.. يعبه سريعا ليحشر جسده بين الأجساد المكتظة على الممر بين الكراسي، وينام مثل قتيل مـتحملا وطْءَ أقدام الجنود القاصدين دورة المياه.. لكنه لا يريد النوم بل العبَّ من الحياة بكل تفاصيلها التافهة والعظيمة.. من الهواء الطيب.. من لحظة يكون فيهـا مجرد التنفس متعة مطلقة..

- المهم ألّا أسكر في القطار؛ لأرى الفرق بين ذاك القطار وهذا!.

فكر مع نفسه قبل أن يعلق على كلام «عزيز»:

- دعني براحتي شربت قبلك..!

- مخادع كبير وأصيل وخصوصًا بالشرب والنسوان!.

وعبَّ ما بكأسه من خمرة، ليسرح «عزيز» مـع كائنـات المدينـة.. وكأنـه عاش فيها ولم يغادرها أبـدًا.. راويًـا طرائـف «حنتـوش سـلام».. الـسكير

الساهي الحشّاش.. عن يومٍ عثروا عليه جالسًا جوار أورزدي باك وسط المدينة على ركبتيه، ينتظر لحظةً صحو أخي «عزيز» السكير المنبطح على بطنه، والمعانق فتحة المجاري .. كان «إبراهيم» أثناء سرد «عزيز» يتخيل شكل «حنتوش»، بقامته القصيرة، وشرود عينيه، وجديته فيما يتعلق بعمله، وهو يعد حلوياته الشهيرة كل يوم في شارع «العلاوي» .. يتخيل هيئته.. شكل جلسته.. قرفصته جوار الغافي، لصق رائحة المجاري.. وعندما سأله الناس: ليش صارلك أكثر من أربع ساعات قاعد؟ قال لهم:

- منتظر أش وگت يگعد هذا الـحَبيب حتى أعرف منين أشترى العرق اللي شربه!.

قالوا له: ليش؟!

صرخ: كل عمري أشرب بس ما في مرة خلاني أنتعش مثل ما هو منتعش هسه!. أريده يَدلْيني امنين اشتراه!.

ضجا بالضحك.. فالقابع لصق فتحة المجاري هو من قاد «عزيز» إلى أول مضاجعة في خان الخيول بالگرفت. سكت «عزيز» مفكرًا.. وتلفت متمنيًا ألّا يأتي مسافر معهما في الكابينة؛ كي يأخذا راحتيهما.. جهر بأمنيته في صوت عالٍ، وعندما وجد «إبراهيم» يلزم الصمت سأله:

- أش تقول أنت؟!.

- ...

- أش بيك سارح؟!

كان «إبراهيم» يعيش أخيلة قديمة استفاقت من جديد في هذي الأمكنة الغريبة.. مستعيدًا توهجه في المراهقة كلما خلا بيت أهله الضاجّ بعشرة أنفار.. حالما بتسلل جارة كان يحبها، فيظل كامنًا خلف الباب نصف المردود، يشير لها حيث تقف خلف ستائر شباكهم المطل على الشارع كي تفهم دون جدوى.. ومع مرور الوقت واقتراب موعد عودة أهله، يتمنى مجيء أي بنت لينغمر فيها ويذوب..

- أش يصير لو هسه تدخل علينا واحدة جميلة دون رابع!.

- تبقى أنت تتخيل.. كل عمرك قضيته بالخيال.. اترك.. اترك.. معقول والقطار راح يتحرك بعد دقيقتين، تجيء واحدة على مزاجك.. إذا صار يعني العالم راح ينقلب!.. بلا خيال عزيزي.. بلا!.

وما أن أتم جملته، حتى سدت باب الكابينة فتاة لبثت في مكانها خلف الإطار، تحملق عبر نظارتين معتمتين بغضب ممسحة وجهيهما.. المنضدة الصغيرة..قنينة الفودكا.. الكؤوس.. الزيتون.. الخبز.. الحقائب.. قسماتها المذهولة الشاخصة نحو وقفتها الرامحة.. وكأنها على وشك الهجوم..

- عسى أن تكون لوحدها!.

هتف «إبراهيم» مع نفسه بصمت.. والتفت نحو «عزيز»، الجامد بعينيه الشاخصتين دون أن ترمشا نحو الفتاة، المنتصبة في إطار الباب. بالغت في سكونها وتحديقها الغاضب بقنينة الفودكا..بوجهيهما.. بالأسرة.. بالنافذة، موحية بشراستها فبدت مثل لبؤة وحشية على وشك الانقضاض .. وبحركة محسوبة خطت خطوتين محررةً باب الكابينة من ذراعيها فانغلق

بصخب.. أفردت تذكرتها وراحت تدقق بالرقم.. أسرع «عزيز» بالنهوض ليندس جوار «إبراهيم»؛ مفسحًا لها المجال كي تضع حقيبتها على السرير الأرضي الكائن إلى اليمين.. ساد الارتباك بينهما. حشرا جسديهما عميقًا على السرير كل في زاوية، وكأنهما يختفيان تحت سقف السرير الأعلى.. رتبت وضع حقيبتها، وجلست على حافة سريرها غير آبهة بهما، وانشغلت بترتيب أردية في كيس من النايلون. تزحزحا مدليين أرجلهما من حافة السرير المقابل.. ألمت بـ «إبراهيم» غبطة لحظة تعالي صوت محرك القطار.. «هاهو حلمي يتحقق» هتف بصمت محملقًا في وجه «عزيز» المبتسم، الذي تمالك نفسه من جديد قائلا:

- أش لون محنة هذي الليلة!

- ..

ضحك «إبراهيم» ولم يعلق:

- خصوصا إذا ما دخل رابع علينا!.

تفرست فيهما فأطرقا.. كان ضيق الكابينة يجعل التحديق في وجهها شيئًا مربكًا، ولكن «إبراهيم» يتذوق، وهو يتحاشى كتلتها الدانية، الانطباع الأول لحظة ظهورها عند الباب.. كانت بيضاء ذلك البياض المشع بكتلةٍ متناسقةٍ مرصوصةٍ، بانت حال نزعها المعطف بعد عبور العتبة. أنشأ «إبراهيم» يحدق في الباب الزجاجي ونافذة الممر الزجاجية العريضة متابعًا الأضواء الخاطفة الراكضة صوب الاتجاه المعاكس؛ مخمنًا ما قد يجري من أحداث في الساعات العشر القادمة.. تلاشت غبطته حينما حلل الموقف:

– أنا لا أعرف اللغة الروسية، أي سأعتمد على «عزيز» في الأحاديث المحتملة، هذا اللئيم بلا ضمير حينما يتعلق الأمر بالنساء.. سيرتب الأمر معها ويطردني بأدب من الكابينة ليخلف في قلبي حسرة أخرى، مثل تلك التي خلفها قبل أكثر من عشرة أعوام في شقة الوزيرية. لكن.. ليكن.. فإن تكن معنا واحدة بهذا الجمال أحسن من لا شيء..

كانت تجلس على السرير المقابل جوار النافذة لا يفصل بينه وبينها سوى مترين.. سقط نظره على ساقيها العاريين حد الركبة فارتعش.. كانتا شديدتي البياض.. ممتلئتين.. ناصعتين.. لامعتين.. ملساوين.. تهزهما هزًّا سريعًا رتيبًا، يفصح عن توترٍ وقلق.. رفع رأسه نحو «عزيز» الجالس مظاهرًا الباب، وكاد يقول «إنها خائفة».. لكن صمت على جسد رجل ضخم وقف بمواجهته حاجزًا سلسلة المصابيح المرصعة ظلام النافذة.. كان ينقل نظره بين رقم الكابينة وتذكرته، ثم سحب الباب عابرًا العتبة، وألقى التحية بالروسية.. أحس بكيانه يتحطم بغتةً، وكأن قدوم هذا المسافر نهاية العالم. فحملق بحقدٍ ظل يستغربه من نفسه، كلما عادت به الذكرى إلى ذلك الموقف.. حقد أسود بلغ حد الرغبة في طعن الرجل بمدية ورميه من نافذة القطار.. جمد بمكانه ينصت فائرًا للحوار الدائر بين الثلاثة. وأخيرًا حمل الرجل حقيبته، وغاب خلف الباب.

بادر «عزيز» قائلًا:

– الله يستر من هذي الليلة..

– ..

ورمق «إبراهيم» بعينين لامعتين:

- لا تخاف مكانه بغير كابينة..

- يعني!..

قاطعه قائلًا:

- يعني الليلة يمكن وحدنه ويه هذي المصيبة!

توازن «إبراهيم» من جديد.. استرخت أوصاله، وغط بفيض ناعمٍ أنعش روحه متخيلا مباهج غامضة ستكتنف هذه الليلة. ورغب في الحملقة بساقيها العاريتين.. وجدهما تهتزان هذه المرة بجنون.. ثم سمعها تقول بصوت ناعم مثير، ولكنه متوتر يتصنع القوة، مشيرةً صوب الباب، تبسم «عزيز» والتفت إليه قائلًا:

- قوم نطلع تريد تبدل ملابسها!.

أصبحا في الممر.. وابتعدا قليلا عن باب الكابينة.. وقفا بعد عدة خطوات. رمى «إبراهيم» بصره عبر زجاج الواجهة في عمق الظلام، فتراءت في الأفق نقاط ضوء بدت كنجوم باهتة تترجرج مع اهتزاز عربات القطار الضاجة في صمت الليل.. وبغتة مرّتْ - كطيفٍ - وجوه زوجته وطفليه، لكن سرعان ما تلاشت و«عزيز» يقول:

- اسمع الوضع هنا مختلف عن شقة بغداد.. هنا كل شيء بالاتفاق!.

- ...

كان يومئ إلى المسيحية الهاربة من زوجها، التي حاولوا مضاجعتها رغم أنفها.

وأضاف مؤكدًا:

- والشرطة الروسية قاسية وقذرة!.

قال «إبراهيم» مع نفسه:

- «اللئيم بدأ يقدم.. سيكرر ما فعله معي في شقة الوزيرية.. سيرتب كل شيء، وأنا بالضبط مثل الأطرش بالزفة، فهو اللي يعرف الروسية.. وأكيد يعرف مزاج النساء بالسفر!.»

قال مستفسرًا بصوت عال:

- أش تقصد.. بعدين البنت متوترة؟!.

- ما عليك.. خافت من وجوهنا ونظراتنا.. أكلناها بعيونّه زائد بطل الفودكا.. وصوتنا العالي.. اسمع.. أول شيء راح ما نهتم بها وننشغل بحديثنا مثل ما وحدنا.. وثانيا إذا استرخت وتقربت وشاركت بالحديث، راح يبين كل شيء .. إذا تريد فراح نعيش ليلة بالجنة وإذا ما تريد خلص.. نكتم وانام !.

فتحت باب الكابينة ونادت عليهما.. قطع «إبراهيم» الخطوات القليلة، وهو يفكر بكلام «عزيز» عن الحديث والقبول وليلة الجنة التي من المؤكد ستكون من نصيبه إذا حدث مثلما توقع، «أنا خارج المشهد بكل تأكيد»، قال مع نفسه، وتمنى لو تبقى على توترها ولا تقترب منهم كي يموت «عزيز» بغيظه.. حشرا جسديهما على السرير الأرضي الأيسر بموقع جلستها بنفسه، قبل أن تطلب منهما الخروج، بينما توسطت في جلستها على

سريرها المقابل.. تصرفا، وكأنها لم تكن، غارقين بحديث عن شخصيات الديوانية العجيبة مجانينها، ومتشرديها، وسكيريها الشهيرين، ومنكتيها، ينفجران ضحكًا عاصفًا تزيده وهجًا الفودكا التي يعبانها عبًّا.. مع كل ذلك الانشغال، لم ينس «إبراهيم» خطة نده الحميم «عزيز»، فكان يختلس النظر بين الحين والحين إلى حيث تجلس.. فتلم بجسده رعشةٌ حين يجدها تحملق فيه بتركيز شديد، وهي تضم ساقيها المحشورتين في سروال ضيق إلى صدرها شابكةً ذراعيها العاريتين حولها، واضعة حنكها على ملتقى الركبتين، مما أتاح لها التوازن في وضع جلستها..

يرتعش معاودًا التحديق في وجه «عزيز»، المنزوي في ركنه المعتم على طرف السرير، والمنهمك في دوره أبرع من ممثلٍ محترف عاملا بدأب لما خطط له.. حدس بأنه يقترب من هدفه خطوة.. خطوة دون أن يسرق نظرة نحوها.. كانت تلاحق حركة «إبراهيم» وهو يصب كأسًا لـ «عزيز» ويناوله، فيضطر «عزيز» إلى عبِّه دفعة واحدة، فليس لديه مكان يضع فيه الكأس. تجرى الحركة في ضيق الكابينة بحذر شديد كي لا تنزعج.. ذلك جعلها تقول شيئًا بالروسية وهج قسمات «عزيز»، الذي التفت نحو «إبراهيم»، وشرح له ما اقترحته موضحًا أنها مثل ما توقع.. لانت لأنها تقول: خذوا راحتكم.. اجلسا حول المنضدة وسأجلس بعيدًا.

في خضم الحركة في ضيق المساحة، سنح لـ «إبراهيم»، الثابت بمكانه جوار النافذة والمنضدة الصغيرة التركيز على حركتها، وهي تفل ذراعيها وتدلي ساقيها المتينتين في ضيق السروال لتطأ أرض الكابينة، وتنحني

للتخلص من سقف السرير العلوي، وتستقيم مستديرة نحو الباب وموضع جلوس «عزيز»، الذي زحف على السرير مقتربًا من «إبراهيم»، متحاشيًا مسّها عند المرور..

أغرز ناظريه في قوامها الدابر في ضيق الخصر واستقامة الظهر، وانحدار الشعر، وبروز الكفل المرصوص تحت السروال الضيق. خطوة.. خطوتان.. ثلاث.. أربع.. لحظات مرقت في ضوء الكابينة الكابي.. لكن «إبراهيم» أحس بأن هذا الكيان الحار الغريب المدبر في ربكة الحيز الضيق هو الدنيا كلها دون أسئلةٍ.. ولا تفسير، فحرز تفاصيل لويها لجسدها، وهي تجلس مكان «عزيز» الذي طفر نحو حافة السرير، ليجلس بمواجهته مسرورًا:

- اللئيم يجري الأمر كما خطط وحلم!.

هتف «إبراهيم» مع نفسه.. وصار يحدق بقسمات «عزيز» الجالس في مواجهته؛ حيث تعذر عليه في الترتيب الجديد اختلاس النظرات إلى كتلتها المنزوية على سريره نفسه إلى الشمال، مظاهرة باب الكابينة.

- من المؤكد إننا أثرنا فضولها..

قال «إبراهيم» مع نفسه، وأضاف بنشوة:

- تجاهلنا لها واندماجنا في حديث بلغة لا تفهمها، جعلها تود لو تبادلنا الحديث لتعرف ما يضحكنا طوال الوقت، شأنها شأن ذاك الروسي الأنيق صاحب الحقيبة الدبلوماسية، الذي ظل يرمقني بعينين ودودتين باسمتين مندهشتين طوال وقت المترو، والذي جهر برغبته في الجلوس معي.

خاطبه «عزيز»:

- أش بك.. وين رحت.. طيرنا وكر.. شوية ويدخل البرج!.

علق «إبراهيم» بغيظ:

- برجك.. لو برجي!

- ما كو فرق.. برجك برجي.

وتبسَّم بخبث شاخصًا إلى حيث تكورت متخذة وضع جلستها السابقة نفسه في زاوية، تتيح لها مراقبتهما دون الحاجة إلى الالتفات إلى اليمين والشمال.. التفت «إبراهيم» ناظرًا إليها، فوجدها تحدق نحوه بعينين لامعتين في طرفهما بسمة.. هتف به «عزيز»:

- كافي.. راح تأكلها!

رد بعناء وجهه المجذوب نحوها صوب «عزيز»، الذي أضاف:

- لا تلح بعيونك.. طلع البطل الثاني، واسمع هذي الطريفة عن «صاحب سلام»!

انبثق وجه صاحب الوديع بقامته القصيرة المفتولة، وهو يلف جسده ببطانية منقوعة بالنفط ويشعلها وسط الحشد أمام دكانه بشارع «علاوي الحنطة»؛ ليتحول إلى رماد.. كان ذلك عام1985.. نفض رأسه طاردًا مشهد الحرق، وعاود الإنصات إلى «عزيز»:

-كنا شلة يأخذنا «مجيد حرز» الله يرحمه بسيارته الـ om : «قاسم لفتة»، «صاحب سلام»، «سعد كتان»، «علي مني»، «ناظم جاري»، «ربيع عواد»،

«ناظم كتان»، «نصير عواد»، «هاشم لفتة»، «عجمي»، «حامد كاظم».. نفتر بالسيارة ونشرب الليل كله.. في يوم كنا على الطريق السياحي قرب الحلة وعوزنا.. فنزل «صاحب سلام» ليشتري العرق من نادٍ سياحي على طريق حلة بغداد.. وبعد دقائق سمعنا دربكة وصياحًا من جهة الباب.. وما شفنه إلا واحد بكبر الفيل يدفع ويلكم ويشتم«صاحب سلام».. فركضنا وحجزناهم. سألناه: ليش؟!. قال بصوت عال: صاحبكم استفزني!.. ووجه كلامه إلى «صاحب سلام» مهددًا: والله بعد إذا أشوفك تدخل النادي!. تبين أن الفيل صاحب النادي، ولما سألنا «صاحب سلام»: ولك أش سويت له؟!. قال وعلى طرف فمه ابتسامة خُبث: والله كل شي ما سويت له.. قلنا له: زين أحكي أش صار.. فعرفنا القصة:

« دخل «صاحب سلام» واتجه إلى البار، اتكأ بذراعه على حافته، التفت فشاف الفيل جالس على ميز عريض عليه أنواع المزات، حمص بطحينة وباقلاء مسلوقة، وزلاطة، وشرائح لحم مشوي، ولبن، وخيار، وخبز. ووسط كل هذا نص ربع عرق. فقارن بين حجمه والمزة والنص ربع فحصرته الضحكة.. وسأل صاحب البار: عيني العرق مو مغشوش؟. فجاوبه: لا.. عيني، فقال: زين أعطيني نص ربع مسيَّح. أخذ النص ربع، ونظر للفيل بسخرية وجره جرة وحدة، رجّع الربعية لصاحب البار، وقال: زين ما مغشوش، خلينه ثلاث، وطلب نص ربع عصرية، ونظر إلى الفيل والمزات ونص ربعه بالطريقة بنفسها، وجره جرة وحدة، وقال: زين ما مغشوش خلينه أربعة، ونظر بطرف عينه هازئًا إلى الفيل اللي احتقن، وراح يدخن بعنف، وينفخ الدخان نحو «صاحب سلام» المبتسم، وعندما سأل

«صاحب سلام» عن عرق الزحلة وطلب نـص ربـع للـذوق، قـام الفيـل وهجم على «صاحب سلام»!.

كانا ينفجران بالضحك العاصف بعد كل طرفة من هذا النوع ممعنين في تجاهلها، وكأنها لم تكن في الكابينة حتى نفـد صـبرها.. فتنحنحـت قبـل أن تقول شيئًا بصوت ناعمٍ ودود هذي المـرة موجهـة الكـلام إلى «إبـراهيم»، الذي بهت محدقًا في وجهٍ صاحبه، الذي بادر بالكلام بقسماتٍ بـدأت فـورًا بالتوهج.. أخذت تنصت لمـا يقولـه ناقلـة نظراتهـا بيـنهما بدهـشةٍ، دفعـت «إبراهيم» إلى القول بغضب:

- اسمع «عزيز» لا تخليني مثل الأطرش بالزفة!.

ابتسم بطرف فمه، وقال:

- صاحبتنه دخلت البرج.. كانت تظن أنت تعرف الروسية.. اسكت.. لا تخرب.. خليني.. انسق!.

نطق جملته على عجل وانغمر في حـديثٍ معهـا لا يفقـه «إبـراهيم» منـه شيئًا.. بعد دقائق طلب «عزيز» منه مبادلة المكان؛ كي يجلـس عـلى الـسرير نفسه، ويصير معها وجها لوجهٍ.. قام فورًا وارتكن في طرف الطاولة الـصغيرة المقابل؛ حيث يستطيع من مكانه الجديد رصـد كـل صـغيرة وكبـيرة في وجـه «عزيز» والروسية البيضاء، التي لم تكف عن رميه بـين الحـين والحـين بعينـين لامعتين، في عمقهما أسىً شفيف.. أسى لم يدرك سره..

تحت الضوء الناري الباهت للكابينة.. أنصت «إبراهيم» بشرود لصوتها الرقيق، لأزيز القاطرة الصاخب، لصوت «عزيز» المختلف،

لعويل القطار المنطلق في بحر من الظلام، لصدى لهاثِ أنفاسه، لوجيب قلبه الرتيب، وقليلا.. قليلا راح يهبط إلى عمق اللحظة الحاضرة، مستمتعًا بنشوتها غير مكترثٍ بغيرها.. إنه الآن في قطار، ينهب أرضًا لا يعرفها.. سيأخذه إلى بشرٍ وأمكنة لم يرها من قبل.. جالس في كابينة مع صديقٍ سافل جميل وفتاة جاوزت العشرين بقليل.. مستمتعًا بكل التفاصيل والانفعالات.. الغيرة، الحسد، التنافس، غزل العيون، عدم فهمه للروسية، وحتى بما ينهمك به صديقه الآن كي يفوز بليلة معها دونه، مستمتعًا بكل شيء.. ذاهبًا إلى أقصى لحظته، مكتشفًا قيمة مختلفة للحياة، التي كاد يفقدها أكثر من مرة في الزنزانة.. في جبهة الحرب وفي الجبل وقتها.. كان لا يدرك هذا المعنى فجازف ونجا بمحض الصدفة. وبغتة وجد نفسه يصرخ:

- أخ.. أش قد حلوة الحياة.

أصمتت صرخته المتحاورين، فساد صمت ضاج بصوت مرور العجلة على السكة. فاء إلى نفسه وحدق بهما.. كانا يحملقان به.. هي بدهشة وتوهج، وهو بغضب وانزعاج ترجمه في سؤال:

- «إبراهيم» أش بيك؟!..

بهت.. كيف يشرح لحظته، ود لو يقوم يعانقه ويعانقها.. يذوبها في أحشائه.. ويذوب بهما..

- ما بي شيّ.. سرحت!.

وحط في مكانه مرتبكًا.. سارع في صب كأس جديدة وازنة، فجعل يحدق بهما بتركيز منصتًا لحوارٍ أحسه يتعلق به، إذ كانت الفتاة تتكلم بانفعال، وهي ترد على كلام «عزيز» وتؤشر نحوه بإلحاح.

- «عزيز» ما الموضوع تحكون عني؟!.

فخجل السافل قائلًا:

- أي تريد تعرف كل شيء عنك!.

- وأنت ما تريد تحكي لها؟!.

- لا.. لا..

- لا تصير خبيث.. أش يضرك لو أشارك بالحديث!.

قال جملته برجاء وشخص بعينيه إليها.. وجدها منفعلة تنصت لحوارهما بالعربية، وكأنها فهمت فحواه، فقالت شيئًا لـ «عزيز» الذي لانَ، فابتسم معلقًا:

- ولك هذي عجيبة كأنها عرفت ما نحكي بهِ!.

- ...

لم يجب «إبراهيم» منتظرًا المزيد من الإيضاح:

- هل أحكي كل شيء عنك!

أجاب «إبراهيم» فورًا:

- أي.. كل شيء!

- هل أقول إنك متزوج؟!

- أي .. قل كل شيء!

استنتج أن «عزيز» رسم عن نفسه أمامها شخصية ثانية، فقد وجده هنا بارعًا في تضخيم الأشياء والنفخ والادعاء، ولا يدري من أين علقت به كل هذي الصفات.. لم يكن كذلك قبل أن يُبعث للدراسة في الاتحاد السوفييتي من قبل الحزب الشيوعي، لم يكن.. بل كان شديد البساطة صعلوكًا حقيقيًّا، يناسب نشأته وسط عائلة كبيرة، بالكاد توفر لقمة اليوم، كونها مهاجرة أصلا من أرياف الكوت، التي جف نهر فيها، إلى الديوانية لتحل في طرفها الجنوبي غير المسكون وقتها.

وأضاف:

- لكن اسألها قبل كل شي ليش تريد تعرف عني؟!.

وركّز متتبعًا انفعالاتها أثناء الكلام، فلا سبيل أمامه غير الحدس لمعرفة مسار الأمور؛ فصاحبه لا يؤتمن أصلا في موضوع النساء. فكيف إذن وهو يقوم بدور الترجمة، التي من المؤكد أنه سوف يسقط منها كل ما لا يتناسب مع مخططه. تابع قسماته المؤدية دور الرقيق اللطيف الشفاف بعينين متوسلتين، وصوتٍ اختفت خشونته فعاد ناعمًا يوحي بالنعومة.. أشرقت ملامحها وراحت تتملى فيه فترة وجيزة، قبل أن تقول شيئًا جعله يجفل ويلوذ بالصمت، ويتلكأ في الترجمة مرتبكًا كمن ضبط متلبسًا. عادت تقول له بلهجة أمر، وكأنها استشفت ما يدور في ذهنه، مما جعله يلتفت أخيرًا ناحيته قائلا:

- العاهرة تقول أنت تشبه صاحبها القديم!.

أحس «إبراهيم» وكأنه يتسلق الهواء، ويشف مرفرفًا في فضاء الكابينة، ورمق صاحبه بنظرة تشف.. لكن ما كان ينقصه شيء جوهري.. اللغة.. «سيبذل اللئيم كل ما بوسعه لاستمالتها» فكر بغيظ.. لكن حتى لو تمكن من ذلك وهذا الاحتمال الأقرب.. فإنه سجل نقطة تكفيه للتمتع والتملي ولو لدقائق.

- ..

لزم الصمت منتظرًا، وأنشأ يلامس قسماتها بعينيه غائرًا في تفاصيل وجهها.. الجبهة عريضة يكسبها الشعر الأسود الناعم الغزير السائح من الجانبين حتى الحضن مزيدًا من السطوع في ضوء الكابينة الكابي.. قوس الحاجبين الأسود الجميل، التناسق التام لمنحنى الوجه المستدير مع وساعة العينين بأهدابها الكثيفة الطويلة، ودقة بروز الأنف المنسجم تمامًا وسط كتلة الوجه وفمها بشفتيه المكتنزتين.. والعنق الطويل المتين العاري والهابط نحو النحر.. وثدياها الصلبان المكوران، ورشاقة قامتها المنطوية في الزاوية.. لم تغادره عيناها الواسعتان.. غمرته بهما طويلًا..

في الصمت رأى وجه «عزيز» يحتقن غضبًا ، وينقل نظراته المضطربة بينه وبينها.. كان الموقف مربكًا فهو لا يدري بماذا يعلق على كلامها الواضح الدلالة.. وحتى إذا أراد التعليق، فسوف يحرّف عزيز ما يقوله ويوظفه عند الترجمة لصالحه ؛ لذا فضل الصمت والاستمتاع في التملي المتبادل بينهما.. طال الصمت. يبدو أنها هي الأخرى تستمتع به، وبهذا التحديق العميق المتركز في عيونهما المبحرة في غور بعضها البعض.

تعطف «إبراهيم» في خضم نشوته بتقليب شعورٍ راوده، بغتة في أمكنة شتى: في حافلة، في قطار، وسط سوق، في حفلة، في الجبل حينما يتوزعون لتناول وجبة في بيوت القرى، في حضرة ضريح مقدس، في الشارع، في نادي الكلية، في المترو.. شعور عاصف مباغت، يجذبه إلى أنثى معينة يحس بها قريبة إلى نبضه، فيود ضمها في أحشائه.. ويتلاشى الشعور ذاك مع غياب ذلك الوجه كأن تنزل من الحافلة، أو يحين موعد مغادرة البيت في القرية، أو تغيب البنت خلف باب الدار ولا يراها ثانية..

يغور في الكابينة والصمت الخاطف، وفي غمرة ذلك الشعور المتبادل الذي حرضها على تشبيهه بصاحبها القديم، واجدًا في نسق وجهها وانفعاله وغور عينيها المتشهيتين كل نساء عمره، اللواتي رغب بهنّ وظل في عطشٍ لا سبيل إلى إروائه أبدًا.. بدأت بالكلام من جديد، دون أن تغادر عيناها عينيه وعند تلكؤ «عزيز» في الترجمة.. رمقته جانبًا وصرخت به، فارتبك كأنه تلميذ يقف أمام معلمٍ قاسٍ، وقال:

- تقول إنها طالبة في كلية الآثار ومختصة بدراسة التاريخ اليهودي واللغة العبرية. بالوقت بنفسه، تعمل معلمة تُدَرّس العبرية في مدرسة من المدارس اليهودية، التي نشأت أيام حكم «جورباتشوف» في «كييف»!. وتسأل من أي بلد قدمنا؟!. أقول لها من أمريكا اللاتينية!. أحسن.. «إبراهيم».. أحسن الروسيات يخربن عليهم!.. أش تقول؟!.

قال «إبراهيم» بحزم:

- لا.. قل لها عرب من العراق!

دفعت بظهرها إلى جدار العربة قليلا حال سماعها ما قاله «عزيز»، الذي رمق «إبراهيم» بنظرة لوم وغضب، تجاهلها قائلا بصوت متماسك مرح:

- قل لها هل هي يهودية؟!.

ما أن سمعت السؤال حتى ازدادت ارتباكًا.. تململت في جلستها، ورفعت رأسها محدقة في سقف الكابينة الخفيض.. لبثت دقائق في وضعها المضطرب، وعادت تنقل نظراتها القوية بين وجهيهما، ثم قالت شيئًا.

- تقول: نعم!

وتطلعت بعينين قويتين في وجه «إبراهيم» باحثة عن رد فعلٍ ما.. ثوانٍ من الحملقة بقسمات «إبراهيم» وتلاشى ارتباكها.. فحركت ساقيها وبان الاسترخاء على ملامحها، وأنشأت تتابع بعينين حالمتين «إبراهيم»، الذي هبط به جوابها إلى ذلك التاريخ الملتبس المختلط بالتاريخ المكتوب والأكيد.. التاريخ الروحي للبشرية التي رست على أديان سماوية ثلاثة، تلاحقت وتصارعت وتتصارع بالبقعة نفسها.. هذه الجنية الجميلة، قادمة من ذاك العمق، الجالسة تحت سقف السرير العلوي، في ضيق كابينة عربة قطار، يشق الليل نحو مدينة يجهلها.

هتف مسرورًا مع نفسه:

- أنا نبيك الضائع في سيناء!

وأبحر متأملًا تلك القصص، التي طالما تدله بها في طفولته وتخيلها، وهو يتابع الراوي من على منبر جامع حي العصري، يروي قصص الأنبياء .. يتأمل، بلذة، في العربة الهادرة أخيلة الطفولة وهي تعيش مع أرواح

الأنبياء، متطهرًا من ذلك الحماس، الذي دفن تلك الأخيلة، والقادم من لغو خطاب اليسار المتطرف من القيـادة المركزيـة للحـزب الـشيوعي العراقـي، وأساطير ثورتها المسلحة في الأهوار أواخر الستينيات إلى الخطـاب القـومي العربي، وخطابات «نايف حواتمـة»، و«جـورج حـبش» الطويلـة في مجلتـي «الحرية» و«الهدف»، وسيل أغـانٍ ثوريـة تمجـد الحـرب والمقاومـة، عقـب أحداث أيلول الأسود عام 1970 في الأردن، التي كانت تبث طـوال اليـوم من إذاعة بغداد.. وقتها تصور أن اليهودي مـاردٌ جبـار، ينبغـي مقاومتـه.. لتأتي قراءة «غسّان كنفاني» معمقة شعور العداء لليهود في قصصه، سيختبر كل ذلك الليلة في هذي الكابينة، إذا كان لـدى «عزيـز» بقايـا مـن ضـمير، وينسى حيوانية شهوته الأنانية وينصح في الترجمة.

- مرحى بالتاريخ!

صرخ «إبراهيم» فاردًا ذراعيه إلى الجانبين موشكًا على ضـمها.. لم تفهـم أول وهلة فعاودها الارتباك.. جمدت في تكورها؛ فعلق «عزيز»:

- ولك أش بيك أنت على المسرح.. خوفتها!.

- ما عليك ترجم ما قلته بالضبط!

عندما عرفت فحوى صراخه بانت البهجة على ملامحها، ففلَّت ذراعيها لتدلي ساقيها من حافة السرير.. ولـولا «عزيـز» لهبَّـت نحـوه واختبـأت في صدره المفتوح.. خمن «إبراهيم» المشهد هكذا.. أو تخيله وتمنـاه.. شخـصت نحوه، وكأنها تجرده من ملابسه، وقالت شيئًا قصيرًا وحـادًّا جعـل «عزيـز» يترجم فورًا:

- تقول: ما ملَّتك؟!.

- قل لها.. مسلم .. شيعي.. شيوعي.. وجودي.. مخبل.. شبه سكير.. صعلوك حقيقي.. يعشق الحب والوضوء، والماء والهواء..

لم يقل «النساء» فهو واثق أن صاحبه لن يترجمها؛ لذا كان ينتقي ما هو عمومي.. يعتقد «عزيز» أن في ترجمته كسبًا يقربه منها.. انخرطت في ضحكة صاخبة حال فراغ «عزيز» من الترجمة، وجعلت تتفرس في عينيه بوجدٍ ورغبة بانت واضحة في عينيها المخضلتين الصارختين، في انحدارهما العنيف في عمقِ عيني «إبراهيم» المنتظر في ركنه جوار النافذة والمنضدة الصغيرة.. عندما تمالكت نفسها قالت شيئًا بالروسية، ترجمه «عزيز» فورًا بنشوة وشماتة:

- تقول: صاحبك غجري!.

ألمت بـ «إبراهيم» غبطة، فتوردت وجنتاه، وهب من ركنه قافزًا صارخًا:

- يا ريت.. ياريت كنت ضايع وياهم!.

- ...

لاحقته عيونها وهو يفتل قامته الطويلة المشوقة، ملتفًّا على نفسه، ثم يسكن محركًا رقبته إلى اليمين والشمال ست مرات، ويعود إلى ركنه صامتًا؛ ليحملق عبرها في واجهة القاطرة الزجاجية، وأفق العتمة المنثور في أحشائها بقع أنوار تمرق مثل برقٍ. استنكف «عزيز» ترجمة ما فاه به، فلزم الصمت.. ظلت تحملق منتظرةً. لكن يبدو أنه فتح موضوعًا آخر؛ إذ بدت منفعلة تهدر بصوتها المثير عند علو نبرته، وهي تقول شيئًا وتؤشر صوبه.. فقال :

- «إبراهيم» أترجم بالضبط ما قلته!.

- أي!.

تألقت وفاحت على «إبراهيم» ما أن فهمت ما صرخ به، وهو يهب واقفًا متشنجا، وكأنه يوشك على الطيران من نافذة الكابينة.. وبحركة رشيقة مغزلية فتلت جسدها من تحت سقف السرير العلوي، وقالت شيئًا موجهة كلامها هذه المرة بشكلٍ مباشر إلى «إبراهيم»، الذي لم يفهم منه شيئًا.. فالتفت نحو صاحبه «عزيز» منتظرًا ترجمة ما لهذا السيل من الروسية التي غمرته بها.. كانت تردد عبارة حفظها وعرفها لاحقًا:

- يني ما كو.. يني ما كو!

لم يترجمها قط، بل جعل يسخف الموقف المتصاعد برمته معلقًا كونها عاهرة ليس إلاّ.. فلا تأخذ كلامها بجد، فردَّ «إبراهيم»:

- مع ذلك ترجم ما تقول!.

تجاهل الأمر برمته، لكن «إبراهيم» سيعرف ما كانت تعنيه لاحقًا، وهو يتعلم لغة التعامل اليومي.. كانت الجميلة تهتف دهشةً:

- يا إلهي .. لا أستطيع.. لا أستطيع!

صحيح أنه ليلتها لم يفهم من قولها، وهي تفتل قامتها في ضيق الكابينة شيئًا.. لكنه أحس أنها انبهرت بجوابه، فعاودته نشوة الانتصار، وجعل يحدق نحوه بعينين ساخرتين متشفيتين فيما كان مستغرقًا في التفكير.. يحك قفا رأسه ويحملق فيها شاردًا، وهي تتملى فيه بشغف:

- بم يفكر هذا الخبيث؟!.

تساءل «إبراهيم»، ولم تكن خشيته بعيدة عما سيجري في الدقائق التالية؛ إذ إن «عزيز» استحوذ على اهتمامها بالكامل، فاندمج معها في حديثٍ طويل متواصل، حتى بدا أنهما نسيا وجوده.

قاوم «إبراهيم» رغبة شديدة في عبِّ مزيدٍ من الفودكا؛ في محاولة للتخلص من وطأة شعورٍ بالوحدة سكنه فجأة، فتدلى في ماضيه العاجّ بالعنف والدم والقسوة واللهاث، سعيًا وراء المحافظة على الكينونة من هوة الموت الفاغرة في كل ما حوله.. قاوم مدفوعًا بالرغبة في معرفة ما سوف يجري الليلة في الكابينة.. هل ستتكرر ليلة الوزيرية، فيظل طوال الليل يتقلب على فراشه، وآهات اليهودية تختلط بهذيان «عزيز» الداعر.. بدا ذلك شبه مؤكد، وهما ينفعلان في الحوار فيصرخان بغضب تارة، ويهمسان برقة في أخرى.

- اللئيم ركلني بكعب قدميه!

صرخ بصمت وعيناه تلاحق وجه «عزيز» أثناء الحديث.. كيف يتلّون.. تارة يصبح قويًا خشنا يوحي بفحولة طافحة، وتارة تصبح ملامحه الصخرية منسابة كانحدار نهر خفيف، وفي أخرى يضعف بنظراته المتوسلة.. حتى يكاد يخرّ على يديها ويقبلها لولا وجوده.. تماسك «إبراهيم»، وقرر التوقف عن الشرب تماما لرؤية فصول الليلة، التي أصبحت شديدة الإثارة، وهو ينتحي في ركنه جوار النافذة والطاولة الصغيرة، مشاهدًا بعدما كان طرفًا.

- من أين جاء بهذه القدرة على التلون وهو العنيف، صلب الموقف في السياسة والعلاقات؟!.. أهي النساء والرغبة في المضاجعة التي يرفعها فوق كل شيء، أم أنه تغير في سنوات الدراسة بعد تجربة القتال مع الثوار في الجبل؟!.

تساءل، وهو يصب لـ «عزيز» كأسًا طلبه على عجل في حمى حديثه المحتدم.. حدس أنه في موقفٍ حرج؛ إذ إنه كان يطلب كأسًا في حالتين: إما أن يكون منتشيًا أو يكون محرجًا يبغي التوازن.. هاهي ملامحه تقول إنه «مزنوق».. كانت طوال انشغالها بالحديث ترمي «إبراهيم» بين الفينة والأخرى بعينيها الضاحكتين خطفًا، وكأنها تبغي التأكد من وجوده.. مدّ ذراعه بالكأس، فتناولها دون أن يتوقف عن الحديث.. شمت «إبراهيم» ملاحظًا بوادر هزيمة تلوح في نبرة صوته وقسماته، وتمنى بكل كيانه فشل مسعاه في نيلها.. جمد بنظره لا يفارق ملامح وجهيهما، متابعًا أصغر انفعال، ولاقطًا تبدل نبرات الصوت، فتمكن من النفاذ عميقًا في عالم صاحبه لم يعرفه فيه من قبل.. تنغيم صوته وتنعيمه، نظراتٌ حالمة بعينين موشكتين على البكاء، حركة يديه وجسده المدروسة أثناء الحديث، التي أظهر فيها قدرة مذهلة على التحول من ذلك الكائن الخشن إلى كائن ناعمٍ حالمٍ، يوشك على الذوبان:

- يا أخو العاهرة!.

صاح به «إبراهيم» وانفجر بقهقهةٍ صاخبة مفسدًا لحظة تألقه، فالتفت نحوه غاضبًا، لم يعلق بشيء.. شخص نحوها، وعاود الحديث، لكنه بدا مفتعلًا؛ إذ إن ملامحها التي كانت متوهجةً قبل صراخه عادت إلى حيادها

قبل بدء الحوار.. تنفس عميقًا، وأسند ظهره إلى جدار الكابينة مسترخيًا مستمتعًا بعودة «عزيز» إلى نقطة الصفر، ومحاولته دون جدوى بث النيران فيها، واصلًا إلى الذروة، حينما بدأت تتململ ولا ترد على ما يقوله، وتتثاءب في محاولة لإنهاء الحديث.

لم يكف عن الكلام بحماس، وبدلًا من الإنصات راحت ترمق «إبراهيم» بعينين ودودتين؛ مما جعله يمتلئ غيظًا. لا يدري ماذا قال لها؛ إذ إنها حملقت به بغضب وهزت رأسها ويديها رافضةً.. كرر جملته متوسلًا حتى كاد يهوي على قدميها.. لكنها ردت بعنف هذه المرة، فخلد صامتًا يحملق في حضنه مكسورًا.

- لم تفدك لغتك وتذللك يا لئيم!.

تلذذ شامتًا بصاحبه الخارج من المعركة مخذولًا، وأغرز ناظريه بوجهها المتبسم.. كانت تنقل نظراتها الذكية بين «إبراهيم» المنتشي وقسمات «عزيز» التي شوهها الفشل.. قالت شيئًا أمحى بغتة الخذلان من وجه «عزيز»، فالتفت نحوه قائلا، وعلى ملامحه دهشة:

- العاهرة .. العاهرة تتدلل علينا!!

- أش لون؟!.

- تريد واحد منا يحكي لها قصة حتى تنام!.

- أحكي لها!.

- ولك أقدر أحكي وأنا كلي صاير عير واقف!.

انفجر «إبراهيم» ضاحكًا من شدة الغيظ بكلمات «عزيز».. هدأ قليلًا، وأنصت إلى صوتها الذي ترخمه، وهي تلح بالكلام متحولة إلى طفلة.

استعاد «عزيز» شيئًا من رواء بشرته التي جفت قبل الطلب، وحدق نحوها بطرف عينيه بطريقة مسرحية، ثم وجه كلامه إلى «إبراهيم»:

- سمعت تلح.. العاهر تريد قصة بدل العير!.

رد «إبراهيم» فورًا:

- زين أقص أنا.. وأنت تترجم!.

تهللت ملامحه للمقترح، وأدار رأسه ناحيتها ليعرضه عليها. أنصتت بعمق، ثم تبسمت وقالت شيئًا بصوت مبتهج، وشخصت بعينين مرحتين، حيث يجلس «إبراهيم» على السرير المقابل.

قال «عزيز»:

- تقول لنبدأ!.

أحاط بهما بعينيه.. حدق طويلًا في الصمت الضاجّ بأزيز عجلات العربة وصفير القطار المتعالي، معلنًا قرب الوصول إلى محطة على الطريق. أمعن في التملي ملتذًّا بعودته إلى المشهد طرفًا رئيسيًّا ينتظران العالم الذي سوف يتخلق من كلماته. غار فيها عميقًا تحت بشرتها.. في أحشائها، في اللب منها، وهو يقلب الحكايات التي يعرفها..

نبَّ «عزيز» فارغ الصبر:

- ما تبدي!.

أشر له واضعا كفه المفتوح أمام شفتيه مطلقًا صوته الهامس:

- أششششششششش!

دون أن تغادر عينيه الحالمتين كتلتها المضيئة.

- ماذا أحكي.. أية حكاية ؟

تساءل مع نفسه واضطربت الحكايات التي يختزنها.. عدد لا يحصى من قصص الطفولة وتجاربها، القصص التي سمعها من الجدات، قصص الحب العنيفة التي عاشها في مراهقته وصباه، قصص بطون الكتب التي عاش مع شخوصها ألذّ الأوقات، اضطربت في صمته في لحظات قبل أن تنط واحدة:

- كان يا ما كان في قديم الزمان ملك من ملوك حي العصري اسمه «مرجان». وكان لديه ولدان.. الكبير اسمه «نعمان» كان بطلًا حكم مملكة حي العصري بالعدل بين العباد وأحبه الناس.. والصغير واسمه «شرهان» ملك حي الجمهوري المملكة المجاورة.

أثناء الترجمة، انخرط «عزيز» بالضحك.. فقال له «إبراهيم»:

- ترجم دون ضحك ولا تعليق!.

كان يضحك لأن الحيّين هما حيّان متجاوران في طرف مدينة الديوانية الجنوبي.

- ولم يزل الأمر مستقيمًا في بلادهما وهما في غاية الفرح والسرور.. إلى أن اشتاق في يوم من الأيام الأخ الكبير إلى أخيه الصغير، فأمر وزيره بالسفر ليحضره، فقال سمعا وطاعة، وسافر حتى وصل بالسلامة بعد شهرين إلى الحي الجمهوري، ودخل على أخيه وبلغه السلام وأخبره أن أخاه مشتاق إليه

ويريد أن يوافيه، فقال «شرهان» سمعا وطاعة، وتجهز، وأخرج خيامه وبغاله وحرسه وخدمه، وأقام وزيره حاكمًا وخرج طالبًا بلاد أخيه.. سار مسافة ساعات فتذكر شيئًا نسيه في القصر، فعاد ودخل القصر.. وجد كل شيء ساكنًا. ومن غرف نومه سمع صوت آهات وزئير.. اقترب على مهل سائرًا على رؤوس أصابعه، ومن فتحة الباب الضيقة رأى زوجته عارية مع عبد أسود من الخدم.. طار عقله وظل كامنًا يحملق متعجبًا في الوقت نفسه بما تبديه زوجته من فنون في الفراش لم يرها منها أبدا.. تلذذ للحظات خاطفة في التلصص على تقلبهما وهذيانها وتقبيلها ومصها لشيء العبد، وقال في نفسه: إذا وقع هذا الأمر وأنا لم أغادر المدينة، فكيف إذا بقيت عند أخي مدة، وانتظر حتى اللحظة التي تعالى فيها صراخهما مالئًا أرجاء القصر، فاقتحم الغرفة سالًّا سيفه، وقتلهما في الفراش، ورجع فورًا إلى قافلته وسار حتى وصل إلى أخيه.

وصمت كي يتيح لـ «عزيز» ترجمة ما قصهُ.

كانت تركز طوال الوقت على قسمات وجهه، وحركة يديه، ونبرة صوته المتناسب حسب المشهد.. خفوته عند التلصص.. علوه عند الاقتحام.. عادية نبرته عند سرد فعلٍ عادي. تأملها «إبراهيم»، وهي تنصت بلهفةٍ إلى «عزيز» متتبعًا الدهشة، وهي تتسع لتكسو ملامحها بعذوبة لا تنسى، فأخذته غبطة مضافة إلى غبطة حلوله بعربة نوم بصحبة سافل وجميلة طوال الليل.. إلى غبطة كونها يهودية.. إلى غبطة الراوي المُوهِم سامعه بواقعية كائناته.. إلى غبطة شعوره بالتحرر من كابوس العائلة.. غبطةٌ

في غبطةٍ في غبطة.. كانت تنقل نظراتها المندهشة بين فم «عزيز» الراوي بالروسية وبينه.. دفع بالكأس المملوءة عازمًا على عدم وضع قطرة ليستمتع كامل المتعة بهذه الليلة، وتابع قسمات وحركات صاحبه المنهمك في الترجمة بكل كيانه، وبصوت مرح استحثه:

- واصل..

- فرح أخوه بقدومه وزين له المدينة، وجلس يتحدث معه بانبساط أول الأمر، ثم تذكر «شرهان» ما كان من أمر زوجته فاغتمّ وشحب لونه ونحل جسمه يوما بعد يوم، فلما رآه أخوه عزا ذلك إلى شوقه لحي الجمهوري، فتركه ولم يسأل عن سبب ذلك. ثم قال له في ذات يوم: يا أخي أنا مجروح، ولم يخبره بما رأى من زوجته.. فقال «نعمان»: لماذا لا تخرج معي إلى الصيد لتروّح عن نفسك قليلًا، فاعتذر، وسافر أخوه وحده إلى الصيد. وكان في القصر شبابيك تطل على بستان أخيه فوقف وجعل ينظر، وإذا بباب القصر يفتح وتخرج منه عشرون جارية وعشرون عبدًا، وامرأة أخيه تتمايل وسطهم فاتنة الجمال، حتى وصلوا إلى فسحة تحت الشباك الذي يكمن خلفه «شرهان». وسط الفسحة نافورة ماء وبركة، فخلعوا ثيابهم.. ربي كما خلقتني، ونزلوا الماء سابحين متضاحكين، ثم خرجوا وإذا بامرأة الملك تنادي: يا «مسعود».. فبرز مقتربًا عبد أسود طويل مفتول العضلات، طول قضيبه نصف ذراع وهو نائم. فسجد لها وقبَّلَ قدميها وصعد حتى وسطها ومكث فيه ضامًّا رأسها وهي تتلوى. بينما انتشر العبيد والجواري اثنين.. اثنين دائرة حول موقع امرأة أخيه و«مسعود».. يضطجعون صارخين لاهثين.. ضج القصر والبستان بالآهات والصراخ.. فوقف «شرهان»

محملقًا بعينين مفتوحتين لاتطرفان.. حتى كاد يرمي نفسه من النافذة، ولم يكبح نفسه إلاّ بعد جهد. لبث يستمتع بالتلصص والعبيد والجواري ما يزالون في بوس وعناق وشد وجذب وصراخ وضحك حتى غياب الشمس.. فلما دخلوا القصر، تمدد على سريره، وقال مع نفسه:

- والله.. بليتي أخف من بلية أخي!.

هان ما عنده من قهر.. زال الغم، فأقبل على الطعام والشراب.

وتوقف عن القص، ليتكئ إلى جدار العربة، منتشيًا بنظراتها التي أصبحت صارخة، قوية، صريحة كلما تقدم «عزيز» في نقل ما حكاه لها.. اللهب القادم من عينيها بدأ يحرقهما كليهما.. فَطَنَ «إبراهيم» إلى أن صاحبه بدأ بالزحف مليًا.. مليًا، مقلصًا المسافة الفاصلة بينه وبينها.. لم تلحظ ذلك إذ كانت طوال الوقت تحملق بـ «إبراهيم»، سواء أكان يقص أم أثناء الترجمة مع نظرات جانبية خاطفة إلى «عزيز»، وهو يترجم بوجهه المتوسل المستثار. ران صمت حال فراغه من الترجمة.. فشخصا نحو «إبراهيم» الشارد النظرات.. المستغرق في متعة خالصة بما يجري هذه اللحظات.. بالأسرّة.. وحديد الجدران والمنضدة الصغيرة.. والنافذة المطلة على حلكة أشد من الفحم.. أنفاس الثلاثة.. وكأنه خارج المشهد.. يتفرج في عتمة صالة في عمق الشاشة المضيئة.. يحملق في تضاريسها المضيئة، وكأنها ملاك يرف بالضوء متمنيًا لو يضيع في اللحظة، فلا تصل العربة أبدًا، بل تبقى جارية على سكتها إلى الأبد.

- يلّله أكمل!.

نبر «عزيز» فأعاده إلى واقعية اللحظة.. تبسم وسأله إلى أين وصلنا، فذكره بإقبال «شرهان» على الطعام والشراب بعد صومٍ.

عاد أخوه من رحلة الصيد فتعجب لما وجدَ أخاه متورد الوجه.. يأكل بشهية، فقال له: يا أخي، كنت مصفر الوجه والآن ردّ إليك لونك فأخبرني بحالك، فقال له: ما غيّر لوني سأخبرك به، وعن رد لوني فاعذرني.. فقال «نعمان» بلهفة: أخبرني أولا بسبب تغير لونك وضعفك، فأخبره بما جرى له مع زوجته، كيف خرج من المدينة وكيف نسى خرزة كان يريد أن يهديها له، وكيف وجدها مع عبده وما فعله بهما خاتمًا قوله: هذا سبب شحوبي وذهاب شهيتي للزاد، أما عن رد لوني فلا أريد ذكره خوفًا عليك. ازداد فضول أخيه وحلف عليه برابطة الدم أن يحكي له.. فأخبره بما رآه، فقال له: أريد أن أرى بعيني!.. فنصحه أخوه بالتسلل عند الخروج في رحلة قنص أخرى إلى القصر والاختفاء عنده، ففعل ذلك؛ إذ عاد متنكرًا إلى القصر وجلس جوار أخيه خلف الشباك. ولم تمض ساعة إلاّ وخرجت الجواري والعبيد وزوجته، فاعلين ما فعلوا في المرة السابقة.. فطار عقله من رأسه، وقال لأخيه: قم لنسافر، ليس لنا حاجة للملك حتى ننظر هل جرى لغيرنا ما جرى لنا.. وإذا لم نجد.. فموتنا أفضل من حياتنا.

سحب «إبراهيم» نفسًا عميقًا.. لاذَ بالصمت.. نبّ «عزيز» ضاحكًا:

- هذا مدخل ألف ليلة وليلة.. مو صحيح؟!

لولا وجود هذه الجنية اليهودية لعفطَ له.. ردَّ بسخرية:

- بعد وقت!.

جعلت تنقل نظراتها المتوهجة بين وجهيهما بسرعة، أثناء حوارهما الذي أنهاه مواصلة «عزيز» في عرض ما سمعه بالروسية.. جرفته رغبة في ارتشاف كأس أخرى.. فملأها وراح يرتشفها على مهلٍ جرعة.. جرعة متفرسًا بقوة في «عزيز» المنهمك في الترجمة.. في حركة يديه.. شفتيه أثناء الكلام.. التسول الصارخ في عينيه.. منتبهًا إلى أنه يطيل وقت القص ضعف ما قَصّهُ بالعربية.. فخمن من خلال فهمه لذهن «عزيز» السوقي.. الذي يعتبر كل النساء عاهرات بالسليقة أنه يوسع مضفيًا أخيلته الفاسقة على الحكاية القادمة، من خبرته في العيش في هذه البقاع.. سيؤكد له ذلك في الصباح التالي، وهما في طريقهما إلى مجمع جامعة «كييڤ».. وكان ذلك يزيد من توهج واحتدام غرائزها.. فتتألق وكأنها تحترق بالنار، فتصبها بعيني «إبراهيم» الراشف كأسه ببطء محسوب.

- «إبراهيم» كمل.. صاحبتنا راح تنزع!.

قالها «عزيز» لاهثًا وهو يحملق في جسد اليهودية، الصارخ من تحت السروال الضيق والقميص الفضفاض، في اضطراب جلستها.. تثني ساقيها وتدليهما.. تضمهما إلى صدرها وتبعدهما.. إنها فعلا متوهجة مستثارة ، قدر «إبراهيم» ذلك.. وخشي أن ينجح اللئيم في تكرار ليلة شقة الوزيرية، عندما أرقه حتى مطلع الفجر الصراخ والآهات الصادرة من فراشهما، حيث كان يضطجع مع العاهرة الناعمة «سندس»، وكانت الأصوات لا تخفت إلاّ لدقائق معدودة هي وقت الاستراحة بين مضاجعتين، وكأنهما عصفوران.

- مع حلول الظلام.. قاما ونزلا السلالم قاصدين بابًا سريًّا يفضي إلى البرية. خرجا منها وسارا طوال الليل والنهار التالي والليل التالي والنهار الذي بعده، متحاشيين القرى وقلاع المدن إلى أن وصلا إلى شجرة وسط حقل عند عين ماء بجانب البحر، فشربا من تلك العين وجلسا يستريحان. فأخذتهما غفوة لم تستمر سوى ساعة، إذ قفزا من نومهما على صوت أشدّ من الرعد.. فنظرا مذهولين نحو البحر، وقد هاج وطلع من باطنه عمود أسود صاعد نحو السماء، يلتف ويلتف متقدمًا نحو المرج والشجرة. تمالكا نفسيهما وأسرعا في تسلق الشجرة.. العالية، واختبأ بين أغصانها الكثيفة المهتزة على عصف الدوامة المقتربة.. جعلا ينظران مرتعدين ماذا سيكون الخبر، وإذا بجني طويل القامة، عريض الهامة، واسع الصدر على رأسه صندوق خرج من البحر وأتى الشجرة.. أنزل الصندوق وجلس في ظلها.. نفخ نفخة كادت تسقطهما من على الأغصان، قبل أن يفتح الصندوق ويدس كفه العظيمة، ليتناول علبة مذهبة مرصعة بالجواهر.. قبلها بشفتيه العظيمتين قبل أن يفتحها.. خرجت منها صبية بهية كأنها الشمس الساطعة.

صمت بغتةً.. ففهم «عزيز» أن دوره قد جاء في الترجمة فشرع فيها، لكن ما أخرس «إبراهيم» هو أمرٌ آخر؛ إذ إنه رأى بها بغتة صبية الحكاية التي ظهرت من صندوق روسيا العظيم لتقف بقامتها الممشوقة وتذهله مع «عزيز»، كما ذهلت تلك «نعمان» و«شرهان» وهما فوق الشجرة.. انتظر ريثما يتم «عزيز» الترجمة ليقول:

- قل لها إنها أحلى من صبية الحكاية!

سـارع «عزيـز» في الترجمـة لاحـسًا شـفتيه، وكأنـه مقبـل عـلى وليمـة، لا يدري ماذا قالت بالروسية إذ إنها صرخت بكلامٍ ما على أثـره انكمـشت ملامح اللئيم ورفض الترجمة مسخفًا الأمـر، متحججًـا بأنـه يعـرف مـزاج العاهرات الروسيات.. لكن «إبراهيم» أيقن من أنه سـلب عقلهـا.. قالـت شيئًا آخر على عجل، جعله يقول:

- تقول لك أكمل الحكاية!.

- فلما نظر إليها الجني قال: يا معشوقتي وسيدة نـساء الإنـس والجـن، أريد أن أنام قليلا، قالت له: سمعا وطاعة. ضع رأسك على فخذي ونـم!. ففعل. وما أن سقط في النوم حتى رفعت رأسـها إلى أعـلى الـشجرة فـرأت الملكين. فرفعت رأس الجني من على فخذها بهدوء ووضعته عـلى الأرض. ونهـضت واقفـةً نـشطةً وقالـت لهـما بالإشـارة: انـزلا ولا تخافـا مـن هـذا العفريت، فقالا لها: بالله عليك سامحينا من هذا الأمر!. فقالـت: إن لم تنـزلا فسوف أوقظه فيقتلكما شر قتلة، فخافا ونزلا مرتعدين فقالت لهـما: أرصـعا رصعا عنيفا وإلا أنبه عليكما العفريت.

علق «عزيز» ضاحكًا:

- ولك أش لون أترجم الرصع!.

- تعصي عليك وأنت من كبار السفلة!

ردَّ «إبراهيم» متابعًا نشوة فريدة تلمّ بوجه السافلين مـن أمثـال صـاحبه عند الإطراء.. وأردف:

- إنها تقصد مضاجعة حارة عنيفة كمضاجعة العراقي!. يعني مثلك لما تهيج وتصير ثور!.

تفرست في «إبراهيم».. ما أن أتم «عزيز» الترجمة تفرست به وبلّتْ بطرف لسانها شفتيها، ثم عضت على السفلى بأسنانها الصغيرة المشعة خطفا:

- هل كانت في غمرة الحالة، أم أن أخيلة «إبراهيم» تضفي على واقعية حضورها وضعًا ليس فيها؟!.

- تقول ليكمل وإلا سوف أجنّ؟!.

خاطبه «عزيز» بقولها مردفًا:

- كمّل!.. ما بقى بِها شي.. جهزتْ!

ومسد شواربه الكثة بسبابته والإبهام، غارزًا عينيه المحمرتين فيها، بينما هي تغرز عينيها المتوهجتين في «إبراهيم» منتظرة بقية الحكاية:

- من خوفهما قال «نعمان» لأخيه «شرهان»: افعل ما أمرتك به، فردّ «شرهان»: أفعل أنت أولًا!.وأخذا يتغامزان على نكاحها.. فقالت لهما: ما لي أراكما تتغامزان.. فإن لم تتقدما وتفعلا نبهت عليكما العفريت!. فمن خوفهما تقدم نعمان ورصعها رصعًا عنيفًا، جعلت تطحن حابسة صراخ لذتها جوار رأس العفريت. وتقدم «شرهان» ليفعل مثل ما فعل أخوه، لكنها أمرته بالنوم على ظهره فلعبت به لعبًا قبل أن تعتليه مفتوحة الفخذين لترفع وسطها وتسقطه، ترفعه وتسقطه بعنف ولوعة.. رصعته رصعًا حتى انطحن تحتها.. كل ذلك والعفريت يغط

في النوم شاخرًا، فلما فرغا حاولا التسلق حيث كانا يختبئان، فقالت لهما : قفا لا تصعدا الشجرة، أريد أن أريكما شيئًا، وأخرجت لهما من جيبها كيسًا مشدودا، فلته ودست كفها الصغيرة فيه لتخرج لهما عقدًا فيه خمسمائة وسبعون خاتمًا، ثم قالت: أتدرون ما هذه؟! فقالا: لا!. فقالت لهما: أصحاب هذه الخواتم كلهم كانوا يفعلون بي في غفلة من هذا العفريت، فأعطياني خاتميكما. أعطياها الخاتمين، فأدخلتهما في العقد ودسته في الكيس، ثم خبأت الكيس في جيبها.. تطلعت فيهما.. كانا مخرسين، مذهولين، يحملقان فيها تارة وفي وجهي بعضيهما أخرى.. ضحكت من قلبها.. وقالت: لم تسألا عن قصتي مع هذا العفريت؟!، تلعثما فسارعت إلى القول: حسنا سأخبركما!.

توقف عن القول منتشيًا من قسماتها وما في عينيها من وهج أرعش حواسه، شكلها المستثار، وهو يتسلل إلى دمه.. سكت ليطيل أمد اللحظة فالحكاية شارفت على النهاية.. سكت ولم يفارق عينيها المخضلتين.. سكت ليتعالى في الصمت لهاثها، ولهاث «عزيز» الزاحف دون وعي نحوها، حتى عاد على مسافة كف منها، أنفاسه المتسارعة، دوي عربات القطار في عمق الليل.. قالت بلهفة شيئًا، دون النظر إلى «عزيز» الذي ترجم فورًا:

- تقول : ليسرعْ!.

خفف الكلام من فوران النفوس والأجساد، فانتبه «عزيز» ساحبًا جسده إلى الخلف قليلا.

- فقالت لهما: هذا العفريت عشقني فاختطفني في ليلة عرسي، وخوفًا عليَّ من العيون.. وضعني في علبة، وجعل العلبة داخل هذا الصندوق الذي ترونه، وقفله بسبعة أقفال، ثم خبأهُ في قاع البحر حتى لا يراني أو يلمسني أو أرى وألمس أحدًا.. وكلما اشتاق إليَّ أخرجني كما هو الحال الآن.. فلتعلما أن المرأة منا إذا أرادت أمرًا فلابد أن تناله!. فلما سمعا منها هذا الكلام تعجبا غاية العجب، وقالا لبعضهما: إذا كان هذا جنيًّا له قدرات خارقة، وجرى له أعظم مما جرى لنا!، فكيف بنا نحن البشر الضعفاء!. ثم أنهما قررا العودة فرجعا فورًا إلى مدينة« نعمان» ودخلا قصره.. نادى على زوجته والجواري والعبيد فرمى أعناقهم جميعًا، وصار «نعمان» كلما يدخل ليلا على بنت باكر يقتلها في الصباح.. واستمر على هذا الأمر سنواتٍ ثلاثا. فضجت الناس وهربت ببناتها، ولم يبق في المدينة بنت فصاروا يبحثون عن النساء في المدن والقرى المجاورة إلى أن تطوعت بنت الوزير؛ لتلهي الملك «نعمان» بحكايات ممتعة، على أمل أن تجعله يؤجل قتلها إلى اليوم التالي.

سكت «إبراهيم» قليلًا قبل أن يضيف بصوت خفتت نبرته:

- ومن هنا بدأت الحكاية!.

لا يدري «إبراهيم» ماذا كانت تقول عنه.. كانت تؤشر صوبه بذراعها العارية البيضاء وهي تصبُّ سيلًا من الكلام، تجاهل «عزيز» ترجمته رغم إلحاحه عليه كي يترجم ولو فكرة عما تقوله، فخمنَ أنها سُحرتْ بالحكاية وبه، مستدلا من ملامح صاحبه، التي أمعنت في اكفهرارها متضايقةً مما كانت تقوله.

- هذا يكفيني يا لئيم!.

هتف «إبراهيم» مع نفسه، مستندًا بظهره إلى جدار العربة، مستمتعًا بوقع أنفاسها المسموع، بلهفة كلماتها، بوجه صاحبه المتضور ألـمًا، وكأنه يُطْعن بسكين. ركَّز عليها، وهي تلح على أمرٍ ما، و«عزيز» يُسوّف متهربًا مما كانت تريده.. إلى أن التفت نحوه قائلا بغيظ:

- القحبة تريد تعرف اسمك!.

- ولماذا لا تقول لها؟!.

تململ برِمًا في مكانه، قبل أن يقول لها بصوت خافت:

- «إبراكيم»!.

أفلتت صرخة مباغتة، وقفزت من مكانها صارخة:

- «إبراكيم» يا إلهي.. يا إلهي..!.

لم يفهم «إبراهيم» سبب صراخها إلاّ لاحقًا. تدخل «عزيز» موجهًا الكلام إليها، ثم التفت نحو «إبراهيم» قائلًا:

- لنتحضر.. هذا وقت النوم!. سيطفئون الضوء!.

لم يكن معنا ملابس نوم.. لا نحتاج سوى أن نستلقي على السرير فقط.. تنحنح مضيفًا:

- اسمع حبيبي راح أحاول آخر مرة، وإذا وافقت.. تطلع من الكابينة!.

- وين أنام!

- تأخذ بطل الفودكا وتوقف بالممر!.

- تريد تسهرني للصبح يا حقير!.

قهقه وربت على ظهر «إبراهيم» مداعبًا، ثم نظر إلى ساعته. شخص «إبراهيم» إلى حيث تجلس فوجدها تنصت متتبعةً الحوار وكأنها تعرف العربية.. تبسّمت له وأدلت ساقيها قائمة لتنتقل إلى السرير الذي يجلس عليه، فنهض بدوره من سريرها لينتقل إلى طرف الطاولة الصغيرة المقابل.. أصبح بمقدوره الآن مراقبة المشهد في لحظاته الأخيرة.. أخرجت من حقيبتها ملاءة بيضاء وفرشتها على السرير..

كان السروال الذي ترتديه أسود منقطًا بدوائر حمراء وبيضاء، شديد الضيق، فتجسمت تضاريس جسدها وهي تنحني وتتمدد بجذعها العلوي، وتنثني جالسة أثناء تعديلها أطراف الملاءة.. وعندما انحنت وهي قائمة برزت مؤخرتها كتلة متراصة قريبة على بعد شبرين منهما، فحدقا بذهول في وجهي بعضيهما وتابعا نحت الردف القائم الظالم إلى أن استقامت بقامتها، والتفت نحوهما محملقة بعينين ملعونتين في الخرس الناحت قسماتهما، فأطلقت ضحكة خاصة جدًا، تميز الأنثى حينما تجد نفسها محط رغبة وتنافس.. وعادت لتستدير.. أمست تقف بوضع جانبي بالنسبة لجلستهما، فبرز خصرها الضيق ومنخفض بطنها الضامر، أثناء انشغالها بترتيب وضع الوسادة.. بادرها «عزيز» بالكلام حال انتصاب قامتها.

- هاهو الحقير سيفاتحها بشكلٍ صريح. وإذا تمكن.. سيجعلني أبات واقفًا أو جالسًا على الممر البارد.. وستصبح الفودكا ماء وأنا أتخيلهما في خضم ضجيج العربات عاريين، مضطجعين مسافة ثلاثة أشبار مني.. لن

أسمع شيئًا، كما كنت أسمع قبل أكثر من عشرين عامًا على سطح مشتمل الوزيرية، أثناء مضاجعته «سندس». سأتضور بغيرتي في الصباح من نشوة ملامحه المنتصرة، وهو يرمقني من تحت عينيه.. يا إلهي.. لا تدع صديقي الحقير ينجح..أرجوك يا إلهي.. دعه يفشل.. يفشل.. يفشل!..

كان يكلم نفسه وهو ينصت للحوار، الذي بدا هادئًا أول الأمر.. ناقلًا نظراته بينهما في محاولة لاستشفاف ما سيؤول إليه الأمر. كلما رأى انفراجًا في ملامحها احتدم غيظًا، وكلما كانت تتجهم وتتكلم بقوة مشددة على مخارج الحروف أطمئن قليلا.. شحذ كل حواسه مركزًا النظر في وجه «عزيز»، الذي بدأ يتوسل بصوت خافت مكسور، فتشوهت قسماته المستجدية.. أوشك على الركوع لتقبيل يديها متأرجحًا على حافة البكاء.. لم يجد «إبراهيم» أمتع من تلك الدقائق الحاسمة، قبيل إطفاء نور الكابينة، وهو يتشفى به:

- كم يبدو الإنسان قبيحًا عند التسول!.

قال مع نفسه.. وأنشأ يتابع بقية الحوار بغبطة بلغت ذروتها، حينما صرخت به:

- نلزا!.

مفردة يعرف معناها : «ممنوع».. قالتها رامحة بقامتها، ثم مدت ذراعها اليمنى عاليًا مؤشرة بسبابتها البارزة من كفها المضمومة نحو السرير، الذي يعلو سرير «إبراهيم»، وقالت شيئًا بكلمات قوية حازمة واضحة لاشت كل

علامات التسول والضعف من وجهه، فعادت قسماته قويةً حانقةً، فالتفت إليه قائلا:

- القحبة ما تقبل!.

وأطلق حسرة طويلة نزلت بردًا وسلّاما على قلب «إبراهيم». أردف:

- بقى عندنا فودكا؟!.

حمل «إبراهيم» القنينة عاليًا، فوجد فيها أكثر من النصف بقليل.. أراها له، فقال:

- اتركها كلها لي .

- ...!.

رمقته بارتياب دون أن يرد، فأضاف:

- أسمع راح أجرها بسرعة حتى أهبد.. وإلا راح أسوي حماقة الليلة!.

وحملق في قسمات «إبراهيم»، الذي بدا أنه لم يفهم بالضبط:

- أنت ما تدري أش كنا نحكي بالروسية!

- ...!.

- ولك هذي قحبة عجيبة مثقفة وذكية!.

ناوله القنينة.. قبضها قائلا:

- الضوء راح ينطفي، طالع للممر!.

تابعه بسرور وهو يخطو بتثاقل، يسحب الباب، يعبر العتبة ليقف بمواجهة زجاج نافذة الممر العريضة المفتوحة على الفضاء المظلم معطيًا ظهره للكابينة.

حلَّ الصمت والسكون على الباب والنافذة والأسرّة وكتلتيهما المرتبكتين في ضيق المكان.. جلست بمواجهته على سريرها.. تحملق نحوه بشدة، وكأنها تبغي الغور فيه. اضطرب في الصمت المتموج على إيقاع العجلة الحديدية.. قاوم بعناء كي يبقى محدقا فيها، فذاب شيء ما في المسافة الفاصلة بينهما.. كاد يطفو منحدرًا نحوها.. تماسك متشبثًا ببعضه، وتلفت إلى النافذة الصغيرة حيث الليل العميق.. إلى باب الكابينة المردود وخلفه «عزيز» يعب من فم القنينة سائلها.. ويحملق في الظلام، متحولا إلى كتلة لا ملامح لها، ملطوشة على سطح حالك السواد.. عاد يحدق فيها فوجدها تبتسم، وتقول شيئًا بعينيها.. برموشها.. بحاجبيها .. بشفتيها.. شيئًا ذكره بصبايا المحلة في أول العشق، وهنّ لا يستطعن التعبير بالكلام فتتحول ملامحهن إلى رسالة غرام.. وفيما كان يتراسل معها بالعيون، أُطفئ مصباح الكابينة الخافت، فحلتّ عتمة خفيفة ينوّر طرفها القريب من الباب مصابيح الممر الباهتة.. رمى بصره نحو كتلة «عزيز»، التي تجسّمت تحت نور الممر وهو يعبّ المزيد من الفودكا.. رجع إليها بعينيه فرأى وجهها الأبيض يضيء قليلا.. قليلا حتى بدا كمصباح في السماء.

- مصباح حي يضيء فقاعة عمري!.

هتف «إبراهيم» مع نفسه متمنيًا أن يبقى في كون هذه اللحظة حتى الفناء، ووجد نفسه يرنم بصوت هامسٍ:

- يا بنت «موسى» حبيب الله!. يا حبيبتي!.

قالت شيئًا بالعبرية بصوت مثل حفيفٍ خفيف.. فهبطت به إلى بابل وآشور وتلك الأمكنة، التي كان يزورها وحيدًا، يصغي في الصمت إلى حجارتها، سامعًا أنفاس ساكنيها وضجيجهم ينبثق من مسام الحجر.. من غور التراب.. طفا إلى السطح فوجدها تبث لهبًا من كتلتها، فتمنى تلك اللحظة لو يقوم إلى صاحبه ويرمي به من نافذة القطار ليصطلي بنارها.. طال التملي واستمرت التمتمة الهامسة بالعربية والعبرية والروسية، فبلغ «إبراهيم» ذروة لذة مختلفة لا يخفت أوارها.. لذة ناعمة تداعب الحواس، وتهز الكيان بغموض الصمت والعيون والكتلتين المشتعلتين المتقابلتين على السريرين.. لذة يحف بها الخوف من العفريت الشامخ خلف الباب، الذي يتوقعان دخوله بين لحظة وأخرى.. وبغتةً سُحِب باب الكابينة بعنف، جعل «إبراهيم» يقفز من مكانه مرعوبًا:

- أش صار؟!.

ردّ «عزيز» بكلمات متلعثمة يمطها مطًّا، فأدرك أنه ثمل جدًّا، تمايل في وقفته وهو يحاول التمسك بحافة السرير العلوي؛ كي يستقيم دون جدوى، فسارع «إبراهيم» باحتضانه مصلبًا جسده المتين حتى يسيطر على كتلته الهشة.. حضنه وخطف نظرة إليها فوجدها مضطربة فزعة، تدس جسدها تحت الغطاء وتهمد.. أعانه في الصعود إلى السرير.. نزع حذاءه

وجواربه.. فيما كان يشتم ببذاءة العاهرات الأوكرانيات واصفًا أعضاءهن الحميمة بكل ما بقاع حي العصري وأهل الشط من سفالة.. هادرًا بصوته الحقيقي الأجش الغليظ الهادر عالي النبرة، الذي كتمه طوال محاولته الخائبة.

عدل الغطاء عليه وظل يهمس في أذنه إلى أن هدأ واستكان.. فخفت صوته شيئًا فشيئا متحولا إلى أنين حزين.. لم يتركه.. ظل واقفًا جواره حتى هدأت أنفاسه.. سحب جسده إلى الخلف قليلا.. توسط فسحة الكابينة الفاصلة بين الأسرّة..تأمل كل شيء.. خفوت جسدها الذي كان قبل لحظات مشتعلا ولا البركان.. شخير صاحبه المختلط بضجيج عجلات القطار.. العتمة السادرة خلف النوافذ.. نافذة الكابينة الصغيرة.. نافذة الممر العريضة.. نافذة عمره العجيب.. نافذة الماضي.. نافذة المجهول الكامن في نهاية الرحلة..

تأمل كل ذلك في لحظة خاطفة، قبل أن يلقي بجسده على سريره، لاعنًا «عزيز»، الذي خرّب أمتع لحظاته الشاردة، وجعل هذه الجميلة المشعة تنطفئ وتخمد مذعورة على سريرها، لافّةً بإحكام البطانية الخفيفة حولها.. أخمدها وخمد:

- اللئيم .. خرب كل شي!..

وألقى الغطاء على رأسه غارقًا في حيز العتمة الضيق، يحملق في سقف البطانية المشدود بين ساقيه ويديه، مثلما كان يفعل في طفولته هاربا من توتر البيت.. هدأ قليلا.. قليلا.. وأنصت بخشوع إلى هدير عجلات القطار..

شخير «عزيز».. لهاث أنفاسه المتخافتة.. شدة سكون جسدها على السرير المقابل.. جرفه حنين مفاجئ إلى زوجته وأطفاله، وتمنى لو يستطيع قصَّ ما جرى له عليها حين يراها مرة أخرى.. لكن كيف سيقص هذه التفاصيل؟!.

هبط أعمق في لحظته الحاضرة وهو تحت الغطاء في عربة، تنهب سهوب جنوب غربي روسيا.. هبط كمطر في حلم.. ليغور في ترابها مستمتعًا بلذة هزيمة صاحبه الممدد فوقه على سريره.. هزيمة ستجعله يسخر منه وينتقم من عذاب ليلة سطح مشتمل الوزيرية.. مستمتعًا بالدخول في غور فقاعة الدنيا.. دون وجلٍ من انفجارها الوشيك.. فها هو ينطلق بسرعة العربة نحو مدينة جديدة وبشر جدد وأمكنة، لم يرها، وإلى جواره ترقد يهودية ساطعة البياض.. ضاجعته بالعيون.. ترقد الآن بجلال جسدها المتماسك الرقيق العنيف في شدة تناغم كتلته.. ترقد حاملة به..

من صرة فقاعة اللحظة، تسرب إلى باطن النوم.. مترسبًا في قيعانه البعيدة فرأى نفسه طفلًا لم يتجاوز العاشرة بعد، يتسلل إلى (سيف) اليهودي الطيب «يوسف قجمان» كل يوم وقت القيلولة.. ليغط حد الخصر في أكداس الحنطة الحمراء، التي تكاد تبلغ سقف السقيفة العالي.. يغط منصتًا إلى صمت الظهيرة وضجة العصافير الهابطة للقط الحبوب.. وفيما هو في الغور ذاك سمع حفيفًا، خفيفًا يقترب من مكان غطسه أعلى الكوم. أشرأب بعنقه نحو الفسحة المشمسة أمام سقيفة الكوم.. فوجد اليهودية البيضاء تقترب حافية عارية تمامًا، يلهث جسدها تحت شمس ظهيرة الديوانية الساطعة، تسلقت إليه ودست جسدها لصقه، وسمعها تهمس:

– «إبراكيم» لوبيمي يا «سارة»..

أصغى لحفيف الكلمات متعجبًا وتلمس بأصابعه البشرة العارية المشتعلة، إنه ليس في حلمٍ.. ظهر كل شيء بجلاء.. ضجيج القطار.. اهتزاز العربة.. شخير «عزيز» المدوي فوق رقدتهما.. وصوتها الهامس بمفردات روسية يعرفها تقول «حبيبي «إبراهيم» أنا «سارة». ظلت تهمس، وهي تنزع عنه ملابسه:

– «إبراكيم» لوبيمي يا.. «سارة»!.

شبَّ في نشوة لا علاقة لها بالذروة العظيمة وقت بلوغ الرعشة.. كأنه يلج جذر التاريخ هابطًا إلى أورشليم وبابل وأشور والقصة كلها.

في الصباح نزلوا من القاطرة.. كانت تتلكأ في مشيتها كي تثير معهم حديثا ما.. كان «عزيز» يبطئ الخطوة عن عمد، محدقًا نحوها بحقد.. كانت تبتسم ملتفتة بين خطوة وأخرى، فتوقف «عزيز» عن عمد قائلا:

– حتى نخلص من هذي العاهرة!.

تبسم «إبراهيم» وتابع جسد اليهودية وهو يغيب رويدا.. رويدًا في زحمة محطة.. لتضيع في قاع أوكرانيا العظيم، تاركة في روح «إبراهيم» لوعة غامضة ستصاحبه كل العمر.

لم يخبر «عزيز» أبدًا عما جرى!.

صالح والأرملة

أطل برأسه من الباب.. دوّرَ عينيه.. حدق في الوجوه بعينين بريئتين.. كان «إبراهيم» يؤرجح ساقيه من سرير «عبد الحسين» رفيقه أيام حرب العصابات وصديقه منذ أيام الجامعة في بغداد، وعدد من الرفاق يتحلقون حوله من الذين بعث بهم الحزب الشيوعي العراقي للدراسة، رغم تجاوزهم سن الثلاثين، ومن الطلبة اليساريين العرب ممن يدرسون في جامعة «كييف»:

- مرحبا شباب.. كيفكم؟!.

وترخص لينفرد بـ «عبد الحسين» في طرف غرفة القسم الداخلي القريبة من الباب، ويتهامس معه.. كان أثناء الكلام والإنصات يرميه بنظرات ودودة، وعلى طرف فمه بسمة خفيفة. بسمة أمسكت بـ «إبراهيم» وجذبته بشدة.. فجعل يتملى فيه منتظرا.. وجه أسمر مدور مليء، كتفان عريضتان، يظهر أن صاحبهما مارس رياضة كمال الأجسام.. ذراعان متينتان قويتان وقامة متوسطة الطول.. اهتز «إبراهيم» وكاد يذهب إلى حيث يقف ويعانقه، لكنه تماسك مثبتًا قدميه في مكانهما:

- ما الذي جرى لي؟!.

سأل نفسه في اللحظة نفسها، التي أقبل فيها مقتربًا مادًّا ذراعه وفاتحًا كفه المتينة؛ ليحتوي كف «إبراهيم» ويضغطها بقوة قائلًا بصوت جهوري قوي:

- أهلا بالشجاع.. العراقية رجال ولا كل الرجال!.

فقدر «إبراهيم» أنه سمع عن الضجة التي قامت بدخوله أجواء الطلبة اليساريين في الجامعة، وأثارته عشرات الحوارات في الغرف ونوادي الطلبة والبارات والشقق عما يجري في العالم من تحولات.. كان ما يثير دهشة أولئك الطلبة الثوريين بما يطرحه من أفكار تنبذ العنف والكفاح المسلح، وتعده جريمة تساوي جريمة قمع الشعب من قبل الديكتاتور؛ هم الذين تصوروه «جيفارا» معاصرًا، خرج لتوه من معركة طويلة خاسرة في كردستان العراق، فكانوا يستنكرون ما يطرحه، موردين شواهد من كتب «لينين» في الدولة والثورة، ومذكرات «جيفارا» وما شابه ذلك، تؤكد شرعية النضال المسلح.. فكان ينهد في ضحكة عاصفةٍ، ويؤكد لهم أنه لم يكن يؤمن بما يوردونه من شواهد فحسب، بل كان يعتبر متطرفًا يدعو إلى النضال المسلح زمن تحالف الشيوعيين والبعثيين في سبعينيات عراق القرن العشرين، وأعتقل عدة مرات بسبب تصريحاته في المقاهي والجامعة.. وكان يشبع شتمًا وضربًا.. عُلِّق في المراوح السقفية وصعق بالكهرباء.. لكن في نهاية الأمر، كانوا يطلقون سراحه لعدم علاقته بتنظيم ما.. التحق مبتهجًا حال قيام الحركة المسلحة في نهاية السبعينيات في الجبال..

لكن بعد تلك السنوات الصعبة كره كل ما يمت إلى السيطرة بقوة السلاح بصلة.. فكانوا يتساءلون عما رأى وخَبَرَ هنالك. فيسرد لهم تفاصيل حالات التعذيب والإعدام التي أصابت الأعداء والرفاق والأبرياء من سكان المناطق التي يسيطر عليها الثوار نتيجة الشك والريبة حتى بلغت القتل تحت التعذيب لرفاق ولأبرياء مشتبه بهم.. هذا بالإضافة إلى قتل الجنود الأبرياء بالكمائن. وكان يضيف متسائلا: رغم أن تلك العمليات محدودة مقارنة بما تفعله سلطة الدكتاتور «صدام».. لكن لو نفترض أن هذه القوى لديها السلطة فكيف ستكون النتيجة؟.. وينعطف مذكرًا بحماس الثوار وتضحياتهم.. لكن كل ذلك يبدو بلا معنى حين نمارس فعل قتل البشر. كان يختم الكلام قائلا:

- أن تدعو إلى النضال المسلح شيء، وأن تمارسه فعلاً وتقتل بيدك شيء آخر تماما!.

وفي الأمسية التي أقاموها له في صالة شقة واسعة، قرأ عليهم قصتين عن حرب العصابات: واحدة عن مقاتل ثوري متحمس يكتشف بغتة أنه تورط في قضية قتل أبرياء، فيقوم بالتسلل إلى نبع ماء يبعد عن القاعدة نصف كيلومتر جنوبا ليطلق رصاصة في فمه. فيهب المقاتلون إلى النبع ليجدوه سابحًا في دمه المتدفق من الرأس، وإلى جواره ورقة رسم عليها رأس إنسان، تخترقه رصاصة من مسدس مدسوس فوهته في جوف الفم لتخرج من قمته وردة كبيرة.

تسهب القصة في رصد سلوك قادة المقاتلين، كيف أخفوا قضية انتحاره على بقية المقاتلين، وكيف كلفوا صديقًا له بدفنه سرًّا في مكان ما بمقبرة

مهجورة في الغابة المجاورة.. لكن مع ذلك أقدم رفيق آخر على الانتحار وسط القاعدة، فوق سقف قاعة كبيرة بإطلاق رصاصة في جوف فمه أي الطريقة بنفسها. والمقاتل المنتحر الثاني متوسط السن تركماني، لديه زوجة في الاتحاد السوفييتي، بعدما يئس من موافقة الحزب على مغادرته كردستان والعودة إلى عائلته.

وعندما سألوه عن مدى واقعية هذه الأحداث التي اعتبروها غريبة، أجاب: إنها حدثت فعلا في مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي بأحد وديان سلسلة جبال «متين»، يسمى «هصبة» خلف قصبة «بامرني»، والمنتحر عربي من مدينة الثورة في بغداد، واسمه الحركي «محمد»، أما الثاني فتركماني ويدعى «أبو غائب».

أما القصة الأخرى، فهي عن عودة مقاتلين من عملية عسكرية، وهم يحملون رفيقًا أصيب فيها. يفصل الراوي بضمير المتكلم كيف حمل رفيقه الجريح النازف على ظهره، طوال أكثر من عشرة كيلومترات استغرقت طوال الليل، وكان الجريح ينزف بغزارة فيسيح دمه مبللا بدلته حتى ملأ الحذاء. تسهب القصة في رصد مشاعره والدم غمر قدميه، وفاض من حواف الحذاء مصدرًا مع كل خطوة صوتا غريبا في الصمت المحشود بحفيف الأردية واحتكاكها بالبنادق. وفي جامع أول قرية في سفح الجبل، حصلوا على بغل وحملوه إلى قرية أمينة في أعلى الجبل. وضعوه في زاوية الجامع.. يستلقي الراوي جوار الجثة.. وبين النوم واليقظة يشعر بأحد المقاتلين، يعبر جسده، ويقرفص جوار قدمي القتيل فرفع رأسه قليلا ليرى ما يفعله. على ضوء الفانوس الضعيف وجده يجرد الجثة من حذائها الجديد

ويلبسها آخر، ويعود ليرقد في مكانه.. لاحظ عند الفجر بقدمي القتيل حذاءً قديما يعود لرفيق يعرفه.. لكنه لم يستطع البوح لأحد بذلك!.

بعدما أتم القراءة، جرى حوار عاصف.. أتعبه.. هُوجم من قبل رفاق الجبل الذين عابوا عليه تركيزه على كل ما هو سلبي في التجربة، ناسيًا المقاتلين الشجعان مقتحمي الربايا، والمتسللين إلى المدن ليلا، والذين خاضوا أشرس المعارك.. فعلق قائلا: إنه يجد في الشخصية المؤدلجة بعدًا واحدًا؛ مما يجعلها فاقدة ذلك التناقض الإنساني الأصيل في الشخصية البشرية.. وما لمسه في هؤلاء من طيبة وصدق ممزوجين بسطحية، تقربهم من تكوين الشخصية العشائرية، فتراهم يتحولون إلى أعداء حالما تقول مثلا لم أعد مقتنعًا بالكفاح المسلح، أو تطلب من الحزب أن يسمحوا لك بعبور الحدود.. ويضيف: هذا ما رأيته بنفسي، لم يحدث لي فأنا بقيت إلى نهاية التجربة، ولكنه جرى مع رفاق آخرين احتُقروا.. وأُهينوا.. ولم يساعدوهم للوصول إلى الحدود الإيرانية.. فاضطروا إلى البقاء في القواعد ينتظرون أشهرًا، لا بل إن بعضهم قضى سنين أو قتل في قصف الطائرات، ويورد العديد من أسماء هؤلاء فيرتبكون ويسلمون بصحة ما يقول.. أثارت تلك الأمسية المزيد من النقاشات المحتدمة أصلا على أصوات الرافعات، وهي تهد نصب «لينين» الضخم في ساحات العاصمة الأوكرانية.

سيدخل في حوارات عويصة مع فلسطينيين متحجري الأذهان، يعيدون ما كان يقرأه هو في أول توله باليسار والقضية الفلسطينية في مجلتي (الهدف) و (الحرية) من مطولات «نايف حواتمة» و«جورج حبش»

الحماسية الرَّنانة.. وقتها كان ابن السادسة عشرة أوائل السبعينيات.. بعد ما يقارب العشرين عامًا حيث كل شيء تغيّر في العالم، يجد طلبة جامعة جاوزوا العشرين يحفظون العبارات نفسها.. لا يسمعون الآخر.. مشغولين بها في أذهانهم.. يتصنعون الإنصات، ولكن عند الكلام تجدهم في وادٍ آخر، يرددون ما حفظوه من عبارات جاهزة.. من دونها يستحيل على منظماتهم الاستمرار..

يروى أحدهم بحماس كيف أنشدوا الأناشيد الثورية في المعتقل.. حينما دكَّ «صدام حسين» البطل إسرائيل بالصواريخ عام1991. وجد أن الحوار معهم وكأنك تحاول المرور من خلال جدار أصم، فكان يتركهم إلى غرفة واسعة في قسم داخلي، يسكن فيها منذ حلوله في «كييف» تعود لعرب إسرائيل من الطلبة المتمكنين والذين استأجروا بصحبة عشيقاتهم شققًا وثيرة.. يلجأ شاعرًا بالدوار من هذا الجو الفوّار ليختلي بنفسه، ولكنهم كانوا يقرعون الباب في أي ساعة من الليل، حاملين الفودكا والويسكي والعرق والأكل والمازات ليشربوا ويتحاوروا.

هذا الصباح فكر في الذهاب لزيارة صديقه «عبد الحسين»؛ كي يأخذه إلى مكان ما بعيد وحدهما، حتى يهدأ قليلا ويستطيع التفكير فيما يجري.. ففي خضم هذا الجو الفوار المتأجج نسى تمامًا.. لم هو هنا؟ وإلى متى سيبقى؟ وماذا تخبئ له الأيام القادمة؟ وكيف سيعود إلى موسكو؟.. نقوده تكاد تنفد، دون وثائق تثبت من يكون!. لكنه وجد غرفة «عبد الحسين» مكتظة أيضًا

بعدد آخر من رفاق الجبل. فجلس معهم يستذكرون طرائف أيام كردستان ومخاطرها، حينما دخل هذا الكائن الممتلئ المفتول الذي يحضنه مرددًا:

- هله بالعراقية هله!.

انفصل ساحبًا جسده عنه قليلا ليقول:

- اسمي «صالح»، إسرائيلي من عرب 1984!.

- «إبراهيم»، عراقي من الجنوب!.

- راجع بعد دقيقتين!..

بدوا وكأنهما يعرف الواحد منهما الآخر منذ زمن طويل؛ إذ ردّ «إبراهيم» بكل جد:

- انتظرك!.

تابعه بعينين مسرورتين، وهو يستدير متجهًا نحو الباب نصف الموارب، يضرب أرض الغرفة بقدميه القويتين، فاردًا ذراعيه مثل أشقياء حي العصري، وكأنه يسعى لعراك ما.. لم يلتفت أثناء خروجه.. أنصت حتى تلاشت خطواته الهابطة على سلم البناية المجاور للغرفة.

- منين تعرف «صالح»؟

- أش بِه!

- أكبر فوضوي!

علق «عبد الحسين» ضاحكًا، قبل أن يستدرك مستذكرًا أيام الجامعة في بغداد، حينما كان «إبراهيم» يأخذه مباشرة بعد اجتماع حزبي في مقهى منزوٍ؛

ليتصعلكا في البـارات والمـواخير والملاهـي وبيـوت وغـرف الحيدرخانـة، والبتاوين، بعد تخلصهم من رفاق الخلية:

- هيْ هيْ إش لون اثنين التقوا!

وضحك بصخب هذه المرة، وفيما كان يغرق في ضحكته إذا بـ «صالح» يدفع الباب بعنف، ويتجه مباشرة صـوب «إبـراهيم» مـادًّا ذراعـه اليمنـى قائلا:

- هيا!.

وأطبق بكفه على كف «إبراهيم».. سحبه مبتسمًا بطرف عينيه.. أسلم قياده، ومشى بخطواتٍ اتسقت مع خطواتـه العنيفـة، وخلفهـما يـصرخ «عبد الحسين» ضاحكًا:

- «صالح» وين تريد بيِه؟!.

لم يرد أو يلتفت.. رفع ذراعه الأخرى وراح يـؤشر بَرِمًـا بـضم قبـضته وفتحها، كأنه يدفع بهم بعيدًا عن «إبراهيم»، الذي بـدا منقـادًا كالـسائر في نومه.. طوال الطريـق مـن بنايـة القـسم الـداخلي إلى موقـف الحافلـة لـزم الصمت، لم يسأل عن وجهتهما، بل اكتفى بالتحديق في وجه «صالح» الذي تحول - ما أن أصبحا وحيدين - شديد البراءة ، ترسم بسمة طفـل مـسرور قسماته، يرمقه جانبا بين الحـين والحـين أثنـاء شرحـه لخطتـه، ذاكـرًا أرقـام حافلات وأسماء محطات مترو وشوارع وبارات ومطاعم.. أمكنة لا يعـرف عنهـا شـيئًا، فمنـذ وصـوله إلى «كييف» لم يغـادر المدينـة الجامعيـة، والتـي يكتشف لتوه أنها بعيدة عن مركز العاصـمة.. فتتـسع بـسمته، ويهـزّ رأسـه

موافقًا على ما يقوله «صالح».. سارحًا بعيدًا.. بعيدًا إلى مراهقته العنيفة في الديوانية المغلقة.

ولشدة ما واجه من قمع لكل ما كان يبديه من أفكار وآراء وسلوك.. وجد نفسه محاصرًا، يُنظر إليه شزرًا في البيت والمدرسة والمقهى. كان لا يقيم لتلك النظرات وزنًا، بل تطرف.. دخن باكرًا وشرب العرق باكرًا.. وكان يبدي رأيه عاريًا دون خشية ولا وجل. إلى أن أحس في يوم أنه منبوذ، وحيد ، فهرع إلى رفيق طفولة كان يعاني المشاعر نفسها.. فاشتريا قنينة عرق وتسللا في المساء إلى محطة المدينة.. شربا وشتما الكل.. وفكرا في الهرب إلى أي مكان آخر غير الديوانية.. كانا يسيران بين شريطي السكة الحديديين.. ومن عمق الظلام والسكون، تعالى عويل القطار النازل من بغداد.. تبين عندما اقترب من المحطة أنه قطار حمولة.. توقف دقائق في محطة الديوانية الخاوية.. فقال «إبراهيم» لصاحبه:

- لنهرب!.

- لكن إلى أين؟!

- لا أدري!.

ووجدا نفسيهما يركضان لحظة تحرك العربات، ليتسلقا عربة الحمل.. جلسا صامتين يحملقان في الظلام، في أضواء القرى البعيدة، في المحطات المهجورة.. وكان لتلك المغامرة طعمٌ لا ينسى.. نزلا في السماوة ليعودا في اليوم التالي إلى الديوانية، على ظهر عربة مكشوفة لقطار حمل صاعد من البصرة؛ لأنهما لا يملكان أجرة الرجوع.. هاهو يركب المترو.. يجلس جوار شخص لا يعرف عنه شيئًا.. يريد به إلى أمكنة مجهولة..

أمسكت به غبطة مركبة هي مزيج من غبطة مغامرة الصبا تلك وهذه المنتظرة، بعد أكثر من عشرين عامًا.. يتطلع بعينين حالمتين إلى كل ما حوله، وجوه الصبايا الأوكرانيات الفاتنة الصاعدات والمترجلات في المحطات، التي يتوقف فيها المترو، النوافذ المظلمة والعربة تنهب باطن الأرض.. وجه «صالح» المعكوس في زجاج النافذة، وجوه الركاب في الظلال، فخامة باحات المحطات المكسوة بالرخام بسقوفها العالية وجدرانها المحفورة بشعار المطرقة والمنجل ورأس «لينين» و«ماركس» و«إنجلس»:

- لولا سفرها مع الأطفال، لما رأيت هذه الأمكنة ولا بشرها!.

تبسم بنشوة ليضيف مع نفسه:

- ولما عشت هذه الأحداث التي كنت أقرأ عنها في الروايات!.

توقف المترو في محطة.. قال «صالح»:

- هيا بنا!.

ترجلا من عربة المترو، فأصبحا في باحة واسعة شديدة الإضاءة يتوسطها نصب نصفي، موضوع على حامل رخامي لـ «لينين».. أشار «صالح» نحوه معلقًا:

- شوف معلمنا المسكين حزين بيعرف .. راح ينقلع!.

صعدا السلّم الكهربائي إلى باحة أخرى فسيحة ومكتظة.. توجها نحو بوابة عالية عظيمة بخشبها الصاج المتين، والتي يحتاج المرء عند فتحها إلى الدفع بكل جسده.. أفضت بهما إلى شارع واسع وحدائق صغيرة في وسطه وواسعة إلى جانبيه.. الحدائق المنسقة تتوسط أبنية قديمة الطراز، مزخرفة

الواجهات بنصب وتماثيل منحوتة في حافات جدرانها وعلى زواياها العلوية.

- «إبراهيم» صرنا بالمركز!.

ورفع ذراعه مؤشرًا نحو بناية مقابلة قائلًا:

- ذاك المطعم.. سنقضي يومنا فيه!.

- ..

- هذا إذا عجبك الجو!.

كان «إبراهيم» مستسلمًا مستمتعًا بكل ما هو فيه.. فكل شي ذو طعم جديد.. فيه متعة بغض النظر عن محتواه.. هذا «الصالح» لا يحكي لحد تلك اللحظة إلا عن الشرب والسهر والعاهرات ويطزطز بالدنيا بين جملة وأخرى، رابتًا على ظهر «إبراهيم» بكفه المتينة.. لكنها تبظ حنانًا لم يحس به مع «عزيز» رفيق الطفولة والمراهقة والشباب وحرب العصابات.. حنانٌ لا يبغي مقابلًا بل يريد النفاذ من روح مثقلة به، تجد صدًّا من المحيط.. حدس «إبراهيم» بذلك من أصابع «صالح»، التي تلامس أصابعه عند نزولهما سلالم النفق المؤدي إلى الجانب الآخر من الشارع.. أصابع حميمة، وكأنها أصابع أمه أو أخيه الذي ضاع في الأقبية إلى الأبد..

أصابع تشبك أصابعه وتضغط برقة وحنان يربك الحواس.. ذكره بحاله في المرات التي يجد فيه نفسه وحيدًا مغضوبًا عليه من أقرب الناس إليه.. خمن «إبراهيم» أن «صالح» يعيش محنة ما.. محنة سوف تتكشف رويدا.. رويدا في

بحر ذلك اليوم، الذي سيصبح فريدًا في عمر «إبراهيم».. فريدًا، وهو يدلف في عالم رواية غير مكتوبة.

كانت الساعة لا تتجاوز الحادية عشرة صباحًا، حينما دلفا من باب ضخم عريض دفعاه بعناء ليجدا نفسيهما في مدخل عالي السقف عريض مكسوة جدرانه وأرضيته وسقفه بالرخام.. كان «صالح» يخطو أمامه بمشيته النشطة منتصب القامة، كأنه مقبل على معركة.. ولجا من خلال بابٍ يسار المدخل.. قاعة بارٍ فخمة، تلتف حول منضدة البائع الدائرية.. كانَ البار فارغًا إلا من العمال المنهمكين في ترتيب أواني الزهور وقناني النبيذ الأحمر والورق الملون الشفاف على الطاولات المغطاة بشراشف مطرزة بالورد.. بدا أن البار فتح قبل قليل.. توجه «صالح» إلى طاولة صغيرة منزوية في ركن البار البعيد، يطل الجالس منها على فسحة خضراء وبحيرة بيضاوية متجمدة وخلفها تمتد غابة كثيفة.. جلسا على كرسيين وثيرين.. عدل «إبراهيم» موقعهما، بحيث أصبحت النافذة والغابة والبحيرة خلفية لوجه «صالح»، الذي أشار إلى النادل، وهو يوجه كلامه إلى «إبراهيم» دون أن ينظر إليه:

- نبدأ بالبيرة ما؟

- بكيفك...

بار فارغ، غابة خضراء، بحيرة متجمدة، سقف عالٍ، مكان لا يعرف عنه شيئًا في مدينة لا يعرفها، وإسرائيلي من عرب 1948 لا يعرف عنه شيئًا أيضًا، وأيام لا يدري إلى أين ستفضي به؟.. أهناك روعة أكثر من هذا؟!. ردَّد

بصمت وعيناه، تبحر في قسمات «صالح» القاسية حينما يكلم النادل.. البريئة الودودة حينما تشخص نحوه.

- يا زلمة حكى لي «عبد الحسين» كل شي عنك!.

قال ذلك وملأ الكأسين بالبيرة، ثم أضاف:

- هذولة المخانثة اللي شفتهم هون بـ «كييف»، الفلسطينية الثورية كلهم كذابين.. طبول فارغة يثرثرون كل يوم عن النضال والثورية، وهم ينهشون بعضهم البعض .. سفلة.. شوف كل واحد من عرب إسرائيل يدرس هون، حاله أحسن من كل العرب عدا عرب الخليج.. وحتى الجولانيين صار حالهم أحسن بعد الاحتلال. لا يغرك حكي جماعة «حبش» و«حواتمة» و«عرفات» الفارغ.. الناس في الجولان وضعهم صار فوق من مزارع التفاح.. ولو يعملوا تصويت حر وحقيقي عن العودة إلى سوريا، سوف يصوت بـ (لا) أكثر من تسعين بالمية منهم!.

- ..!

لم يجد رغبة في التعليق، كان ينتظر المزيد من الكلام كي يقع على تكوين وأفكار «صالح» الثائر الهادر بصوته القوي وسط سكون الغابة والسماء الملبدة بغيوم بيضاء.. هو الآخر تعب من سطحية الفكر الثوري الفلسطيني المشبوب بالعواطف والأحلام.. والمتركب من سلسلة ردود أفعال غير متعقلة..

كان طوال فترة وجوده في الجبل يختبر قناعته القديمة خجلا من مشاعر الحماس والفرح، التي كانت تأخذ بكيانه كلما سمع بخطف طائرة أو سفينة

أو احتجاز رهائن وخطف.. وما شابه ذلك، التي كانت تقوم بها الجبهات الفلسطينية في أوائل السبعينيات، يطل على نفسه في الفترة تلك فيستنكر جهلها وهو يتأمل الوضع البشري البائس لعشرات العراقيين من أبناء جلدته، وهم يقعون أسرى في الكمائن ويؤتى بهم أذلاء إلى قواعد الثوار، حتى أنه صادف في يوم ما على نهر «الزاب الأعلى» في وادي زيوة شخصا من أبناء مدينته الديوانية، يعرفه وهو يسير في طابور، يقوده حراس مسلحون من جماعة «البرزاني».. يأخذونهم صوب السفح والغابة لقطع الحطب سُخرةً، وكأنهم عبيد من القرون الوسطى.. فاستأذن منهم وبادله الكلام.

كان يعرفه منذ الطفولة؛ حيث كانت أمه تجلبه كي يحلق في محل «حمدي» الحلاق المجاور لدكان عمه «خليل» الحلاق. ولم يكن له أي نشاط سياسي أو اجتماعي في المدينة.. أُسِر من ربيئة حيث كان يقضي خدمة الاحتياط.. زاره مع رفيق من مدينته يدعى «شاكر»، وسعيا لإطلاق سراحه دون جدوى، وسمع أنه ظل مع الجنود العراقيين الأسرى في السجن حتى «الأنفال»؛ حيث جرى التخلص منهم برميهم بالرصاص قبل الانسحاب نحو الحدود التركية.

- «إبراهيم» هل تتصورني ضد الفلسطينية؟!.

- ...

- اسمع : نشأت بعائلة فقيرة في قرية من قرى «حيفا».. أجدادي تشبثوا بقطعة أرضهم.. ما باعوها ولا هربوا.. كافحوا من أجل البقاء وبقوا.. أبي كان شيوعيًّا، ومنه تعلمت كل شيء السياسة والنضال على

السماع والحكايات ما أحب القراءة. الواحد يضيع الوقت مع كلمات لا تزيد ولا تنقص.. كنت أحب الرياضة .. رفع الحديد.. ربيت جسمي، ولما صرت بالثانوية كسبوني للشبيبة الشيوعية، ومن خلالها صرت مرافق المعلم «أميل حبيبي» الكاتب من جماعتكم المثقفين.. أتنقل معه إلى كل مكان يذهب إليه.. مشدود كل الوقت خاف أحد يعتدي عليه.

وكنت أسمع كل ما يدور من حوارات وكلام مع كل اللي يلتقي معهم. ومن يومها لعبت نفسي.. قرفت يا زلمة.. قرفت من السياسة والسياسيين.. كلهم كذابون يتآمرون على بعضهم البعض.. أغرب أنواع الشتائم سمعتها منهم. فكرهت الثقافة إنوب.. ثقافة وسياسة يا زلمة هذول القرف نفسه..

كنت أتظاهر بقراءة كتب «لينين» و«ماركس».. ولكن الحقيقة كنت لا أفهم كلمة منها.. وبعد صفحتين.. أدوخ ويصيبني الملل.. تخرجت من الثانوية فأرسلوني إلى هنا أكمل دراستي.. صار لي سبع سنين هون.. وشفت بعينك وضع الناس هنا.. جوع وشحاذة وعهر.. رشوة وفساد وقرف.. مساكين.. الشعوب هذي مسكينة.. ناسها طيبة.. أعيش مع روسية منذ أربع سنوات ومنها عرفت كل شي.. عدالة ما في بهذا العالم ما في يا زلمة.. فطززززززززز.. الطرب والكأس والفرْج هما الحياة والباقي هيك.. هيك!.

وشهر الوسطى من أصابعه ، رافعًا ذراعه إلى الأعلى بحركة سريعة وانفعال عنيف صلّب كتلة وجهه:

- وهذا بفرج الدنيا!.

أبحر «إبراهيم» في «صالح» الطالع من عمق إطار النافذة القديمة، من تعقيد زخرفة حوافها البارزة.. من كثافة الغابة.. من بحيرة الثلج.. من سماء الغيوم البيضاء الخفيضة.. «صالح».. قاربه في هذه اللحظة الضائعة.. انحدر فيه هابطًا إلى حافة وجوه أحبائه القدامى.. صعاليك الديوانية وماجنيها، الذين كان ينجذب نحوهم انجذابا شديدا، فيسكر معهم في الليالي على شاطئ النهر، في القصبة، الخانات، الدكاكين، الزوايا... البساتين.. وبيوتهم الرثة.. حدادون، نجارون، مصورو فوتوغراف، بائعو حلويات، خياطون، عمال مسحوقون.. منهم المتزوج، ومنهم من لم يستطع الزواج وبناء أسرة أو تزوج وفشل ، فأدمن الخمرة والحبوب فنبذه الجميع، فتوحد بالسكر مع أمثاله ، واجدًا به ملاذا ومستقرا..

«سعدي» المصور، «شاكر منصور» - ميم - ، «العبدو» السكران، «صاحب سلام»، «حمدي» المصور، «حنتوش سلام»، «حمود الخياط»، «فاهم» الحلاق، «جبار أبو شوارب»، «خضير» المعلم، «عمار عبد الحسين»، «معروف» عازف الجوق الموسيقي في الفرقة الأولى، «فاروق» الأعور، «نبيل» الأحول، «فيصل» القصاب، «حسين عطشة»، «رحيم العگيلي»، «غانم جودة»، «كزار حنتوش»، «علي الشباني»، «قاسم لفتة»، «حيدر الشباني».. ينصت إلى قصصهم منفعلًا، كل واحد منهم رواية عنيفة مكتظة بالمآسي والأحزان والفرح.. وجدوا به صديقًا حميمًا يفهمهم ويدرك ما بهم من عذاب.. أسروا إليه بذلك في السكر، وهم ينفجرون بكاء بعد عنف ، يشبه ما قام به «صالح» قبل لحظات.

أنصت إلى «صالح»، وهو يحدثهُ عـن الحيـاة هنـا في كيبف، وهنالـك في إسرائيل عن النساء والخمرة.. عن هذا المكان الـذي هـم فيـه الآن.. كيـف سـيتحول عنـد المـساء في الـصالة المقابلـة إلى مطعـم ومـسرح، يعـج بالأوكرانيات الجميلات، اللواتي يسعين إلى العثور على أجنبي مـن أمثـالهم لقضاء ليلة في الفراش أو عشيق.. عن السهولة التي يجدها المرء في التعـرف عليهن.. ويـستدير بالحـديث عـما عانـاه مـن رفاقـه الطلبـة مـن شـيوعيي إسرائيل، فلسطيني الأرض المحتلة، فلسطيني الشتات، من صدٍّ حتى أنهـم لا يبادلونه حديثًا وكأنه غريب.

- خصوصا من أعطوك الغرفة التي تـسكنها.. أصـحاب «عزيـز» مـن دروز الجولان!.

لا يدري «إبراهيم» كم قنينة شربا؛ فالنادل يضع القنـاني المليئـة ويحمـل الفارغة.. كان مثل مخدرٍ ينتقل بين الإصغاء والاسـتغراق في تأمـل المكـان، الذي يسرح بـه نحـو بـاب أحلامـه الـشاردة فيـضيع فيهـا إلى أن عـاد إلى الطاولة، وكأنه حلّ من سفرٍ طويل فوجـد بيـاض النافـذة خافتًـا، والغابـة خلف رأس «صالح» تدكن قلـيلا.. قلـيلا.. عـاود الإصـغاء إلى «صـالح» المنغمر في الروْي عن عالمه المحشود بـالعنف.. ضرب ودمـاء، صراخ وألم، عن رغبته في المشاجرة في كل وقتٍ.. رغبة وجد نفسه ينـساق خلفهـا منـذ الطفولة:

- لا أدري ربي خلقني هيك أحـب الـضرب، فكنـت كـل يـوم أمـا أن أَضرِب أو أُضرَب!.

- ...

- هو قريني إذن!.

قال «إبراهيم» في نفسه مستعيدًا ذلك العنف، الذي وسم طفولته في الحي العصري؛ «إذ يضطرك رفاق طفولتك إلى ذلك وإلا نعتوك بالجبن، فتصبح بعد ذلك كائنا محتقرًا، الكل يستطيع إهانتك دون أن تستطيع الرد أو تلزم بيتك طوال الوقت».. ذاك ما دفعه إلى خوض مشاجرات، لم تكن من أجل شيء سوى إثبات الذات.. كونه قويا.. لكنه عند النضج سيهجر كل ذلك، ويصبح مسالمًا يعامل الكل بشجن.. لم يرغب في سؤال «صالح» عن علة اندفاعه نحو الشجار.. سوف يرتبك ولا يجيب أو ينظر إليه بريبة، فهو حساس جدًّا بسبب عزلته عن أبناء جلدته ورفاقه من الشيوعيين الإسرائيليين والعرب.. لكن «إبراهيم» أراد أن يسأل عن وضعه؛ إذ شهد عدة مرات عراكًا بين مجموعات من الشباب الروس في موسكو قرب أكشاك البيرة والفل.. يتقاتلون بوحشية لا مثيل لها حتى لدى الحيوانات القوية..

ففي العراق مثلا عندما يسقط الخصم أو يستسلم.. ينسحب القوي، لكن الشباب الروس لا يقيمون اعتبارا للمستسلم، بل تزيد وتيرة الضرب.. شهد ذلك عدة مرات حينما انهال بالركل مجموعة شباب على واحدٍ قاوم وسقط.. ظلوا يرفسون.. ويرفسون على الرأس والبطن والظهر، رغم خموده وغياب وعيه.. كاد يندفع في المرة الأولى كي يحمي الهامد تحت الأقدام ، فأمسك به «عزيز» صارخًا:

- وين.. هذوله وحوش سيتركونه ويضربونك!.

سأله:

- وهنا هل دخلت في عراك؟!.

- مرة واحدة وتبت.. سقطت وغبت عن الوعي، ولما أفقت وجدت نفسي في المستشفى!.

بدا وكأن جرحا قديمًا نُكئ.. أسود وجهه من الحقد. لَمّ قبضته الضخمة وطعن الهواء، ثم عاودته السكينة ليضيف:

- هنا أولاد عاهرة.. حيوانات مفترسة لا تعرف الرحمة!.

هبط المساء.. واكتظ البار بالنسوة والرجال والضجيج.. طلب من «صالح» تبادل الكراسي، كي يطل على الرواد. وجد الأمكنة مشغولة.. عشاق يتهامسون على طاولات منزوية.. رجال ونساء يتحدثون بأصوات عالية، نساء وحيدات يتفرسن في وجوه الرواد. صخب أليف.. وبسهولة تامة ينتقل أحدهم إلى الطاولة المجاورة وبالعكس.. ظن أول الأمر أنهم يعرفون بعضهم البعض، لكن «صالح» أخبره أن هذه الشعوب اجتماعية جدًّا تحب الكلام حد الثرثرة.. ما أيسر الوقت وألذه بصحبة «صالح»؛ إذ إن «إبراهيم» لم يشعر بالنهار وهو يمضي.. أراد أن يعرف متى يعودان إلى المدينة الجامعية، فانفجر «صالح» بضحكة صاخبة قائلا:

- يا مدينة حبيبي.. حجزت طاولة في قاعة المطعم المقابل!.

- كانت مقفلة عند دخولنا!

- تفتح عند الثامنة حتى الفجر!.. يعني لما نتعب نرجع! ما؟!

هزّ رأسه موافقًا، وقال في نفسه:

- يبدو أن القصة في أولها!.

كانا أول رواد قاعة المطعم الواسعة التي يتوسط جهتها اليمنى فسحة خشبية مدورة، تشكل مسرحًا ترتفع قليلا ويحيط بجانبها الأيمن كراسي، وحوامل وضعت عليها آلات موسيقية.. بعد فترة وجيزة، امتلأت ولم تبق طاولة فارغة.. كان النادل لا يكف عن الذهاب والمجيء، حاملًا أنواع الصحون المليئة: أسماك وأرز وخضراوات متنوعة وزيتون وأنواع من الخبز، وقنينة نبيذ أبيض.. فتحها وراح يملأ كأسيهما، ويضعهما في المكان المخصص.. كان صالح يجلس منتشيًا فخورًا متكبرًا ، مندمجًا بروح المكان الفاخر وكأنه أمير، يتناول طعامه بصمت، ويرتشف من كأسه رشفات قليلة..

وما أن فرغ من الأكل، حتى نادى على النادل وشاوره، فجاء بعد دقيقة بقنينة فودكا وقدحين صغيرين ملأهما أيضا.. ارتشف قدحه جرعة واحدة.. لم يفتح موضوعًا، بل أنشأ يحدق بالحضور ، ويرمي «إبراهيم» بين الفينة والفينة بنظرة خاطفة.. كان كمن ينتظر شيئا ما سيحدث.

وفعلًا، ظهر من خلف ستارة رجال ونساء جلسوا إلى آلاتهم الموسيقية، وبدأوا عزفا أطرب الحضور؛ فقام عدد من الرجال والنساء، وراحوا يرقصون في الفسحة الخشبية الواسعة على أضواء المطعم، التي خفتت وتلونت مضفية على المكان غلالة.. وكأن المرء في حلم أو في عالم غير واقعي.. هش.. ناعم.. زلق.. سيضيع منك عند الصحو أو عند الخروج

من المكان.. عالم لم يشهد مثله «إبـراهيم» سـوى مـرة وحيـدة، حيـنما أخـذه جندي فوضوي تعرّف عليه في مدرسة قتـال بمعـسكر الحبانيـة إلى ملهـى في بغداد؛ ليقضيا ليلة لا تنسى وسط العاهرات من كل صـنفٍ ولـون.. اللـواتي كن شبه عاريات يتجولن بين موائـد الـزوار ، عـسى ولعـل يـدعوهن أحـد للجلوس كي يفتح زجاجة ويسكي أو ما شابه..

كان وصاحبه قد تحايلا للدخول دون دفعٍ، ممثلـين دورا جعـل البـواب يخاف منهما، إذ أنهما بالكاد دبرا أجرة النزول والسكرة في بار «سرجون» على «أبو نواس».. وقتها أواخـر عـام 1975كـان راتـب الجنـدي خمـسة دنـانير وربع.. استعاد «إبـراهيم» تلـك الـذكرى بتفاصـيلها، وهـو يجلـس جـوار «صالح» متأملا المكان، الذي يبدو مختلفًا عن ذلك الملهى البغدادي المجاور لسينما «بابل».. هنا المناخ تظهر عليـه النظافـة أو يبـدو هكـذا، فلـيس ثمـة عاهرات فلبينيات يعملن بالمكان.. ولا سماسرة يعرضون بضاعتهم الآدمية على الزبائن..

عالم تتفرج عليه وكأنك تشاهد فيلمًا حيًّـا.. عـالم يعـشق فيـه «إبـراهيم» لحظاته المليئة بالوهم وبالضدّ تماما من لحظـات الواقـع الـصلبة.. أتيـا عـلى قنينة الفودكا الأولى، فطلب «صالح» الثانية:

- «صالح» كافي راح نسكر!.

- شو نسكر يا زلمة.. شو!.

صرخ بعنف!. وأضاف:

- شوف هذولة اللي فلق رأسنا الحزب بهم!

وصمت.. لم يفهم «إبراهيم» شيئًا، فسأله:

- عمن تحكي؟!.

رفع ذراعه وشمل الحضور بإشارته قائلا:

- .. شوف ماني عامل فيهم!.

وهب من كرسيه واقفًا.. أربد وأرعد.. قال بالروسية شيئًا وتضرجت قسماته ، محتقنة، ثم استدار وضرب بقدميه القويتين الأرضية الخشبية بعنف.. تابع كتلته المدبرة المتلوية بين الطاولات حتى وصولها إلى حافة خشبة المسرح المضاءة بنور أحمر قوي.. صعد سلالمها الثلاث قاطعًا الفسحة الحمراء الفارغة، واختفى خلف الستارة التي طلع من طرفها الموسيقيون؛ ليظهر بعد دقيقة مقبلًا بخطى هادئة وملامح مبتهجة، على شفتيه بسمة عريضة، وفي مشيته شموخ، وكأنه عاد منتصرًا من معركة ما جرت في الدقيقة التي غابها خلف الستارة..

ملأ كأسه قبل أن يلقي بجسده على الكرسي.. لم يسأله عما فعله، إذ بدا أنه ينتظر شيئًا يوشك أن يقع.. وفعلا بعد دقيقتين ظهر مقدم البرنامج وبيده الميكرفون؛ ليقول شيئًا بالروسية ذاكرًا اسم «صالح»، ثم أشار إلى حيث يجلسان. فنهض «صالح» لينحني للحضور الذي صفق بحرارة، وبدأت الفرقة بالعزف لحنًا راقصًا تختلط فيه الأصوات.. أجراس وطبول، كمان وقيثار، بيانو وعود. مزيج عجيب فريد وكأنه يحوي التاريخ كله. شعر

«إبـراهيم» بـذلك واسـترخى بجسده مـادًّا سـاقيه؛ ليـستمتع بهـذا اللحـن الغريب.. لكنه اعتدل بجلسته، و«صالح» ينتصب واقفًا متـوترًا ليـصرخ بـه بالعربية:

- شفت.. العيون كلها صارت علينه!.

- ..

- مقطوعة إسرائيلية مشهورة!.

- ..

- جميلـة ..، لكـن الرفـاق!! الـلي دايـر مـا دايرنـه شـوف كيـف راح يتصرفون!.

- ..

- يخربون على إسرائيل!.

- ...

- وكلهم يحلمون بالهجرة إليها!.

تذكر «إبراهيم» الجموع المكتظة في مطار موسكو لحظة نزوله، وجـواب الرفيق، الذي كان ينتظرهم في المطار عن سؤال عمن يكونون فقال:

- يهود روس ينتظرون السفر إلى إسرائيل!.

سيعرف لاحقا لم كانت إجراءات المطار خفيفة جدًّا، أتاحت للعـراقيين الذين كانوا يتوجهون إلى اسـكندناڤيا والغـرب العبـور إلى تلـك الـدول..

نفض رأسه ليطرد هذه المشاغل المعبأة بالأيديولوجيا؛ فهبط من جديد مترسبًا في لحظة تأملٍ عارية.. فهو يرى «صالح» المربد الغاضب، وكأنه «أنكيدو» بكل بدائية حواسه، ينهل من العاهرة المقدسة، فتهرب منه حيوانات البرية، ويبقى وحيدًا غاضبًا هائجًا لا يدري ممّن! ..

وبالمقابل، يجد نفسه منجذبًا لمقطوعة يهودية آسرة أخذته إلى أمكنة قديمة جدًّا .. أفياء بيوت خربة، آفاق مفتوحة لسماوات زرقاء لاهثة الشمس، يركض فيه فرحًا نحو ساقية بستان، وتعطف منحدرًا إلى حافة تلك الأيام أوائل السبعينيات في العراق، حينما كان غضًّا طريا في كل شيء.. الجسد والذهن والتجربة..

كيف تحول إلى كائن يكره اليهود، خالطًا بينهم وبين الصهيونية.. إلى حد لم يتصور بأن لليهود أغاني أو مقطوعاتٍ لحنية!. أعمته النصوص الثورية التي كانت تهاجم الثقافة اليهودية وكل ما يمت إليها بصلة.. محولة كل اليهود إلى صهاينة دون تمييز، زارعةً كراهية لم يجدها مثلا لدى «صالح»، الذي يعيش وسطهم منذ ولادته..

شعر بذلك الآن، وهو يكتشف لأول مرة بأن لليهود غناءً جميلًا، يستدعي الإنصات والتأمل والرقص؛ إذ على إيقاعه قام أزواج من الرجال والنساء ليرقصوا بين الموائد، وعلى فسحة المسرح المرتفعة المضاءة؛ مما أضفى على الجو مزيدًا من البهجة، جعلت «صالح» يصرخ، مثل وحشٍ كاسر، ويعب الكأس تلو الكأس، ويقوم قبيل انتهاء المعزوفة ليطلب أخرى، وينتصب حال إذاعة اسمه بالميكرفون من قبل المقدم، يحيي الحضور برأسه ويديه.

وفي المرة الأخيرة، قال المقدم شيئًا جعل الجمهور يصفق عدة دقائق، ليقوم «صالح» إلى خشبة المسرح حاملًا قنينة فودكا غير مفتوحة طلبها للتو.. وقف في المركز تمامًا.. ساد صمت كثيف.. رفع القنينة وحطها على أم رأسه معدلا من كتلته؛ كي تقف مستقرة.. ثوانٍ، ونجح، فباعد ذراعه مجنحًا بهما إلى الجانبين كأنه طائر يوشك على التحليق.

أفرد سبابته بحركة بطيئة حافظت على ثبات القنينة، فبدأت الفرقة بالعزف لحنًا راقصا.. تعمق الصمت ، وكأن المكان خال والعيون تسمرت عليه.. بدأ يرقص برأس ساكن محركًا جسده من الرقبة حتى القدمين.. يتمايل على إيقاع المعزوفة البطيء برشاقة، بدت عجيبة لا تتناسب مع جسده الممتلئ الضخم ومنكبيه العريضين.. لاحق «إبراهيم» من جلسته حركة جسده وملامحه المندمجة في اللحن والمتوترة، فأقل اهتزاز أو حركة للرأس ستسقط القنينة.. الرأس تحول إلى صخرة، تقف راسخة فوق موج جسده المنساب مع اللحن بتناغم واتساق.. جاب المسرح طولًا وعرضًا. فتعالت هنا وهناك صيحات إعجاب.

قامت امرأتان وسارتا مقتربتين من الفسحة المضاءة.. انحنتا عند حافة المسرح ، وحدقتا من تحت للتأكد من أن القنينة غير ملصوقة بشعر رأسه الأسود الكثيف.. نهضت إحداهن، وصعدت السلالم الثلاث إلى خشبة المسرح، وخطت مقتربة منه حتى أصبحت على مسافة متر منه.. ارتبك خطوه فأبتدأ يفقد التركيز.. تمايل.. مادت قامته، فخطا خطوات واسعة إلى اليمين وإلى الشمال إلى الأمام وإلى الخلف؛ في محاولة للتوازن من جديد، بينما القنينة التي كانت تبدو كالملصوقة بدأت بالاهتزاز ، وسط صيحات الرواد المذهولين.

كان «إبراهيم» مغتبطًا للعرض المفاجئ، لصيحات الحضور، لقسمات «صالح» المجاهد كي يبقى القنينة، وهو يحملق متابعًا حركة جسده الذي مال ميلًا شديدًا إلى اليسار لموازنة القنينة دون جدوى.. تابع القنينة الهاوية حتى لحظة ارتطامها بالخشب لتنكسر شظايا وينتشر سائلها الأبيض على خشب المسرح؛ مما جعل الحضور يهب بتصفيقٍ عاصف، غطى تمامًا على صراخ صالح وهو مقبلٌ يدفع بكفه في الهواء إلى الخلف مستنكرًا التصفيق. جلس حانقًا وانهد بخرطوش من الفشار الفلسطيني المرتب على «الساقطة»، التي أفقدته التركيز بدنوها الشديد منه.

ما جرى بعد ذلك المشهد يبدو لـ «إبراهيم» مغلفًا بالضباب والضجيج واللذة؛ إذ أحاط بهما عدد من النساء يحملقن بـ«صالح» ويبادلنه الحديث.. كان لا يفهم إلا قليلا من الكلام الدائر.. مفردات داخل الجمل مما جعله يسرح ويعب المزيد من الكؤوس ويهزّ برأسه موافقًا، كلما وجهت إحداهن الكلام إليه.. وقليلًا قليلًا تضبب كل شيء.

* * *

استيقظ «إبراهيم».. فوجد نفسه عاريًا على فراش وثير، وإلى جانبه امرأة عارية تماما تغط في غفوة عميقة.. فرك عينيه ودوّرهما في أرجاء غرفة النوم الصغيرة.. لم يستوعب ما هو فيه، كأنه في باطن حلم، فالمكان لايعرفه، السرير ليس سريره، رائحة الغرفة وستائر النافذة لم يشمها من قبل.. والمرأة المغطاة بغطاء خفيف والمتكورة مثل جنين ، لا يعرفها.. أطبق

أجفانه مرخيا قفا رأسه إلى مسند السرير. حاول أول الأمر معرفة أين هو الآن، في أي بقعة من العالم؟.. لكنه كان في تشوش ذهني تام.. لعن الخمرة.. ذلك يحدث له كلما شرب أكثر من قدرته.. فتح عينيه ببطء.. بدت الأشياء حوله أكثر وضوحًا في النور الأزرق الخفيف، الذي لا يعرف مصدره، والنور الباهت المتسرب من حافتي ستارة النافذة الجانبيتين.

لصق السرير من جهتها، منضدة بعلو السرير عليها مسند صغير، يسند إطار صورة شاب يرتدي بزة عسكرية، يحدق نحو «إبراهيم» بعينين قويتين. على الجدار المقابل للسرير، وفي متوسط المسافة بين حافته والفتحة المسدلة بقصب ملون، يطل نفس الشاب بزي مدني على السرير وأشياء الغرفة ، والمرأة وإبراهيم العاريين محملقًا بعينين واسعتين وبسمة خفيفة على طرفهما وطرف شفتيه..

نزل من السرير بحذر شديد.. وجد ملابسه متناثرة، ومختلطة بملابسها على البساط المغطي أرض الغرفة.. فرز ملابسه ولبسها متحاشيًا إثارة أي ضجيج يوقظ النائمة.. أنصت مرتبكا لحفيف البنطلون، عند احتكاكه ببشرة ساقيه، فذكره بذلك الحفيف الخفيف في ليل الجبل، في قاعة بقاعدة للثوار، في باحة مسجد جامع في قرى كردستان النائية، عندما كان يرتدي معطفه ويتسلل إلى نقطة الحراسة وقت نوبته.

الخشية نفسها ، لكن إلى أين أريد الآن؟!. تساءل مقتربًا من النافذة يحمل قدميه الحافيتين خطوة.. خطوة مثل لصٍّ محترفٍ حتى بلغ حافتها.. أزاح الستارة قليلًا.. استلقت تحته المدينة واسعة مغسولة بضوء الفجر

الشاحب وبدا من بعيد نهرها يتلوى مخترقًا جسدها مـن أعـلاه إلى أسـفله. وخلف المدينة في البعيد، امتدت سهوب شاسعة حتـى الأفـق.. مـدّ رأسـه قليلا ونظر نحو الأسـفل؛ فـرأى في البعيـد عـلى الأرض حـدائق مفتوحـة وملاهي أطفال.

- كأنني معلق بالسماء.

هتف مع نفسه، والتفت نحوها.. لم تزل متكـورة سـاكنة عـلى وضـعها نفسه.. فرك عينيه.. احتوى رأسه براحتيه.. لبث دقيقة يحاول فقـط معرفـة كيفية وصوله إلى هذه الشقة وما هذه المدينة الواسعة.. دون جدوى.. كـأن كل ما مضى مُسِحَ.. إذ وجد باب الأمس مقفولًا.

- أنا في حلمٍ إذن!.

لم يبق لديه غير هذا التفسير، فطالما حلم بأمكنة مجهولة يجد نفسه ضـائعا فيها.. منذ طفولته وصباه حتى أنه ظل يتـذكر تلـك الأحـلام ، وكأنـه زار أمكنتها حقًّا، وكان يروي لمن حوله عن ذلك.

- من المؤكد أنني سأصحو بعد حين!.

قال ذلك، وتلمس جسده متحققًا.

- لا.. هذا ليس حلمًا!.

أحس بالشاخص من الجدار يلاحق خطوه.. أراد أن يختلي بنفـسه؛ علّـه يتذكر ما أدى به إلى هنا؛ ففكر في الخروج من خـلال بـاب مفتـوح مغطـى بالقصب الملون المتدلي إلى صالة، تبدو من خلال ثغـرات الـشرائط كبـيرةً..

مشى صوبها.. عَبَرَ القائم في الحائط متحاشيًا النظر إلى عينيه القويتين.. توقف جوار الفتحة المستطيلة.

مدَّ ذراعه وأزاح صف القصب المتدلي فأصدر صوتًا.. ولج منه ولم يحرر حزمة القصب مرة واحدة، بل أفلت ضفائرها واحدة.. واحدة فطقطقت مهتزةً.. سكن جوارها منصتًا.. لم يصدر من جهة السرير أي صوت.. شمل الصالة بنظرة.. وجدها واسعة في وسطها أريكتان، تشكلان زاوية قائمة، الجالس عليهما يقابل التلفاز الموضوع على منضدة بمستوى النظر.. قطع المسافة بخطوات حذرة وهبط دون صوت على الأريكة الجلدية.

من وسط الجدار المقابل لجلسته أطل عليه نفس الشاب.. لكن بملابس صيفية وعينين مرحتين في صورة التُقطت تحت شمس ظهيرة.. انتقل فورا إلى الأريكة المجاورة، فأصبح بمواجهة الباب الخارجي، وبالقرب منه رأى حذاءه الرياضي مقلوبًا فردة قربها والأخرى على بعد مترين، فقدر أنه نزعهما على عجل وبصخب عند دخوله.

- لكن متى كان ذلك؟!.

همس مع نفسه.. هذه أول مرة يصل إلى هذه الحالة.. يجد نفسه لا يتذكر شيئا، وهو ليس في حلمٍ، بل في صحوٍ يجلس على أريكة صالة مرتبة يتسلل من نافذتها العريضة ضوء الفجر.. وهناك خلف باب القصب امرأة عارية، مازالت رائحة جسدها عالقة به يشمها مع كل نفسٍ. وبغتة لمع كل شيء.. فتذكر «صالح» والبار والرقص، والنساء اللواتي تجمَّعن حول طاولتهما، لكن عند نقطة ما من جلسة الأمس يضيع كل شيء:

- إذن أنا في شقة واحدة من أولئك النساء!.. هذا ما لاشك فيه. لكن أين «صالح»؟!. وكيف سأعود إلى المدينة الجامعية.. وأنا لا أعرف طريق العودة؟!. كيف سأتفاهم معها عندما تستيقظ؟!.. كيف أجعلها تفهم وضعي؟!. وأنا لا أعرف من الروسية إلا صباح الخير.. كيف حالك.. مفردات متفرقة!.

شاردًا، مهموما، حائرًا على الأريكة.. دلف به الهم إلى ماضيه الدامي العنيف، فتذكر زوجته التي يحبها بشدة، وطفليه اللذين تحولا إلى خاطر، يخطف في مثل هذه الحالات، حينما يجد نفسه غارقًا في أسئلة لا جواب لها.. أحس بوحشة من سقط في بئرٍ عميقة مهجورة ، في مكان ناءٍ غير مسكون.

- ماذا دهاك يا هذا؟!.

نبَّ من داخله صوت، هو مزيج من صوت «شيركو» الكردي و«أسعد» التكريتي وصوته القديم، قبل أن يحب المرأة التي تزوجها؛ ظانًّا أنه وقع في الفردوس.. صوت قوي يبعث في النفس الحيوية، ويسري في الدم منشطًا كل الحواس.

- ألقِ عنك الوجوم والحيرة.. فما العمر إلا لحظة مارقة.. أنت فيها الآن تجلس علَى أريكة في شقة مجهولة.. أليس هذا ما كان مناك أم نسيت؟!. كم رغبت في صباك ومراهقتك الهرب من العائلة، مدينتك، المدرسة.. كم مرة؟!.. ها أنت حقا في مدينة غريبة.. مع امرأة غريبة لا تفهم لغتها، تعود بك إلى طفولة الإنسان.. حيث ستتعامل معها بالإشارة ، فماذا تريد بعدُ أبلغَ من هذا العمق، الذي وضعتك فيه الصدف..

القدر رحمك فحياتك العنيفة الصلبة الجافة التي قضيتها بين المعتقل والخوف وجبهات القتال، سواء كجندي أو ثائر تجد خضرتها هنا في زوايا روسيا، التي أحببتها كل عمرك.. من أشعار بوشكين، وروايات «ديستويفسكي» و«تولستوي» وقصص «تشيخوف».. وكتابات «تروتسكي» و«لينين».. و«بلخانوف» وكتبهم التي كنت تقرؤها بشغف.. ولاحقًا قصص الأنصار في الحرب العالمية الثانية عن تضحيات أولئك البشر المنسيين، ثم «حمزاتوف» و«إتميـاتوف».. و«بولغاكوف» صاحب المعلم و«مارغيتا»، التي أذهلتك حينما قرأتها قبل شهرين في شقة موسكو.. أنك من هذا المنظور أسعد إنسان.. فمفهوم السعادة نسبي.. وبالنسبة لك أنت في القمة ، و«شاكر ميم» المصور الزنجي وضعك في رحم الفقاعة، فلا تبتئس يا صاحبي، وكن جديرا بهذا الجوف الدافئ الخاطف الممتع!.

أنعشه الصوت، فرفع رأسه متمليًا أشياء الشقة الغريبة بعيون مختلفة.. هدأ تمامًا فتمدد على الأريكة واضعا رأسه على مسندها وركّز على نقطة في السقف أدكن لونًا من الطلاء البني.

- سيموت «عزيز» من الغيظ لو عَلِمَ بهذه القصة!.

وتبسّم منتشيًا بخيال اللحظة التي سوف يحكي له عما جرى.

- لكن من قال لك إنك سوف ترى «عزيز» مرة أخرى؟!.

نبَّ صوت آخر داخله، جعله ينتصب بجذعه الأعلى ساقطًا في قلقٍ مباغت لم يستمر طويلا؛ إذ انتبه إلى صوت خطى يأتي من غرفة النوم، ثم

أنامل ناعمة تزيح شرائط القصب المتدلي، ومن وسط خشخشة شرائط القصب ظهرت مرتدية ثوب نوم أحمر شفافًا، وقالت باسمة:

- دِو بروي ئوترا.

يعني صباح الخير.. رد بالمثل بصوت مرتبك.. قالت شيئًا واستدارت نحو مدخل، يستطيع من خلاله أن يلمح بابا مفتوحا على المطبخ، لكنها لم تدخله، بل سمع صرير باب آخر يفتح في الممر نفسه ، وما لبث أن تعالي صوت دش الماء.. تأمل صوتها ذا الرنين الخفيف، شديد النعومة وقسماتها المتسقة ناعمة التقاطيع، وجسدها المتين الذي يبدو شديد الإثارة بضخامة كتلته الممتلئة المتناسقة، في تناقض محير مع الوجه البريء. أنصت لوشيش الماء متخيلًا جسدها عاريًا مغمورًا بالصابون، وراحتيها منهمكتين في المرور في مناحيه.. لبث يتخيل ذلك مستثارًا وكأنه لم يكن معها في الفراش عاريا طوال ليل البارحة.. تمنى لو تقدم عند خروجها من الحمام على مضاجعته من جديد، فهو لا يتذكر هل تضاجعا ليل البارحة أم لا؟!. تمدد من جديد حالمًا.. وتشاغل في محاولة لتقدير عمرها.. خمن واضعا أرقامًا ينقضها بعد إمعانٍ في شكلها وطراوة بشرتها، فيقدرها تارة بالخامسة والعشرين، وتارة بالثلاثين.. وفيما هو في غبطة السارح، وجد نفسه يصرخ شاكرًا «شاكر ميم» صاحب الفقاعة بصوت علا على صوت الدش:

- أنا في جوفها يا صحبتي!.

انقطع صوت الماء.. خرجت ملفوفة بالمناشف.. أقبلت نحوه. لم يعرف كيف يقول لها: نعيما، كما يفعل في العراق مع أبناء جلدته عند

خروجهم من الحمام.. لم تقبل عليه كما تخيَّلَ، بل قالت شيئًا في الروسية.. كانت تكلمه وكأنه يعرف الروسية.. توجهت شطر غرفة النوم.. كان يرغب في اللحاق بها ونزع المنشف عن جسدها والغور فيه، لكن جدية ملامحها صدته. بقى على جلسته.. عادت بعد دقائق مرتدية ملابس الخروج، وجلست على الأريكة المجاورة ..قالت شيئًا ونهضت لتتوجه نحو المطبخ.. ما حَيَّرَ «إبراهيم» حيادها في التعامل، وكأنها لم تكن عارية معه في السرير ليلة الأمس.. أشارت له عندما رجعت كي يستحم فصغر لأمرها ودخل الحمام.. عندما أتم غسل جسده ولبس، وجدها قد هيأت منضدة الفطور.. بيض مسلوق، بيض عيون بالدهن، شرائح جبن ولحم خنزير، صحن خضر وقناني حليب.. تناول «إبراهيم» فطوره على مهلٍ.. كانت تتكلم طوال الوقت، دون أن يفهم شيئًا. وتنظر إلى ساعة الحائط وساعتها اليدوية وتطلق حسرةً؛ لتنهمر في حديث ينصت له «إبراهيم» بكل حواسه، فيبدو وكأنه يفهم كل ما تقول.. وهو في حقيقة الأمر بدأ يفهم روح الموضوع لا تفاصيله.. هكذا ظن أو تخيل، فراح يتصرف معها على هذا الأساس.

خمن أن لديها موعدًا مع «صالح» كي يأخذه.. لكنه لم يجئ.. بعد الفطور جلست جواره.. بدت مهمومة حزينة تحدثه بالروسية، وتشير بذراعها بين الحين والحين نحو الكائن القائم خلف الزجاج المؤطر والطالّ من الجدار بمرح عينيه المحدقتين بعنفوان.. حدثته طويلًا.. عرف أن اسمه «دمتري» إذ كانت تردد الاسم مرات عدة أثناء حديثها المنفعل.. من المؤكد أنها تحكي عنه.. فراح يتخيل قصتها معه، مختلقا أحداثها المحتملة.. متتبعًا انفعالاتها

ونبرة صوتها الحزين.. كانت تصل إلى حافة النحيب، فتكاد تختنق قبل أن تنغمر فيه. فيهرع من مكان جلسته ويحوى بصدره العريض وجهها الناحب المتكسر حزنا.. لا يعرف بالتحديد ما يوجعها.. لكنه حدس أن حزنها شديد الصلة بالشاخص من إطار الصورة المعلقة في غرفة النوم والصالة:

- هل هو أخوها أم زوجها الذي هجرها، هل هو مسافر، ميت، قتيل، تجنن، غرق، انتحر.. هل.. وهل.. كيف لي أن أعرف؟!.

- من المؤكد أنها تحكي بالروسية عن مصيره التراجيدي!.

أجاب من سؤاله بنفسه.

بعد شاي الصباح بساعتين، قالت شيئًا ، فهم منه أن عليه أن يقوم ليلبس ملابس الخروج فانصاع.. أخذت بيده وخرجا من الشقة ليهبطا بالمصعد إلى الشارع.. كانت السماء صافية فاقعة الزرقة والشمس باهتة والبرد قارسًا.. تأبطت ذراعه، فأحس بجنبها الساخن يَنبضُ في مسامه عبر كثافة معطفيهما الثقيلين.. نزلا على سلالمٍ مضاءة شديدة الانحدار، أفضت إلى قاعات واسعة تضج بالحركة وضجيج قاطرات المترو.. ساحا في محطات وأمكنة بدت له مثل حلم يلمسه بأصابعه.. وكانت تقول وتشرح عن الأمكنة وما حولها.. ورويدًا.. رويدًا أحس أنه يفهم ما تقول واقعًا على روح الموضوع.. وكان ذلك حقيقيًّا وليس تخمينًا؛ إذ وجد نفسه يغور في دنياها مثلما شرعت تغور في دنياه، والنهار يوشك على الانقضاء ، وهما يدوران بين المحلات الكبيرة والشوارع والمتاحف المتناثرة التي سيظل يتذكرها ، مثل حلم خطف وحفر مشاهده في الروح.

وقبل هبوط المساء.. ولجت به بوابة كنيسة هائلة الباحة، عالية السقف، قديمة الطراز تقع قرب الجامعة الحمراء، وهي بناية مطلية جدرانها بلون أحمر فاقع، تجثو على مرتفعٍ، أشار نحوها «عزيز» معلقا في اليوم الأول لوصوله.. كانت نصف معتمة لا يضيء فضاءَها الواسع، سوى شموع الزوار المصلين المنهمكين بإيقاد أصابع الشمع، ووضعها على أوانٍ نحاسية، ثُبِّتت على أعمدة رخام موزعة بأرجاء الباحة بين صفوف الكراسي..

كانت الكنيسة مكتظة، وعند العتبة الخشبية العالية أفلتت ذراعه فتأرجح على حافة الفراغ، وهو يتابعها تشق طريقها بصعوبة كي تصل إلى الصبية الجميلة الواقفة جوار ضلفة البوابة تبيع الشمع.. ناضل كي يحتفظ بموضع قدمه في زحمة الداخلين والخارجين، وعيناه تلاحق كتلتها تندس بعناء بين الأجساد المتكاتفة.. آناء ذلك كان يستمتع بجوف الفقاعة.. بهذه اللحظة التي من المستحيل عليه تخيلها قبل أيام.. فأن يكون بصحبة امرأة غريبة، في مدينة غريبة دونها ، يضيع تماما ذاك ما لم يعتقد به إلا في الحكايات والروايات.. أو فيما عاش فيه بأخيلة يقظته وأحلامه منذ الصبا..

كان يتشبث بمكانه على العتبة؛ كي تجده عند عودتها.. وكان يستمتع واجدًا في ذلك النضال متعة لا مثيل لها.. طلعت من الحشد حاملة ثلاث شموع بيضاء لتشبك كفه بكفها الحرة، وتقوده نحو إحدى الصواني النحاسية الدائرية الواسعة. ناولته إصبعًا وفهم من كلامها أنها تطلب منه أن يشعله بنفسه ففعل.. ووقف جوارها بوضع المصلي المتعبد المسكين.. كانت تقول شيئًا بملامح خاشية متضرعة .. كان يتمتم بما يجعلها تطمئن

فيما كان ذهنه مشغولًا، مذهولًا بالوضع البشري للروس وغيرهم ممن كـان تحت وطأة مدينة «لينين» الفاضلة.. يتمتم وكأنه عبد المسيح.. كما كان يفعل جوار شباك الإمـام «عـلي بـن أبي طالـب» المـذهَّب في النجـف.. الحـرارة والصدق والخشوع نفسه.. لكنه هنا وفي هـذه اللحظـة الفريـدة الـضائعة.. وفي عمق مدينة الفضيلة الموهومة، كان يفكر بخواء فكرة إفراغ الإنسان من فكرة الدين والإيمان بما وراء الواقع والكون.. فطوال أكثر من سبعين عامًـا من النظام الاشتراكي الملحد الصارم، اعتقد رجـال الدولـة فيـه أن الـدين أصبح مجرد فولكلور، هاهو يعود قويًّا جارفًا ملتهبًا بأصابع الشمع المـضيء باحة الكنيسة الواسعة..

كان يردد دعاءَه الخاص، محملقا بوجـه المـسيح البـاكي ومتماهيـا فيـه.. فيها.. في وجوه زوار الكنيسة.. بلذة الضياع في مدينة لا يعرف منها سـوى أسماء، «صالح»، »«عبد الحسين»، «عزيـز»، «جـلال التونـسي»، «سـليمان الجولاني».. إلى آخر الأسماء.. سحبته من ذراعه وخاضـت بـه حتـى عتبـة البوابة العالية المفتوحة على ليل هبط.. لفت ذراعها حول خصره، فتـشجع فحضنها بذراعه أثناء مشيهما على الرصيف العريض.. كان يستغرب سرعة الألفة بينهما، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ زمـن بعيـد، يـضاف إلى انـه كـان مأخوذا بقدرة الروسية على الكلام المتواصل لاغية حاجز اللغة؛ إذ تتحدث وكأن «إبراهيم» يفهم كل ما تقوله.

تنغمر بالكلام بحرارة وانفعال؛ مما يجعل التواصل حميمًا.. كـان ينـصت لها بكل حواسه، وكانت تشعر برهافة ذلك الإنصات.. وكان مخدرًا بالقصة

الغريبة التي هو في باطنها بل المحور فيها.. وملتذًّا لذة تفوق لـذة التخيـل، عند قراءة رواية مؤثرة تلغـي العلاقـة بـالمحيط.. وكـان يتـشبث بجـسدها الضخم البض تشبث السكران الضائع.. أخذته إلى شوارع مضيئة مكتظـة، ودخلت به سوقًا شعبيا يباع فيه كـل شيء: نبيـذ، أحذيـة، فواكـه، خـضر، فودكا، بيرة، لحوم معلبة وطازجة، أسماك، والباعة ينـادون عـلى بـضائعهم فتذكر سوق الديوانية في الصباح.. تسوقتْ ما طاب لها.. كانت تجلـب كـل بضاعة تود شراءها وتعرضها عليه، فكان يومئ لها برأسه موافقًـا.. عبـأت كيسين.. تشاجر معها كي يحملهما، لكنها أبت مـصرةً عـلى حملهـما.. هبطـا خلال بوابة وقاعة سلالم كهربائية إلى باحة المترو؛ لتشق بهما باطن المدينة إلى حيث تسكن.

في الشقة أعدت كل شيء ، رافضةً بحزمٍ محاولاتـه لمـساعدتها.. كانـت تقول شـيئًا ، فهـم منـه أن لا عليـه سـوى الجلـوس والاسـترخاء.. وكـان لا يستطيع إخبارها لغةً بأنه قضى كل فترة حرب العـصابات في كردسـتان، يطبخ لفصيل متكون مـن سـبعين كلـما جـاء دوره. رتبـت المائـدة.. النبيـذ والكؤوس والسلطات وشرائح اللحم واللبن في هندسة متناسـقة؛ لتـشعل دوائر شمع صغيرة موضوعة في جوف كؤوس ومثلثات زجاجيـة وزعتهـا بين المواعين والكؤوس، وقامـت لتطفـئ ضـوء الـصالة.. فعمـت أضـواء الشموع الراجفة كـل شيء، وجههـا والأواني والجـدران وخـدره.. أمعـن «إبراهيم» في التأمل، وهو يتابع حركتها الدءوبة بين المطبخ والصالة:

– هل ما يجري له واقعي؟

- هل هو حقا يعيش مع أوكرانية شابة لا تعرف عنه شيئا،ولا يعرف عنها شيئا؟!.. وإلى متى سيبقى بهذا الوضع؟

تذكر «شاكر ميم» وفقاعته العظيمة:

- عش لحظتك وطلق الدنيا يا مجنون!.

- انزل من خيال قراءتك كي؛ تفهم البشر!.

صرخة «شيركو» الشاعر الكردي!.

- تعال يا «شيركو» لترى أين أنا.. ولك في الجنة.. في لذة الضياع بصحبة أنثى طيبة .. نحلة أوكرانية أعدت كل شيء.. طززززززززز....طززززززززز!.

طزطزَ «إبراهيم» للدنيا.. كاد يقفز صارخًا كما يفعل، حينما يسرح مع أخيلته في الحقول وحيدا حيث ينال مناه بالخيال.. أوشك على القفز نحوها حينما أقبلت لابسة ثوبا أحمر شفافا تظهر من تحته تفاصيل جسدها الملفوف والمتناسق.. كبح جماح نفسه بعناء، فلبث ساكنا على الأريكة يفور باللذة والبهجة.. جلست جواره، فهب من ناحيتها عطرٌ خفيفٌ خفقه، وظل يتدفق من مناحي جسدها القريب الحار.. كان تواقًا للغور في مباهجها؛ إذ إنه لا يتذكر أي شيء من ليل البارحة، التي وجد نفسه في الصباح إلى جوارها على السرير عاريا.. قالت شيئا كمن تتذكر بغتة، ونهضت لتخطو نحو المطبخ فلاحق جسدها المرصوص ومؤخرتها المرتفعة والصاخبة كهدير تحت ثوبها الشفاف عند الخطو، فتمنى لو تأخذه فورا إلى السرير؛ ليتمعن هذه الليلة بكل مفاتنها.. وعزم مع نفسه على تقبيل كل جزء من جسدها..

عادت وبيديها عديد من الأشياء فرشتها على الموكيت جوار أقدام المنضدة، وهبطت لتجلس مستندة بذراعها على الأريكة. التبس الأمر على «إبراهيم» وهو يتفرس متفحصًا تلك الأشياء المتناثرة.. كيس قهوة غير مطحونة.. كيس شاي صغير، قدح، بنطلون، قطعة بطاطس، تفاحة، قنينة فارغة، شوكه، سكين، ملعقة.. وعاد يحملق في وجهها الجاد.. قابلته ببسمة وهدرت بالكلام.. هبط من على الأريكة ليجلس جوارها، وعندما رفعت البنطلون ونطقت بوضوح:

- بريوكي..

أدرك مرامها.. فردد فورًا :

- بريوكي!

أعادت ذلك مرات ثم تناولت البطاطة ونطقت مركزة على مخارج الحروف «كارتوشكا» فردد خلفها.. وهكذا دأبت على تلقينه أسماء الأشياء.. لتنتقل إلى الأشياء الأكبر.. قامت من جواره إلى النافذة.. مسكتها ونطقت «أكنو» فردد فورا.. أمسكت الباب ونطقت «دفير».. وأشرت للشقة كلها ناطقة «كفارتيرا».. ذهبت إلى المطبخ لتعود بالقدح مملوءًا بالماء. أشارت إلى الماء «فدا». ووقفت أمامه ؛ لتمثل شخصًا يدس لقمة بفمه، ثم تبدأ بالمضغ وتنطق «كُوشَتْ».. كان يقلدها ملتذًّا، ويحفظ كل ما تنطق به من مفردات روسية بدأ يتلمس معناها.

كانت حينما تريد تعليمه فعلًا، تقوم لتمثله بصمت ذكره بأفلام «شارلي شابلن».. فعندما أرادت أن تحفظه مفردة العمل.. قامت من جواره

وراحت ترتب أشياء المنضدة من جديد.. تروح وتجيء من الصالة إلى المطبخ، حاملة المزيد من الصحون لتقول: «رابوتا».. فردد معها: «رابوتا»، وتذكر هذه المفردة التي كان يسمعها من الروس كل يوم في المترو والحافلة والشارع والبار.. مفردة بدت وكأنها تعني لهم الحياة. العمل الذي كرهه «إبراهيم» طوال حياته.. كان يرى نفسه مجرد طير عاقل، أينما رغب يحل أو يرتحل .. عاش مسكونًا بفكرة الأجنحة والطيران وقت الحاجة.. هاهو يحلق عاليًا في سماء غريبة ضائعًا، لا يعرف منها إلا هذي المرأة الشفافة بروحها وثوبها وحركتها، وهي تحاول قرن لسانه بلسانها.. عادت إلى جواره على الأريكة، وملأت كأسين بالنبيذ.. ناولته واحدًا ومست حافته بحافة كأسه:

- نَزدَروفيا

ردد خلفها:

- نَزدَروفيا

ورشف رشفة خفيفة، قائلا مع نفسه:

- «إبراهيم» الليلة دون سكر.. كي ترى وتحس هذه الأشياء الجسد والسرير والكلام والصمت، ومناحي هذه الأنثى الناعمة الضخمة المبتهجة معك، وكأنك حلمها الذي وقعتْ فيه!

جعلها تعبّ ثلاثة أرباع القنينة الأولى.. فتحت الثانية ظل يرتشف ويصغي إلى حديثها المتواصل، متأملا قسماتها المنفعلة بصدق، جعله يحس وكأنه جوار زوجته التي أحبها بعنف وعاش جوارها منذ تعارفا.. لم يكن

للوقت معنى بالنسبة له.. لكنها وقفت بعد أن شخصت نحو ساعة الجدار، التي كانت تشير إلى التاسعة مساءً وخطت نحو حاكي قديم موضوع على طبلة بقدر حجمه جوار الجدار وتحت صورة الشاب الباسم.. قلبت عدة أسطوانات كبيرة..انتقت واحدة.. وضعتها ورفعت حامل الإبرة. كان يتابع من جلسته كل حركاتها.. فسقط نظره على سبابتها وإبهامها وهما يفلتان الإبرة لتهبط على تدوير الأسطوانة فهجم صوت ريح مصحوب بعواء كلب وامرأة تترنم بلحن، ثم شخص يروي لطفلة ما قصة قبل أن يصدح القيثار، ويتعالى صوت المغنية المطْرب في إيقاع بدائي يهبط إلى القلب...

وجد نفسه في غرفة بيتهم الوحيدة..كان يلوذ عند انشغال إخوته فينفرد بالمذياع الخشبي الضخم؛ ليدير البكرات باحثًا عن محطات تبث أغانى أجنبية، لا يفهم منها شيئا.. لكنه كان يستمتع باللحن حالما بمدن بعيدة.. وكانت أمه تخرّبْ تلك الأخيلة حينما تدخل عليه، وتقول لائمة:

– أش تسمع يمه.. وأش تفتهم من هالرطينة!.

كان يلوذ بالصمت؛ فما تقوله حق، لكنه كان يجد متعة في سماع تلك الأغاني، ولا يعرف كيف يبرر لها الأمر، هو نفسه كان لا يعرف لماذا تستهويه تلك الأغاني بألحانها وكلماتها وأصواتها.. فَبِمَ يجيب؟ لكنه لو التقى بها الآن فسوف يُسرّ لها بمحنة الطير.. محنته.. لكنه سيعرف لاحقًا أنها ماتت وقت ضياعه بين الجبال والمعسكرات والدول...

تابع جسدها الصارخ خلف ثوب نومها الشفاف، وهي تتلوى على لحن الأسطوانة صارخة مفردة، لن ينساها أبدًا:

- «سيكوني»!...

سيعرف لاحقا أنها تعني «غجر».

تطوت وتلوت هبطت وقامت.. كان يحبس جنونه قامعًا رغبته العاصفة في الرقص؛ ليستمتع برقصها الرشيق المصحوب بصرخات مبهمة.. لكنه لم يصمد.. وجد نفسه يهب على إيقاع الصرخات والقيثار والتصفيق وجسدها ويقترب منها منتفضا، متمايلا، منتصبا أشد الانتصاب، وجوارها أطلق صرخة مبهمة، امتزجت بصرخاتها الملتاعة القصيرة بصرخات الراقصين..

كان يحملق في قسماتها المنتشية في ذروة الرقص، وهي تغرز فيه عينيها الزرقاوين اللامعتين ملاحقة حركة جسده تارة وإيقاع الوجه في أخرى.. تلاصقا.. افترقا.. تدافعا.. تشابكًا.. لف الواحد منهما حول الآخر. وبغتة فيما كان يدفعها شابكا أصابعه بأصابعها راجعًا خطوتين.. توقفت الأسطوانة ، وحلَّ صمتٌ جعلهما يجمدان متباعدين، وأصابع أيديهما متشابكة.. صمتٌ قطعته برميٍّ جسدها إلى صدره ؛ لتنخرط بنحيبٍ طويل مصحوب بهذيان، فبلل دمعها المتصبب قميصه.. أحاطها بذراع، وراح يمسح دمعها وشعرها بالأخرى، ثم سحبها برفق مع خفوت شدة النحيب إلى الأريكة القريبة.. أجلسها وهبط لصقها على الأرض ، وأصابع يديها بين أصابعه.. يمسح بحنان أظافرها تارة وقطرات دمعها الحار المتدفق بغزارة:

- أي ألم في هذه الروح؟!.

- أي عذاب!.

قال في نفسه.

اتكأ على راحة يديه.. نهض وجلس جوارها.. سحبها كانت لينة ونشيجها أصبح خافتًا يثير المزيد من الشجن.. وضع رأسها لصق صدره رابتًا بأطراف أصابعه بخفوت على كتفها، ومع كل ربتة.. يتخافت النشيج رويدًا.. رويدًا.. إلى أن تلاشى، فسكنت كتلتها مسترخية.. جمد إلى أن أمعنت في غفوتها على صدره، وأحس بِنَفَسِها المتردد لصق جسده ينتظم نابضًا ويصبح عميقًا، فسحب ذراعه من حولها برفق.. أمسكها من تحت إبطيها وعدل جذعها الأعلى واضعًا رأسها على وسادة رتبها بطرف الأريكة، ثم حضن ساقيها وحملها. أصبحت الآن ممددة بكامل جسدها المتموج تحت ثوب النوم الخفيف.. لبث متوسدا سجادة الصالة على مسافة مترٍ منها.. ليس لديه غير التأمل فيها..

تجلت ملامحها في النوم.. قسمات بريئة تلاشت منها اللوعة التي كانت تتموج في أول المساء.. قسمات زادتها البراءة فتنة.. انحدر نحو العنق الطويل لاهث البياض.. وضاع في تفاصيلها المثيرة الصارخة تحت الثوب المنحسر حتى منتصف الفخذين المدورتين تدويرًا فيه امتلاء وصلابة.. نهدها الأيمن نط برأسه من فتحة الثوب صلبا كمثري الشكل منتصب الحلمة.. صب كأسا من الفودكا.. وجرعها مرة واحدة.. مسح فمه براحة يده وعاود التحديق:

- جنة في الوجه ونار في الباقي! أش لون ورطة؟!.

ردد بخفوت مستعيدا ليالي مراهقته العنيفة في «حي العصري» حينما كانوا يدورون في الليالي الربيعية، يتلصصون من النوافذ على النسوة

النائمات في الغرف واجدين مشهدا مثل هـذا.. وجـد نفـسه مـستثارًا أشـد الإثارة.. ضربه على رأسه براحة يده، وصبَّ كأسًا جرعها، وهـرع إلى غرفـة النوم جالبا غطاءً ألقاه عليها. جلس على الأريكـة المقابلـة.. أراح ظهـره عـلى مسندها الوثير مبحرا في وجهها، الـصمت، الجـدران، طـرف الـستارة المـزاح قليلا.. صب كأسا أخرى.

– ليس أمامك يا «إبراهيم» سواها!

دلقها مرة واحدة في جوفه.. تلمظ وعاود التحـديق في قـسماتها الغافيـة المترسبة في قاع عالم بدا بعيدًا عميقًا فهي لم تتحرك، بل بقيت عـلى همودهـا، منذ أن عدل وضعها:

– أي قصة تكمن خلف هذا الوجه المعذّب البريء!.

تساءَل بصوت مهموس. وتناول القنينة.. لم يصب هذه المرة في كأسه:

– لأشرب في صحة العبدو وعبد سوادي.

وضع فوهتها في فمه وعبّ قليلا.. شيء واحد كان يضايقه ويشعره بأنه ليس وحيدا معها.. صور هذا الشاب الروسي الوسيم المحدق مـن جـدران الصالة الأربعة:

– ماذا بك مجنون.. تتضايق من صورة؟!.

نَهَرَ نفسه، وانشغل مـن جديـد بالتحـديق فى وجههـا الـصافي المنساب كمجري ساقية صغيرة.. لكنه كلما أراد التوغـل فى متعـة الوجـه والأخيلـة يشعر بعيني القائم في الحائط، تراقبه مخربةً ذاك الانحـدار الخفيـف.. نهـض

وخطا نحو الصور.. قلبها واحدة.. واحدة.. توسط الصالة.. وقف جوار الأريكتين.. دَوّرَ عينيه على الجدران، فأحس بنشوة الوحدة.. حمل قنينة الفودكا، واقترب من النافذة.. حملق في السماء.. كانت صافية متلألئة النجوم تبظ فضتها بظًّا بعث فيه مزيدا من الغبطة.. نفس سماء ليالي طفولته الصيفية حيث ينامون في حوش دارهم الواسع.. كان يسهر في الصمت، راحلا مع هذه النجوم حالما بأمكنة بعيدة يجوبها بمخيلته.. هاهو فيها الآن وتحت النجوم نفسها ، ومع امرأة جميلة لا يعرف حتى لغتها، ولا يدري مايضمر له الغد.. غبطة طفل بلا حدود يمسك النجوم، ويسافر إلى المجهول.

- لو يدري «عزيز» وين ضعت؟!.

وفكر فى أنه مع «عبد الحسين» قالبين الدنيا على «صالح»، الذي ضيعه.

- أجمل ضياع!.

علق في نفسه وتبسم بخبث متخيلا اللحظة، التي سوف يعثرون فيها عليه، والغيرة بوجه «عزيز» المنصت لما سوف يقصه.. أي هذه التفاصيل التي هو باطنها الآن.. لا يدري كم بقى في وقفته جوار النافذة.. كان يعبّ بين الحين والحين جرعة من فم القنينة، وفي كل مرة يشرب نخب صعلوك من صعاليك الديوانية الأحباء إلى قلبه.. يعبُّ ويضيع نظره في النجوم، في أضواء المدينة، في عتمة الغابات البعيدة إلى أن أحس بالنعاس.. استدار منتشيًا ورمى خطوة في الصالة خائضا في حلمه القديم.. أصبح جوارها وجد الغطاء منزلقا وهي منقلبة على الجنب مظاهرة وقفته؛ فتجسد تموجها المثير.. رهافة القدمين،

متانة الفخذين، كتلة الـردفين البـارزين، مـنخفض الخـصر، اسـتقامة الظهـر والشعر المنسدل بخصلاته الذهبية حتى حافة السجادة:

- تبارك خلقك!.

ردد بهمس.. وتمتم مباركًا نفس هذه المرأة الطيبة، التـي آمنـت بـه، دون أن تعرف حتى لغته.. حمـل الغطـاء وأحكمـه حـول جـسدها.. هـذا آخـر مايتذكره من ليل البارحة.

استيقظ على صوتها الهامس:

- صباح الخير

وقطفت قبلة سريعة من شـفتيه، ثـم أشـارت إلى مفتـاح موضـوع عـلى الطاولة، وقالت شيئا فَهِمَ منه أنها خارجة إلى العمل أو لـشأنٍ آخـر.. تـابع جسدها المدبر.. التفتت عندما جاوزت العتبة.. تبسمت قبل أن تسد الباب وتقفله.. كان منهكا من البارحة.. الشرب.. فـيض الأحاسـيس.. وزخـم الأحداث، فسقط في النوم العميق مـن جديـد. لا يـدري كـم مـن الوقـت أغفى؛ إذ إنه انتفض من غفوته مرعوبًا مما رأى.. زوجته تصرخ وتـستغيث منادية باسمه، وهو يستلقي إلى جوارها في الفراش، كما يحدث لها في كل مرة حيث كان يوقظها بهزها برفق ويناولها كأسا من الماء..

لكن هذه المرة، وجد نفسه جوارها، ولكنـه مكبـل لا يـستطيع الحـراك وهي تستغيث.. وتستغيث على وقع صراخ طفليـه اللـذين لا يـدري أيـن، لكن صراخهما يمتزج بنواح صوتها المختنق.. كانت تعالج محتضرة جـواره.

وكان يصرخ دون صوت.. يصرخ.. وبدأ يستغيث بـدوره.. تلمـس عنقـه وشرب كأسا من الماء.. وتساءل:

- كيف حالهم الآن؟!.

نبَّ الآخر فيه:

- تذكرت!.

هو فعلا بدا وكأنه نسى أنه متزوج ولديه أسرة، وحتى هـذه اللحظـة.. بدت تلك التجربة، وكأنها حدثت من زمن بعيـد، ولـولا الكـابوس الـذي أيقظه لما تذكرهم:

- اسمع هم في بلد آمن.. عد إلى لحظتك!.

طغى صوت الآخر القوي، يدعوه لطرد الشجن وبقايا شـعورٍ بالـذنبِ يعكرُ صفوَ لحظته:

- عش لحظتك.. نجوت مـن المـوت أكثـر مـرة.. ثـم مـن يقـول أنـك ستستطيع السفر إليهم.. ليس لديك مال ولا وثائق سفر، ولا تدري كيـف ترجع إلى شقتك في موسـكو حتـى!. لا بـل لا تـستطيع العـودة إلى المدينـة الجامعية في «كييف».. عش لحظتك يا مخبول، فبـالأمس غـرق أحـد رفـاق السلاح القدامى في الفولجا.. لم يستطع أحـدٌ تحمـل حتـى تكـاليف دفنـه ، فدفنته بلدية موسكو في مقبرة ما.

- تمتع.. عش لحظتك!.

استقام بجذعه الأعلى وحدق حواليـه.. الـشمس تتـسرب مـن النافـذة المزاحة الستائر، وتسقط على السجادة مضيئة الصالة.. تتبع الأشياء متـذكرًا

ما فعله بالأمس من قلبه لصور الشاب في الجدران، فلم يجدها.. بل وجد محلها لوحات زيتية صغيرة لمزهريات مختلفة الألوان.. أخذ نفسًا عميقًا:

- إذن عرفت ضيقي منها!

ردد مع نفسه وذهب إلى المطبخ ليشرب المزيد من الماء، قبل أن يأخذ دشا أنعشه.. انشغل وهو ينشف جسده بوضعه الجديد، وماذا سيفعل بيومه؟!.. هل سيبقى سجين بيتها؟! وإلى متى؟!، هل سيعثر عليه «صالح»؟!، هل سيحاول العثور على المدينة الجامعية، هل سيستطيع العودة إلى شقته في موسكو؟!.. أما زوجته وطفلاه.. فصاروا مثل حلم بعيد رآه في ماض سحيق.

- أنا ضائع حقا!.

هتف بصوتٍ عالٍ على وقع باب الشقة، وهو يُفتح.. أسرع بالخروج فوجدها تقبل نحوه بأكياس مليئة.. سلمت عليه وقبلته في شفتيه.. وظلت تتحدث طوال الوقت في طريقها إلى المطبخ، وأثناء تفريغها الخضر والفاكهة واللحوم.

لم تكن لديه ملابس نظيفة، وكأنها أدركت حيرته، فأخرجت من أحد الأكياس ملابس داخلية نظيفة وقميصًا وبلوز من الصوف الأسود، وبنطال كاوبوي أسود أيضا.. أزاحت عنه المنشفة فبدا عاريا تماما.. أخذته إلى صدرها شاهقة.. أول مرة يحس لهاث شهوتها منذ حلوله في شقتها؛ فتماسك كي يبقى مستمتعًا بكل حركة تقوم بها، وكل انفعال في وجهها. تخلصت من ملابسها وبقيت في السروال الصغير فقط.. لقفت شفتيه وراحت تقبله

بطريقة لم يجربها مع امرأة قط.. تمص، وتدس لسانها، وتخرجه، وتمص العليا تارة والسفلى أخرى بحساب أفضى به إلى قمة التوتر.

- تماسكْ.. لتستمتع بالمزيد.

قاوم منصتا لهذيانها المتقطع بمفردات ناعمة هائمة.. تهزّهُ نغماتها هزًّا.. من المؤكد أنها تدور حول الجسد والحب، مفردات هي مزيج من أنين مجروح وهديل حمامة.. دلكت كل ناحية من جسدها في جسده.. استدارت.. وراحت تفرك ظهرها ومؤخرتها فيه وعنقها ملتوٍ.. عيناها في عينيه وشفتاها في شفتيه.. وتواجهه ثانية. وبهدوء بدأ جسدها يبث نارا وَهَجتْ كل قطعةٍ فيه.. في قمة تألق وذوبان قسماتها المنتشية قالت شيئا.. وراحت تكرره إلى أن أمسكت بيده المرتجفة وأنزلتها إلى سروالها.. جردها.. وعلى السجادة سقطا والجيْن في أحشاء بعضيهما.. في النبض العميق. سيظل «إبراهيم» يتذكر هذه المضاجعة ما تبقى من عمره. منحته الأوكرانية الشقراء كيانها كله، وأرته لذةً ذات مذاق خاص مختلف.

***

تشابهت الأيام.. في الصباح يبقى وحيدا في الشقة، وفي المساء تعود متعبة محملة بالخضار والفاكهة واللحم والنبيذ. . كانت تطلب منه أن يدلك قدميها، فتتمدد على الأريكة بعد أن تتجرد من سروال عملها.. وكان «إبراهيم» خبيرًا.. يخوض في بشرتها البيضاء من باطن القدمين حتى الوركين.. فتتوقد أصابعه وبشرتها إلى أن تشب النار في البشرة والأصابع والأريكة.

كل مساء تشب النار في الأصابع والأفخاذ والصدر والنحر.

كل مساء تشب على الأريكة.

وفيما عدا نهاية الأسبوع، تخلد إلى السرير مبكرة، وكان يستلقي جوارها إلى أن تغفو فينسل إلى الصالة يصب كأسا، ويقف خلف النافذة، يبحر في ليل المدينة الهامدة، شبابيكها المضيئة، بناياتها العالية، أضواؤها الصارخة، وصمت السماء العالية بنجومها الدانية.. في أحد الأيام حمل المفتاح معه، ودلف من باب الشقة قائلا مع نفسه:

- سأشم قليلا من الهواء.

هبط بالمصعد وخرج إلى الشارع.. كان حذرًا يسير مسافة، وكلما لف في شارع يركز على معالم المدخل كي لا يضيعه.. يضحك على نفسه، وهو يحدق بالحروف الروسية، التي لا يستطع فكَّ سرها مرددًا:

- وكأنني في مفرزة بالجبل تسلك طريقا لأول مرة!.

بعد اليوم الرابع تمكن من تحديد معالم الأمكنة المحيطة، فأخذ يبكر بعد خروجها سالكًا طريق الغابة المجاورة ليضيع طوال ساعات الصباح يتأمل شهقة سيقان الأشجار، زحمتها، طيورها الرافّة، راحلا في البعيد، وكأنه في سلام جنة.. نزهة في الصباح، نوم بعد الظهر، سماع موسيقى قبيل قدومها، ثم دخولها الضّاج، والعشاء والتدليك، والتسلل من السرير ما أن تغفو للإطلالة من النافذة على بهجة الأضواء والأفق المعتم البعيد وصمت المدينة.. يوم خال إلا من السلام ومشاعر هذه المرأة العنيفة الحنونة، التي

لا يعرف من لغتها إلا اليسير، بالعكس من أيام عمره التي قضاها متوترا منذ الطفولة حتى الصبا ثم السجن والحروب وقت نضجه، وزوجته التي زادت من همومه، وهو يذود عنها خطر الاعتقال في الداخل وخطر رفاقه في كردستان، ثم محنة المنفى والأطفال ومطالب الحياة، ذلك ما جعله يشرب كل مساء.. أما الآن، وفي هذا المكان الغريب وجوار هذه الشقراء الأوكرانية الجميلة، صار يعزف عن الشرب أيامًا راغبًا في التمتع بصحو حواسه بهذه الأيام المختلفة متسائلا:

- هل تدوم يا ترى؟!.

وبغتة جوار نبع ماء وسط الغابة المجاورة للمبنى.. جرفه الشوق إلى رفيقة عمره وطفليه، إلى تلك الأيام اللاهثة.. فشعر بنفسه وحيدًا غريبًا مستوحشًا، فندمَ على انجرافه بتأثير الصعاليك الأربعة: «أسعد» التكريتي و«شيركو» الكردي والمصور «شاكر ميم»، ونصفه المخفي عن الآخرين.. الأربعة وضعوه في جوف الفقاعة، وهم يضحكون بلا مبالاة.. لكن هذا الشعور بالذنب لا يمكث إلا لحظات؛ إذ سرعان ما تحيط به الفقاعة الموشكة على الانفجار، فيلبث في جوفها مستمتعًا، مبحرًا عنها وعما يأتي في المساء، وما كان في الصباح متخيلا، وكأنه ذلك الجندي الإيطالي في فيلم «بازوليني» «زهرة عباد الشمس»، الذي سيق قسرا إلى الجبهة الروسية في الحرب العالمية الثانية، وكان يعيش قصة حب عنيفة مع جارته التي تظل بانتظاره حتى نهاية الحرب.. يتذكر وقفتها على رصيف المحطة، تتابع بعينين مجنونتين الجنود العائدين من روسيا، المتعبين، الهابطين من العربات.. دون جدوى. لا تصدق ما قال لها صديقه كونه جرح جواره، وتركه على الثلج أثناء الانسحاب:

- هل هي مشغولة بي الآن؟!.

- هل تسأل مثل «صوفيا لورين» في الفيلم؟!،التي سافرت إلى الاتحاد السوفييتي وراحت تجوب كل الأمكنة المحتملة إلى أن عثرت على أحد الإيطاليين العاملين في أحد المعامل والذي أخبرها عن مكانه.. فذهبتْ إلى بيت ريفي لتجده متزوجًا من روسية، ويعمل بأحد المصانع.. استعاد تفاصيل الفيلم، وهو جالس جوار النبع في عمق الغابة منتشيًا:

- أنا مثل حالته مع فارق الزمن والمكان والظروف.. خرجت خاسرًا من حرب الجبل مجروحًا جرحًا بليغًا مثل ذلك الجندي الإيطالي، وبقيتُ وحيدا هنا في المكان نفسه.. الاتحاد السوفييتي، بعد أن تركتني وسافرت، فأتى «عزيز» و«صالح» ليضيعاني في «كييف» الشاسعة، فأجد نفسي مع هذي المرأة، التي داوتني مثلما داوت تلك الشقراء الروسية في الفيلم الجندي الإيطالي، حينما وجدته ينزف متروكًا على الثلج، فسحبته حتى بيتها وعالجته وصار لها.

فالأوكرانية الشقراء لما أصيب بالأنفلونزا قبل عشرة أيام.. لم تخرج إلى العمل.. ظلت جواره.. تداويه.. تسقيه السوائل الحارة.. تدلك جسده بالفودكا.. تدثره.. تغني له حتى ظن في شدة الحمى أنها أمه.

- .. هأنذا باقٍ معها مأواي الوحيد حال ذلك الجندي.. الفارق هو أن ذلك ممثل وأمامه الكاميرات والمخرج والمصورون، بينما أعيش تجربتي لحمًا ودمًا وواقعًا، يضاف إلى ذلك أنني غير مطالب بعمل، كما كان يفعل الإيطالي بالفيلم؛ إذ يخرج كل يوم إلى العمل ولا يعود إلا في المساء!.

– هل ستأتي إلى هنا لتبحث عني مثل «صوفيا لورين» في الفيلم؟!.

أعاد السؤال وانخرط في ضحكة طويلة لهذا الخاطر.. تخيلها تعثر عليه في الشقة مع الأوكرانية.. تخيل وجهها، جنون عينيها، صراخها، فهو يعرف مبلغ غيرتها، التي تعاني منها بصمت.

– أي سعادة أعيشها هذه اللحظات!.

هتف بصوت عالٍ وغادر المقعد الخشبي المجاور للنبع باتجاه المسلك الضيق، المؤدي إلى باب الخروج.

لم تستمر أحلام يقظته طويلا، فما حدث بعد ذلك جرى سريعًا، إذ أيقظته «سونيا» في صباح سبتٍ باكر، وطلبت منه ارتداء ملابسه والخروج معها.. أخذته إلى أسواق كبيرة، ودخلت به إلى غرفة المدير هامسة أنه قريبها.. وبعد حديث طويل دار بينهما بحضوره، لم يغب لحظة خلاله عن عيني قريبها المتفحصتين أومأ برأسه، فتهللت ملامحها وهي تصافحه.. هو الآخر صافح ذلك الرجل العملاق.. في الشارع قبلته وقالت:

– الاثنين ستبدأ العمل هنا!.

وأشارت نحو المحلات.. اغتمَّ فورًا، ولكنه لم يظهر ذلك.. افتعل دهشة، وقال ممثلا دور المبتهج:

– صحيح.. شكرا لله!.

ومع نفسه:

– بدأت.. مصيري إذن مصير ذلك الجندي الإيطالي بالفيلم!.

فكر قليلا وقال:

- لا.. ذاك زمن الحرب الباردة وما عنده حل آخر، الوضع يختلف سأجرب.. ومتى ضجرت أهرب!.

نبّ صوت «أسعد» التكريتي:

- شاطر يا ولْ بديت تفكر صح!

وتذكر كيف تصرف مع بائعة الورد الروسية، التي أحبته وبرر ذلك.

جهزتْ كل شيء للمساء: النبيذ الأحمر، اللحوم، الفودكا، الفواكه والخضر قالت:

- الليلة أعطيك درسا بكلمات سوف تحتاجها بالعمل، ثم نحتفل!

وشدته إلى صدرها قبل أن تبدأ بالدرس.. تمعن في قسماتها، وهي منهمكة في تعليمه.. كانت تنبضُ غبطة وكأنها ملكت الدنيا.. قال مع نفسه:

- هل هذه الغبطة التي ملكتها منذ حلولي بسببي فقط.. هل تظن أنني فعلا متعلق بها وأريد قضاء بقية العمر معها!.. هي لا تدرك مدى انكماشي منذ لحظة إقناع قريبها بتشغيلي.. لا تدري شدة رغبتي بالهرب هذه الليلة.. مسكينة المرأة تتعامل بقلبها ومشاعرها ببراءة وصدق!.. هل أنا حقير إلى هذا الحد، أم أن جنس الرجال هكذا؟!.

جلبت دفاتر وراحت تكتب وتلفظ مفردات روسية جديدة.. تعيدها على مسمعي، مفردات تخص بائعًا يتعامل مع زبائن في أسواق.. مهنة كانت من أكثر المهن إرعابًا لذاتي منذُ صباي.. أن أتحولَ في مستقبل أيامي إلى مجرد

بـائع في سـوق بمـدينتي، فكيـف في بلـد غريـب بعـد كـل تلـك التجربـة والمخاض.. شعرت بغتةً بثقل الحياة الدنيا.. شعرت أنها ليست كما تخيلت، وتخيل «شاكر ميم» لحظةً، لا.. شـعرت بالـدنيا حجـرًا صـلدًا، صـدم كـل أخيلتي وأحالها إلى عبثٍ وخرافة.

أنـصت إلى مفرداتهـا القاسـية، التـي تحـاول جاهـدة تعليمـه بالحركـة والقاموس.. قال مع نفسه ساخرًا:

- مجنونة تظنني سويًا!.

عاد كلما أوغلت في جديتها يرشف مزيدًا من الفودكا حتى صـار أشـفَّ من وردةٍ.. وراح يحملق فيها، وهي تبتعـد بـوادٍ آخـر.. عنـه وعـن فقاعـة «شاكر ميم».. أحستْ بذلك.. تريثت محاولةً جذبه مـن جديـد.. وضـعت القاموس جانبًا.. وضعت اللغة.. الكلام.. الأحلام على المنضدة جـواره.. وخاضت نحوه بجسدها.. مسته.. وفي اللحظة التي كانـت فيهـا أصـابعها الرقيقة تفتح مشد الصدر.. قرع باب الشقة بعنـف قرعًـا، جعلهـما يقفـزان مذعورين يحدقان في بعضهما.. فمن غير المألوف قـرع البـاب في مثـل هـذا الوقت.. تمالكت نفسها قليلا.. عدلت ملابسها. تابعها وهي تخطـو بوجـل نحو الباب الضاج بالقرع المتواصل.. لم تقل شـيئًا.. تقـدمت عـلى أطـراف أصابعها حتى لاصقت جسد الباب..

مدت أصابعها إلى سدادة العين السحرية.. رفعتها لترى مـن القـادم؛ ففي تلك الأيام صار اقتحام الـشقق مـن قبـل مافيـات لغـرض الـسرقة والاغتصاب مألوفا.. التفتت إليه منفرجـة الأسـارير، ودوَّرت المقـبض

وباليد الثانية حررت القفل الإضافي.. رجعت مذعورة أمام «صالح» بجسده الضخم وقسماته العنيفة، وهو يصرخ راعدًا وكأنه عاصفةٌ، مطلقًا أصواتا مبهمة في المسافة بين الباب والأريكة؛ حيث يقف «إبراهيم» مبتسمًا.. ولم يكف عن الرعد والشتم، حتى وهو يعانقه ويلفه بذراعيه.. هدأ بعد الضم والتقبيل، فأطلق شريطًا طويلًا من الفشار الفلسطيني، المرتب على عاهرات الرفاق الروس حسب تعبيره، قبل أن يلتفت نحوه قائلا:

- «إبراهيم» جَنَيتْ.. صار لي شهر ونص أدور بالمنطقة، نسيت المكان والموعد.. و «عزيز» و «عبد الحسين» زادوا من جنوني، وهم يقولون أنت ضيعته.. تجلبه لو من تحت الأرض!.

عاد مرح «إبراهيم» القديم، وقال مع نفسه:

- هاهو «صالح» ينقذني!.

أمسكه من كتفه، وقال:

- «إبراهيم».. هيا بنا الكل ينتظرك.

- ..

تبسّم وعيناه تجوبان في وجه «إبراهيم»، وأردف:

- قصتك صارت على كل لسان بالجامعة!.

استسلم لذراع «صالح» المتينة، وهي تسحبه بحنوٍ نحو الباب قائلا مع نفسه:

- فصل آخر يطوى من فصول مدينة «لينين» الفاضلة!.

لكن قبيل وصولهما الباب المفتوح.. قفزت الشقراء نحوه سدته وأقفلته بالمفتاح، وقالت شيئًا لم يتنبه «إبراهيم» له جعل «صالح» يثب نحوها صارخًا، ويمسكها من كتفيها ويخضها بعنف.. هرع «إبراهيم» ليفل كفيه المطبقتين على رمانة الكتفين، قائلًا:

- بلا عنف!.

صوب «صالح» عينيه الغاضبتين نحوه، أردف:

- بالكلام رجاءً!.

تراخت أصابعه المتشنجة، فسحبت كتلتها المتوترة خطوتين إلى الخلف.. كانت هي الأخرى تهدر بالروسية بجملٍ سريعة متلاحقة وقسماتها تنبض نارًا، بينما راح «صالح» يحاورها بلهجة مختلفة، بدت هادئة، ثم تحولت رويدا.. رويدا إلى توسلٍ بينٍ حتى أنه قبلها على جبهتها وعلى عينيها المطبقتين قبلاتٍ رقيقة، لا تتناسب مع كتلته الضخمة وقسوة ملامحه الحادة.. تشعب الحوار و«إبراهيم» يقف جانبا غير مصغٍ، بل مبحرًا بالقسمات وحركات الجسدين، وكأنه أمام فيلمٍ صامتٍ يتيح للمشاهد التفسير حسب هواه.. كان المهم بالنسبة له هو الخروج من العالم الضيق الذي سقط فيه صدفة.

وكان يدرك أن «صالح» يحاول إقناعها بهذا الخروج.

ينتظر «إبراهيم» مركزا عينيه على يدي الأوكرانية الشقراء!.

متى تظهر المفتاح؟!.

طال الحوار.. ظلَّ ينظر بين الحين والحين نحو «صالح» بعينين تدعوانه، كي يطيل صبره إلى أن أظهرت المفتاح وخطت نحو الباب. أدخلته ودورته، والتفتت إلى «إبراهيم» فاتحة ذراعيها.. ضمته بشدة.. بادلها الضم شادًّا ظهرها إلى صدره مثل محبٍّ مسافر إلى مكانٍ بعيد.. لم يكن ممثلًا بل كان صادقا بالضم والشد والمشاعر حتى أوشك على البكاء، غير مهتم بالسخرية البادية بعيني «صالح» الشاخص نحوهما، وهو يغالب ضحكةً عاصفةً تخنق قسماته المنتشية.. أبعدها قليلا عن صدره.. تأمل وجهها المحزون، فوجدها محطمةً مثل من يفقد أعزَّ شيءٍ في الدنيا.

جره «صالح» من كتفه كي يفصله عنها.. انفصل وخطا عابرًا عتبة الشقة.. وقبل أن يتوجه نحو المصعد التفت نحوها، فوجد الألم مجسدًا في قسماتها دون وصف وكلام..

علق «صالح»:

- أنتم العراقية بت....... زين ما!.

- ..!.

- مضبوط... ما؟!.

وأطلق ضحكة سريعة صاخبة وأردف:

- جننتها.. ما طلّعت المفتاح إلا لما اقتنعت أنك ستعود بعد ساعتين!.

لما صار «إبراهيم» في الشارع، أحس بنفسه يصل برَّ الأمان.. ويحلّ من جديد في جوف اللحظة!!.. جوف الفقاعة!!.

«مريم» الأوكرانية

باغته وجهها المذهل حال دخولهم الغرفة.. كانت تجلس في الركن المواجه للباب لامةً ساقيها تحت كتلتها وتخالس النظر، وكأنها خجلة من الحضور. الغرفة تضيق بالمائدة الطويلة المصفوفة عليها أطباق من مختلف أنواع اللحوم المشوية والفواكه والخضر والخمرة.. أفسحوا له الطريق مرحبين.. خطا مقتربًا من جلستها. ارتعد لما صار على بعد مترين منها.. ساكنة، مسبلة الأجفان، وكأنها موشكة على النوم. في المسافة من الباب حتى الكرسي القريب منها كانت تباعد أجفانها خطفا، وترشقه بنظراتٍ خاطفة ناعسة، بعثت في عظامه الرعدة. فهتف مع نفسه بصمتٍ:

- يا إلهي!.

في الخطوات القليلة، أبحر في الكتلة المنحوتة ببراعة، شاعرًا نحوها بألفة شديدة، وكأنه يعرفها منذ زمن سحيق.. تقاطيع تسحر القلب وتملك الكيان، تحفر لها فورًا مكانًا في الذاكرة وتبقى مادامت الذاكرة.. ستظل تعاوده حية وفي ملامحها الخجل والحياء نفسه المصحوب بحمرة تطليها

بغتة، وهو يتطلع في وجه «مريم» المطل على وقفته في الكنائس، التـي جابهـا كلها في فترة تشرده المريرة.. سيخلد ساعاتٍ جالـسًا إزاء الملامـح الطالعـة من باطن الجـدار الـصخري.. سـيخلد مـسترخيًا، وكأنـه يجلـس في تلـك الجلسة العابرة في غرفة بـسكن جـامعي في «كييف»؛ حيـث كانـت تجلـس جواره، يفصل بينهما كرسي صـاحبها الـشيوعي اللبنـاني الـشاب النحيـف الرقيق صاحب الدعوة.

– هل ثمة وجوه نساء نراها في المخيلة قبل اللقاء الفيزيقي، أم أن ذلـك من شطح محروم أدمن الأخيلة؟!.

قبل أن يجلس إلى كرسيه، عرّفهُ صـاحب الـدعوة بالحـاضرين.. شـاب لبناني من قرى الجبـل، طويـل القامـة، نحيـف، باسـم الوجـه مـع زوجتـه الروسية الشقراء، يوناني أبيض وديع القسمات، روسية مع صاحبها.. كـان «إبراهيم» يصافح بحرارة كل من يشير إليه صاحب «مريم»، إلى أن وصـل إليها فقال:

– هذه حبيبتي «ماريا»، أسميها أنـا «مـريم».. أوكرانيـة.. لكنهـا أشـدّ تحفظًا من شرقية!.

لم تقُم من كرسيها.. رفعت رأسها نحوه، وتبسمت بعذوبة هازةً رأسها هزة ترحيب، فجعل شعرها الناعم المنسدل حتى حافة مقعد الكرسي يهتز برقـصة خفيفة.. التهمها بعينيه النهمتين خطفًا، وهبط جالسًا..

هتف مع نفسه بصخب وصمت:

– لو ألمس هذه «المريم».. أكمل ديني!.

إلى جانبه جلس «جلال التونسي» وصديقته الروسية «أستيرا» الشقراء الطويلة، التي لا تغادر قسماتها البسمة والتي تكبرهما قليلًا.. أخبره «عزيز» بأنها أي صاحبة «جلال» شريفة جدًّا بتورية محض عراقية، تشير إلى عكس الكلام الظاهر.. رد عليه معلقًا بضيق:

- تبقى شرقي الشرف بس بذاك الشق اللي طلع منه كل البشر!.

كان الترحيب بـ «إبراهيم» عاصفًا.. الجميع يحدق نحوه بعينين مفتوحتين باسمتين، يختلط فيهما الإعجاب بالدهشة، مرددين كلام الترحاب باللهجة اللبنانية الناعمة، فتذكر تعليق «صالح» لما عثر عليه:

- قصة ضياعك صارت على كل لسان!.

هاهو «إبراهيم» يجد نفسه في دائرة ضوءٍ ساطعٍ مربك؛ فالعيون شاخصة نحوه، والهمس يدور بالروسية بآذان النسوة الحاضرات، وكأنهم ينتظرون منه شيئًا خارقا لعادة يومهم.. كان مع نفسه يعجب متسائلا:

- ماذا ينتظرون مني، وأنا شبه صعلوك ضائع!.

جعله الأمر يشعر بالحرج ويلزم الصمت ساكنًا.. لكزه «جلال» بكتفه هامسا:

- يحكون عنك لعشيقاتهم.. كيف خطفتك الأوكرانية، وأنت الذي لا تحكي الروسية وضمتك في الشقة، وكأنك شخص هبط من ألف ليلة وليلة!.

- ..!.

لم يعلق «إبراهيم» بل راح يتأمل قسمات الوجوه المحيطة، التي بدت شديدة الود مثلما يشعر هو لما يتعاطف مع شخصية في رواية، أو حكاية ما يقرؤها في كتاب.

- هل يرون بي شخصا طالعًا من باطن رواية؟!.

همس مع نفسه بصمت منتشيًا من خيال الفكرة، التي قطعها صوت «جلال» وهو يضيف:

- «إبراهيم» يحكون الآن عن خوضك الكفاح المسلح طوال الثمانينيات!.

كل ما يذكره «جلال» مرَّ بـ «إبراهيم» دون أن يفكر هو فيه، بل كان ذلك مسارًا منسجمًا مع مغامرة الخلاص من موت يحيط بك من كل جانب في العراق، ولكن يبدو أن التجربة التي خاضها تكتسي معاني مختلفةً لدى هؤلاء الطلبة الجامعيين اليساريين في رخاوة حياة الدول الاشتراكية، التي توفر لهم السكن والدراسة بأسعار رمزية لأسباب أيديولوجية، تتعلق بتنظيمات أحزاب بلدانهم الشيوعية.

- ..!.

أمعن في صمته متكورا وشاعرا بالضيق من شدة الهمس وحرارة العيون.. وحاول أن يشغل نفسه بالنظر إلى المائدة العامرة بأنواع اللحوم المشوية على الفحم، والمقبلات الشامية، حمص بطحينة، فول، تبولة، أنواع مختلفة من السلطات المزينة اللامعة تحت مصباح الغرفة المتدلي من السقف، وكؤوس النبيذ الأحمر القاتم الموزعة بدقة؛ فأمام كل كرسي كأس مملوءة حتى الثلثين..

كان فارغًا من كل شيء، ويبدو أن هذا الشعور قد وصل إلى الحضور فانشغلوا عنه متحدثين بشأنهم، الجامعة، والدراسة، والصراع، وسقوط الشيوعية المدوي، وقضية تسليم السلطات الروسية «أريش هونكر» رئيس ألمانيا الشرقية سابقا إلى ألمانيا، التي أسقطت جدار برلين وتوحدت.. مواضيع جعلت «إبراهيم» منزويًا في صمته يتأمل الوجوه والمشاعر والعيون الغاضبة، المتلصصة، المحبة.

لاحظ أن «مريم» كانت ترمقه من تحت أهدابها الناعسة خلسةً لما كان مشغولا في الإنصات والمراقبة.. وجد في ذلك لعبة تلهيه عن الحديث الممجوج المتكرر، فاندمج فيها متخيلا نفسه صبيا يخالس صبية، تخفي جسدها خلف باب نصف موارب تسده وتفتحه تبعًا لعيون الرقباء في زقاق من أزقة «الجديدة» في الديوانية.. كان جسد اللبناني صاحب الدعوة هو الباب المتحرك لما يشارك بالحديث، فيندفع إلى الأمام حاجبا تكور «مريم»، ولما يهدأ، يتكئ على مسند كرسيه، فتظهر العذراء الناعسة الصامتة الحالمة دانية ترمقه من تحت أهدابٍ شبه مطبقةٍ، ولا يستمر ذاك النظر غير لحظة خاطفة؛ إذ سرعان ما ينفعل الشاب ويخوض في الحوار دافعًا جسده إلى الأمام، فيحجب مريمَ السارحة وكأنها تحلم..

دفعه ذاك اللعب إلى عبّ الكأس تلو الكأس من النبيذ الأحمر الذي صعَّد من الأخيلة.. وخزه «جلال التونسي» بكوعه منبهًا، ولما لم يفهم علامَ، قرب رأسه وهمس بأذنه طالبًا منه التروي بالشرب فالجلسة في أولها.. قابله ببسمة ساخرة وقرب فمه من إذن «جلال» قائلا:

- أريد فودكا!.

حدق فيه باستغراب، وهمس:

- «إبراهيم»!.

أصرَّ «إبراهيم»، فتناول «جلال» قنينة الفودكا وملأ له كأسه. استرخى على كرسيه منفصلا عن الحضور، وحالما بمكان ناءٍ مع امرأة فريدة، تجتمع فيها صفات كل النسوة اللواتي تعرف عليهن في حياته... لا يدري كم بقى سارحًا، لكنه فاء من جديد، وعاد يرمقها خلسة عبر جسد صاحبها النحيل.. في سكونها وتكورها وأهدابها المسبلة وعينيها لحظة النظر الخاطف بدت امرأة حلمٍ بعيدة المنال.. امرأة طالما حلم في صباه بمثلها بين بساتين النخيل والسواقي وفيء الجدران.. الجنية دانية جالسة على مبعدة أقل من مترٍ تفصله عنها الثقافة واللغة والعمر والوضع البشري.. لكن ثمة شعورًا غريبًا جعله يحس بأنها تبادله المشاعر نفسها، وإلا لِمَ لمْ تكف عن اختلاس النظر صوبه، ومبادلته التلصص الخاطف كلما سنحت الفرصة:

- تريد الغور بي مثلما أريد أنا!.

تبسّمَ لهذه الفكرة حالما، لكنه نفض رأسه:

- تبقى مجنونًا تُلقي على البشر ما تشاء من أخيلة لحظتكَ!.

حاول التخلص من الكتلة الجاذبة المتوارية والظاهرة خلف جسد حبيبها اللبناني الشاب بالإصغاء للمتحدثين في محاولة للتوازن والاندماج من جديد بمناخ الجلسة.. وجد الحديث يتناول يوميات الحياة الباهتة، ومتقطعا بالصمت المربك، الذي يكاد يجذبه ثانيًا نحو «مريم» الصامتة

الساكنة، بعد الكأس الثانية وصعود النشوة إلى الرأس وسرت في الأطراف، فقطع حديثهم قائلًا:

- نظل بهذا الحديث؟!.

استدارت الوجوه نحوه. وكأنهم كانوا ينتظرون كلامه!.

حلَّ صمت وأنشدّتْ الوجوه نحوه مترقبة إلى أن قال أحدهم:

- حدثنا أنت يا «إبراهيم» عما جرى في فترة اختفائك في كييف!.

رد على الفور، وهو يستعيد فترات الاختفاء في بغداد، التي كان يقضيها مرعوبًا في الغرف والظلام، متوقعًا القبض عليه والهبوط به إلى العالم السفلي في أقبية، تضخمها مخيلة المرعوب، وتحيلها إلى أمكنة فزع مطلق:

- أول مرة أختفي في الجنة!.

وأردف:

- ليس في القصة أي شيء مسلٍ، ما عدا ما يحدث بين امرأة وحيدة ورجل صعلوك ضائع!.

ضجوا بالضحك مما تومئ إليه جملته من مباهج.

قال الشاب اللبناني الوسيم الجالس في مواجهته:

- كلنا نريد أن نسمع منك قصتك في الكفاح المسلح، وما رأيته من تجارب!.

وافق الجميع على قوله، فحملق «إبراهيم» مفكرًا بشرودٍ لحظةً، عن ماذا يحدثهم؟! فالتجربة واسعة غزيرة ومتنوعة، ولما كان الطلبة من اليسار.. فعلى الأغلب يريدون سماع بطولات ومآثر تذكرهم بـ «جيفارا»، وهذا

بالضبط ما لا يريد الكلام عنه، بسبب موقفه من الأيديولوجيا والقتل من ناحية، ولا يريد فتح نقاش يحوِّل السهرة إلى ندوة وحوار، فتضيع عليه «مريم» الناعسة التي قد لا يراها مرة أخرى إلى الأبد.

شمل الحضور بنظرة مرت خطفا على المتكورة، فوجدها تحملق فيه منتظرة، مثل الجميع.. لمعَ بذهنه خاطرٌ فقال:

- لا أريد الحديث عن القتال والبطولات.. ذلك شبعتم منه من خلال قصص الأنصار الروس بالحرب العالمية الثانية. فكل العملية تتلخص بالقتل والقتل المضاد، ولكن سوف أروي لكم طرفًا من نوادر من عشت معهم من شخصيات أغرب من شخصيات الروايات، وهم من لحم ودم، عاشرتهم ورأيت منهم ما لم أره إلا في الروايات.

كانوا ينصتون بسكون.. أنهى جملته الأخيرة، وصمت لثوانٍ، وسأل:

- ما رأيكم؟!.

هبُّوا فورًا قائلين:

- احكي.. احكي يسلم فمك!.

تمعّنَ فيهم، قبل أن يشرع في الكلام، فوجدهم متشوقين يشخصون نحوه بعيون منتظرة وملامح متحفزة.. فكر وهو يحملق بالوجوه المحيطة عمن يحدثهم، فالكثير من الشخصيات التي عاشرها في الجبل تستحق الروي، وعليه أن ينتقي ما يتناسب مع الجلسة وهذه الوجوه الجميلة الناعمة.

ومن بين كتلة الوجوه المزدحمة في ذاكرته.. سطع وجه «أبو لينا» المكنى بـ«ولد سالك» لشبهه الكبير بأشكال الصوماليين، ممن كانوا يبيعون الفستق في

شوارع بغداد في السبعينيات، بوجهه المخروطي، ولحيته الملمومة كقبضة صغيرة، ونحوله الشديد، وطول قامته، وشروده الدائم المصحوب بصمت المتأمل الحلمان.. من أين يبدأ؟.. لابد من تقديم ما عن هذه الشخصية الطريفة الغامضة التي تدور حولها النوادر المضحكة، والتي لما يروونها له عنه يقابلهم ببسمة واسعة ولا يعلق بشيء.. وصف شكله، وأخبرهم بإيجاز عن سلوكه الهادئ في مواجهة سيل النوادر، التي يسمعها عن نفسه في المقدمة، قبل أن يدخل في متن القصة:

- رأيته أول مرة لما صعدت من القاعدة في أسفل الوادي إلى موقع مقاومة الطائرات الكائن جوار نبع الماء تحت القمة مباشرة. كان بصحبتي رفيق فنان مسرحي «عدنان» معجبا بشخصية «أبو لينا» جدًّا، وهو الذي حكى لي عن طرافته، وأكد لي بأنه مثقف ثقافة موسوعية ومتذوق للشعر، ويحفظ جلّ أشعار «سعدي يوسف».. وفعلا لما جلسنا تحت شجرة حور عملاقة جوار النبع، قرأ علينا باقة من تلك الأشعار بصوت متهدج شديد الحساسية والرقة يوشك على البكاء.. لكنه بعد ذلك لزم الصمت ولم تفلح كل محاولاتي لجعله يحكي أو يحاور في الثقافة وما يجري حولنا في خضم يوم حرب العصابات العسير.

كان يحكي أكثر ما يحكي عن الشاي وكيفية تخديره، وهو المكتشف طريقة خاصة بتخدير الشاي، إذ يقوم بغسل ورق الشاي الجاف قبل إضافته إلى الماء الفائر الموضوع على الجمر، وبلحظة معينة يضيف أعشاب خاصة يجمعها من الفسحة الكائنة على قمة من قمم سلسلة جبال «متين»،

تعطي للشاي نكهةً وطعما مميزًا ومختلفًا، لم أذق مثله حتى هذه اللحظة. قلت مع نفسي:

- إما أن في علاقة صاحبي المسرحي سرًّا ما مع «أبو لينا»، وإما أن يكون «أبو لينا» من نمط المثقفين الموسوعيين، الذين كنت ألتقي بهم في بغداد أواسط السبعينيات وكانوا يلزمون الصمت ولا يعلقون إلا عند الضرورة، طوال جلسات الحوار الضاج في بارات «أبو نواس»؟!.

لكن الاحتمال الثاني راح يضعف رويدًا.. رويدًا، مع تكرار تلكؤه في أي حوار، واكتشافي أن « أبا لينا » يوفر لـ «عدنان » العرق المهرب من القرى المسيحية سرًّا إلى القاعدة.

عند هذا الموضوع، قاطعوه:

- شو شرب الخمرة ممنوع في الجبل.. شو من منعه؟!.

بدتِ الأصوات مستغربة جدًّا، فعلق «إبراهيم» ضاحكًا:

- ممنوع.. يعاقب الرفيق على الشرب عقوبة شديدة بقرار من آيات حوزة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي!.

ضجَّ الجميع بالضحك، فيما كان الجميع منغمرًا فيه التفت نحو «مريم»، فرآها قد غادرت تكورها، واستقامت بجذعها العلوي فنهد ثدياها الصلبين من تحت القميص الناعم، محملقة نحوه بعينين مفتوحتين، فبان عسلهما الصافي اللامع تحت ضوء مصباح معلق على الجدار المقابل لجلستها.. أحس أنها تلعقه بعينيها، ارتجف للحظة وشرد بعينيه؛ ليسمع تعليق الشاب الجالس في الناحية القريبة من الباب المردود:

- معقول.. حزب شيوعي يمنع على أعضائه الشرب!.

لم يرد الخوض في هذا الموضوع، فقال:

- هذا موضوع ثاني، دعوني أكمل القصة!.

صمت الجميع منشدّين إليه.

- صارحت صاحبي المسرحي مشككًا في ثقافة صاحبنا، قلت له إنه من عباد الله المساكين.. رمقني بعينين غاضبتين، واتهمني بالتعالي، وهمس وكأنه يكشف سرًّا :

- «أبو لينا» كاتب مهم لا يختلف عن أي كاتبٍ مشهور .. لكنه صامت كشخصه في الحياة الاجتماعية.

قلت له يعني:

- قصة «البريكان» البصراوي نفسها،

«أبو لينا» أيضا من البصرة.

قال بكل ثقة:

- نعم إنه كذلك!. قلت له:

- كيف يا صاحبي؟!... بصّرني!.

قال:

- أستطيع، لكن أريد منك وعدًا إذا جلبت لك نصًّا له أن تدع الأمر سرًّا.. الموضوع صار مختلفًا، قلت في سري.. قد أكون إزاء كاتب عراقي غامضٍ صامتٍ، عاش تجاربَ قاسية يكتب بصمتٍ. قلت: إذن سيُعلمني

الكثير!. وعدته بعدم البوح مقابل قراءة نصه الروائـي، الـذي أخـبرني أنـه في طور الإنجاز..

في الظهيرة التالية لحديثنا، أخذني صاحبي المسرحي على انفراد، وأخرج من جيب سرواله دفـترًا مدرسـيًّا مـن ثلاثـين صـفحة، مكـورًا عـلى هيئـة أسطوانة، وقال لي: سوف تقرأ نصًّا اللغة فيه، والموضـوع يتفـوق عـلى لغـة «عبد الـرحمن منيـف».. لم أكـن أشـك بـذوق صـاحبي المـسرحي خـريج أكاديمية الفنـون الجميلـة ببغـداد، والـذي أخـرج عديـدًا مـن النـصوص المسرحية الشعبية، وقدمها في قواعد الأنـصار في الجبـل. قلـت مـع نفـسي، شاعرًا بمزيج من الفخر باكتشاف كاتب عراقي جديـد، وحـسد المنافـسة، فأنا بدوري أَكتب قصصًا ومقالات:

- لعلني أمام كاتب صامت!.

تقتُ بفارغ الصبر ورود المساء حيث نؤوب إلى غرفنا.. وفي تلك الغرفة التي بنيتها بيدي على السفح، والتي لا تسع إلا لفراشـنا المـشترك ومنـضدة أضع عليها الفانوس والكتاب.. رحلـت بعـد سـقوط زوجتـي في النـوم مـع الدفتر الصغير، وخط «أبو لينا» الرشـيق بحروفـه الناعمـة التـي أخـذتني إلى مجنون يكمن في الجبل لصيد غـزال بـري يـسمى «كيـوي».. ثلاثـون صـفحة مسبوكة الصوغ صفعتني وقتها.. صفعت لغتي، التي كنت أكتب بها في طلاوة الجملة المنسابة اللاهثة المناسبة لفعل لهفة صياد، يخسر صيده في كل محاولة.

في اليوم التالي قلت لـ «عدنان»:

- أريد الحديث معه على انفراد، فما قرأته في الدفتر شيء مذهل، بالمقارنة مع ظروف حياة «أبو لينا» والنوادر الدائرة حوله.

أجابني محرجًا:

- إنه خجول.. لا يريد الخوض بأي حديث عن هذا الدفتر هذا أولًا، وثانيا أنا لم أخبره بأني أطلعتك على الدفتر!.

أصررت على الحديث معه على انفراد، وكنت موقنًا وقتها: إذا كان فعلا «أبو لينا» كاتب مثل هذا النص الذي قرأته، فخسارة إذا لم يكتب عن الحياة التي نعيشها كثوار في الجبل.. كنت أريد الخوض معه فيما يتعلق بتجربته الخاصة جدًّا في الكفاح المسلح.

- أتدرون فداحة التجربة التي عاشها؟!.

وجه «إبراهيم» سؤاله إلى المنصتين بدهشة، وأخذ نفسًا عميقا وصمت دقيقة، وهو يتفحص الوجوه في محاولة لجس مدى رغبتهم في مواصلة الإصغاء.. هبوا وكأنهم ينهضون من عالم آخر:

- ما هي.. ما هي؟!.

امتلأ «إبراهيم» بنشوة من لهفتهم.. فكر بـ «مريم» الأوكرانية.. من المؤكد أنها تراقب إنصات الحضور لما يقول مندهشة، رغم عدم معرفتها العربية. صمت هنيهة وشمل الوجوه المنتظرة بعينيه ومدَّ يده نحو كأسه المترعة بالفودكا.. عبها دفعة واحدة على طريقة الروس، وكان يظن أنه يتقرّب في فعل الرشف دفعة واحدة من «مريم» المتوهجة على بعد مترٍ لا أكثر.. مسح حافة فمه، وتأمل الوجوه التي رآها في نشوة الخمرة المتصاعدة حميمة قريبة، وكأنها وجوه إخوته وأخواته العشرة في بيتهم،

الضيق بغرفته الوحيدة، قبل أكثر من أربعين عامًا في «الحي العصري»..
واصل الكلام بنبرة ساخنة وهّجها شعور الأخوة المباغت:

– قصة عجيبة!.. هل تودون سماعها؟!.

سأل بنشوة قصاص شفهي، فردوا على الفور:

– نعم.. نعم!.

– أنتم لا تعلمون طبعا أن «أبا لينا» كان من أوائل المقاتلين الذين تسربوا من خارج العراق من جنوب لبنان تحديدًا، إلى كردستان عبر الحدود التركية والسورية أوائل الثمانينيات.. وقتها كانت السلطة قوية جدًّا، مسيطرة حتى على القرى البعيدة في الجبال النائية.. وكانت مفارز الثوار تجوب تلك القرى النائية بحذر، ولا تستطيع المكوث فيها إلا ليلًا؛ إذ تغادرها قبيل الفجر.. أما حلم إسقاط النظام، فوقتها كان مستحيلا، يتهرب الثوري من التفكير فيه حتى لا يُحبط..

كانت الظروف صعبة والتنقل فوريًّا، لا يحتمل أي طارئ.. وكان طارئ مفرزة من تلك المفارز هو مرض «أبو لينا» الغامض.. حرارة مرتفعة جدًّا، أقعدته عن الحركة، لا أدوية، لا طبيب، لا غذاء، استحالة البقاء في قرية معرضة لدخول الجيش في أية لحظة.. يضاف إلى تدهور حالة «أبي لينا» ساعة بعد ساعة؛ مما جعل المفرزة تعتقد بأنه موشك على الموت. ولما كان الوضع خطيرًا واحتمال وصول قوات السلطة في أية لحظة.. اضطرت المفرزة إلى تركه في بيت شيخ القرية جوار الجامع، واتفقوا على ترتيبات الجنازة معه، فدفعوا تكاليف الدفن.. ومع آذان الفجر قبيل الضوء، غادروا القرية وتركوه على فراش الموت.

لزم الصمت بغتةً.. وحدق في الوجوه المذهولة السارحة في محنة الثوري المريض.. قال مع نفسه:

- أية لذة هذه.. لذة القص الشفهي!.

انتشى متلذذا بلهفة وجوه الطلبة المنصتين، واقعًا على سرّ «شهريار»، قال في سره:

- الوهم رب السرد وطريقة القول ، ورسم الحدث بالكلام سرّ حكاية هذه الحياة، وشدّ السامع هو المفتاح، طوّلَ صمته مستمتعًا بفعل القص الذي جربه كتابةً، فلم يحس لذةً مثل لذة إنصات المستمع؛ فتمنى وهو يتأمل وجوه الطلبة أن يكتب قصصا تشبه ما يحكي لهم عن مصير رفيقٍ، عاد لا يعرف عنه شيئًا، فآخر مرة التقى به صدفةً، قبل سفره إلى روسيا بشهرين أمام باب «جامعة دمشق» جوار جسر «الرئيس»، كان يحمل قنينة عرق «ريان».. حضنه وسأله عن أحواله، فأخبره أنه في «الحسكة»، وهي محافظة سورية على الحدود العراقية، ويعاني من آلام بالقولون، وسوف يجرون له عملية جراحية في مستشفى «الحسكة»..

انفجر «إبراهيم» بغتة لاعنًا المسؤولين، حيث يتمتع من يكون قريبًا منهم، أو من يخشون من لسانه بالرعاية والتداوي لدى أفضل الأطباء والمستشفيات في «دمشق».. «هذا ما جرى له ولزوجته حيث عرضا على أفضل الأطباء»، بينما يُنْسى من يكون فقيرًا ساكنا في مدينة نائية، كما هو حال «أبي لينا». نصحه بعدم إجراء العملية في تلك المدينة النائية؛ وحرضه كي يطالبهم بنقله إلى «دمشق» أولًا، ثم يطالب بعرضه على الأطباء فيها. كان

الوقت ظهرًا والشمس ساطعة.. عانقه مودعًا، خازنًا قسماته الناحلة، المعروقة، الساكنة، وفمه الذي تأتأ بهمهمة مبهمة.

لم يزل يتأمل وجوه الطلبة المنتظرة وعيونهم، التي تستحثه لمواصلة القص، فقال مخاطبًا نفسه:

- «إبراهيم» تمتع واحكِ لهم.. وكأنك تكتب وحيدًا على ضوء فانوس، كما كنت تفعل في غرفتك الضيقة بالجبل، أو حينما تكون في مفرزة جوّابة وتعود من نوبة حراستك، وترقد جوار محراب صلاة جامع قرية منسية!.

أطربه خيال الخاطر، فتبسّمَ وشرع في الكلام:

- هذه الحكاية لما سمعتها شغلتني أيامًا، لا بل شغلتني ولم تزل إلى هذه اللحظة ، وأنا أرويها لكم.. تخيلت نفسي في مكانه وحيدًا مريضًا عاجزا لا أعرف الكردية، ثاويًا على فراش في غرفة بيت شيخ جامع قرية لا أعرف اسمها، وأمر بها أول مرة، وشبح الموت يحوم حولي، وكل ما فكرت فيه كثوري يتبدد في تلك اللحظات.. العنفوان والعزم والمقاومة وحتى رفاقي تركوني وحيدًا. سهرت ليالي طوالًا ماسكًا قلمي، تحت ضوء فانوس مرتجف شاحب الضوء.. رائيًا فراشًا منزويًا في غرفة، يحتضر فيها ثوري عافه الكل.. لكن القلم عصى عليَّ، فالمشهد والحالة من القوة والعنفوان وقتها لم أصلها بالحرف فقط بل بالحس.. وبقيت ولم أزل حتى هذه اللحظة أحلم بكتابة قصة عن مصير «أبي لينا»، التراجيدي الشبيه بمصائر شخصيات «شكسبير».. عشت هواجس ليله المحموم وغربته لغة ومكانا ومصيرا، وكتبت عن هذيان وحدته، لكن

في كل مرة أمزق ما كتبت لعدم قناعتي بكلماتي، التي لم تستطع الرقي لمخيلتي، وأنا أعيش وضعه البشري في تلك التجربة..

كنت أعيش تفاصيل حسية تتعلق بعمق الخذلان الهابط في لحظته حتى جذورها، وهو يراهم يغادرون القرية من دونه، كنت أرى المشهد كاملاً.. هو يرقد على فراش بزاوية غرفة فقيرة عارية الجدران، ومسؤول المفرزة يتباحث مع شيخ الجامع في الزاوية القريبة من الباب، ومن وهج الحمى الصالية جسده، يحملق بعينين عاجزتين نحو الرفيق، وهو يناول كيس نقود للشيخ، ويغيب خلف ضلع الباب المفتوح.. تخيلت المشهد وبقية القصة!.

صمت «إبراهيم» وشمل الجميع بنظرة فاحصة، ولم ينس أن يتوقف للحظة خاطفة على كتلة «مريم» المنتصبة والمنصتة، وكأنها تعرف العربية.. وجدهم يمعنون في الدهشة والصمت والانتظار.

تبسّمَ «إبراهيم» وخاطبَ نفسه:

- هأنت تجعلهم ينسون القصة الأصلية التي شرعت في روايتها، وينشغلون في تفاصيل عن مصير الثوري المتروك داخل غرفة في قرية منسية، وكأنهم يفكرون هذه اللحظة في «جيڤارا» في قرية بأحراش بوليفيا قبيل القتل.. يا لسحر السرد.. لكنك يا «إبراهيم» سوف تفقد غرض القصة والليلة والجلسة، ومريم التي يقول قلبك أنها ستؤوب ناحيته هذه الليلة!.

وسّع بسمته شاعرًا بالمرح من فرط صمت الوجوه المتوثبة المنتظرة المشدودة نحو شفتيه، وقال:

- لم أكتب عنه حرفًا، لكنني لم أزل مثله وكأنهم تركوني، ودفعوا تكاليف دفني لشيخ جامع في قرية لم يعد لها وجود!.

لقط نفسًا وأردف:

- رتب صاحبي المسرحيّ موعدًا معه.. وجوار شجرة توت على حافة مجرى جاف في باطن وادٍ، أقبل نحوي مرتبكًا.. صافحته بحرارة وأبديتُ إعجابي بما كتبه عن ذلك «الكيوي»، العصيّ على الصيد والذي صورهُ بدقة، وكأن المكان هو جوار نبع تحت قمة الدوشكا المظاهرة لمدينة «العمادية»، التي أعرف تضاريسها الموصوفة.

لم ينطق بكلمة.. بدا ملبد الملامح، وكأنه في حضرة محقق.. لم أحس بذلك بشكلٍ مباشر، بل لاحقًا وأنا أتأمل الحكاية وترتيبها. أتذكر بالضبط أنني قلت له: لديك لغة رشيقة مكثفة، أسرتني فلم تخفِ هذه النصوص عنا.. نحن في عطشٍ إليها، رغم أنها تحكي عن تجربة بعيدة عنا « محاولة صيد غزال بري مستحيلة».. أتذكر المشهد الآن بوضوح شديد.. كنا نقف تحت شجرة توت، سوف أدفن في حفرة جذورها المعراة بسيول الربيع رفيقًا آخر، قضي بقصفٍ بغازات كيماوية في السنوات اللاحقة..

كنت أفيض في الكلام والإعجاب، وكان يمعن في الارتباك والتأتأة التي حيرتني وجعلتني مرتبكًا أيضا وحائرا، بين متانة النص الذي قرأته في الدفتر، وارتباك كاتبه الواقف في ظلال شجرة التوت في تلك الظهيرة.. لكنني في نهاية المطاف قلت له:

– «أبو لينا» مادامت موهوبًا بحيث كتبت هـذا الـنص، لم لا تكتـب عـن تجاربك الأكثر غرابة والأهم، مثـل تـرك مفـرزةِ أيـام الكفـاح المـسلح الأولى لشخصك في قرية، معتقدين موتك القريب. أليس في هذه التجربة عمق يفوق محاولة صيد خائبة لغزال بري في جبل؟!

أمعن في التأتأة والارتباك، وهو يثني على ملاحظاتي.. لكـن لمـا اسـتدار وتسلق المسلك الجبلي الـصاعد، نحـو موقـع مقاومـة الطـائرات المـسؤول عنها.. لبثت واقفًا في مكاني في ظل شـجرة التـوت الوارفـة، أتـابع بعينـين شكاكتين بقصة كونه كاتبًا، وبهذا التماسك السردي والـصمت الأدبي، مـع خبرتي بصخب العراقي لما يكـون موهوبًـا. تابعـت خطـوه البطـيء، وهـو يدلف بين صف أشجار، تظلل المسلك الصاعد مع مجرى نبـع المـاء حيـث موقعه، الذي يبعد ساعة كاملة.. قلت مع نفسي:

– سيكتب هذا الصامت أعظم النصوص العراقية!.

قلتُ ذلك لما غاب خلف صف الأشجار صاعدًا، لكن في الليلة نفـسها فُجِعْتُ بهِ!.

قال ذلك وكفَّ عن الكـلام، متـأملًا المنـصتين بلـذة.. وَجَـدَ الـصمت مطبقًا والوجوه صاغرة منتظره مآل القصة وشـكل الفاجعـة. تعمَّـد لـزوم الصمت والتحديق، وكان يرمـي «مـريم» الجالـسة جـواره بفـرق كـرسي، بنظرات أكثر حدةً، وكأنه يقول لها:

– شوفي ما أفعل!.

سكتَ حتى طفح كيلهم، فهتف «جلال التونسي»:

– «إبراهيم» لا تلعب بأعصابنا.. كمّلْ!.

هتف الجميع مؤيدا.. بلغ ذروة «شهرزاد»، وبات على يقين أن الروي بالكلام أمتعَ من الروي بالحرف.. برك في لذة فريدة، والوجوه الفتية الناعمة تنتظر البقية قائلا مع نفسه، قبل أن يواصل:

- و- قصتي ليست متخيلة ولاتحتاج إلى ترتيب حبكة، بل ما أروي هو ما حدث حقًّا لي وللشخوص. ويا لسهولة الروي هنا. ما عليَّ سوى وصف خيبتي في مساء ذاك اليوم، الذي تبادلت فيه الحديث مع «أبي لينا» المسكين!.

عدت ليلتها إلى غرفتي الضيقة المنزوية أسفل سفح جبل.. حشرت نفسي جوار منضدة صغيرة تسع الفانوس والكتاب مفتوحًا، مفسحًا المجال لحبيبتي كي تنام براحة، فتحتُ رواية «عبد الرحمن منيف»، التي استعرتها من مكتبة القاعدة ـ حين تركنا الجسر ـ وبعد عدة صفحات، أحسست أنني قبل أيام مرت بي هذه الجمل والتراكيب اللغوية.. لكن أين ومتى، وأنا لم أقرأ رواية «منيف» من قبل؟!.

وفجأة لمع الخاطر، فهرعت إلى دفتر «ولد سالك» الموضوع تحت المنضدة وفتحت صفحته الأولى، وقارنت مع صفحة الرواية الأولى.. دققت في الحروف والجمل والقصة، فوجدت أن كل ما كتبه « أبو لينا» هو مجرد «إعادة تركيب» للصفحات العشرين الأولى من رواية «منيف» مع تغيير طفيف، تقدم وتأخر لتحويل السرد إلى الوجهة التي يريد وتوظيفها لعرض لهفة الثوري الشارد، الذي يفكر بصيد غزال بري مستحيل.. شعرت بالشفقة على ما خطه «أبو لينا» في

دفتره، فهو فعلا كان ينصب الكمائن في الجبل لـذلك الغـزال الـبري، دون أن يصيبه مرةً.

وصمت «إبـراهيم».. وكأنـه أتـم القـصة، حملقـوا بـه بعيـون مفتوحـة وهتفوا:

- وماذا فعلت؟!. هل.. وهل؟!.

رفع كأسه نصف المملوء ورشف رشفة صغيرة، وشمل الوجـوه وجهـا وجها، تريث قليلا كما يفعل مـع كـل وقفـة عنـد قـسمات «مـريم» الرانيـة نحوه.. وبدت الوجـوه مذهولـة بالـصمت والعيـون المحيطـة بـه، وكأنهـا تستجدي.. أعاد الكأس إلى مكانها قائلًا مع نفسه:

- لا بد من نهاية ما لكل قصة، وما النهايات المفتوحة غير بدعة لا تلبـي فضول الإنسان!.

وندم على كل قصة كتبها بنهاية مفتوحة.. أراد اللعب قليلا، فقال:

- لا شيء!.

هبوا مستنكرين:

-كيف لا شيء؟!.

كان يعرف أنهم ينتظرون نهاية حـادة، ظـانين ومتخيلـين الـذروة لحظـة مكاشفة «أبي لينا» بسرقته!.

- لا شيء.. أقول لا شيء، حملت الدفتر في اليـوم التـالي إلى صـاحبي المسرحي، وجلسنا على صخرة منعزلة بعد وجبـة الغـداء، وطلبـت منـه

مقارنة الجمل سطرا.. سطرًا.. كنت أراقب قسماته المتضجرة، وهو يهوي حتى السطر الأخير من الصفحة الأولى متنقلا بين الدفتر والرواية، إلى أن رفع وجهه، الذي بدأ ينضح بغزارة نحوي، وقال مرتبكًا بصوت واهن:

- أرجوك «إبراهيم» دع الأمر بيننا.. مسكين.. هذه الفضيحة ستجعله محط سخرية بين الثوار في أنحاء كردستان!.

لزمتُ الصمت، وبقيت علاقتي بـ «أبي لينا» قوية، فهو شخص ظريف يخزِّن لنا العرق المستكي المهرَّب من القرى المسيحية.

سأل «جلال»:

- حتى هذه اللحظة لم تكاشفه!.

- نعم.. حتى هذه اللحظة!.

لقط «إبراهيم» أنفاسه وعبَّ وَشل كأسه، وأردف:

- «جلال».. لقد نسيت الأمر تمامًا.. والآن في هذه الجلسة تذكرت هذه التفاصيل!.

قال ذلك وأردف ضاحكا:

- اسمعوا من نوادر «أبي لينا».. كما قلت لكم هو طويل نحيل، لا يغادر «الدوشكا» إلا لغرض جلب العرق من قرية مسيحية قريبة، وكان لا يحب المشي.. يكره ذلك بعد أن ظل طوال أكثر من سبع سنوات، يتجوّل بين قرى الجبل والحدود، فكان يركب على بغل المقر المحمل بأكياس التموين، وفي

مرة.. وبينما البغل ينزل بعناء من قمة الجبل صوب مقر الفصيل، فقد «أبو لينا» توازنه، وسقط مرتطمًا بضجة على صخور منحدر السفح، فصدرت عنه صرخة قصيرة، كتمها فورًا أثناء تدحرجه حتى حافة المنبسط الضيق.. ركضنا مذعورين وجلين ظانين أن ظهره انكسر.. نزلنا نحوه وأحطنا به متلمسين جسده، وهو يحاول الانتصاب متسائلين:

- «أبو لينا» سلامات!.

أزاح أيدينا مبتسمًا بنشوة، وقال:

- ما صار شيء.. ما انكسر!.

صمت «إبراهيم» شاملاً الوجوه المنصتة بعينين، تتأرجحان على حافة الضحكة الهادرة.

سألوا:

- شو هو اللي ما أنكسر.. ظهره!.

- لا.. قنينة العرق المخبأة في حقيبة القماش المعلقة على ظهره!.

ضج الجميع بالضحك العاصف، وفيما انشغل الجميع بهدير القهقهات.. التفت نحو «مريم» فوجدها تحملق فيه بعينين شبّتْ فيهما النيران، أو هكذا خيل إليه في تلك اللحظة الخاطفة، فصعدت به النشوة إلى مناحٍ، وكأنه في عربة القطار الخائض في ظلمة سهوب روسيا وإزاءه على السرير الضيق اليهودية البيضاء.. وبينهما كتلة «عزيز» الخشنة. نشوة لا مرسى لها، خطفته إلى الأعالي من هدير الضحك الضاج إلى فسحة تشبه

الجنة.. هدأ الضحك وراحـوا يمـسحون عيـونهم الدامعـة بالمناديـل وقفـا الكفوف، متسائلين عن وجود «أبي لينا» الآن. قال لهم:

- لا أدري تركته خلفي في الشام!.

سألوا:

- ماذا يفعل؟!.

أجاب ضاحكاً:

- يعمل في البناء عاملا كي يحصل على ثمـن الـشرب!. ولـشدة العـوز أصبح لنصائحه مريدون من رجـال العـصابات، الـذين وجـدوا أنفـسهم عاطلين مرضى، غـير قـادرين عـلى العمـل أو الأمـل.. ينتظـرون معجـزة الوصول إلى الدول الاسكندناڤية.. أشهر تلك النصائح هـي التـي يطلقهـا قبيل الشرب قائلًا للجليس:

- لا تأكل مو زين؟!.

فيسأله:

- لماذا؟!.

- كِلْ لقمة إِطيرْ بيك!..

لم يفهموا فحوى جملته باللهجة العراقية للوهلة الأولى.. شرحها لهم، فضجوا من جديد بالضحك!.. أنهى حديثه عن «أبي لينا» قائلا:

- «أبو لينا» هو من كان يجلـس عـلى مقعـد الدوشـكا الـدوار؛ ليقـاوم الطائرات العراقية المغيرة على الموقع بين يومٍ وآخر. فتخيلوا!.

ضجوا من جديد بضحكة مجلجلة!. وتلك فرصة لمخالسة مريم النظر.. وجدها ترمقه بشرود، فشعر بالنشوة تنتشر بكل أنحائه.. صار خفيفا يود لو يحلق في سماء الغرفة الضيقة.. وما أن هدأوا من موج الضحك حتى اقترح عليهم تبادل إنشاد الأشعار، أسمعوه شعرا لبنانيًّا عاميًّا.. كان ينصت بعمق، ويعب من كأسه رشفات محسوبة، قائلا مع نفسه:

- لابد من الذهاب إلى ذروة ما في هذه الجلسة!.

زادت الأشعار العامية باللهجة اللبنانية الأنثوية من نشوته وأخذته إلى مناحي «الحلاج»، ورغب بشدة في إنشاد بعض أشعاره. فانتظر سانحة وقال لهم:

- هل قرأتم «الحلاج»!.

تلكأوا في الإجابة، تعجب من ذلك.. لكنه تذكر أنهم عبيد الأيديولوجيا وثقافتها العرجاء.

- سأسمعكم!.

سكتوا منتظرين.. تفحصهم وجها وجهًا.. مبتدئا من وجه «جلال» الجالس جواره إلى اليمين؛ ليصل إلى «مريم» الجالسة جواره إلى اليسار بفرق صاحبها.. تلكأ ناظره على قسماتها، التي راحت تضيء وتطلق وهجًا من عينيها المفتوحتين إلى آخرهما، واللتين تتابعان كل حركة يأتي بها.. تزحزح قليلا، ودفع الكرسي إلى الخلف؛ ليستقيم بقامته الفارعة قائلا:

- هذه الأشعار تنشد وقوفًا!.

أغمض عينيه ، وكأنه يعتنق ذاك الشاعر الشهيد.. استرخى تمامًا قبيل النطق بأبيات، حضرته بغتة مثل لمع برقٍ:

يا نسيمَ الرّيح، قُولي لِلرَّشَا — لَمْ يَزِدني الوِرْدُ إلا عَطَشَا

لي حَبِيبٌ حُبُّهُ وَسطَ الحَشَا — إن يَشأ يَمشي عَلَى روحي مَشَى

رُوحُهُ رُوحي وَرُوحي رُوحُهُ — إنْ يَشَأ شِئتُ وإن شِئتُ يَشَا

تعالت الآهات والصرخات، وطالبوا بالمزيد.. حملق في وجوههم المنتشية المكتشفة صراخ «الحلاج»، فأيقن بأن الجلسة ستفضي إلى ذروة.. لا يدرك شكلها الآن.. لكنها سائرة نحو ذلك. أغمض عينيه وأنشد المزيد من أشعار الحلاج، وكلما أكمل عدة أبيات، طالبوه بالمزيد ووجوههم منتشية كأنها سكرتْ، لا من الخمرة، بل من الشعر.. بينما استمر هو و«جلال التونسي» في الشرب.. ألقى كل ما كان يحفظه من أشعار «الحلاج» واقفًا منتشيًا بالوجوه المتأوهة، المتمايلة، الصارخة:

- الله.. الله.. الله!.

لما جلس بدأ حوار متشعب عن «الحلاج».. حكى لهم ملخص مقتله في ساحة ببغداد، واصفًا مشهد تقطيع أوصاله ورجمه بالحجارة من أهالي بغداد بشيء من التفصيل؛ ليصل بهم إلى لحظة رمي وردة من مريد له وصرخته لما مست جسده.. انشغل عن وجه «مريم» قليلا، ثم تفقدها، فوجدها مشغولة في حوار مع صاحبها اللبناني الذي بدا منفعلا.. التفت نحوه وسأله:

- كم عمرك؟!.

أطرق قليلا مفكرا، ثم تملى وجهيهما المتسائلين محاولا سبر الأمر.. تاه في التخمين دون أن يجد تعليلًا ما للسؤال المباغت.. الأمر ملتبس.. الوجهان منفعلان، في قسماته غضب وانزعاج مقابل نشوة قسماتها ونيران متأججة في عينيها المحملقتين فيه، دون أن تطرفا.

- ما مناسبة هذا السؤال؟!.

ألقى «إبراهيم» سؤاله بصوت، رقّ تحت إلحاح عينيها الدانيتين.

- تراهنَّا أنا و«مريم» حول عمرك؟!.

قال مع نفسه:

- صحَّ ظنك يا «إبراهيم»!.. هاهي «مريم» تبحث عنك!. فماذا تقول؟! من المؤكد أنها أبدت إعجابًا ما بك، وإلا ما تفسير علامات الغضب والانزعاج على ملامح عشيقها!.

أجاب بهدوء:

- ستة وثلاثون عامًا.

تهللت قسماته والتفت نحو «مريم» متحدثا بصوتٍ امتلأ ثقةً، وعاود النظر إليه مردفا بالعربية:

- قلت لها فوق الثلاثين، تقول لا في العشرين!.

تبسَّم «إبراهيم»، وهتف مع نفسه:

- اتضح الأمر إذن.. «مريم» أوكرانيا وَضَعَتْكَ في رأسها.. والسبيل إليها يعتمد عليك فقط .. كيف الوصول إليها في هذه اللجة، وزحمة الغرفة الضيقة وعشيقها الحارس؟!.

لم تزل تتابعه من تحت أهدابها شبه المسدلة، بعد أن عادت إلى صمتها وتكورها جوار جسد صاحبها النحيل.. رفع رأسه محدقًا بالسقف العالي، متخيلا أصابعها الناعمة الصغيرة بين أصابعه الضخمة نائمة مستكينة، فاهتزَّ جسده هزةً لم ينتبه إليها أحدٌ سواها إذ وجدها تلاحق بقايا الاهتزاز، فغمز لها فورًا بعينيه اليسرى غمزة واحدة.. تبسَّمت بطرف فمها، فهتف بصمتٍ مثل درويش:

- .. لو.. لو تمسها يا مسكين مدد.. ستمس باب الجنة .. مددد!..

بعد الغمزة والبسمة الخفية واتته القوة، فوجد جسده يطفح بالحيوية، رغم عبه أكثر من نصف قنينة من الفودكا.. حدثهم عن الفرح والدنيا والألم والغناء والعمر المار خطفًا والموت، الذي كان يحوم حوله في مدن العراق؛ حيث كان يختفي، أو بين الثوار في الجبل. وسألهم ألا من يستطيع الغناء، فدونه لا طعم للدنيا واللحظّةِ. فرنَّمَ القروي اللبناني الجالس جوار زوجته الروسية بمواجهته، عبر الطاولة، بموالٍ جبلي أعقبه بأغنية حب.. ظل يترنح طربًا لا من الغناء فحسب، بل من البصبصة والبسمات المتبادلة مع «مريم»، بعدما ظنَّ عشيقها أن إعجابها خفت لاكتشافها فارق العمر، فهي لم تتجاوز الحادية والعشرين كما أخبره، فتراخى منسجمًا مع المحيط، مخففًا من مراقبته الخفية لهما. في تمايله، كان يشحذ ذهنه؛ كي يجد مخرجًا يحول فيها هذه الجلسة؛ بحيث يستطيع التحرك والقرب منها:

- كيف السبيل إلى ذلك يا «إبراهيم»؟!.

- ...!.

- كيف يا «إبراهيم»؟!.

كان يهتف سرًّا وعيناها المتوهجتان، تلاحقان تمايل جسده المتأرجح على صوت المغنى.. خف الغناء وبدأ الكلام، فانفرد فيه، وكأنه جالس على منبر في جامع «حي العصري»، وبدلا من الحديث المرتب عن مقتل آل البيت ويوم الطف.. شرع في الحديث عن فقاعة الدنيا و«شاكر ميم» المصور الفوتوغرافي الزنجي، القادم من الناصرية كما يقال.. عن قامته النحيفة وكرسيه البالي على الرصيف؛ حيث يجلس كل عصرٍ يحدق بالمارة، ويدخل بين الحين لأمرين اثنين: إما لقدوم من يريد التصوير، وإمّا لِعبِّ كأس من العرق السادة. عن جملته، التي خطها بنفسه وعلقها على واجهة المحل «الحياة لحظة.. الحياة فقاعة فصورها قبل أن تنفجر»، والتي أخذته منذ أيام إلى مناحٍ وتجارب لم يظن أنه سوف يمر بها..

حدثهم عن اليهودية بالقطار وعن الأرملة في البار والشقة المعلقة العجيبة، التي لا يعرف الآن أين تقع؟!. ، وعن الزوجة البعيدة والحب العجيب المنبثق باللحظة والمكان..حدثهم عن الموت وضفته الغامضة، منذ فجر الحضارات وبلاغة «شاكر م» في اللحظة.. كانوا ينصتون بذهول، من لم يعرف غير أفق واحد رسمته الأيديولوجيا، ما عدا - «جلال التونسي» - الذي كان يكبرهم سنة وتجربة بأعوام.. كانوا يحدقون بولهٍ، كما كان يحملق - هو - بالمثقف الصيدلي «عزيز حسون

الكربلائي»، أو الرسام «نايف السامرائي» أو « منقذ شريده» النحات، أو بـ « عزيز السماوي» الشاعر.. قبل أكثر من عشرين عامًا في بار «سرجون» على «أبو نواس» ببغداد. الدهشة نفسها.. الانفعال نفسه المرتسم على الوجوه المحدقة به بخشوع كما خشوعه وقتذاك، خشوع فتح له دروبا شائكةً، وأفضى به إلى هذه المناحي المقفرة في عواصم لا يدري كيف بلغها وما سيؤول إليه؟!.. حملهم إلى مناص اللحظة الحارة لحظة الكلام، وهتف صارخًا:

- دعونا في جوف الحاضر.. باطن الفقاعة!..

هبوا مثل مخدرين سائلين:

- كيف؟!

- نستمتع بلا كلام!.

صرخوا مثل سكارى:

- كيف؟!.

هب واقفًا شادًّا قامته الفارعة بكل ما بوسعه، فبدا مثل صقر خيَّم على الجلوس، وصرخ:

- الطاولة.. الطاولة.. تخنق أنفاسي!.

هرعوا بحماسة نساءً ورجالا؛ لينقلوا الصحون التي مازالت مليئة بأصناف الطعام، لم ينس أن يحجز قنينة فودكا لم تفتح بعد.. قام بدسها بين كرسيه وكرسي «جلال المجاور».. لما بدت ساحة الغرفة فارغة صرخ مثل

مجنون.. كـان مـنفعلًا حتـى أنـه نـسى «مـريم»، منـدملًا بجـوف الفقاعـة والساحة والرقص:

- الموسيقى.. الموسيقى؟!.

وضعوا الكاسيت واحتدم الرقص.. صار مثل درويش في لحظة وجدٍ.. لف في الفسحة الضيقة صارخًا:

- فقاعة..لحظة الحياة.. فقاعة.. لحظة، فقوموا!.

لم يدع أحدًا في جلسته.. الكل قام إلا «مريم» التي وقف عشيقها اللبناني جدارًا بينه وبينها.. في اللجة الصاخبة، لم يهتم للأمر بل كان في سورة وجـدٍ صوفيٍ، لا يفهمه إلا من عـاش في الحـي العـصري بالديوانيـة، أو مـن رأى «شاكر م» المصور الزنجي.. أو صادق الـشاعر «عزيـز الـسماوي».. جعـل الكل يرقص وهو، وحيدًا، يفتل قامته بطريقة هي مزيج من رقـص الغجـر الإسـباني، ورجفـة كتـف الرقـصة العراقيـة الـشديدة الفحولـة، وصرخـة الدراويش المبهمة، وهو يفتر بين الأجساد الغائبة في الإيقاع:

- مدددددددددددددد.. مدددددددددددد!.

كان ينفض رأسه لحظة اللفظ؛ طلبا للمدد المـأمول مـن الـسماء المثلجـة خلف النافـذة، ومـن عينـي «مـريم» الشاخـصتين المـشتعلتين دون حـول ولا قوة، وعشيقها اللبناني صار يرقص في نقطة محددة حاجبًا عنها المـشهد، فتميل بجـسدها الغـض، متكئـة عـلى الجنـب؛ كـي تطيـل رقـصه المنتـشي وصراخه المجنون، وهو يستدعى «شاكر م» وجوف فقاعته العظيمة، التـي سحب إليها كل هؤلاء الطلبة العرب الثوريين بغتةً.. كان يقول في سريرته:

- لو عملت المستحيل يا رفيقي.. صاحبتك خَيِلَتْ.. والمرأة لا يمنعها شيء ولا حيطان الدنيا!.

انشغل «إبراهيم» في ترقيص النساء والرجال.. رقص مع «أستيرا» صاحبة «جلال التونسي»، ومع زوجة المغني اللبناني القروي، ومع كل النسوة بروح الراقص المحايد البريء في ضيق الغرفة المزدحمة.. كان يصرخ:

- في جوف الفقاعة نشب!.

في جوف الدنيا نذوب

في جوف اللحظة نضيع

في جوف «ميم» لا نجد أنفسنا

في جوف المنفجرة بعد لحظة

نتجلى ونغيب!.

كان ينشد القصيدة تلو القصيدة في وجدٍ لا ضفاف له.. سواها إلى أن وجد منفذًا لما تعب عشيقها متهالكًا على مقعدٍ مجاور.. لم يترك الفرصة السانحة تمر.. تقدم نحوها بخطوتين مادًّا ذراعه كي تقوم وتراقصه.. تشبثت أصابعها بأصابعه حارة، متشنجة، متشوقة إلى درجة لم يتوقعها!. أخذها إلى صدره.. كانت لينة ليونة أنثى راغبة.. تمنى لو ينفرد معها، ولكنها بدت وقتها أمنية مستحيلة. في زحمة الرقص وضيق المساحة المحشودة بالأجساد، همس لها برقم بنايته، والطابق ورقم الغرفة.. كانت ترمقه أثناء الرقص بعينين مترعتين بالدهشة والرغبة.. خيل إليه أنها أومأت

برأسها موافقة، ولكنه ظـل مـضطربًا، غـير مـوقن أنهـا فهمـت أو عرفـت أو حفظت الأرقام.. فانسل من زحمة الأجساد الراقصة إلى الممـر، وسـجل على ورقة صغيرة الأرقام، وعاد ليندس بينهـم.. البناية لا تبعد سوى ثـلاث بنايات فقط عن هذه البناية..

راح يصرخ ويهذي ويرقص ويراقص هذه وتلـك، حتـى أحاطهـا بـين ذراعيه.. وظـل يتحـين الفرصـة لتـسليمها الوريقـة، إلى أن رأى صـاحبها اللبناني يضم وجهه المتشنج بين كفيه، فوضع الوريقة براحة كفها.. التفتـت بغتة مثل قطة مذعورة؛ حيث يجلس صاحبها.. وعندما وجدته ضامًّا رأسه دستها بحركة خاطفة بين نهديها الـرامحين خلـف الـرداء الـضيق.. لحظتهـا اشتعل «إبراهيم» من جذره، فراح ينغم صراخ الدرويش القائم من مناحيه المنسية:

- مدددددددددد يا حبيبي مدددددددددددد!.

يا «مريم» العذراء مدددددددددددددددددد!

يا «فاطمة» الزهراء مددددددددددددددد!.

دخل فيما يشبه الغيبوبة، وكأنه حلَّ في الحلم، والمفتاح أصابع «مريم»، وهي تدس الورقة بين نهديها الصاخبين.. تجلى فيها، فطلب من الجميع الجلوس؛ كي يقدم لهم رقصةً.. جلسوا فبقى وسط الفسحة متوتر القامة منتشيًا لا بـالخمرة، ولكن بأصابعها الناعمة، وهي تخفي ورقته بين لحمها النابض..

وجد نفسه أول مرة يدير كل شيء.. والجميع ينـصت لـه. هـذا لم يجـده لا في بيت أبيه، ولا في العائلة لما تزوج ولا في تجربة الجبل.. بالعكس، كـان الجميع يستغرب ما يقول ويعتبره فجًّا عنيفًا، يذهب كلامه إلى موضع الجـرح

فيؤلم.. لكن أية رقصة.. كان يوتر قامته الطويلة الرشيقة مغمضا عينيه، ملتفتا صوب جهة ما مجهولة، باحثًا عن مقطوعة ما تناغم وضعه الحسي.

ساد الصمت دقيقة متوترة، وأجساد الطلبة المعروقة المنتظرة تطرف في جلستها؛ دهشة من هذا الكائن المتفجر الذي حلَّ بغتة.

صرخ دون أن يفتح عينيه:

- موسيقى.. موسيقى!.

كان يصرخ موترًا جسده رامحًا بوقفته، دون أن يفتح عينيه، راسمًا في مخيلته دهشة العيون المحدقة نحو قامته الطويلة الممشوقة في فضاء الغرفة.

ظل مشبوحًا هكذا حتى سمع إيقاع معزوفة شهيرة.. فراح يتلوى ويتوتر ويشب، وكأنه يريد بلوغ السماء بجسده الغائب في النغمة المتصاعدة رويدا رويدا، وكأنها الطريق الخفيف السلس نحو جنة مخبوءة في سماء دانية.. يتذكر «إبراهيم» لقطة خاطفة، حينما قطع الرقصة، وصرخ بصاحب «مريم» اللبناني الذي قام من كرسيه ليشاركه الرقص.. راح يتلوى بجسده النحيف بإيقاع أنثوي، يتنافر مع المعزوفة الرجولية العنيفة، لم يستمر سوى ثلاث أو أربع خطوات.. كان ينقل ذراعيه المرفوعتين باستقامة، متحركًا بإيقاع مستقى من الأغاني اللبنانية، فأمسكه «إبراهيم» بعنف، وقذف به نحوه كرسيه صارخًا:

- لا تشوه الإيقاع.. لا تخرب الرقصة!.

وقلد ميوعة رقصه.. فأثار عاصفة من الضحك.. توقف وصرخ:

- بل هكذا!.

ووتر قامته مستندا على أطراف أصابع قدميه، ودافعًا ذراعيه إلى الجانبين، وكأنهما جناحا صقرٍ موشكٍ على الانقضاض، واندمج بجسده، غير آبه بالوجوه المحملقة المندهشة. ما يتذكره «إبراهيم» من المشهد هو ملامح اللبناني، لحظة سقوطه على كرسيه المخذولة، وضياعه في سورة الرقص.. كان يصرخ أثناء رقصه صراخًا مذبوحًا، نازعًا ألم اللحظة وعنف التجربة، علنًا أول مرةٍ أمام جمع مأخوذ بحضوره.. يرقص ويصرخ.. يرقص وينادي منقذًا ما من الدنيا وعذاب العيش فيها. في تلك اللحظة اختلط كل شيء، فتداخل الماضي والحاضر والمخيلة والحلم..

وجد نفسه في يوم ماطر بسوق الشورجة ببغداد في مصنع صغير، يرقص على إيقاع الفلامنكو الإسباني مع «جار الله»، الذي ضاع في المعتقل.. وسط غرفةٍ ضيقة في «الحيدر خانة» يلاصق أحبته، الذين فقدهم إلى الأبد.. «كفاح عبد سوادي»، «هاشم لفتة»، «صلاح مهدي» الصياح، «علي عبد الباقي» البناء، «حازم الصمياني».. في تلك اللحظة يشعر بوجودهم الفيزيقي القوى إلى حد مس أجسادهم، فيهلهل جسده في الرقصة ويغيب في نشوة فريدة.. ولما يفيق منتبهًا للغرفة الغريبة والوجوه، و«مريم».. يُطعَنْ فيتلوى تلوى محتضرٍ، يشب منتفضًا، وكأنه يبغي الصعود إلى السماء.

***

حينما استيقظ «إبراهيم» صبيحة اليوم التالي، وجد نفسه يرقد على سريره وحيدًا في غرفة السكن الجامعي، التي حلّ فيها ليلة وصوله

«كييف».. أغمض عينيه شاعرًا بصداع شـديد، جعلـه يـوقن أنـه شرب كثيرا ليل البارحـة.. أنهـض بعنـاء نـصفه الأعـلى، واضـعًا قدميـه عـلى الأرض.. وشخص صوب النافذة المزاحة الستائر، والمفتوحة عـلى سـماء ملبدة بالغيوم الثلجية.. تلمس قسماته محاولًا التيقن من سلامتها، وكأنـه كان في حومة حرب.. هو فعلًا لا يتذكر سوى عنف اللحظات الأخـيرة لليلة الماضية. لكن أين كان؟!.ومع من؟!. وما سبب ذاك العنـف الـذي يشعر به؟!.

كل شيء بدا مبهمًا وسماء النافذة الوحيـدة المعلقـة الـشاحبة البيـاض، تخترق عينيه المتعبتين وجسده المنهك.. قـام بعنـاء وأعـد فنجـان قهـوة.. وعاد إلى السرير.. جلس على الحافـة متـأملا الغبـار المغطـي كـل شيء في الغرفة.. المنضدة، والسرير الآخر، والكتب القليلة المـصفوفة عـلى أدراج المكتبة الصغيرة، والأردية، وأشياء المطبخ.. خطف طيف زوجته وطفليـه مثل برقٍ في حلكةٍ..

هو فعلا تحول وجودها إلى دخان تبدد في السماء منذ اللحظة، التي طارت فيها إلى الدانمارك.. خطف وتبدد مثل دخـان ككـل الأشـياء التـي تـدلف في ثوب الماضي.. رشف من قهوته وحاول ترتيب أحداث الليلـة الفائتـة، لـيس لشيء بل ليعرف كيف وصل إلى السرير الذي يجلس عليه الآن.. وبغتةً بانـت كل التفاصيل منذ لحظة دخولهم الدعوة ومائدة الطعام و «مـريم» الأوكرانيـة إلى ما جرى.. لكن عند النقطة التي تلاشـى فيهـا في الـرقص وحيـدا وسـط الغرفة الضيقة يُسدَلْ ستارٌ أسودَ.. صبَّ فنجانـا آخـر، وعـاد لـيجلس عـلى

حافة السرير، ويرشف بهدوء قهوته قليلا.. قليلا.. تعجب من جرأته لما تذكر كيف همس لـ «مريم» بعنوان سكنه، تعجب لا من جرأته فحسب، بل من نذالته، وهو يحاول الإيقاع بعشيقة صاحب الدعوة..

لكن ما يشفع أو يبرر هذا الفعل هو جو السكر المتصاعد والأخيلة وما يفضي إليه مقام الحديث. طيب نفسه بهذا!.. لكن يريد الآن فقط تذكر كيف عاد إلى هذا السرير الجالس عليه.. سلسل الأحداث؛ ليكتشف أن في دخيلته خبثًا دفينًا لم يظهر في تجارب عمره إلا بهذه الجلسة العابرة، وإلا ما معنى محاولته الإيقاع بـ «مريم»؟!. لكن.. فكر قليلا هي كانت راغبة.. ومتوهجة نحوه بحيث أدخلته بمدارها عنوةً، وإلا فلمَ قبلت همسه والورقة وَتَقَبُّلَها لغزل عينيه!..

رشف جرعة من قهوته، وحاول تذكر لحظات الجلسة الأخيرة.. لكن كل شيء يضيع لما يبدأ في الرقص وحيدًا في فسحة الغرفة محاطًا بعيون المدعوين.. نهض واتجه نحو النافذة؛ ليطل على الشوارع المغطاة بالثلج وخطى الطلبة المتقاطعة نحو مقاصدها.. وحده لا مقصد له سوى العبث في فسحة عمره الذي ضايقته السنين.. سماء مثلجة غريبة.. وحيدا في غرفة ببناية غريبة.. لا صديق.. ولا رفيق.. ولا أفق.. تشاءم وتأرجح على حافة البكاء لما لمس في يده أثناء وقفته جسد زوجته الأسمر الحار، الذي ضاع في بلدٍ لا يعرفه هي وطفلاه، لاعنًا نفسه، وهي تمعن في تصديق خرافة «شاكر م» عن فقاعة العمر الموشكة على الانفجار.. صبَّ كأسا من الفودكا ورشفه محدقا ببياض النافذة الثلجي، وتوتر مركزا على لحظة

غيابه في الرقصة المنفردة.. لم يرَ سوى غيابه الأكيد في فضاء اللحن.. ورويدا .. رويدًا.. وجد نفسه، وكأنه يستيقظ من مخاض رحمٍ؛ ليجد نفسه في فسحة الغرفة الضيقة وحيدا معها هو يركع على ركبتيه، و«مريم» تتلوى بين ذراعيه المحيطتين بجسدها، دون مسٍ على إيقاع أسطوانة لا يعرف هذه اللحظة ماذا كانت؟!..

وجد نفسه يصرخ ويصرخ متلاشيا في رجفة خصرها الداني المائع الراجف في إيقاع، جعل جسد «مريم» يتجلى ويكشف كنوز حركته الخبيئة، متوهجا تلك اللحظة بين ذراعيه وعلى إيقاع صراخه المبهم.. صراخ مغتصب ينتفض معلنا عذابه.. في اللجة المضيئة تلك، التفت فلم يجد في الغرفة سوى «جلال التونسي»، و«سليمان الجولاني»، واللبناني عشيق «مريم» المتجلية في فسحة الفضاء المحصور بين ذراعيه، وهو راكع في الوسط، يحيط مثل سور جسد «مريم» الغائب في فلك المقطوعة..

في تلك اللحظة وهو معطلٌ في ركوعه، رأى عشيقها ينهض مخذولًا ويسحبها من بين ذراعيه ويلقيها بعنف على كرسيها، فتكورت ساكنةً، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتحدق من تحت أهدابها تطورات الموقف.. التفت صاحبها، وقال بصوتٍ مخذول:

- يا جماعة أنا تعبت!.

وحده «إبراهيم» كان يدرك ما نطق به اللبناني، وهو يتهالك جوارها منهكًا.. بينما احتدم «جلال التونسي» و«سليمان الجولاني» غضبًا من فعله،

معتبرين ذلك طردًا غير مباشر لهما.. فهجما على اللبناني بالعربية طبعًا فاضحين غيرته غير المبررة، مستندين على صدفة حضوره الجلسة، ووضع «إبراهيم» الاجتماعي والسياسي والأدبي وفارق السن، وعدم معرفته باللغة الروسية. استعاد «إبراهيم»، وهو يجلس محدقًا في الغبار والنافذة والسماء الثلجية، شعوره بنشوة، وهو ينصت لسيل التقريع الجارح وملامح «جلال التونسي» المحتقنة أثناء الكلام وأصابعه المهتزة بوجه اللبناني المسكين، الذي اضطر إلى الوقوف وترديد:

- لا تفهموني غلط يا جماعة.. تعبت.. والله تعبت!.

انشغل عنهم مخالسًا النظر إلى تكورها الذي استعاد هيئته الأولى، لما وقع نظره عليها لحظة دخوله الغرفة.. تحاشت التحديق نحوه رغم انشغال صاحبها، وهو يدافع عن نفسه دون جدوى.

احتدم الحوار.. فاقترح صاحبها التحول إلى المطبخ.. فقام معهم. يتذكر «إبراهيم» هذه اللحظة المفصلية، وهو يكتشف في نفسه نشوة التشفي بعاشقٍ مجروح، يكتوي تحت ناظريه بنيران الغيرة:

- أي خبث يكمن في عمق الإنسان!.

فهو لا يتذكر أنه كان خبيثًا في يومٍ ما، بل بالعكس المعروف عنه أنه شديد الطيبة..

- هل كان ذلك بسبب ضعفه وشعوره بالسحق المبكر؟!.

بات يميل إلى هذا التفسير، فها هو أول مرة يجد نفسه في موقع المسيطر يتشفى بالعاشق المخذول، لا يكشف عما فعله طوال الجلسة من أجل

التقرب لصاحبته، وكأنه ينتقم من تقديم العاشق لـ «ماريا» كونها أكثر من الشرقية تحفظا؛ إذ هتف لحظتها مع نفسه «شاب غض بلا خبرة لا يدري ما تفعله الشرقية سرًّا».. ما زاد من استغرابه من نفسه هو مشهد المطبخ الصغير.. سحبه «جلال التونسي» سحبًا..

كان العاشق فعلا منهك الجسد والروح منقادًا لكف جلال الضخمة.. لما توسطا فسحة المطبخ الضيقة، انفجر «إبراهيم» في مشهد مسرحي، مقلدًا هاملت، فخطب خطبة عصماء عن الحب والحياة والتجربة والغيرة، نائيًا بنفسه عن كل ما أحس به إزاء «مريم» وما خطط له، فصور نفسه نبي الثوار، وقرنها بـ «شبيب الشباني» الخارجي، الذي قاوم الأمويين في حرب عصابات، لا مثيل لها في العراق، وعشق «غزالة» زوجته التي لما طلبت منه الصلاة في جامع الكوفة التي احتلها زمن «الحجاج» لفترة وجيزة؛ كي تصلي فيها.. ذكر القصة باقتضاب، وقال له:

- لك لدي «غزالة» تنتظرني في الدانمارك..

المسكين مطأطئ الرأس لا يقوى على القول؛ إذ سَعَّرَ قوله غضب «جلال» و«سليمان» اللذين امسكاه من ذراعه وسحباه قائلين:

- هيا لنخرج ما يستأهل أن نزوره حتى!.

قال مع نفسه:

- لم لَمْ أصبح ممثلًا؟!.

- يا لتفاهة الممثل في الحياة خارج الخشبة!.

- تافه..

صرخ بغتة، وأردف بصوت مسموع:

- أحتقر لحظتي.. أحتقر قناعي، والعاشق المسكين يعالج جراح روحه بصدق.. فهو أحس بهوى وميل «مريم» نحوي.. وتجلى له الأمر لاحقا بالرقص.. لكن من يصدقه وكيمياء الجذب سرية لما تسري بين شخصين بغتة.

رشف من قهوته وعاد إلى سريره، شاعرًا بغضب من نفسه، وسلوكه، وطريقته في تصوره نفسه صوفيًّا.. شريفًّا.. زوجًا..مناضلًا.. مثقفًا.. حياديًّا.. وكل هذا حقيقي فيه.. لكن ما أزعجه في القصة وأسئلة الحياة.. كذبه؛ إذ كان الطرف الفاعل في الإغواء وجهد؛ كي يصل الأمر إلى هذا المآل.. وبقول آخر، لو تجاهلها لما كانت هذه القصة.

قام وصبّ فنجانا آخر من القهوة، عله يفيق من نفسه وسكره، ويتخلص من دونيته مشاعره، وهو يكتشف خبثه وتآمره على حبيبة طالب غض مسكين، يشاركه في الأفكار، فهو يساري يتوهم جنة المدينة الفاضلة مثله، الفرق أنه في أول الطريق.

خطا نحو النافذة العريضة.. التصق بزجاجها المزدوج.. حملق بشرود في المارة المبقعين بخطاهم الشارع المغطى بالثلج المتساقط بغزارة.. صرخ بنفسه:

- ما الفرق بينك وبين «عزيز» إذن! بل هو أشرف منك، يحاول مع العابرات لا مع العشيقات!.

رغب في السكر وإتلاف نفسه!.. فهرع نحو قنينة الفودكا، وصبَّ كأسًا وقبل أن يرفعها إلى شفتيه، سمع قرعا خافتا على الباب.. سكن وبيده الكأس منصتًا.. عاد القرع خجولا خفيفا غير مألوف، فهذه الكف هى غير كف «عزيز» الغليظة، أو كف «جلال» الهرقلية.. أو «سليمان» المضطربة.. قرع ناعم غريب متقطع، متوجس، وكأنه يختبر الباب والعنوان.. وضع الكأس المملوءة على طاولة المطبخ واقترب من الباب بخطى هادئة متسقة مع إيقاع الطرق.. نظر إلى ساعته اليدوية، فوجدها تشير إلى الواحدة ظهرًا.. معنى ذلك أن الجميع على مقاعد الدرس.. خلد جوار الباب منتظرًا معاودة الطرق.. فجاء خفيفا متوجسا متأنيًا.. دوَّر المقبض وسحب الضلفة قليلا.. قليلا، وقليلا.. قليلا تجسد وجه «مريم» المضطرب المتوهج اللاهث؛ ليحتل المشهد ماحيًا كل مشاعر الدونية، التي ألمت به منذ لحظة استيقاظه.. جمد مأخوذًا.. ساكنًا فاغر الفم، غير قادرٍ على النطق.. لم تتوان.. دفعت الباب ودلفت وكأنه بيتها.. نزعت معطفها الثقيل بحركة سريعة، وارتمت نحوه ضامَّة جسدها بين ذراعيه، ودافنة وجهها الصافي تحت إبطه. لم تدعه يفلسف المشهد.. كانت عملية، وكأنها «شاكر م» تعيش في جوف الفقاعة.. عرته وتعرت وصعدت عليه وبلغت كوكبها البعيد.. كان مذهولًا غير مهيأ لموقف محتدمٍ كهذا.. لكنه التحق بها.. جرى الأمر بسرعة خاطفة. واقعته مرات ثلاث باللهفة والشوق نفسيهما. ونظرت إلى ساعتها وتركته عاريا في السرير لترتدي ملابسها مضطربة.. تبسمت وهي تقترب منه؛ لتهمس بأذنه بصوت عذب:

- سباسيبا «شكرًا»!.

ثم قبلته في كل ناحية من وجهه، واتجهت نحو الباب التفتت مرة أخيرة وغابت خلفها.. لبث في السرير يتلمس جسده شامًّا رائحتها في جسده، في الفراش، في فضاء الغرفة.. وقفز من السرير راكضا نحو النافذة المشرفة على المدخل؛ عله يراها خارجة لكن دون جدوى.

ظل «إبراهيم» يستعيد المشهد وكأنه حلم يقظة؛ إذ لم يرها أبدا بعد ذلك، حتى أنه شك بواقعية ما جرى له معها في غرفة مهجورة، مغبرة في سكن جامعي بـ «كييف»، التي سيغادرها إلى الأبد بعد أيام.

أخي الزنجي

حينما دفع الباب وأطل بقامته القصيرة وقسماته الوديعة.. اهتزَّ كياني، لكنني لبثتُ ساكنًا أتتبع خطاه الخفيفة المتجهة صوبنا.. هو الآخر لم تفارق عيناه وجهي، رغم قيام «جلال التونسي» بقامته الفارعة للترحيب به.. قلت مع نفسي:

- ماسة سوداء حيّة تسعى أمامي في الغرفة!.

في المسافة بين باب الغرفة البعيد وجلستنا، لم ينحرف ناظره عني.. عيناه الوديعتان تعانقان وجهي بشغف، وكأنهما تحدقان في معشوق.. أنا الآخر أسرتني عيناه، ووداعة النظرة والبسمة الخفيفة الهابطة من حواف العينين إلى القسمات الفحمية اللامعة، تحت ضوء المصباح المتدلي من السقف الخفيض.. كنت أطيل النظر إليه شاعرًا بألفة شديدة.. حط كفه الصغيرة النحيفة بباطن كف جلال الضخمة وتمتم بالفرنسية كلمات، وعيناه تتنقل خطفًا بيني وبين «جلال» وكأنه يريد أن يفرغ منه ليتفرغ لوجهي.. هكذا أحسست، فقلت مع نفسي:

- الليلة لن تكون كما خططت!.

فلقد تعبت من جو الطلبة اليساريين المحتدم وقت سقوط الاشتراكية المدوي بنموذجها السوفييتي، فقلت لـ «عزيز» و«جلال»:

- أنا تعبان أصلا، وجئت إلى «كييف» كي أخلد للراحة، لكنكما أدخلتماني في لجة أنا هارب منها أصلًا، كنت في لجة الكفاح المسلح والحوارات والقتل والهرب ومعسكرات اللجوء والتشرد والحيرة..

ورجوتهم أن تكون هذه الليلة هادئة، أخلد فيها إلى نفسي، وجلسة لا احتدام فيها، ولا حوار، ولا ضجيج..نزلوا عند رغبتي، واقترح «عزيز» أن يوصلني مع «جلال» إلى الغرفة، ويتركنا وحيدين نشرب على مهل ونتحدث.. وجدت الفكرة حسنة، وفعلًا تسللنا خلسة إلى الغرفة، وودعنا «عزيز» عائدًا إلى زوجته وطفلته، فرحنا في حديث شفاف، تكاشفنا فيه عن مسار حياتنا: هو في تونس وأنا في العراق. تعمدت عدم شراء المزيد من الخمرة؛ كي لا أصل إلى أقصى السكر، فتنبعث الشجون، وتتحول الجلسة إلى صخب وصراخ.

- الليلة تبشر بعاصفة أخرى!.

قلت مع نفسي ذلك، ولكنني لم أخمن مدى عنفها.. فالنفق السري الذي جعلنا نتمعن بعيني بعضٍ بتلك الطريقة الغريبة كان لا يشي بما سيفضي إليه!.

التفت نحوي «جلال» قائلا:

- «إبراهيم» أقدم لك تلميذي «صموئيل»!.

تذكرت أن «جلال» أخبرني بأنه يقدم محاضرات عن الثقافة الفرنسية في المركز الثقافي الفرنسي في «كييف»، الذي فتح صفًّا للأفارقة الناطقين بالفرنسية.

رحت أجوس في قسماته وقامته صامتًا، فتضرج خجلًا ونظر إلى الأرض، وكأنه أحس بوجوده المحرج، أو يكون «جلال» قد أخبره بوضعي في حوارهم، الذي امتد ربع ساعة.. أردف «جلال»:

- هو خجلان.. يترجى أن يشاركنا الجلسة!.

كنت أستمتع بنطق «جلال»، الذي رجوته مخاطبتي بالفصحى، لأن لهجته التونسية تضيع عليّ الكثير من مدلولات الحديث.

قلت له:

- ليجلس!.

سحب كرسيا من طرف الغرفة البعيد.. أدناه من السرير وجلس بهدوء على بعد مترين مني.. كان «جلال» قبل دخول «صموئيل» يسرد قصة نضاله، حينما أصبح في المرحلة الأولى بالجامعة، وكيف عمل بصفوف تنظيم «تروتسكي» صغير، فألقي القبض عليه حينما اعترف أحد أعضاء الخلية.. أسهب في وصف الليلة التي قضاها في الزنزانة، دون فراش وفي البرد وحيدا.

قبل أن يستمر في السرد سألته:

- ليلة واحدة فقط!.

– نعم واحدة فقط.. لكن رأيت الجحيم فيها!.

– ماذا فعلوا بك؟!.

سألته بصوت خافتٍ متخيلا قامته الطويلة، مخذولة بين يدي الجلاد.

– تركوني بملابسي الخفيفة على البلاط البارد حتى الصباح!.

– وماذا بعد؟!.

– في الصباح فتح الحارس باب الزنزانة، وقادني إلى الضابط، وهنالك وجدت أبي منتظرًا.. في الطريق إلى البيت أخبرني أنه اتصل بـ «الحبيب بو رقيبة» رفيقه بمرحلة النضال الوطني، فأوعز بإطلاق سراحي. وخلال أسبوع رتّبَ لي كل شيء، الجواز، ومقعد الدرس، وتذكرة السفر.. وحملني إلى المطار ليبعدني إلى هنا!.

– ...!.

لا أدري لماذا شعرت بالحنق الذي تبدد ليحل محله شعور بالسخرية من هذه الحكاية، التي يعتبرها «جلال» جحيمًا.. انتبهتُ إلى عيني الزنجي، تنتقل بعمق بين وجهي ووجه «جلال» الذي أردف:

– تخيل حرموني من تونس الخضراء!.

– ...!.

رفعنا الكؤوس.. دلقت كل ما فيها في جوفي مغمضًا عينيّ رائيًا ذاك الجحيم الحقيقي، الذي أروني إياه في المرات، التي حللت فيها داخل زنزانات أمن الديوانية والأمن العامة في بغداد.. رأيتني عاريًا معصوب

العينين معلقًا على كرسي الفلقة بـالمقلوب، مختنقًـا مـشدود الجـسد بانتظـار الضربة القادمة المصحوبة بالشتائم.

حينما فتحت عيني، ملأت كأسًا أخرى عـلى عجـل، ودلقتهـا في جـوفي مطبقًا أجفاني من جديد؛ ليتجسد ذلك المشهد الذي عمَّـق شـطر طفـولتي القديم، حينما أحسست وأنا معلقٌ بـشيء لـين نـاعمٍ يعبـث مـا بـين ردفي، فشددت جسدي بكل ما لدي من طاقة، فنبَّ صوتٌ أنثوي:

- خِفِتْ!.

قالها وسحب ذلك الشيء ليلسع ظهري المتأرجح بضربة موجعـة، آمـرًا شخصًا أخرَ، كما لو كنت امرأة تغتصب:

- اشتغله!!

أي شعور بالسحق والتبدد، لما تحس بجسدك ينتهكك ويطبق عليك من الخلف كائن لا تراه، بل تسمع لهاثـه، وهـو يحـزُّ في أحـشائك حـزًّا وأنـت مربوطٌ عارٍ، يضج حولك جمع يتفرج عـلى المـشهد مقهقهًـا، معلقًـا ببـذاءة تخـص لحظـة سـحقك.. فتحـت عينـي.. تفرسـت في وجـه «جـلال» و«صموئيل»، الذي وجدتـه يتوسـد الأرض متكئًـا عـلى حافـة الكـرسي، محملقا في قسماتي المشوهة، وهي تستعيد شعور الـسحق ذاك وكأنـه حـدث قبل لحظة.

قال «جلال» بدهشة:

- «إبراهيم» ماذا بك؟!.

- ...!.

صببت كأسا أخرى.. أصابني الخرس.. جمدت لحظة شاخصا نحو النافذة والسماء المظلمة. رجعت إلى المنضدة الصغيرة، وتناولت كأسي.. عببتها دفعة واحدة. حينما فتحت عيني، ملأتني قسماته الفحمية المحملقة من تحت بعاطفة دافقة.. عيناه المخضلتان بالدمع امتزجتا بخفايا روحي، وكأنهما أدركتا سر ألمي.. انفجرت بغتةً في نحيب مذبوح، وتكومتُ جواره على الأرض.. أحاطني بجسده مرددًا بلغة غريبة، وضم رأسي المعروق إلى صدره.. كنتُ لينًا مستسلمًا.. هدأ روعي بصدره الحار ، فتحول نحيبي إلى بكاء راح يتخافت قليلا.. قليلا إلى أن كفَّ.. أبعد رأسي.. رفع حافة قميصه الأزرق المفتوح، ومسحَ عينيَّ من الدمع وجبهتي من النضح. كان يمسكني بحنان وكأنه نفسي.. ساعدني على النهوض والعودة إلى الجلوس على حافة السرير.. في حومة النحيب، نسيت المكان وما كنا فيه.. انتبهت إلى «جلال» الجامد على كرسيه، وهو يحملق نحونا بذهول، قبل أن يقول:

- لم أعد أفهم شيئًا!.

- ما الذي يجري؟!.

-...!.

قال له «صموئيل» شيئًا بالفرنسية، فالتفت نحوي قائلا:

- طلب مني الكف عن الأسئلة!.

- ...

عاود الجلوس على الأرض جواري، وكفاه الصغيرتان مثل كفي طفلٍ، ما زالتا تمسكان بذراعيَّ الواهنتين أسفل الكوع بقليل.. التبس عليَّ المكان والدنيا، وشطح بي الشجن إلى أمكنة ووجوه فقدتها إلى الأبد.. سيل من الروائح والقامات والعيون يحيط بي، قادما من عينيْ هذا الزنجي المتشبث بذراعي تشبث أمي، حينما أكون يائسا مسكينا وحيدا. كان يؤشر طالبا من « جلال» الصمت كلما هم بالكلام، مكتفيا بالتحديق من جلسته قرب قدمي، في وجهي السادر بعيدا، وكأنه ينتظر شيئا ما.

احتدمتُ بحنان كفيه الممسكتين بذراعي.. احتدمتُ مركزًا على قسماته الناعمة، ولمعان سوداها الكريم، متشاغلا عن عينيه المحملقتين نحوي بدفق فريد.

صمدت متأرجحا على حافة موج عينيه.. إلى أن سقطت فيهما، فهجمتْ عليَّ نفسي بكل عنفوانها.. حشد من الأحباب.. أصدقاء ورفاق قتلوا في المعتقلات وبين الجبال.. أخي «كفاح» ضاع في الأقبية إلى الأبد.. «صلاح» حبيبي و«علي» الوديع أبناء عمتي ضاعا أيضًا إلى الأبد. حشد قادم من عيني هذا الكائن الوديع الممسك بذراعي والمنتظر على بابي.. هجمت عليَّ روحي، وكل ما شكل كياني.. نأى عني البيت والأهل والأصدقاء والتراب والخريطة، فوجدتني ضائعا في غرفة مغبرة بسكنٍ جامعي في طرف «كييف» .. مستسلمًا لذراعين سوداوين غريبتين حنونتين، وكأنهما تعرفان كل عذابي وقصتي دون كلام.

هجمتْ عليَّ نفسي قادمةً من عمقِ هذا السواد العظيم الماسك بي، وكأنه سحر.. صرخت بغتة:

- أريد الرقص.. أريد الرقص!.

ونهضت بغتةً فالتًا من ذراعيه متلويًا بقامتي الفارعة في فراغ الغرفة المغبر، قافزًا وكأنني أود الصعود إلى السماء.. سمعت «صموئيل» يصرخ صرخة طويلة، أثناء هبوبه من جلسته ليصل إلى مدى قفزتي ويعانق عيني في الهواء.. حينما هبطنا أسرع ليخرج كاسيت من جيبه ويضعه في المسجل، فتعالى صوت طبول قادمة من عمق غابة، من عمق عيني «صموئيل».. من غور نفسي المنسية.. من ماضٍ يحنُّ البشر إليه، ماضٍ لم يزل ناصعًا غير ملوث بالقتل.. بدأنا نتلوى ونرتجف ونتمايل: أنا بقامتي الفارعة وجسدي الضخم، وهو بقامته القصيرة وجسده الناحل. نرقص وجها لوجه محدقين بعيني بعضنا.. مطلقين الصراخ المبهم المتقطع وسط ذهول جلال الذي لمحته في نوبة الرقص يسترخي على كرسيه، متطلعًا بذهول نحونا.. رحنا ندور في البقعة الضيقة، نكاد نتلاصق بجسدينا اللذين جُنّا على إيقاع الطبول المتلونة.. نشبك أصابعنا ونفلتها.. نقرفص قافزين إلى الجانب، نهب نحو سماء الغرفة ونهبط متبادلين الصرخات، وكأننا نلج في أرواح بعضٍ، بدأت أثناء الرقص بفك أزرار قميصي زرّا.. زرّا، وفي حركة عنيفة نزعته ورميته إلى زاوية الغرفة البعيدة، صارخًا:

- مدد يا رب الكون.. مددددددددددددد.. حيييييييييييي!.

هو الآخر فك أزار قميصه وتركه يرف مع رجفة جسده. لا أدري كم بقينا.. لكنني أحسست بجسدي العاري يبتل. وبغتة صمت الشريط، فألمت بي رغبة جارفة في عناق هذا الكائن اللاهث السواد المتجاوب مع لوعة روحي وحركة جسدي وصراخي، فعانقته لدقيقة بصمت وسحبته؛ ليجلس جواري على حافة السرير.

صبّ لنا «جلال» كأسين.. رفع كأسه إلى شفتيه وعيناه تتملى بوجهي بشغف وحنان.. لم أشعر بوجود «جلال»، إلا عندما أخذتني رغبة جارفة في الإفضاء بما كان يزحم لحظتي من عناء أشواق مستحيلة، فطلبت منه أن يترجم كلامي لـ «صموئيل».. رحت أقص عليه مقتل أخي الصغير.. كان يصغي لكلامي بالعربية ولا ينظر صوب «جلال» لما يقوم بالترجمة.. كان يصغي إليه وعيناه تغوران بوجهي.. أحسسته يفهم ما أقول، وأنا أسهب في تصوير خيالاتي عن لحظته الأخيرة، أثناء إجهاز الجلاد عليه في زنزانة ما أتخيلها تحت الأرض.. وصفت قسماته المتكسرة لحظة الطعن، شوقه المستحيل لأصل إلى ذروة وجدي، فنشجت بحرقة ولطمت وجهي. هب نحوي.. أمسك بذراعيّ، ولفني بذراعيه إلى أن هدأت.. فنهض ووقف أمامي وأنشد شيئا بالفرنسية، ترجمه جلال فورًا.. مع الجملة الأخيرة، طلبت بسرعة قلمًا وورقة، وسجلت ما ترجمه «جلال» في دفتر:

(أنت عظيم
لا تتحدث عن أخيك المقتول

فلديّ ثلاثة إخوة ماتوا

لأنني أمثل روحهم

وأنت تمثل روح أخيك

أنت جميل

وعندما تموت

لن تدفن في الأرض

بل... ستذهب إلى السماء).

كان «جلال» ينشد الكلام إنشادًا، ولما صمت، احتدمتُ، فنهضت موترًا جسدي.. فأسرع «صموئيل» بقلب الكاسيت لينطلق صوت الطبول، وتبدأ دورة أخرى من الرقص.. في حومة الجسد المنتفض كنت أرى حشدًا جديدًا من الوجوه، يستيقظ في رأسي، قادمًا من الطبول وصراخ الراقصين الذين أتخيلهم عراة.. حشد حميم لم أزل أشم أنفاسه أثناء العناق.. بشر أكن لهم ودًّا لا يقال، وجوه ضاعت إلى الأبد، وجوه تجسدت بوجه هذا الزنجي، الذي لم أره إلا قبل ساعات..

حشد تلألأ من بينه، وجه رفيق طفولتي وصباي، جاري «عادل تركي»، الزنجي الذي علمني الكثير.. القراءة، والحب، والسياسة، أتلوى في البقعة الضيقة بألم، أميل وأستقيم، أتهالك وأشب، أرتجف وأخمد مع الإيقاع متسقًا مع حركة ـ صموئيل ـ الملاحقة والمندمجة بحركتي، وكأننا تدربنا كل العمر على هذه الرقصة..

يتموج وجه جاري القديم، يتجلى لامع السواد من أول القـصة، ولعِبنـا كرة القدم في محلة «حي العصري» كل عصر، وبيتهم بغرفه الخمس ووجوه عائلته أمه وخالته وعماته الزنجيات، اللواتي كنّ يقدمن لنا الخبز والماء بعـد تعب اللعب.. ثم الخبز والماء بعد سنوات قليلـة، ونحـن نجتمـع في غرفـة منزوية من غرف البيت نفسه، متورطين في السياسة، متحمسين غـارقين في أحلامنا في قلب الأوضاع وصياغتها من جديد بخلق مجتمعٍ عراقـي حـر، سعيد.. ستفرقنا الجامعة فهو يكبرني بأعوام ثلاثة، سينتقل بعد الجامعـة إلى «بغداد» ويتزوج، وأبقى أنا في «الديوانية» وأتزوج..

فضعنا عن بعضنا في اللجة والحروب.

كنت أسمع عنه من صديق، كان معنا أيام الحلم الأولى «عبد الحسين عباس»، فعلمتُ أنه رزق بأطفال وعمل مدرسًا في ثانوية ما.. لأباغت بظهوره بعد أكثر من عشر سنوات في كردستان، ملتحقًا بمفارز كرميان البعيدة جدًّا عن أرياف العمادية، المكان الذي كنت فيه. ولما عزمت على الذهاب في مفرزة للقائه جاء خبر مقتله.. أنطوي مبحرا في وجه «صموئيل» المهتز أمامي، المحافظ على مسافة المتر الفاصلة بين جسدينا أثناء الرقص.. أتلوى باركًا في أشواقي المعانقة وجه «عادل» المتجلي حيًّا بوجه «صموئيل»، ولحظته الأخيرة، و«نصير» مندس يصوب بندقيته نحو رأسه جوار نبعٍ، كان يغرف حفنة ماء ليغسل قسماته المتعبة، بعد وجبة غذاء.. بانتظار تجمع الرفاق الذين توزعوا في بيوت القرية..

أشبُّ مثل من يتلقى رصاصة في غفلة.. أشبُّ بجسدي مرتجا في فضاء الغرفة وماسورة البندقية المصوبة نحو رأس «عادل» المنشغل بالماء والأحلام، صلبة، قاسية، مصوبة نحو رأس «صموئيل» السابح معي في فضاء الغرفة.. وكأننا نضيع في الفراغ، رأيت الرصاصة تنطلق ببطء شديد من الفوهة المظلمة وتسري في المسافة القصيرة نحو الرأس.. ستخرق رأس «صموئيل» الصغير.. ستخرقه يا إلهي.. ستخرقه... هبطت إلى أرض الغرفة.. ارتميت عليه ناحبًا.. أحطته بذراعي.. تكورت حول جسده الصغير، وكأنني أريد حمايته.. أمسك بذراعي بيد، وراح يجفف باليد الأخرى نضحي بطرف قميصه الأزرق.. أجلسني على حافة السرير، رحت أهذي ساردا تلك الرؤى على مسمعه و«جلال» يترجم.

كنت أسرد من بين نشيجي، قصتي مع «عادل» بتفاصيلها الصغيرة، لما أتيت على المشهد الأخير، وجسده يسقط على حافة النبع مضرجًا بأحلامه، أمسك «صموئيل» طرف قميصه.. مسح دمعي ونضحي ونهض.. استقام بجسده الصغير متوترًا وأنشد:

(ما جمعنا هو الحزن

أنا وأنت نبحث عن

وطن ثالث

الذي هو الحزن

ليس لدينا سواه).

أصابني الجنون فانتفضت من جلستي صارخًا.. أخذته بحضني.. شددتُ جسده الصغير حتى أحسست أن عظامه تكاد تتكسر بين ذراعيّ.. حملته عاليًا على كتفي، ورحت أدور به في أنحاء الغرفة راكضًا نحو الزاوية البعيدة، وعائدًا إلى حيث يجلس «جلال» يهز بيديه مذهولًا مرددًا:

- ما الذي يجري؟!. ما الذي يجري؟!.

كنت أصرخ بها لا أتذكر ولا أدري.. الذي أتذكره هو جسده الصغير محمولًا على كتفي، وأنا أهرول به رواحًا ومجيئًا، وكأنني أبحث عن ذلك الوطن الثالث ، الذي لا وجود له إلا في نفوسنا.. أبحث وأريد أن نلج فيه لنستكين. كم بقيت أركض وأنا حاملًا جسده الخفيف؟! لا أدري.. لا أدري.. يبدو أنني بقيت إلى أن خارت قواي.. فأنزلته وعانقته بشدة. لما فللت ذراعي، رجع خطوتين وقال شيئًا، واستدار نحو باب الغرفة وغاب.. التفتُّ نحو «جلال» متسائلا بصمت، فقال:

- سيجلب شريط كاسيت.. لحظة ويعود!.

صب لي «جلال» كأسا أخرى من الفودكا.. عببتها دفعة واحدة وحملقت فيه متوجسا، وقلت:

- أخاف ما يرجع!.

تبسم وقال:

- لا.. سيرجع!.

وما أن أتم جملته حتى سمعت وقع خطى تقترب، فالتفتُّ نحـو البـاب بشغف.. ظهر بقامته الناحلة يحمل كاسيت، وضعه في المسجل، فتعالى وقع غريب، جعلني أقفز من جلستي واندمج فيه، قال شيئا بالفرنسية، فسمعت «جلال»، وأنا اتأرجح على حافة الضياع في الإيقاع يقول:

- هذا طقس الولادة!.

فرحنا نمارس فعل الطلق في الرقص.. ننـزل منحنيـين، نـدفع بـذراعينا شيئا من وسطنا، كان يصرخ وكنت أصرخ معه:

- أمه.. أمه.. أمه..

- هنكو ..هنكو .. هنكو..

ندفع.. وندفع.. وندفع ذلك الشيء، الذي بدا وكأنه مادة صـلبة تخـرج من وسطنا.. كنت أحملق في ذلـك الطلـق المريـر، في قـسماته المتكـسرة ألمـا، وكأنها تحتضر، فوجدني أحتضر أنا الآخر.. حتـى لحظـة الـصمت، وكأننـا جئنا بالمولود إلى الدنيا.. تهالكت على أرض الغرفة سـابحا بنـضحي.. هـو الآخر تهالك مبتلا يلمع سواده تحت ضوء المصباح الناري.. لبثنـا لحظـات منهكين.. خدرين إلى أن نهض وساعدني كي أقف على قدمي.. مـسح مـن جديد وجهي وصدري بطـرف قميـصه، ورجـع خطـوتين، وأنـشد شـيئًا بالفرنسية:

(أنت إله

لابد أن أضيئك).

ترجمها «جلال» وقال شيئًا لـ «صموئيل» بالفرنسية، فردَّ بجملةٍ وإصبعه النحيفة مصوبة نحوي.. التفتَ «جلال».. حملق بيَّ بعينين مفتوحتين، وهزَّ ذراعه الطويلة هزّة مذهولٍ، وقال:

- أتعرف ماذا يقول؟!.

- ...!

لزمت الصمت منتظرًا، فأردف:

- يقول لي أنت تفهم لغتي فقط.. أما هو فيفهم روحي!.

صعدتْ بي نشوةٌ مطلقةٌ جعلتني أقفز مرة أخرى.. لم يتوان، قفز هو الآخر.. وضِعنا في موجة رقص عاصف.. كنا نصرخ بمرح هذه المرة.. نتقوس محافظين على مسافة المتر، الذي يفصل بيننا، ونحن ندور على محيط دائرة وهمية حددها إيقاع الطبل.. نتبسّم مقربين وجهينا حتى تكاد قسماتنا تتلاصق، ونتراجع منتصبين، نبعد جذعنا العلوي إلى الخلف، أثناء قفزاتنا الجانبية على المحيط حتى نكاد ننقسم.. نعود ببطء شديد إلى وضع الانتصاب التام، لنتقوس مقتربين رويدًا.. رويدًا، فتنطلق البسمة من أعماقنا في اللحظة، التي تكاد فيها رموش عيوننا تتلامس.. رحنا نردد مخدَّرين:

- أها.. أها.. أها..

ثم:

- أمه.. أمه.. أمه..

بالتناوب.

ولم يدم ذلك الفرح.. بغتةً انتابني الحزن لحظة انتباهي إلى أن صاحبي الحميم سيكون عابرا مثل طيفٍ.. ومن المحتمل أن لا أراه أبدًا في قادم الأيام.. وهاجسي كان صحيحًا، فلم أره بعد ذلك أبدًا.. خَمَدَ جسدي.. توقفت عن الرقص.. تهالكت على السرير مطأطأ الرأس، أحملق في الموكيت بشرود، غير قادرٍ على التحديق في قسمات «صموئيل»، الذي هبطَ متكومًا قرب قدميَّ على الأرضِ. أدلى رأسه بالمقلوب كي يطول عينيَّ.. وجدتني أسقط فيهما، فنشجت بهدوء مثل طفلٍ مكسور الخاطرِ.. كفكفَ دمعي براحتيه، وأمسكني من تحت حنكي.. رفع رأسي بروية حتى صرت بمواجهة عينيه.. قام وأنهضني كي أستقيم بقامتي وأبدو متماسكًا، إذ راح يلم جانبيَّ من الخصر وحتى الكتف.. تماسكتُ بعناءٍ.. رجعَ خطوتين.. وأنشدَ بالفرنسيةِ:

(سوف تذهب بعيدًا

وعندما تتذكرني

سوف تفقد جناحيك)

تلك اللحظة سوف أظل أتذكرها كل العمر.. فما أن أتم جملته حتى تداعيتُ متناثرا على الأرض كبناءٍ منخورٍ، ورحتُ في بكاءٍ خافتٍ يشبه الهمس.. مدركًا أن ما أثقل كياني وأذهب بهجة الرقص، أدركه صاحبي بالضبط مثلما أدركتُه أنا.. بعد مرور أكثر من أربعة عشر عاما سوف تتجلى

تلك اللحظة في تشردي.. أتذكره بشدة، حينما فقدت جناحي، ورحت أحبو.. لم أجد له مثيلا.. كائن يدرك سري بصمت ودون بوح.. صرت أمد كفيّ حينما يتخلق أمامي حيًّا، يلهث، فأتلمس كتفيه العاريتين، وأصيح في الأزقة الغريبة:

- أينك يا أخي الزنجي المجهول؟!. أين أنت الآن.. يا ليتك إلى جانبي كي أفضي لك بما آل إليه حالي!؟!.

- لا أحد سواك يا خلّي يفهم ما بي.. لا أحد!

صرت أصرخ في أقصَى الوجد بزاوية دافئة، أقتنصها وحدي:

- «صموئيل» يا صاحبي.. أين أنت؟!.

يتحول الصراخ إلى نشيج خافت يتصاعد قليلًا.. قليلًا، فيستحيل إلى نُواحٍ وهذيان، وسط دهشة المارة على الرصيف:

- فقدت جناحي يا خلِّي..؟!.

أتماسك بعد دقائق لأَضيع في الشارع.

كم حاولت تذكر اللحظة التي أعقبت إنشاد «صموئيل» لقصيدته الأخيرة.. كم حاولت.. دون جدوى! إذ إنها أسقطتني في بحر النسيان، فلم أستطع أبدًا تذكر الكيفية، التي انتهى فيها مشهد تلك الليلة الأخير.. كل ما أتذكره وجه الزنجي الناعم القسمات، يحنو عليّ، وأنا أترسب في قعر الغياب قليلا.. قليلا.. نادبًا حالي لفراق أخي الزنجي الحميم، الذي لم تلده أمي.. كمن يغرق في الماء.. كان وجه «صموئيل» آخر ما تذكرته صبيحة

اليوم التالي، لما استيقظتُ على طرق عنيف على الباب.. نهضت كمن يسير في حلمٍ.. دورت المقبض وسحبت الضلفة.. وجدت «عزيز» يقف باسمًا بوجهه المنحوت، وكأنه من حجر:

- مساء الخير..

فأدركت أن الساعة جاوزت منتصف الظهيرة.. أجبته بخفوت:

- مساء النور!.

هدر بلغته السوقية البذيئة في شريط من الفشار المألوف لنا أولاد الأحياء الفقيرة:

قم يا مجنون .. إيش بيك.. شنو حلمان.. قوم.. لنخرج إلى الشارع.. الدنيا بعد الظهر.. أكيد ارتحت أمس.. مو مثلي گضيته معارك بالفراش!.

لم أنطق بحرف.. كنت في كون، وهو في كونٍ آخر.. ارتديت ملابسي بعناء، وسعيت بقدميّ الواهنين نحو الباب خلف قامة «عزيز» النشط.. التفت نحوي، قبل أن نتجاوز عتبة الباب قائلًا:

- ألف مرة گلت لك خفف الشرب خاف توگع وتموت!.

صمت قليلا وأردف:

- شوف تمشي بصعوبة.. والله العرق راح يكتلك.

- ...

كان يتكلم بمرح ومزاج وكنت مثل ميت تمامًا، أفكر في «صموئيل»، الذي لم أودعه؛ إذ سقطت في النوم حتى لحظة قدوم «عزيز».

لم نأخذ المصعد.. نزلنا على السلالم. في الطابق الأول وعلى الفسحة الصغيرة بين ثنيتين، أوقفنا زنجي صغير الحجم، لم أتعرفه تلك اللحظة. سحب «عزيز» جانبًا، وهمس بأذنه شيئا بالروسية، ورمقني بعينين ودودتين باسمتين، قبل أن يواصل صعوده السلالم.. اقترب«عزيز» مني وفي ملامحه دهشة، وقال:

- ولك هذا أمنين لك!.

لما اختفى خلف ثنية السلم تذكرته:

- فماذا أقول لـ «عزيز» كي يفهم؟!.

تبسمت بصمت، فعلق ساخرًا:

- يصير عبد سوادي متزوج زنجية وإحنه ما ندري؟!.

سألته:

- ليش أش ﮔال لك؟!.

قهقه «عزيز» بصخب، وقال:

- يگول أوصيك بأخي.. ولك وين لگيته.. البارحة عفتك بالليل ويه «جلال» بالغرفة .. الصبح زنجي يصير أخوك.. ولك والله خبلتني.

لم أجب بشيء.. تبسمت، وقلت مع نفسي:

- هو أخي فعلا!.

قلتها بشجن..

وتأرجحت على حافة الفراغ!.

شاعر الأيديولوجيا

كنت البارحة في طريقـي إلى موقـف الحافلـة القاصـدة محطـة قطـارات كوبنهاجن الرئيسية، وفيما كنت على وشك عبور التقاطع، سمعت أحـدهم ينادي باسمي الكامل:

- «إبراهيم» السلامي.. «إبراهيم»!.

صوت أليف كامن في نفسي.. تسمرتُ عـلى حافـة الرصـيف، والتفـتُّ نحو جهة المنادي، فصرخت مثل طفلٍ:

- «جميلة».. «جميلة»!.

لم أرها منذ أيام موسكو..

- هل أنتِ هنا؟!.

قلتُها بذهول.. عانقتني باكية.. شممت من جسدها الملتـصق بجـسدي البائد عبق تلك الأيام.. مدينة الثورة وشقة موسـكو.... عبـق انبعـث مـن تفاصيل منسية، سطعت بحضورها المباغت.

لا أدري ما حل بها!.

ولا أريد أن أعرف!.

ولا أريدها أيضا أن تعرف ما صرتُ إليه!.

قضيت الليلة الفائتة مستلقيًا على مصطبة في زاوية من زوايا كرستيانة.. غرقت في النوم مثل ميتٍ، بعد أن رقصت في بار مليء بالدخان والسكارى ومتناولي المخدرات.. يطيب لي بين الحين والحين في الصيف قضاء ليلة كهذه.. أسكر إلى حد أنني لا أتذكر في اليوم التالي ما جرى لي.. كل ما يترسب في ذاكرتي وجوه البشر الغريبة الحميمة المبتسمة المنصتة بود لبعضها البعض أثناء الكلام، رغم أنها قد لا تعرف بعضها البعض إلا في جلسة المساء.. كل ما أتذكره هو أني نهضت من المقعد الخشبي المشترك؛ فالبار لا توجد فيه كراسٍ مستقلة، وخطوت مخترقًا غابة الدخان الكثيفة.. نفذت إلى الليل، فلفحتني نسمة منعشة زادت سكري.. بعدها لا أتذكر أي شيء سوى لحظة أخذ أنفاس عميقة متلاحقة، هوت بي في فراغٍ.. كيف وصلت إلى المصطبة؟!لا أدري!.

سألتني: وين رايح؟

- ما أدري!.

قهقهت بصخب، وقالت:

- أي كنت بموسكو وحدك مو هنا وياك العائلة.. بعدك صعلوك!.

قلت على مضض، متحاشيا الخوض بما آل إليه وضعي:

- صعلوك أصلي من حي العصري!.

ضجت بالضحك من جديد، فوجدتها فرصة كـي أخلـص نفـسي مـن التذكر والحديث عن العائلة وفوضى وضعي كمتشرد، فأردفت ساخرًا:

- بيت شعر موزون!.

هدأت قليلا وقالت:

- صدكـ «إبراهيم» إذا مـا عنـدك شيء.. تعـال ويـاي لأمـسية شـعرية عراقية في « النور أله»..

قلت مع نفسي:

- لأذهب معها وأرى أبناء جلدتي، الذين لم أرهم منذ أشهر!.

- ومن الشعراء؟

سألتها..

- لا أدري.. بس يقولون واحد منهم كان بيشمركة!.

شبَّ فضولي.. عبرنا الشارع إلى موقف الحافلة المتوجهة نحو المكـان.. أخبرتني باختصار قصتها.. كيف نجحت بالطيران من مطار موسـكو إلى كوبنهاجن بمساعدة رفيق قديم، له صلة قوية بأخيها الذي قتل بالـسم في الجبل.. دسه مندس عندما كان يبيت في بيته.. ذلك الرفيق الذي ساعدها في ترتيب السفر بجواز سفر مزور، تحول إلى سكير ومهرب، وتداخل مع المافيات الروسية، ومات هـو الآخـر غرقًـا بنهـر الفولجـا في موسـكو في ظروف غامضة.

قلت لها:

- قصتك تشبه الروايات والأفلام!.

- وقصتك بس وينه الكاتب العراقي اللي يكتب مصابنا!.

أردفت:

- «إبراهيم» صدكـ بعدتك تكتب لو بطلتْ!.

- بطلتْ!.

ـ يا خسارة!.

في الحافلة تأملت جلستها المتكورة جواري.. قسماتها التي زادت تصلبًا، فبدت أقرب إلى الصخر منها إلى طراوة الجلد البشري.. شردت عيناي عبرها إلى النافذة الزجاجية المهتزة.. خلف رأسها يجري نهر البنايات، وجموع البشر الذاهبين والقادمين في عرض الشارع المكتظ.. كنت أغور فيها.. تحت جلدها.. في الأعماق.. في الأحشاء، وهي تحكي عن حياتها هنا في الدنمارك.. وحدتها.. وحشتها.. كرهها المبطن للرجال، ذلك الكره الأنثوي المطلق الذي يكون كامنًا لدى من تزوجت، لكنه لدى العوانس، مثلها، صارخ تبوح به بوضوح.. لكنه مع من لا يعرفها تنفّس عنه بطريقة خبيثة، وذكية تستغل الوضع والحالة.. لم أكن أعرف تلك اللحظة ونحن في الحافلة أنني سوف أستغله هذه الليلة كي أشفي غليلي.. كنت أمزح معها طوال الوقت، بينما أغور شاردًا في كلامها وكيانها النابض جواري:

- أش لون تدبرين الليل!.

- إذا أكو هذا اللي يسموه الجلق ماكو أي مشكلة!.

- ..

كدت أقع من مقعدي من فرط الضحك وصراحتها العارية.

- بشرفك مو أحسن من واحد ينام جنبك بالسرير مثل الحجارة!.

- والله كلامك ذهب.. الجلق أحسن!.

تشجعت ممعنة في عرض مشكلتها الوجودية مع الرجل، الذي لم تعثر عليه، فقالت ساخرة:

- بعدين يا أخي ماكو مشكلة.. هي شنو مشكلة هو الرجل بس «عير».. إذ كان بس هذا .. تروح وحده لشارع السكس وتشتري الحجم اللي تريده حسب مزاجها!.

كنت أنصت مبتهجًا.. «جميلة» رفيقتي في العذاب.. في الوحدة التي أغطيها بمرحي وسخريتي.. بعد أن أوقعتني فكرة الحياة لحظة.. الحياة فقاعة في قاع اللحظة وشردتني في بلد الأمان دون مأوى.. الوحدة موجعة تسمم الدم والكيان والكلام وكل شيء.. هي مثل حالي إذن تمعن في السخرية والكلام العاري دون حاجز..

كدت أعانقها، لكنني خفت من نزولها من موقع الفلسفة والسخرية إلى الواقع، فتتوهم الحب مثلما توهمت تلك الليلة الفريدة في شقة موسكو.. لكنني سأضطر في الأيام اللاحقة إلى اللجوء إلى شقتها، وسأجد فيها كيانًا صعبًا لا يطاق ولا يُعاش معه البتة، وهي تلقي بي إلى ليل المنفى كلما عارضتها في نقاش.

تمالكت نفسي إلى أن ترجلنا من الحافلة.. ففارت في نفسي الفقاعة شاعرًا بالغبطة لجوارها.. للأمسية المنتظرة، وكل ما حولي واثقًا من «شاكر ميم» الزنجي العظيم، الذي شعرت به تلك اللحظة يشبهني ويشبه «جميلة» في شدة غربته ووحشته ووحدته، وهو ينام في دكّان التصوير في شارع السراي بالديوانية، وحيدًا مع أخيلته.

صعدنا إلى القاعة بسلمٍ طويل أتعبني.. وقفت مرات كي ألقط أنفاسي.. عَلَّقتْ بخبث:

- هاي شنو خلصان!.

- لا تعبان!.

رددت من بين أنفاسي اللاهثة.

الأمسية في الطابق الأخير.. أصبحنا وسط فسحة ضيقة تنتهي بباب.. دورت المقبض ودفعتها، فشخصت نحونا عيون الجالسين في الطرف المقابل للقاعة الفسيحة.. وجوه نساء في خريف العمر تزوقن كأنهن صبايا.. وجوه رجال مليئة، يشخصون من عيونٍ ذكية، شعرت بها، وكأن في عيونهم خبرة ذاك الطبيب النفسي، الذي لجأت إليه بعد سنة من مكوثي هنا، ولكنه لم يسعفني بشيء. وأنى له بشفائي، وأنا ملتبس وكومة من العقد المعقودة، حتى ضاع خيط الفك.. تمهلنا جوار الباب وهمست لها ساخرًا:

- وين جايبتني؟!.

هدرت بضحكة صاخبة، جعلت الصف المظاهر لوقتنا، يلتفت نحونا شاخصا سامعًا جملتها الساخرة:

- أش بيك «إبراهيم».. ما تعرف قدر نفسك؟!. أنت وين وهذولة وين؟!.

قلت مع نفسي:

- إنها تظنني قويًّا.. ولا تدري ماذا فعلت بي الأيام هنا.. صيرتني هشًّا لا أستطيع الاطمئنان لكل صاحٍ.. بل أجد في عينيه سخرية لما تسقط علي!.

هل سبب ذلك فقدي لها ولأطفالي؟!.

أظن ذلك.. لا بل أنا على يقين من أن ذلك كان السبب في فقداني الثقة بوجودي بين البشر الأسوياء.. نعم هنا يكمن رعبي!. فهي كانت صاحية، وكنت سكران، حينما ألقت بي إلى الشارع، قائلة:

- لا تدخل البيت أبدًا!.

كنت في تلك اللحظة أستطيع صفعها، لا بل ضربها حتى الموت.. فهي رقيقة هشة جميلة مسالمة، ولكنها تنمرت عليّ لما أتعبها حالي الجديد.. فوضى وضعي المحتدم منذ التحاقي بها من موسكو.. دفعتني.. نعم دفعتني، فتعثرت بالعتبة، وسقطت على الفسحة جوار بئر السلم.. تلك اللحظة قام في نفسي ذلك المارد السافل الشرس، الذي قضى طفولته وشبابه في العراك، مدافعًا عن نفسه ومعتديًا في قوانين الشارع الخفية في المحلات الشعبية المكتظة..

أنهضت جسدي مثل حيوانٍ جريح، وحدقت بملامحها التي رقت بعد قسوة وتصلب.. وجدتها تحدق نحوي بألم عطل الشر فيَّ، وذكرني بمناحي المشاعر الخفية، التي تربط وتبرر العيش مع واحد كل العمر.. كدت أنهض من دفعتها لأعانقها، وأبكي بكل ما بي من قوة.. أبكي وأعتذر، وأبوح بأسباب وضعي الجديد كله كي؛ أصحو وأخرج من جوف فقاعة «شاكر ميم».. لكنني لبثت هنيهة مستلقيًا معانقًا برودة بلاط فسحة بئر السلم، محدقًا في ملامحها النادمة، رغم كل حسها بتردي حالي الذي أصبح جليا مفضوحا.. لبثتُ أدير القصة كلها برأسي.. كانت تنتظر قيامي وخطوي نحوها؛ لأنها لم تصفق باب الشقة، بل بقيت حائرة، وفي قسماتها ندم.

- هل هذا السرد هو تشكيل يبرر حالتي؟!.

لا.. لم تغلق الباب.. لكنني تحاملت بعناء كي أستقيم بجسدي.. ظلت ترمقني بعينين، فيهما ذلك الحنان القديم قدم علاقة حبنا.. لكن:

- هل تنفع نظرة حنان قديمة في إصلاح وضع ملتبس كوضعنا؟!.

ذاك مستحيل!. صرت بمواجهتها.. تماسكت رغم انكساري.. سكري.. تعبي.. كانت تنتظر قولًا.. كلمة.. لم أقل شيئًا!.

هززت رأسي أسفا وتوجهت نحو السلم. لم ألتفت. لم أسمع صوت صفق الباب حتى وصولي إلى الطابق الأرضي.

- هل ظلت تتابع قامتي الهشة، تنحدر على السلالم من حافة البئر، أم أنها دخلت وردَّت باب الشقة بهدوء؟!.. أم أن هذا مجرد أخيلة، وقد تكون قد صفعت الباب، وأنا مذهول ضائع في سكري وحيرتي.. سألت نفسي

لحظة مواجهتي الشارع.. الأمان والصمت والحرية، لكن ليس لي تلك اللحظة.. صرت طريدًا ضائعًا في أكثر بلدان الدنيا أمانًا.. في الدانمارك.

وجدت نفسي وحيدًا حقًّا أفكر في ملجأ أبيتُ فيه ليلي.. فقدت ثقتي بنفسي.. فقدت الوشيجة بالآخر أيًا يكن...

كنت واثقا ليلتها لو رجعت لها، لكان مسار قصتي غير هذا.. لكنني كنت أشعر أن كياني انتُهك لحظة رميي خارج رحم الشقة وكأنني نفاية.. لو رجعت سأضطر إلى أن أكون مطيعًا مثل أي بغلٍ، كنا نستخدمه أيام حرب الأنصار الثورية، وذاك مستحيل بالنسبة لكياني..

أتذكر كيف صرخت لما وطِئت قدماي فسحة الطابق أسفل شقتنا.. صرخت جوار واجهة النافذة الزجاجية العريضة، التي تطل على الصمت والبنايات ومصابيح الشارع وأشجار الحديقة الوسطية والسماء دانية النجوم.. صرخت بصوت أجوف مثل عواء ذئب جريح وحيد:

- طززززززززززز فيك .. طززززززز!.

.. لست واثقا لا من نفسي، ولا من الآخرين، ولا من حقي.. ولا من الدنيا.. فلم الرماد والنكد؟

- كل هذا لا تعرفه «جميلة».. لا تعرف أنني أخشى هذه العيون المحدقة الفاحصة.

نزلت على السلالم حتى قاع البناية.. دفعت الباب.. واجهني ليل إسكندناڤيا المسالم والصمت، إلا من حفيف ورق شجر حديقة البناء الأمامية.. وقفت طويلا.. تنشقت نسمةً باردةً تلو نسمةٍ ولا رواء:

- أين أقضي ليلتي؟!.

- في أي ركنٍ أبيت؟!.

غمرني النسيم.. غمرني فانفجرتُ بنحيبٍ، وكأنني فقدت الدنيا.. وفعلًا فقدت الدنيا كلها.. وجدت نفسي شريدًا.. بلا مأوى.. ضائعًا وسط الهبوب خارج الشقة، السرير، الحضن، وضجيج أطفالي.. في فسحة الحدائق والأمان والصمت..شعرت ببؤسٍ عميق، جعل قصتي مع الفقاعة «وشاكر ميم» خواء لا قيمة لها.

تماسكتُ.. سحبتني من يدي قائلة:

- في الجهة الثانية كرسيان فارغان.

درنا من أمام منضدة رتبت كي يجلس عندها المقدم والشاعر.. دوى برأسي اللغط:

- من المؤكد أنه يدور حولي!.

هتفت مع نفسي فارتبكتْ خطواتي.. لكن يد «جميلة» القوية منحتني توازنًا جعلني أشملهم بنظرة سريعة، وفعلا وجدت العيون تتبع خطونا، فتشاغلت عنها بالإسراع إلى الكرسي.

جلسنا متجاورين.. حملقتُ بالوجوه.. أعرف أغلبها كانت معي في الجبل، ونجتْ مثلما نجوتُ.. قام بعضهم وصافحني والبعض الآخر اكتفى بالتلويح بيده من كرسيه.. كنت أردُّ مبتسمًا مستعيدًا ثقتي بنفسي، حتى بلغت التوازن المعقول، فقلت لها:

- «جميلة» وين الشاعر!.

نهضتْ من جواري وسألت أحدهم، يبدو من خلال حركته من منظمي الأمسية.. أقبل نحوي صافحني.. لم أكن أعرفه.. قدم نفسه.. كونه كرديًّا يعمل طبيبا نفسيًّا، وقال:

- سأناديه ليسلم عليك!.

وابتعد نحو عمق القاعة.. رأيته يهمس لرجل نحيف يرتدي طقمًا أنيقا.. ربطة عنق على قميص أبيض وسترة سوداء. شَخَصَ نحونا وأقبل باسمًا.. حددت النظر كي أعرف من هو، لما اقترب وسقط ضوء من سقف القاعة على ملامحه السمراء الموشكة على السواد، كدت أنهض من مكاني وأصرخ.. أصرخ مثلما صرختُ، حينما رمتني إلى الشارع والمنفى في ليلة صافية جميلة.. كدت أصرخ.. أصرخ:

- حقيييييييييييييييير.. تافه!.

وكل ذلك الماضي البعيد تجلى في المسافة المتبقية بيننا.. رأيته يجلس متكئًا على الحائط الصخري المغلف بالنايلون في تلك الغرفة المنزوية، تحت سفح بكلي مراني في ثاني يوم التحاقي بصحبتها .. يسمونها غرفة الإعلام.. لم أفطن إلا لاحقًا لطريقته المتكلفة عند الكلام في الثقافة.. حذلقة قد تنطلي على من لم يخبر هذا الوسط لا عليّ.. كان يحكي عن قصائده، لافظًا الكلام بطريقة ممثلٍ بارعٍ، راميا بعينيه زوجتي الجالسة جواري المنبهرة برجال مدينتها الفاضلة الحاملين سلاحا.. كنت أنصت مفتعلا المشاركة.. أنا ابن هذا الوسط المعقد، ترعرعتُ وخضتُ حتى الوحل فيه.. أنصت وهو يضفي على نفسه تلك الهالة الكاذبة نفسها، التي ظلّ يدعيها حتى هنا في

الدانمارك.. ولما أنشد قصائده، وجدتها ساذجة وأدركت بأن لا موهبة لديه.. مجرد كلمات مرصوفة، يستطيع السامع أن يتبين العناء الذي تجشمه في تشكيلها.. كان يلفظها بطريقة ينغم فيها المفردة القاموسية الخاوية من دون مشاعر.

لما قرأ ملامحي الحيادية، تحاشاني، وركز على الآخرين المحشورين في الحجرة الضيقة، الملتفين حول منضدة خشبية ترتفع مترًا.. كان الجالس إلى اليمين جواري شاب شديد النحافة، وكأنه خيط عرفت لاحقًا أنه محقق، وآخر ذو لحية شقراء انتحر في حملة الأنفال لما حاصره الجنود، صرنا أصدقاء فأخبرني بتركه معهدًا للنحت في إيطاليا؛ حيث كان يدرس من أجل الثورة، وثالث أصفر الوجه قصير القامة عرفت أنه يكتب شعرًا عاميًّا.. ولم يكن يعرفني أيٌّ منهم.. كانوا يظنون أنني مجرد حزبي ملتحق مع زوجةٍ جميلةٍ..

لم ألق بالًا للأمر، فقد كنا ضيوفًا عابرين.. وكنت قد خبرت هذه الأجواء وأدركتُ مشاعر المقاتل المهدد بموت وشيك لما يرى امرأة جميلة أيًا تكن.. غادرنا فجرًا إلى قاعدة أخرى، ولكن التجربة اضطرتني إلى معرفة المزيد عن شخوص تلك الجلسة. ومن خلال زياراتي المتكررة، توطدت علاقتي بهم، وصرت أبيت ليلي في غرفتهم.. أصبح النحات أكثر الثلاثة قربًا لنفسي.. صرنا نخوض في أحاديث حميمة وعميقة.. كنت أذهب معه وقت حراسته..

وفي ليلة مقمرة، اصطحبني إلى نوبته كحرس للسجن. فأطللت أول مرة في عمري على حالي لما كنت أُسجنْ. أنا في دور السجان الآن وهؤلاء

البشر في قبضتي وتحت رحمتي.. مددت عنقي من خلف ظهر صاحبي، مطلًّا على الكتل البشرية، التي لا يضيء نور فانوس شحيح منها شيئًا، بل يمزجها في العمق المعتم في الجدران. لحظةٌ وهبت من خلف ظهر صاحبي رائحة عطن، هي مزيج من رائحة عرق ورطوبة وعفن يشمها المرء في الأماكن المهجورة، والتي لا ترى النور فالغرفة لا نافذة فيها.. تجسد المشهد بوضوح، وكأنه كان البارحة، لا قبل عشرين عاما، حتى أنني الآن أستطيع وصف المكان بدقة..

النحات الأشقر قصير القامة يطل عليهم، ويقول:

- ماذا تحتاجون؟!.

بلهجة فيها نغم مختلف ذكرني بحارس الأمن، الذي يجلب لنا الوجبة لما كنت مكبلًا، معصوب العينين في بناية الأمن العامة ببغداد.. قبل ذلك المشهد بعدة أعوام، وبالضبط في الشهر السادس من عام1980.. النبرة نفسها، قلت مع نفسي:

- هل للمتسلط نبرة واحدة رغم فارق المعنى؟!.

فيهب الجمع الملتحي الكامن من غبار العتمة الملطخة بضوء الفانوس، مسخم الزجاج صارخين:

- سجائر!. سجائر!.

يوزع صاحبي النحات علبته عليهم.. لكن نبرة صوته ضايقتني، فوجدت نفسي أنأى عنه قليلا.. ظننت برفيقي النحات سوءًا.. قلت لنفسي:

- لعله عذب هؤلاء!.

حتى أن مسافة في نفسي قامت بيني وبينه، رغم أنني صارحته في الوقت نفسه، فحلف لي أغلظ الحلف بأنه لم يمس أحدا منهم، ولكن ذلك لم يذهب بظني إلا بعد خمسة أعوام؛ أي عقب موته منتحرًا عام 1988بسنتين.. صرنا لاجئين في إيران. كنت في باحة وزارة الداخلية الإيرانية (كشور)، أحاول حصول تأشيرة خروج؛ كي نستطيع السفر إلى دمشق.. في الباحة الأنيقة الوثيرة المحشودة بالعراقيين، الحالمين بالهرب لأي بقعة في الدنيا عدا إيران.. في الباحة الغريبة الساكنة تلك، هبَّ أحدهم نحوي.. طريقة قيامه من المقعد الذي كان يجلس عليه بمواجهتي، جعلتني أضطر للنهوض والعناق.. سمعته يردد، وكأنه يريدني الموافقة على قوله فقط:

- لا تعرفني.. أعرف ذلك.. لكنني عرفتك!. مرة إجيت ويه «أبو أيار الشريف»! بليلة ظلمة، وكنت بس تتفرج أعرفك لا تنكر.. لا .. لا تنكر..

- ..

- كنت بالفوج الأول!.

لم أربط الأمر فبقيت صامتا أحملق فيه، ولكنني سرعان ما توازنت مقلبًا الأمر.. قلت لنفسي:

- أعرف مقاتلي الفوج الأول فردًا.. فردًا.. فلم يبق سوى أن يكون واحدًا من السجناء!

- ...

- بسجن الفوج الأول

وضح الأمر فسألته:

- ليش سجنونك؟!.

فانطلق، وكأنه يعرفني من زمن بعيد:

- ما أدري وداعتك.. كنت جندي بربية قريبة من كارا.. جزعت من الحرب، قلت ألتحق بالأكراد أحسن لي، وأهل القرية دلوني على الشيوعيين لما عرفوا أني عربي.. لكنهم شكّوا فيّ لأن ما عندي أحد يزكيني.. سجنوني وشفت الويل ..الوسخ والقمل والمهانة. أنت شفت بس وين تشوفني بالليل هي الغرفة ظلمة بالنهار!.

تأملت ملامحه.. وجهٌ رَسَمهُ الألم صافيًا.. وجه ينفث من مسامه تعبًا.. وجه حميم كأي وجه عراقي، يجاورك في حافلة سفر بين المدن.. شديد السمرة خشن التقاطيع بعينين ذكيتين وذاكرة ساطعة، فأنا لم أعاود الوقوف أمام فسحة غرفة السجن المنعزلة في الفوج الأول غير تلك المرة.. لم يزل ينظر نحوي بحنان وألفه غامضة، ينتظر مني شيئًا ما وسط باحة الانتظار.. هاهو شبح قام بلحمه ودمه من ذلك الماضي وتلك الأمكنة، التي تحولت إلى هباء.. لم أعرف اسمه، لكن ما معنى الأسماء؟ قلت لنفسي وأنا أقف أمامه في باحة «كشور».. ما معنى الأسماء؟ وهذا العراقي الذي شدَّني في باحة الانتظار إلى ذلك الماضي، وجعلني بمحض صدفة أفكر في مصائر بشر، رافقوا مشواري في تلك الصعاب.

ولما كنت أظن بصديقي النحات سوءًا.. تولدَ من نـبرة صـوت!. سـوء عذبني فأنا لا أستطيع تخيل فنان مبدع يمارس تعذيب الآخرين، مهـما تكـن درجة إجرامهم.. لذا وجدت بهذا العراقي المعذب الواقف أمـامي فرصـة؛ كي أعرف حقيقة ما كان يجري في ذلك الموضع والـزمن.. رتبـتُ الأمـر في رأسي فقلت بحرارة:

- أش لون طلعتْ من السجن!.

- مالكو عندي شيء!.

أغمض عينيه ومال برأسه إلى الجانب صارخا:

- يا بويه.. يا بويييييييييييييييه شفت الويل!.

ولبث قليلًا جامدًا، وكأنه تمثال، قبل أن يفتح عينيه ويقول:

- شفت جهنم، معقولة الله لمن أموت يعذبني بالنار!.

أدركت فورًا حجم الرعب الذي لاقاه، وأيقنتُ أنهم كانوا يمارسون التعذيب بطريقة، لا تختلف كثيرا عن ممارسة رجال أمن السلطة.. لا بل ذلك كان أقسى.. فلا توجد أي مساءلة عرفية قانونية شكلية حتى، فالحكم أيديولوجي محض.. فلا أحد يسأل عمن سجن في حرب العصابات، حيث لا مجتمع ولا قيم ولا أهل سوى ما تفرضه طبيعة الحركة والشخوص، دون خلفية اجتماعية ضاغطة.. والرعب أصْلى نفسي، والتعذيب الجسدي الفعلي ما هو إلا ركيزة لرعب الروح.. خبرت هذه الحقيقة بالتجربة وبجسدي.

أمامي الفرصة سانحة؛كي أصل إلى ما أريد معرفته عن تلك الأيام، فقلت له بغتة وبسرعة:

- تعرف «أبو أيار» انتحر لما حصره الجيش بالأنفال!.

تكسرتْ قسماته مثل زجاجٍ، وتلفت حواليه خطفًا نحو حشود العراقيين الجالسين، وعاد إليَّ بعينين غالَب أن لا ينهمر دمعهما، لكنه سال على الخدين المتيبسين ساقيتين لامعتين تدفقا حتى حافة الحنك، لتسقطا على قميصه الرث الفاقع الألوان.. تلوَّت قسماته، ثم أجهش ناحبًا فهرع بعض العراقيين المنتظرين نحونا.. ردهم بعنف، مباعدًا ذراعيه إلى الجانبين بحركة سريعة؛ مما جعلهم يؤوبون إلى كراسيهم مستغربين.

باغتتني غبطة فريدة:

- هل أحب هذا العراقي الطيب سجانه النحات المسيحي الأشقر إلى هذا الحد، الذي جعله ينشج ناحبًا في مكان عام؟!.

سحبتهُ من ذراعه نحو الباب.. جلسنا على السلالمِ المؤديةِ إلى البوابةِ الرئيسية.

تخافت النشيج قليلا.. قليلا. مسح دموعه بكمّ قميصه الرث.. استدار بجذعه الأعلى حتى صار بمواجهتي.. لما هدأ تمامًا سألني عما جرى لشاعر هذه الأمسية في كوبنهاجن، المقبل صوبي المكنى « أبو غالب»، وعن محققٍ كان في الفوج الأول قبل ذلك الرفيع، الذي وجدته لما وصلت القاعدة يكنى «أبو عناد».

قلت له:

- سالمين وموجودين!.

هزَّ رأسه وأنشدَ:

المـوت مـا يأخـذ حطـب لمْ   يأخـذ ورد جـوري ويـشتمْ!.

عرفت المغزى.. لكنني كنت أطمع بالتفاصيل الصغيرة، فقلت:

- لم أفهم شيئًا!.

رمقني جانبا.. كان وجهه ينضح ألـمًا ورغبة في القول أو فعل أي شيء.

مثل مخنوق وجد نافذة:

- اسمع كان صاحبك «أبو أيار» أشرفهم.. كان يسمعنا.. يساعدنه.. ما شال يده على واحد ولا صاح على واحد، بالعكس كنا نحس به بشر مثلنا.. كل مرة يكون هو الحرس يقضي ساعته بالسوالف.. تصدق كنا نحس كأنه واحد منا.. يروي لنا النكت، ونروي له، وكان اللحظة التي يبدل فيها نوبته تشعرنا بالتعاسة. أما «أبو غالب» و«أبو عناد» يابوييييييييييييييييه.. لو أمسك واحد منهم بيدي.. أقطعه وصلة.. وصلة..

اضطرم فضولي، فقلت:

- ليش هما مثل «أبي أيار»!.

انتفض حتى أنه قفز من على درجة السلم الأسمنتي.. هبط ثانية وقسماته تبثُّ نارًا:

- لا.. لا... يفرق فرق السماء عن الأرض!.

- ....

كنت أنتظر المزيد

- لا.. «أبو أيار» عنده قلب.. «أبـو غالـب» و«أبـو عنـاد» بـلا قلـب ولا مـروءة.. فعلـوا بنـا مـا جعلنـا نـستجدي رحمـة.. قبلـت يـدي «أبي غالب».. كي يكف عن ضربي، وأنا عارٍ معلق بشيء ورأسي يتدلى أسـفل جسدي!.

(تخيلتُ نفسي معتقلًا في مديرية أمن الديوانية عام 1971، ومعلقًـا مثلـه تمامًا على كرسي خاص، سموه لاحقًا «الطريقة الخاقانيـة» نـسبه لــ « عـلي الخاقاني» ضابط الأمن من أهالي الـشامية. تخيلتنـي معلقًـا أجـود بأنفـاسي متلظيًا بالنار الشابّة من عقب قدمي، مع كل ضربـة مـن عـصى لا أراهـا.. عشت من جديد تجربة ألم ذلك العمر المبكر، وأنا أنصت لمـا كـان يرويـه لي ذلك العراقي، على سلالم كشور في شمال طهران).

فصَّلَ لي طرائق التعذيب الجسدي والنفسي، وقسوة «أبي غالب» المقبـل نحوي باسمًا في هذه القاعة الوثيرة.

في اللحظة التي مدَّ فيها ذراعه المفتوحة الكف، سـمعت ذلـك العراقـي البريء، الذي ضاع في إيران يصرخ بصوت ملأ سمعي:

- كافر ما عنده گلب.. كافر راواني الويييييييييييييل!.

صافحته مجبرًا.. وكانت «جميلة» لا تعرف كل هذه التفاصيل، التي سوف أحكيها لها حال خروجي من القاعة.. كان يتكلم بطريقه أمام منظم الأمـسية

و«جميلة»، وكأننا أصدقاء ورفاق درب وأحباء.. وكنت أشعر بالضيق ورغبة كاسحة ألمت بكياني للسخرية منه في ذاك المشهد الخاطف.. قلت له:

- لم أقرأ لك نصًّا منشورًا في الصحافة!.

- أتحاشى النشر!.

لفظها بطريقة استفزتني بالعمق.. رمقته متخيلًا ذراعه النحيفة، وهي ترتفع بالعصا الغليظة، وتهبط على عقب قدمي المعتقل البريء..

قلت له: العمر يمضي.. جاوزت الخمسين متى يظهر شعرك على الملأ.. كنت واثقا من أنه أتعب نفسه لكثرة ما راسل الصحافة، دون أن يفلح في نشر قصيدة، عدا صحيفة حزبه طبعًا.

- بعدين راح يظهر.. بعدين!.

وهزَّ رأسه هزة متعالٍ.

علقت بخبث:

- صحيح أنت من البصرة.. تقصد يعني شعرك راح يصدم القارئ مثل شعر «محمود البريكان»!.

وقع فورا بالكمين فقال:

- بالضبط!.

انفجرتُ بضحكةٍ عاصفةٍ، جعلت «جميلة» تشخص نحوي متسائلة العينين.. غرقتُ من القلب، وكأنني لم أضحك طوال عمري مرة.. غرقتُ

منتشيا من الحيرة، التي جعلت من قسمات الشاعر الجلاد الأنيق يحملق نحوي، غير عارفٍ لم أنا أسخر منه إلى ذلك الحد الصارخ.

التفتُّ نحو «جميلة»، وقلت بلهجة ساخرة:

- تعرفين يگول صاحبنا شعره بمستوى «محمود بريكان»!.

رفعتْ رأسها نحوه.. مشتْ بعينيها على طوله من تحت إلى الرأس ومنه إلى القدمين.. صعدت ونزلت.. عيناها تفيضان سخريةً. أشارت بالوسطى والسبابة، محددةً قامته النحيفة الطويلة، قائلة بلهجتها القوية الواثقة:

- أنتَ؟!.

- ..

بهت فاغرًا فاه.. ورمقني مرتبكًا.. كنت أبتسم ساخرا متشفيًا. أكملت بلهجة قاطعة:

- عمي «البريكان» شاعر فيلسوف وين أكو مثله!.

شحب رغم لونه الأسود، ولم يستطع الرد أو قول شيء حتى!.

قلت، وتعليق «جميلة» أخمد النار في قلبي:

- زين أنت ما طبعت ديوان!.

ازداد ارتباكًا، وتلعثم بالكلام:

- عندي أشعار كثيرة!.

أحكمتُ الطوق حوله:

– كتاب.. ديوان.. واحد من يريد يعرفك شـاعر.. لازم عنـدك ديـوان مطبوع على الأقل..

ـ ععننعيننن دييي!.

تلعثم وتيه الكلام.. قلت مع نفسي لأجهز عليه:

ـ طباعة الديوان ما تحتـاج غـير فلـوس.. وهنـا كلهـا عنـدها فلـوس.. وبسوريا ينطبع مثل ما طبع غالبية الشعراء والكتاب هنا بالدنمارك وأوربا!.

كانت «جميلة» تنصت من كرسيها، وعدد من الحضور اقترب، وشـكّلوا حلقة حول وقفتنا.. كانوا يلزمون الصمت، منـصتين للحـوار.. قلـت مـع نفسي:

– هأنا أعلقه من أطرافه على كرسيّ الفلقة!.

تلفتَ وقال بصوت باهتٍ مفضوح:

– لديّ ديوان شعر صدر لما كنت في العراق!.

يكذب طبعا، فهو أخبرني أنه لم يطبع ديوانًا. لم أشأ أن أكون فجًّا فأكذبه، لكنني باغتّه بلهجة ساخرة وبجملة خرجت مني بعفويـة كـادت تلتـصق بقاف العراق:

– يعني لـمّا كنت زغيرون!.

مما جعل «جميلة» تضج بضحكة، زلزلت القاعة، زادها صـخبًا..ضربهـا على فخذيها براحتيها المفتوحتين، معيدةً جملتي بإخراج آخر جعـل سـواده، يتحول إلى بياض ميت:

- خرب إبليسك «إبراهيم».. وين لگيتها لـمّا كنت زغيرون!.

أعداني ضحكها، فانخرطت فيه على وقع ترديدها:

- لما كنت زغيرون!.

لم يستطع مبارحة مكانه جواري.. كان أجبن من فعل ذلك.. ظل حتى أكملنا موج ضحكنا العاصف..

قلت كي أنهي المشهد، موجهًا كلامي إلى «جميلة»، التي كانت تنشف عينيها من الدموع:

- زين راح نسمعه بعد دقائق ونقدر!.

نطقت جملتي بسخرية.. ابتلع ريقه بعناء وابتعد نحو منضدة التقديم.

أطنب الطبيب الكردي في تقديمه بعربيةٍ لا تفرقُ بين المؤنثِ والمذكرِ فوصفهُ بالشاعر العظيم.. كان «أبو غالب البصري» مشغول البال بالموقع الذي نجلس فيه أنا و«جميلة» إلى يمينه، يعني في الجهة البعيدة عن باب الخروج.. لم يشخص صوبنا أثناء القراءة، بل ركَّز على من كان يجلس في طرف القاعة المقابل له. الحضور قليل.. أكثر من ثلاثين بواحد أو نيف.. وكان يطرف نحونا بين بيت وآخر.

الكلام المصفوف نفسه، الذي سمعته في غرفةٍ من حجر وطين قبل أكثر من عشرين عامًا.. المفردات نفسها وطريقة الإلقاء المفتعلة المتساوقة نفسها، مع كلامٍ لا يحسُّ بهِ هو أصلًا.. لم انفعل وبدأ يرفع ذراعه عاليًا؛ ليهوى بها على الفراغ الشاخص جوار قامته.. رأيت العصا المنتقاة من غليظ الغاب،

تهوي على عقب قدمي ذلك السجين البريء، الجندي العراقي الهارب، الغريب الذي لم أره أبدا، ولم أعرف اسمه بعد ذلك اللقاء.. وكل يذهب إلى ناحية في موقف حافلة بشمال طهران.

كان يرمي بذراعه اليمنى محاولًا تجسيد كلماته الميتة أثناء القراءة، فتتجسد قبضته ملتفة، تضم جسد الخشب الميت الصلب.. وتهبط على لحم باطن القدمين العاريتين، فيومض بريق الألم في وجه المعلق.. فيتلوى لوعة، تتردد في رنين العصا المرتفعة والهاوية، وكأنها تحاول الغور عبر الجلد إلى الأحشاء.. قبضة الشاعر الجالس خلف منضدة رتبت؛ كي تواجه الحضور، تسقط على باطن قدميّ العاريتين.. تسقط.. تشعرني بالعجز والهوان.. تسقط في إيقاع، وكأن أحدهم يغتصب صبية.. تنحت جلد بشرتي.. تجعله يلتهب نارًا، والشاعر منفعلٌ، تحتقن قسماته نشوةً وكأنه يغتصب!. كدت أصرخ:

- يا بويييييييييييييييييييييه!.

مثلما صرخ في وجهي ذاك الجندي، الهارب إلى الثوار بباحة «كشور» شمال طهران، الغاطّة برائحة أجساد العراقيين الضائعين الحالمين بالسفر إلى المجهول.

- يا بوييييييييييييييييييه

تتأرجح على طرف فمي.. تمالكت نفسي بعناء.. لكزت كتف «جميلة»، وأشرت لها بأنني سوف أخرج.

همست:

- أصبر لما يكمل!.

أضرم همسها رغبتي في الصراخ.. كدت أصرخ.. هممت بالصراخ.. أفلتت أَنَّةٌ فكبتّها على الفور، وقربت رأسي من أذنها القريبة:

- أطلع أحسن!.

ونهضت في اللحظة التي قلب فيها صفحة من صفحاته.. خطوت في فسحة القاعة، ميممًا صوب الباب المؤدي إلى بئر السلم والمصعد، لوقع حذائي الثقيل إيقاع عطّل كلامه.. تلكأ بالقراءة وتوقف.. لابدَّ من المرور جواره كي أبلغ الباب.. تعمدت السير ببطء، ولما صرت جواره التفتُّ نحوه محدقًا باحتقان.. عبرت الباب، فتوقفت هنيهة وعببت أنفاسًا عميقة، وكأنني لم أكن بقاعة فسيحة.. بل بغرفة سجن الفوج الأول، التي كانت بلا نافذةٍ.. عببت أنفاس الفراغ، قبل أن أدخل المصعد وأهبط إلى الطابق الأرضي، فالشارع الساكن المعتم.. عانقني النسيم فعببت أنفاسه.

عببتُ أحلامي وأخيلتي!.

لم أبقَ وحدي طويلا.. لحظات وشبكت أصابعي الواهية أصابع «جميلة»:

- ليش هيجي سويت؟!.

بجملتين مكثفتين.. وصفت حالي لحظة قراءته، فصرختْ:

- أنت أحلى مجنون بالدنيا؟!

وقبل أن أبوح ليلتها بمشاعري المعقدة لها، والتي أدت إلى مغادرتي القاعة والشاعر ينشد قصائده. عانقتها ورحت في نحيب مهضوم، له وقع نحيب ذلك الجندي العراقي في باحة استعلامات «كشور» بشمال طهران.

لم أخبرها بحالي..

ودعتها وبقيت وحيدًا ضائعًا في ليل كوبنهاجن، غريبًا أبحث عن مأوى!.

الحالمون الثلاثة

أجلس جوار نافذة القطار العريـضة في طريقـي إلى مطـار كوبنهـاجن.. أجلس كمن لتوه ظهر من أعماق بحر كاد يفقد النَّفَسَ فيه.

- من غطسني في يمّ المنفى والضياع؟!.

أسأل نفسي المرة تلو المرة، منذ أول لحظة وجدت نفـسي فيهـا أسـقط في فسحة بئر سلم البناية، ورفيقة عمري ترمقني بغضب واشمئزاز، من خلال باب الشقة نصف الموارب.

- من جعلني أعيش حياتي مثل وهمٍ؟!. هل هـو المـصور الفوتـوغرافي «شاكر ميم» وجوف فقاعته، أم نفسي، أَم العراق؟!.

- لا أدري!.

لكن ما بتّ واثقا منه هو أني لم أكن طوال عمري، سوى حـالمٍ يعتقـد أن باستطاعته تغيير الدنيا.. هذا الحلم الذي لم ينكـسر لا في حيـاتي في العـراق وأنا أعمل سرًّا ضد الدكتاتور، ولا بين الثوار في الجبل حينما حملت سـلاحًا متخيلًا لحظة دخولي مدينتي، ظافرًا جالبًا الخبز للفقراء والحرية للإنـسان..

لم ينكسر هذا الحلم أبدًا حتى في موسكو، والشيوعية تتهاوى مثل بناءٍ هش تحت ناظري.. كنت لم أزل أعتقد بالإنسان في معادلة غير قابلة للنقض، هي التي أفضت بي إلى هذا المآل؛ حيثُ صرت متشردا في بلدٍ، لا مكان فيه لأحلام الثورة، فكل مشكلة لها حل في نظام متماسك قليل الثغرات.

وجدتُ نفسي عاريًا في قارعة المنفى دون حلمي.

كل شيء بدا واضحًا هنا..

لم أستوعب الجديد!.

وجدت نفسي كمن نقلته مركبة الزمن إلى حضارة، لم يكن حتى يحلم بها!. لم أرتبك فحسب، بل وجدتُ أن الحياة فعلا ما هي إلا جوف فقاعة.. فما كنت أحلم به كنظام يكفل عدالة معقولة وجدته هنا، وليس فيما كنت أظنه منذ صباي. وما المسار الذي قطعته عنيفا قاسيا إلا ظل خط في لوحة منسية.. فما قيمة مقتل أخي وأعز أحبائي تحت التعذيب، من أجل حلم نظام تبدى في آخر المطاف، لا يختلف عن الدكتاتورية إلا بالاسم!!

هبطت على أرض الدانمارك قادمًا من موسكو، مفعمًا بعطن غبار الشقة التي تركتني فيها.. غبار مخلوط برائحة الفودكا والحلم، الذي تلاشى تحت ناظريّ وتركني مذهولًا أسكن الخمرة متشبثًا بلحظتي الحاضرة.

هبطت لأجدُ نفسي عائما، بلا أي قيمة، فكل شيء مرتب هنا.. لم أجد مكانًا للحظتي، التي كنت أمكث فيها لمقاومة الكل.. وجدتُ الحياة هنا تسحبني خارج فقاعتي، التي أسست وجودي في العراق وفعلًا فقدتها، فصرت ضائعًا وسط الجميع، فلا قدرة لدي على تعلم اللغة والانسجام مع

المحيط الجديد، ولا قدرة لديّ على مجاراة رفيقتي وزوجتي، التي تمتلك ذهنًا عمليًّا، ساعدها على الانسجام مع المحيط الجديد.

لم أجد غيرها.. فقاعتي..لحظتي، فبقيتُ متشبثًا بها.. الدنيا محض لحظة.. بقيت في ناصية هذه الفكرة، وكأنني أعيش اللحظة التي كنت أنفرد معها في الفراش.. كنت أبدي فيه كل ما بوسعي من تدله وجنون، لا سيما بعد تجارب موسكو ونسائها العابرات، ولكنها كانت تنأى بعيدًا عني قليلًا.. قليلًا.. تنأى بمعقولية من الصعب وضعها موضع نقاش، حتى وجدت أن فراش الزوجية في وضع كهذا لا معنى له، فكففت عنه لاجئًا إلى الخمرة، التي تأخذني إلى مسافة الخدر والأحلام، فأعيش حبور اللحظة في غبطةٍ، صارت بديلا لنكد اليوم وعزلتي.. مما حدا بها آخر الأمر إلى دفعي، وأنا سكران بعنف خارج الباب إلى فسحة بئر السلم.

سقطت على البلاط البارد نائيًا عنها وعن المؤسسة الزوجية.

لتبدأ رحلة التشرد الطويلة!.

لم أكن أظن قطّ أنني سأصل إلى هذا الوضع البائس، لم أعد أتذكر بالضبط كيف تصرفت وماذا حدث بعد ذلك.. فأحيانًا أتخيل أنها ندمت ولم تسد الباب دوني.. لكني نزلت السلم وتركتها حزينة وأحيانا أتخيل.. لا لم أعد أتخيل، بل أشاهد مشهدًا أعنف، وهو الأقوى والذي ظل يلازمني حتى الآن، فما أن نهضت من بلاط الفسحة مشدوهًا، يرن في صمتي صراخها وصفقة الباب العنيفة حتى وجدت نفسي ضائعًا بالتمام والكمال، وكأن الباب ليس باب شقة بل باب الدنيا.. كدت أطرقه وأتوسل؛ لها كي تدعني أخلد إلى فراشي وأنفاسها وأنفاس أطفالي، لكن

كفي تصلبت متحجرة على مسافة سنتيمتر واحد من جسد الباب الخشبي الصلد.. قائلًا لنفسي:

- ولك تصير خرگه!.

رجعت خطوتين يجول في رأسي فراغ دوّار، لا مأوى، لا معارف، لا أقرباء، فكل منفي يحرز بصمتٍ عذابه كشأني لما ألتقي مع أبناء جلدتي، فأضحك وأنكت والكل لا يعرف ما بي.

استدرت وهبطت السلالم، في الفسحة التالية، وقبل أن يغيب باب عمري التفتُّ، وكأنني أودع «عزيز» ملقىً على دكة الغسل بمقبرة.. ولم يكذب شعوري، فقد حرمتني تماما من رؤية أطفالي، مستغلة عدم معرفتي باللغة والقوانين وبؤس وضعي؛ حيث لم أستطع العثور على سكن لفترة طويلة، مضاف إلى أنني صرت أعاقر الخمرة منذ بكرة الصباح وحتى غياب الوعي. وهذا الوضع مناسب لحرماني من رؤيتهم.. لا أتذكر بوضوح تلك الأيام التي تبدو لي الآن كأن من عاشها شخص غيري.

- هل كنت عنيفًا وحاولت ضربها مرات عدة؟!.

- هل كنت أتصل بها وأهددها؟!.

- هل كنت عازمًا على قتلها وقتل أطفالي، كما أسمعوني تسجيلًا صوتيًّا لي في مركز الشرطة سجلته هي؟!.

لا أدري أو الأصح أنني عشت منذ اللحظة، التي نزلت فيها سلالم البناية، وَضِعْتُ في ذلك الليل الشتوي القارس.. لا أتذكر بوضوح سوى اللحظة، التي وقعت فيها أصابعي على كارت قاعة غسيل الملابس المشتركة

لسكان البناية في جيب معطفي الصوف، ومبلغ فرحي.. أسرعت صوبها حالـمًا بالنوم، فعندما ألقت بي خارج الشقة، كنت متأرجحًا على حافة الغفوة على أريكة الصالة. ولجت قاعة المغسل.. وكأنني دخلتُ الجنة.. على منضدة خشبية طويلة، يرتب عليها الساكنون ملابسهم المغسولة.. نمت بعدما شغلتُ التدفئة، وحلمت حلمًا ظل يعاشر تشردي حتى هذه اللحظة، وأنا أجلس في القطار المتوجه نحو مطار كوبنهاجن.. أغفو في ظلال نخلة تطل على رمل شط الديوانية الصغير، حالـمًا بأبي يحضنني، ناسيًا قسوته مرة واحدة فقط، لحظة ظلت حسرة في نفسي إلى الأبد.. صرت منذ ليلة طردي ذاك الطفل المسكين، الذي ظن بالزوجة والأسرة رحمًا.. لكنه لُفظ من دفئه، وهو يقترب من رذيل العمر.

لم أحاول العودة إليها ظانًّا أنها ستبحث عني.. ستشتاق.. ستحنّ.. في اللحظة التي سيمسك بها الشوق، وسطوع أيام حبنا القديمة زمن الصبا، وعنفه في الجبل بين رجال العصابات، لكنني فوجئت في ليلة قارسة، وأنا أؤوب إلى ملجئي بعد منتصف الليل بتعطل الكارت، الذي يفتح غرفة الغسالات.. فأدركت أنها غيرته.. تجننتُ في وقفتي في الظلام الباهت بلون الثلج المغطي الأرض والأسقف.. لا أتذكر سوى اللحظة التي هرعت فيها نحو البناية.. تسلقت السلالم.. ركضت نحو بابها المسدود، رحت أطرق بكفيّ بابها شاتـمًا مهددًا.. أطرق وأستريح.. أستريح وأطرق.. أطرق وأعبُّ من فم قنينة فودكا.. يتأجج غضبي، فأعود إلى الطرق والعبّ إلى أن غبت عن الوعي؛ لأجد نفسي في زنزانة ضيقة عارية.. وعبر بابها الحديدي لمحت شرطيا دانماركيًّا يبتسم لي بود.

من يومها ضيعوا عنوانها عليّ؛ إذ نقلوها إلى مكانٍ مجهول، وفشلت كل محاولاتي في البحث عنها.. لم يعد يمضي الشوق إليها، فقد صارت جزءًا من ماضٍ، أتحاشاه بالإمعان في السكر والضياع.. ظلت قسماتها المشمئزة الغاضبة الحاقدة المطلة على ذهولي، وهي تغيب خلف باب الشقة.. فرشاة مسحت تفاصيل العلاقة وألقتها في النسيان، لكن شوقي كان يحتدم ويشتعل كل لحظة لأطفالي.. يشتعل ويذيقني الويل.. فأجد نفسي مترسبًا في قعر البؤس متسائلًا:

- هل يبلغ الإنسان هذا المدى من القسوة؟!

يجوز ذلك للأغراب.. لكنني عشت معها حبًّا عنيفًا سنين طوالًا، وهي جارتي، وتعرف أدق ما يجيش بنفسي منذ الشباب.. حتى عتبة الشيخوخة!.

- هل؟!.

ووصلت إلى قناعة بأن الأكثر قربًا وحبًّا يصبح الأكثر بعدًا وحقدًا حال تغيّر الأحوال!. لم أر أطفالي منذ أربع سنوات.

- أية أربع!.

رأيت الويل خلالها، ولولا وهمي بفقاعة العمر.. لمتُّ من القهر.. لولاك يا «شاكر ميم»، زادي في فيافي التشرد، لَسَكَتَ قلبي..

عشت في أكثر الأماكن بؤسًا، سكن المتشردون في أمكنة ترعاها الكنائس، وجدت فيها مأوًى في الشتاء.. أتحاشى الصحو، الذي يأخذني إليها وأطفالي والواقع الجديد المتجلي بعجزي التام عن التواصل مع

المحيط.. أعبُّ من الخمرة ما أن أستيقظ من غفوة سكرٍ.. كيف أدبر غلة يومي من البيرة والكحول.. فتلك قصة طويلة.. فلديّ خبرة في السرقة الشريفة..

مثلي الأعلى «أرسين لوبين»، الذي سحرني في صباي أول تدلهي بالقراءة.. تعلمت منه السرقة الشريفة، وبدايتها الكتب حيث وجدت غالبية كتاب ومثقفي العراق يمارسونها منذ أواخر الستينيات والسبعينيات؛ إذ يبررونها بضيق الحال وعدم القدرة.. وكان هذا الأمر صحيحًا.. فكنا نسرق من المكتبات.. فبدلًا من الشعور بالذنب، كنا نحس بالفرح والغبطة لما ينتظرنا من عوالم تكمن في صفحات الكتاب المسروق.. لذا كنا نجدها مشروعة؛ إذ لا نستطيع كطلبة جامعة بالمطلق شراء تلك الكتب.. وأبدعت في هذا المضمار.. كنت أشهر وأدق سارق كتب، لم أضبط مرة واحدة قط في العراق.

لم يعد مبلغ المساعدة الاجتماعية يكفي لمتطلبات اليوم.. لم أعد أستطيع دفع إيجار غرفة، وفرتها لي البلدية بسعرٍ بخس لغلاء الخمرة، التي صارت لصيقة لحظتي، ودونها أصير في ضياع صحو، يكاد يفجر رأسي في المرات التي لا أجدها فيها.. وجدت حلين: الأول: المعقول لكنه متعب وبطيء، هو تجميع قناني البيرة الفارغة من الأماكن العامة واستبدالها بقنانٍ مليئة.. والثاني: السريع والعملي، ولا يحتاج إلى جهد .. وهو شفط ما أستطيعه من قنانٍ داخل السوبر ماركت، مغافلًا كاميرات المراقبة والعاملين، أو دسُّ عددٍ من قناني الكحول في جيوب معطفي الثقيل وقت الشتاء. لم أُمْسَك مرة واحدة كشأني، حينما كنت أسرق

الكتب من مكتبات شارع «المتنبي» و«السعدون» في بغداد طوال سبعينيات القرن الماضي، وذلك ساعد في تدهور حالي، فصرت شبه ضائعٍ، أجوب أزقة وشوارع كوبنهاجن، لاجئًا مع حلول الليل إلى حديقةٍ في الصيف، وغرفة إيواء المتشردين في الشتاء..

لم أكن أشعر بالمحيط، بما يجري.. إلى أن استيقظتُ يومًا؛ لأجد نفسي راقدًا في سرير نظيف داخل غرفة بيضاء، تطل على حديقة خضراء تتصل بغابة تسد أفق النافذة.. وحدي في الغرفة التي تسع لسريرين.. كان السرير مرتفعًا جهة رأسي.. حاولت التحرك، ولكنني شعرت بألم في ذراعي اليسرى.. حركت رأسي ببطء نحوها.. وجدتها مثبتةً برباط إلى حافة السرير، وإبرة المغذي مغروزة بوريدي، ومتصلة بقنينة تقطر سائلًا أصفر.. يتساقط ببطء شديد قطرة.. قطرة..

لم أستطع تذكر كيف وصلت إلى تلك الغرفة النظيفة، لا وقتها ولا في الأيام التالية، وحتى الآن وأنا في طريقي إلى المطار.. تخيلتهم يحملونني في سيارة إسعاف من زقاق من أزقة كوبنهاجن القديمة؛ حيث يطيب لي السكر بين بناياتها القديمة..

لكن كم بقيت غائبًا عن الوعي؟!..

لا أدري.. فقد كنتُ لا أكترث بالوقت، فعلاقتي بالزمن ماتت منذ اللحظة، التي رُميت فيها إلى قارعة الشارع في المنفى، فيومي سكر وخيال وأحلام يقظة ونوم، فسكر ونوم، فسكر ونوم، فما أهمية السؤال وقتها عن الفترة، التي قضيتها على سرير تلك الغرفة اللاهثة البياض!!

أجلس شاردًا على مقعد في عربة قطار لصق النافذة.

أجلس مكتظًّا بضجيجي متسائلًا:

- هـل حقًّـا أنـا في طريقـي إلى العـراق، أم أنني في وهـم مـن أوهـام سكري؟!.

رمقت الحقول الخضراء الشاسعة، وهي تتباطأ مع اقتراب القطار مـن محطة بالطريق معيدًا السؤال مرات، مثل تعويذة بصوتٍ مسموع بالعربيـة بطبيعة الحال، إلى أن انتبهت إلى امرأة جالسة على المقعد المقابـل، ترمقنـي بعينـين ودودتـين، أحسـستها تطـل عـلى نفـسي الغارقـة في لجـة قـصتي المضطربة.

من المؤكد أنها صعدت من محطة ما حينما كنت مبحـرًا.. كانـت صـاعقة الجمال صافية، جعلت قلبي يتوجع حال حلـول قـسماتها في عينـي.. كـدت أنهد نحوها، وأصلي جوار قـدميها الـصغيرتين، اللتـين هربـت مـن بهجـة ملامحها إليهما لما أطرقتُ النظر، كدتُ كما هو حالي كلـما وقـع بـصري عـلى وجه امرأة فاتنة.. لكنها قامت حال توقف القطار في المحطة..

غادرت وتركتني مع نظرة باسـمة لتغيـب في سـلالم القطـار الهابطـة إلى الرصيف، فأعـادتني إلى «شـاكر مـيم»، وفقاعتـه الموشـكة عـلى الانفجـار (النهل من اللحظة البارقة لـيس إلا).. هـذه الحكمـة هـي وحـدها التـي ساعدتني على تحمل عناء التشرد والبؤس، فالغور في مطلقها جعلنـي أجـد بكل ما يصيبني مجرد لحظة ستمضي؛ لذا لا داعي للأحزان ولا داعي للنـدم

أو الأسف.. كلما ضاق حالي في الدنيا، كنت أصرخ بصمت في أتـون جبهـة الحرب العراقية الإيرانية حينما كنت جنديًّا، أو وسط رجـال العـصابات في العراق وسط غابة في الجبل، وهنا في الدانمارك حينما حـاصرتني مـن كنـت أظنها رحمي الأبدي.. كنت أصرخ:

- طززززززززززززززز بك يا دنيا يا عاهرة!.

وأعـب الكـأس تلـو الكـأس حتـى لـذة الـتلاشي، التـي لا يـشعر بهـا ولا يستطيع تخيل مدى غبطتها سوى السكير العارف مثلي.

تحركت البيوت الناصية راكضة؛ لتغيب عنـد حافـة نافـذتي الزجاجيـة، التي رمتني إلى حقول خضراء، تمتـد حتـى الأفـق تـركض لاهثـةً بمراعـي حصنها وأغنامها وأبقارها وغاباتها المتنـاثرة.. لم يبـق سـوى محطـة واحـدة وسيصل قطاري إلى المطار.

- هل حقًّا أنا في طريقي إلى وطني؟!.

شعرتُ بغبطةٍ لم أشـعر بمثيلهـا، حيـنما اسـتيقظت في المـصحّ المختـص بعلاج الإدمان على صوت طبيب عراقي، زفَّ لي التهاني بـسقوط «صـدام» على أيدي القوات الأمريكية قائلًا:

- «إبراهيم» مبروك علينا.. ولو أن الأمريكان ليس لهـم أمـان.. لكـن خلصنا من الطاغية!

قال لي ذلك، وفتح التلفاز المعلق على الجـدار أمـامي بـشاشته المـسطحة فظهرت الجموع بصحبة الأمريكـان، وهـي تـسقط تمثـال «صـدام» وسـط

ساحة الفردوس.. استمتعت بالمشهد وساعدني على تمالك قواي، فأحسست في تلك اللحظة أن صديقي الطبيب فتح لي بابًا قد يكون فيه خلاصي من ورطة المنفى، الذي شردني وجعلني مجرد سكير تائه في أزقة عاصمة غربية غريبة.. رغم عدم محبتي، أو بعبارة أدق كرهي لأمريكا، المرتكز على أسس ثقافية بعيدة الغور، ليس لها علاقة بالأيديولوجيات المتصارعة.. كره يعود إلى معرفة استقيتها من مطالعتي الأدبية لظروف تكون أمريكا وحروبها الأهلية، يضاف إليها شدة التصاقي بالإنسان كقيمة مطلقة تهملها الأيديولوجيات، رغم أن أسَّ قيامها وتكوينها عليه..وبتعبير أدق أنها تجعل منه معبرًا لسيادة أفكارها، وما يقف خلف تلك الأفكار من مقاصد ومصالح ومنافع..

رغم كل هذا الوعي.. ورغم الغصّة.. وجدت بهذا التحول الدرامي.. احتلال العراق من قبل الأمريكان فسحة قد تكون شخصية لي.. أن أرى أمكنة طفولتي وصباي مرة أخرى، بعد أكثر من عشرين عامًا من النفي.. ليس النفي فحسب، بل من البؤس الذي وسم تجربتي العنيفة؛ لذا أذهلني مشهد تحطيم التمثال وسحله على قارعة طريق، وأطفال«ملحان» يوسعون رأس «صدام» الحجري ضربا بالنعال، والكل مبتهج.. أذهلني وساعدني على تجاوز محنة الإدمان.. قلت للطبيب العراقي المشرف على علاجي، وهو رفيق كان معي في حرب العصابات:

- «قاسم» أستطيع الوقوف على قدمي الآن!.

سألني:

- أش لون يا «إبراهيم»؟!.

قلت:

- سأعود إليه.. قد أجد حلًّا لوضعي!.

- إلى العراق؟!

قلت فورًا:

- أي!.

- وأنت بهذا الوضع الصحي!.

- نعم يا «قاسم» أنت تعرف كل شيء عني منذ حرب الجبل حتى مخيمات اللجوء في تركيا وإيران وموسكو وظروف الخراب في الدانمارك.. وضعك مختلف، فأنت وجدت مسارك المهني، وأنا ضعت في المنفى.. بلا عائلة.. بلا كيان.. بلا معنى.. بلا قدرة على فعل شيء.. كما ترى لست سوى نزيلٍ في مشفى متخصص في علاج الإدمان، وأنت تشرف عليَّ.. قد أجد ذاتي في وطني، الذي تشردت من أجل حلم تحويله إلى جنة؛ ففيه من الثروات، التي تجعل منه جنةً في الأرضِ أكثر دنوًّا من كل أوطان الخليقة.

- وهل تدعك أمريكا؟!.

ردّ بسخرية، وغرق بضحكة عاصفة، لكن لابدَّ من مغامرة العودة.. ذاك أفضل لي من هذا الدوران والتشرد في بيئة، كل شيء مرتبٌ فيها ما عداي.

- هل أنا متجه نحو وطني أم نحو المجهول؟!.

سألت نفسي والأبقار الدانماركية الوديعة التي توزع الجبن على العالم ترعى في حقولها، تحت ناظري عبر نافذة القطار الزجاجية.. قلتُ لنفسي بصوت مسموع، مستعيدًا كلام «قاسم»:

- اسمع «إبراهيم».. لم أجد بلدًا مثل الدانمارك، يحترمني كإنسان وطبيب؛ لذا قررت أن حياتي ومستقبلي هنا، فجماعتك في الجبل مسحوا بي الأرض وشككوا بمهنية عملي، وقالوا عني لست بطبيب بل مجرد مضمد.. مما جعلني أتركهم وأغادر إلى إيران والمجهول.. اسمع «إبراهيم».. لا تعد إلى العراق.. سوف يقتلونك، فأنا أعرفك عن قرب.. أنت لا تصلح للعيش إلا هنا.. حتى لو تعيش كمتشرد!.

- لا.. لا يا «قاسم».. إنها البقعة التي رأيت الضوء فيها وسمعت أول صوت ورأيت أول شكل فيها، إنها نفسي يا صديقي.. لا بد أنها ستكون خلاصي من وضعي البائس!.

لم يرد مباشرة.. بل سرح ناظرًا عبر نافذة غرفة المصح المشرفة من طابقها الرابع على غابة شاسعة، تنتهي بساحل بحر الشمال الكابي.. كنت مهتمًّا جدًّا بما سيقوله.. عاد بعينيه نحوي قائلًا:

- إذا كان لابد لك من ذلك.. فجرِّب.. سافر لكنك ستخيب وستتذكرني!.

لم أتوان.. طلبت موعدًا مع مشرفتي الاجتماعية في الكومون.. أخبرتها بعزمي على السفر حال تماثلي للشفاء إلى العراق، فرحبت وساعدتني بتغطية

تكاليف رحلتي ماديًّا بالكامل.. التذكرة في جيبي والقطار يوشك بلوغ المطار، وسأكون بعد ساعات في ناصية زمن آخر قديم، لي فيه ذكريات.. دمشق..

قلت لمشرفتي الاجتماعية:

- هل أستطيع رؤية طفليّ وأمهم قبل السفر؟!.

- سأحاول!.

لكنها أخبرتني برفض طليقتي.. قلت لها حسنًا.. وقلت لنفسي حال خروجي من بناية الكومون:

- طززززززززززز!.

لكنني مع الحرف الأخير، شعرت بوجع في قلبي.. غصصت بالحرف الثقيل، ووجدتني أركض مثل مجنون صارخًا مستنجدًا.. بالسماء.. وبالهواء.. بالشمس.. بالناس.. من قسوة جارتي ورفيقة عمري، لأنهدَّ باكيا غامدًا رأسي بعشب الحديقة المقابلة لمبنى بلدية المدينة، متيقنًا بأنني حقًّا وحيد.. لا في المنفى فقط، بل في الدنيا أيضًا..

- كيف لي التخلص من الماضي، الذي نجحت في المنفى في الخلاص منه بفضل معلمي «شاكر ميم».. كيف لي وأنا أتجه نحوه ككيان تراب وهواء وماء وبشر وبيئة صيرتني؟!.

- يا إلهي؟!.

صرخت مع نفسي والقطار يلج في نفق المطار.. ترجلت مع حقيبتي الظهرية الخفيفة وكأنني ثائر في الجبل، فهي لا تحوي سوى متطلبات اليوم، ملابس داخلية وغيار ثياب وفرشاة أسنان ليس غير:

- عاريًا بلا رتوش.. عاريا كـ «إبـراهيم» الـسلامي.. كـأنني في أقـصى السكر حيث يكون الصحو صلبًا.. طفلًا يفـتح عينيـه عـلى الـدنيا للتـو .. سأعود مغسولًا من أوهام العائلة، الأيديولوجيات.. حلم مدينة «ماركس» الفاضلة.. سأعود من رحلة الضياع إلى رحمي الأول.. إلى مدينتي الـصغيرة ونهرها الصغير، وما تبقى من معارف ظلوا سالمين مـن المطحنـة.. عاريًـا.. أتوجه نحو الطائرة التي ستنقلني إلى دمشق، ومن هناك سأتوجه نحو سري الدامي: «العراق».

حالما وضعتُ قدميَّ على أول درجة من سلم الطائرة، قلت لنفسي:

- وداعًا للمنفى.. وداعًا للبؤس!.

هتفت بذلك، وجلست على مقعـدي المجـاور لنافـذة مـدورة صـغيرة، جعلتني أشرف على الأرض، والطائرة ترتفع في السماء فوق غيوم الله..

- هأنذا أحلق فوق الغيوم.. حلم عاشر طفولتي، حينما كنت أسـقط في غفوة بظلال نخلة، تطل على شط الديوانية في ظهائر الصيف.. هاأنذا أعوم في الفضاء، جالسًا على كرسي وثير، أحتسي البيرة وأغازل المضيفة الشقراء، التي تبتسم كلما طلبتُ كأسا دون كل المسافرين.

الفضاء.. ووجه اسكندناڤي فاتن، فوق الغيوم، وبقعة «هاملـت» التـي شهدت بؤسي غابت تمامًا وصارت بغتة، مثل ذكرى عابرة..

- سأراك يا «شاكر ميم»!.

هتف صوت في أعماقـي، والـشمس الـساطعة بـدت قرصًـا متوهجًـا، يصاحب نافذتي، ويطل عليَّ بسكون، وكأن الطائرة ساكنة في الأعالي.

- «إبراهيم».. يا «إبراهيم» أنت في الأعالي في لحظـةِ نـشوة، لا يـدركها إلا من عاش في جوف فقاعة.. أنت الآن طلقة ضائعة في الكون.. لـو سَـها الطيّار لحظةً.. ستنفجر الفقاعة فترسو حالًا في رحاب العالم الآخر..

قهقهت بصوت أجفل المسافر الجـالس جـواري.. لم أهـتم.. عـدت إلى نفسي:

- «إبراهيم» جدك «إبراهيم».. صنع قصة بيت الله، وأنـت ضـائع الآن بسماء الله على مقعد وثير، تحتسي الجعة كأسًا بعد كأسٍ.

كان الإمعان في الشرب في رحاب السماء وتوتر لحظات الطيران ينأى بي عن تفاصيل مأزقي الواقعي، بين بؤس المنفى الدانماركي، وأمل قيامي مـن جديد في أمكنتي الحميمة بعد زوال الدكتاتور.. نفضت رأسي قائلا بصوت مسموع، لكنه خافت:

- «إبراهيم»اتـرك كـل شيء وفكـر في القـادم.. في العـراق.. في أمكنـة الطفولة، التي ستراها.. في الأعمام والأخوال والأجيال.. في التراب وهـواء المكان.. «إبراهيم» احْمِد الرب على سلامتك.. ستزور أمكنة الطفولة، التـي مات بحسرتها عديد من رفاقك، ممن قضوا في المعتقلات والجبل والمنفى؟!.

* * *

مع الإعلان عن قرب هبوط الطائرة ونهاية الرحلة، شـعرت بـشيء مـا يتماسك في نفسي.. فكل رحلتي رتبتها بمساعدة صديق ورفيـق قـديم مـن مدينتي، زار العراق قبلي وزودني بكل التفاصيل.. مكاتب النقل في الزينبيـة

بدمشق، أسماء الأسواق، لا بل رتب لي الرحلة في صحبة «أحمد» ، مهندس كهرباء من أبناء مدينتي، شديد الذكاء، وسياسي يعيش في ألمانيا، التقيت بـه مرة واحدة في بيته، في مدينة تـدعى «هلمإستـاد» في الـسويد صـيف 1995، وكان وضعي لم يتدهور بعدُ.. فكانـت الرحلـة عائليـة.. وجدتـه في ذلـك اللقاء الوحيد، عراقيًّا معتدا بالعراق وحضارته.. أتذكر إجابته عـن سـؤالي عن اسم ابنه من زوجته الألمانية، بصوتٍ قويٍ ناصـعٍ، كجـسد المـسمى في الأسطورة:

- أنكيدو!.

عرفت لاحقًا من مجرى الحديث أنه يعمل من سنين طوال، وحال إيابـه من تجربة الالتحاق بالثوار في الجبل بعد مذبحة بيشتاشان، في شركـة ألمانيـة تعتز بقدراته وتمنى وقتها لو يرحل الدكتاتور؛ كي نرجع ونقدم لمدينتنا شيئًا من المعارف التي اكتسبناها في المنفـى.. كـان شـديد الثقـة بنفسه وبالحيـاة وبالمستقبل.. عكـسي تمامًـا.. كنـت وقتهـا عـلى حافّـة الهاويـة، وعلاقتـي بزوجتي والعائلة والعالم في تدهور، لم ينفع معها مراجعتـي لطبيـب نفـسي، طوال ثلاثة أعوام، وذلك ما جعلني أُذهَل عجبًا من حيويته وفعاليته، وكل وضعه وهو ابن راعي جاموس.. ينظرون إليه في المدينة نظرة دونية بحكـم عرف مدننا المتخلفة شبه البدوية.. مـن المفـترض أن يكـون في انتظـاري في فندق قريب من شركة النقل؛ فطائرته وصلت في ساعة متـأخرة مـن الليلـة السابقة.. بينما طائرتي وصلت في منتصف ظهيرة اليوم التالي.. كنت متشوقًا لرؤيته مرة ثانية، فقد مرّ على لقائنا الأول قرابة تسعة أعوام.. ركبت سـيارة أجرة من المطار حتى عُنوان الفندق في الزَّينبية:

- خرج في جولة!.

أخبرني الشخص الجالس في استعلامات الفندق.. وضعت حقيبتي الصغيرة في غرفتي، وخرجت إلى ضجيج الشارع.. إلى فضاء «دمشق»، حبي الثاني في حياتي بعد مدينتي «الديوانية».. مكانان أشعراني في حياتي بالأمان.. عببتُ من الهواء الدافئ أنفاسًا عميقة، شاعرًا بلذة لا يشعر بها أحدٌ إلا من تشرد في المنفى صعلوكًا سكيرًا.. قلت لأذهب إلى المكتب وأضبط الحجز، وفعلًا ذهبت إلى المكتب الصغير في شارع فرعي، فوجدت سائقين شبانًا أخبروني أنهم من أبناء مدينتي.. وبينما كنت أجلس محاورًا أولئك الشبان.. دخل «عليٌّ» ابن محلتي ورفيقي في الجبل، يحمل ساقه الاصطناعية حملًا ليعبر عتبة المكتب.. «علي» الذي عشت تفاصيل عملية بتر ساقه بعد إصابته في معركة قرب قصبة «بامرني» شتاء 1987، وهذه قصة أخرى.. هببت من كرسيَّ صارخًا فرفع رأسه وصاح:

- «إبراهيم» حبيبي!.

وفتح ذراعيه الناحلتين ليضمني.. عانقته بشدة.. كان يلهث مرددًا:

- حبيبي «إبراهيم».. حبيبي!.

ولما فللنا أذرعنا رأيت الدموع تصب من عينيه.. كان اللقاء مفاجئًا حقًّا، فأنا لم أره منذ قرية «زيوة» الإيرانية، التي وصلنا إليها عبر تركيا، حينما حملتنا شاحنات لنقل التراب من مخيم (كفر) التركي حتى الحدود الإيرانية، وكان معنا في الرحلة بقدمه المقطوعة وزوجته المكافحة، التي

ولدت طفلة قبل الانسحاب بشهرٍ.. تكفلتُ بحملها، خلال طريق الانسحاب الطويل بين الوديان والقمم؛ كي تتفرغ زوجته للعناية به، وهو يركب بغلًا، ويجد صعوبة في التوازن بسبب اختلال تكوينه بعد بتر ساقه اليُمنى، حتى أنه سقط في ظلام ليلة دامسة من فوق البغل؛ إذ سمعت في منحدرٍ حاد صوت ارتطام جسده بصخور المنحدر، مصحوبًا بصرخة فزع قصيرة!.

جلس على كرسيّ في مواجهتي وخلفه واجهة المكتب الزجاجية، وراح يقص على سائقي المكتب العراقيين، عما يكنه لي من مشاعر لمواقفي منه في الظروف الحرجة.. فأخبرهم كيف كنت أحمله على كتفي، حينما تباغتنا الطائرات العراقية بالقصف؛ فيهرب الجميع ويتركونه على سطح قاعة موقع «بندري» في وادٍ من أودية حوض ـ زيوة ـ خلف مدينة «العمادية»..

أعادني رويه إلى «إبراهيم» وقت عزّه، فاستعدت قليلًا.. قليلًا شيئًا من كياني، الذي تبدد في المنفى في اللحظة، التي كان يروي فيها للسائق، والعاملين في مكتب السفر من أبناء مدينتي ينصتون بذهول.. أحسست بجسده المكسور على كتفي لينًا لاهثًا مستسلمًا، وفوقنا الطائرات المغيرة تنقض، والقذائف تنفجر على مقربةٍ.. كنتُ عمليًّا سريع الحركة، وأنا أنحدر به نحو ملجأ تحت صخرة في الوادي الصغير وأدسه فيه، وأحشر جسدي في الفتحة؛ حيث لا يسع الملجأ إلا لواحد.. لا أنسى ما حييت قسماته الوديعة الممتنة.

قلتُ في نفسي:

- هو لا يدري كيف صيرني المنفي!.. لا يدري!.

سألني عن أحوالها ونعتها بالشجاعة.. موجهًا جملته للجميع:

- أنتم لا تعرفونها.. هي امرأة من مدينتكم.. لكنها من أشجع نساء العالم!.

أشعرني قوله بالفخر، ولكنه يحكي عن تجربة، مضى عليها أكثر من أربعة عشر عامًا. . لا يعرف كيف عاث بنا المنفى وقسّى القلوب، فجعلها ترميني إلى قارعته، وتحرّم عليَّ رؤية فلذات كبدي..

هو لا يعرف أنني تدهورت إلى حدود الضياع والتشرد والإدمان، وما رجوعي إلا محاولة أخيرة للعثور على نفسي وكيانها!..

لكنني اكتشفت بعد ساعات ماذا فعل به المنفى، وهو يخبرني عن إدمانه الكحول، وبرر لي محنته بساقه وابنه الذي ولد منغوليًّا، وهو الثاني بعد بنته التي ولدتها أمها في الجبل.. صحيح أنه يعمل.. لكن زوجته لم تلقِه إلى قارعة المنفى.. رغم كل شيء.. رغم إعاقته.. رغم إدمانه.. رغم كل شيء ظلت معه قريبة، تحاول وتناضل من أجل توازنه الروحي، الذي صار شبه مستحيل، فالابن المعاق شطره شطرًا مثل الطلقة، التي أفقدته الساق اليُمنى من فوق الركبة.

أخبرني أنه لتوه عائد من مدينتي محبطًا، فالكل يعتقد به ثريًّا، عاد ليوزع على العائلة ما كنزه في المنفى.. حتى أن أخاه الأكبر أهانه كونه عاد بأشواقه

فقط.. ونصحني بإخفاء كل ما يتعلق بالدولار كون الأهل مدلَّهين به، وبكل ما يمت له من قول.

قلت مع نفسي:

- يا للمحنة.. فأنا أصلًا أود الخلاص بالعودة.. لكن «علي» عَتَّمَ المشهد، فهل سأواجه ما أرمد صاحبي.. لا أدري.. لكنني كنت عازمًا على العودة بلا مخاوف.. فحلم رؤية مدينتي وأمكنة الطفولة والصبا، لا يعوقه كل ما يستجد من القصص والحكايات.

قال مؤكدا:

- يجب التعامل مع الجميع بالعملة المحلية!.

أربكتني الفكرة.. كنا في طريقنا إلى الفندق الذي ينزل فيه «أحمد»..

قلت له:

- «علي» هو أنا عندي فلوس حتى أضمها!.

توقف ونظر نحوي بدهشة.. فأردفتُ:

- وبعدين أنا راجع لأستقر هناك!.

- صحيح!.

أكدت له ذلك دون تبيان ما صار إليه حالي.. حدثني عن تبدل أحوال الناس والمجتمع في غيابنا، وقد لا يكون بمقدوري تحمّل الوضع الجديد، بعد أن عشت في مجتمع اسكندنافي يوفر كل شيء.. كنت أصغي إليه، وأقول في نفسي:

- حقك عليّ يا «عليّ» ما دريت بالمنفى أش صار؟!.

كنتُ أحمل عنه كيس فاكهة اشتراها في الطريق، وأساعده أحيانا عند عبور الشارع، أو صعود رصيفٍ عالٍ.. صرنا أمام واجهة الفندق مخلفين الضجيج وروائح المطاعم المكتظة والمقاهي خلفنا في الشارع العام.. حملته من تحت إبطيه، وأصعدته إلى الرصيف العالي، مختصرًا المسافة إلى السلالم البعيدة عن بوابة الفندق، كان يلهث وتفوح منه رائحة الخمرة، التي لم أنتبه إليها عند العناق، على الرصيف خطا لوحده، وقال :

- «أحمد» يسكن في غرفة مجاورة.. لدي عرق «ريان» وحمص مسلوگ، ولبن.. نشرب ثلاثتنا كاس كاسين!.

انخرطت في ضحكة عاصفة مكملا:

- ثلاثة.. أربعة.. عشرين.. يعني ما راح انسافر اليوم!.

- لا.. «إبراهيم».. كأس كاسين وبس!.

ترجى بصوت خافت حاله حال أي سكير، يبحث عن نديم.. عبرنا عتبة الباب. صرنا في صالة واسعة.. بدا البناء حديثًا مزينًا بصور أئمة الشيعة الشهداء، وثريات ثلاث تتدلى من السقف، موزعة بشكل يناسب شكل الباحة غير المنتظم.

- أكيد «أحمد» بغرفته!.

أخذنا المصعد إلى الطابق الثالث، قادني في ممر فيه غرف متقابلة.. أشار إلى ثاني باب قائلًا:

- هذه غرفتي!.

واستمر في السير نحو الباب الثالث.. قرعه مناديًا:

- «أحمد».. «أحمد»!.

وقفت متوترًا مشدودًا أنـصت منتظـرا ذاك الـصوت المـشدود الواثـق، الذي بعث في نفسي أملًا قبل أربعة عـشر عامًـا في مدينـة بجنـوب الـسويد المتيقن، والحـالم بـالعودة إلى مـدينتنا حـال زوال الطاغيـة لإقامـة مـشاريع لاستغلال الطاقة الشمسية، التي تخـصص بالعمـل فيهـا في شركـة ألمانيـة، وذاك ما جعله يعيش في وضع مادي رفيع، يسافر كل عـام إلى بلـدٍ بـصحبة زوجته وطفليه.

- «إبراهيم» اترك النفط.. أحنه عدنه الشمس.. أفضل مـصدر للطاقـة بالكون والصيف تسع شهور بالعراق!.

- «أحمد».. «أحمد»!.

كرر «علي» نداءه.. وصمت مصغيًا معـي.. بعـد لحظـات جـاء صـوت خافت كهمهمة قادمة من عالم النسيان، لم نفهـم منـه شـيئًا.. أعقبـه صريـر مقبض الباب، وهو يدور مصحوبًا بصوتٍ بدا واضحًا:

- أي «علي».. كنت نايم!.

لكن المفردات خرجت بلفظ متعسر، وكأن الناطق بها يعـاني صـعوبة في الكلام.. قلت مع نفسي:

- هذا الصوت مختلف عن ذاك، فيه ضعفٌ وانكسار!.

لعنت نفسي والمنفى، فالواحد منا لا يتصل بالآخر إلا حينما يتـذكره فيجـد أنه قد مرّتْ سنوات طـوال، جـرى فيهـا عـلى صـاحبه الكثـير مـن خطـوب

وأحداث.. فتكون المشاعر والمشاركة «بائتة» لا معنى لها، فزمنها انقضى وما أصاب الشخص من مصاب صار واقع حال.. العلاقة في مدينتنا - الديوانية - مختلفةٌ تمامًا حيث كل شيء حار وحميم، والمشاركة تحدث لحظة.. لحظة في الأفراح والأحزان.

تراجع الباب إلى الداخل ببطء.. كانت الغرفة مظلمة.. ومن العتمة، ظهر وجه «أحمد» ببطء يشبه اللقطات البطيئة في السينما. كان يفرك عينيه ويضيقهما؛ لمواجهة ضوء الممر الناري الساطع، فلم ينتبه لوجودي؛ إذ كنت أقف خلف «علي» بخطوتين مذهولا تماما.. أحملق مثل مصعوق بوجه «أحمد»، الذي ظهر إلى الضوء من رحم الغرفة العاطّة برائحة الفنادق الغريبة..

الوجه غير ذاك الوجه الذي رأيته في «هلماستاد» السويدية.. الوجه مختلف، شاحب رغم سمرته الفاقعة، أما القسمات فقد اتخذت مظهرًا مختلفًا.. الفم مقسوم تمامًا حال نطقه في الضوء، بين قسمٍ متحرك والآخر شبه جامد فسر لي صعوبة النطق التي فاجأتني.. حركة الوجه والجسد بدا إيقاعها بطيئًا، غير الإيقاع النشط المعاند، الذي رأيته عليها في بيت ذاك الصديق.. إيقاع مستكين مسالم مثل من انصاع لمشيئة الأقدار، وسار مع هواها صاغرًا. يبدو أنه لم يلحظ وجودي، فقد ظل يحادث «عليًّا»، الذي كان يعلق تعليقاته الطريفة المضحكة، ويسمع ما يرد به «أحمد»؛ مما أتاح لي رؤية حركة شفتيه عند الكلام، وهي تناضل لكي تنطق الحرف والكلمة:

- يا إلهي ماذا جرى لصاحبي؟!.. ماذا؟!.

التفت «علي» نحوي قائلًا له:

- «إبراهيم»!.

فتح ذراعيه وعانقني غير ذاك العناق القديم في تلك المدينة السويدية؛ حيث كنت أنا الطرف الهش في المعادلة.. أحسسته يستنجد بجسدي الطويل العملاق بقامته المتوسطة وهو يضمها تحت إبطي مرددًا:

- حبيبي «إبراهيم» أش لونك؟!.

بطريقة لفظه التي جعلت من اللقاء فسحة عذاب، بدلًا من فرحة.. شددته بعنف وكأنني أريد إذابته بجسدي، دفعته قليلًا ناظرًا إلى قسماته السمراء الجافة المستكينة وعينيه المحملقتين فيّ، المسالمتين، المتأملتين، فانتابتني رغبة في النحيب.. رغبة طالما نفّستُ عنها في مواقف مشابهة.. كبحت جماح نفسي وقلت له:

- «أحمد» أش صار بيك؟!.

- راح احكي لك بعدين!.

في غرفة «علي» جلسنا نحن الثلاثة..

كنا في ثمانينيات القرن الماضي نحمل السلاح ضد الدكتاتور في جبال العراق، بعيدًا عن الأهل ومدينتنا الصغيرة جنوب العراق.. واحدٌ من السويد مقطوع الساق سكير، رأى المكان الأول ويئس عائدًا إلى مطعمه وكحوله وعائلته بمشاقها في أقصى شمال تلك البلاد، وأنا من الدانمارك معطوب الجسد والروح، أبغي الخلاص في رحم مكاني الأول، بعدما

فقدت توازني الإنساني، وكدت أنمحق في الشارع حينما لم أستطع التوافق مع متطلبات العائلة والمجتمع الجديد، الذي وجدته غريبًا عميقًا، حالـمًا بإمساك كياني الضائع في أزقة مدينتي من جديد.. و«أحمد» الذي بعد الكأس الثانية كشف بعد شدة إلحاحي عما جرى له.

قلت:

- حبيبي «أحمد».. أرجوك، خبّرني أش صار بِك عقب لقائنا بالسويد عام 1995؟!.

حدَّق نحوي بعينين ودودتين، قبل أن يبدأ الكلام بطريقة استفزتني جدًّا؛ فمقدار الفاجعة التي ألمت به من زاوية نظري، لا تتناسب مع طريقته الهادئة في الكلام، وهو يقص بالضبط ما حدث له، وغيّر نمط حياته بالكامل.

- ماذا تريد أن أحكي لك؟!. ليس في القصة كلها شيء غريب.. ببساطة أصبت بنزف، قد يحدث ويحدث في عروق البشر كل يوم أكثر من مرة، فالجسد له شأنه في مساره المختلف تمامًا عما نتصوره. لكن المختلف أين؟!. في أي موضع يحدث ذاك النزف؟!.

هذا يا «إبراهيم» حبيبي جذر المشكلة؟!.

رددت على الفور:

- «أحمد» خبّرني متى حدث وأين؟!.

ارتشف ما بكأسه من خمرة، ملتفتًا نحو «علي» قائلًا:

- هذا آخر كأس..

والتفت نحوي معلقًا:

- «إبراهيم» كأنك محقق عدلي!.

- يهمني معرفة قصتك جدًّا!.

وفعلًا ما سوف يرويه، سيفسرُ لي الكثير من شؤون هذه الدنيا العجيبة.

- «إبراهيم» اسمع.. لا تحمّل الحياة أكثر من طاقتها.. فهي تقودنا نحو ما تريد، حتى تبدو أمانينا أمام سطوتها، كأنها مجرد ريح تمر على شجرة معمرة شاهقة في غابة!.

رمى جملته الطويلة بلغة فصيحة صحيحة.. فهو يكتب الشعر سرًّا، ويفلسف الأشياء منذ شبابه، قلت:

- «أحمد» أعرف كل ما تقصده.. لكنني أريد سماع ما جرى لك بالتفاصيل الحية؟!.

- كنت مع العائلة في زيارة في شتاء 1996 إلى مصيف في تونس.. كنا في أسعد حال مع زوجتي و«أنكيدو» و«عشتار» (اسْمَي ولِديه).. كنا نبكر في الصباح إلى الساحل القريب، ونستمتع بالماء والحرارة والرمل والشمس.. وكان ما يجري في مجرى اليوم طبيعيًّا مألوفًا، نمارسه منذ سنين العمل والسفر للمتعة..

لكن في صباح ما استيقظت ووجع خفيف يشد بشرة وجهي.. ذهبت إلى الحمام، ولما رأيت وجهي في المرآة تسمرت مذهولًا، فقد كان نصف وجهي مشلولًا لم أنجح في تحريكه.. هُرعت إلى زوجتي، وهي تعمل

ممرضة كما تعلم، فقطعت الرحلة على الفور.. عدنا إلى ألمانيا وابتدأت مسيرة العلاج الطويل والمستمر.. منذ ذاك التاريخ حتى الآن.

- «إبراهيم» أنت تراني الآن في أفضل حال.. فقد كنت غير قادرٍ على النطق قبل خمس سنين!.

سألته عن تأثير ذلك على حياته، فقال:

- «إبراهيم» اختلف كل شيء.. فأنت تعرف أننا نعيش في بلدان رأسمالية لديها الفائدة بوصلة، ولما عجزتُ عن العمل، طردتني الشركة بطريقة مؤدبة.. منحوني التقاعد وذاك يجعلك تعيش بمستوى اجتماعي غير الأول.. ضعف موقعي والحمد لرب الكون، فلدي موهبة الرسم والنحت.. تفرغت لهما ،ووجدت عونًا من عائلتي..

في آخر جملة، وجدت صوته أخفت، فأدركت أنه لا يقول الحقيقة كاملة بما يتعلق بوضعه داخل البيت.

ثلاثة رجال من المدينة نفسها:

الأول مقطوع الساق..

والثاني مشلول نصفيًّا..

وأنا مشلول بالكامل..

نجلس في غرفة فندق بالست زينب

نرتشف الخمرة بهدوء

ونحلم

متحدثين عن آلامنا

عن أحلامنا

عما لا علاج له

عما رسخ بي حكمة مصور مجهول يدعى «شاكر ميم»..

كون الحياة لحظة !! الحياة فقاعة!!

هاهو «أحمد» يجعلني بروايته أشد تعلقًا بفكرة كون العيش في الدنيا مجرد فقاعة.. فهو آخر من كنتُ أتوقع أن يتحول وضعه بهذه الطريقة الدرامية من ألمع مهندس كهرباء إلى متقاعدٍ.. من حالم قادرٍ إلى عاجزٍ حالمٍ:

- طززززززززززززٌ فيك.

صرخت بغتة، ونحن في قعر السكر، دون بيان، فعلق «عليّ»:

- أدري بكَ مخبول من أيام المدينة والجبل!.

كانت تلك الليلة من أسعد ليالي عمري وأشدها عمقًا.

لم نستمر في الشرب رغم إلحاح «علي».. فقد كان «أحمد» متفقا مع السائق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل؛ حيث سنكون عند الفجر على نقطة الحدود العراقية السورية.. ولم يبق أمامنا سوى ساعة.. فقد دخلنا على الساعة الواحدة، ونحن نحتسي الخمرة مقلبين الشجون. قبل الثانية بربع الساعة، حضّرنا حقائبنا الصغيرة، متوقعين رنين التليفون الداخلي في أي لحظة، ونحن نستمع إلى نكات «علي»، الذي أحال ليلتنا ضحكًا متواصلًا، لم أضحك مثله منذ سنوات.

جندي أمريكيّ وعدس عراقيّ

لم يستطع «إبراهيم» النوم.. استلقى في السرير منهكًا من الضحك والقصة كلها.. كانت الغرفة تسقط في عتمة خفيفة، فمن نافذة زجاجية مسدودة أعلى بابها، يتسلل ضوء باهت من مصباح الممر الفجري.. أطبق جفنيه دقائق معدودة دون جدوى، ثم فتحهما على شخير «أحمد»، الذي سقط في النوم حالًا.. كان متوترًا بشدة يفكر في الدقائق القليلة المتبقية الفاصلة، بينه وبين التوجه صوب الحدود حيث طفولته وصباه وشبابه.. سيعبر نحو العراق، الذي عاش فيه بعنف قويًّا معتدًّا بنفسه.. قاوم الدكتاتور، وسجن أكثر من خمس مرات.. رفض الحرب فهرب ليقاتل في صفوف الثوار في الجبل..

- يا بقعتي الدامية!.

هتف بصوتٍ مسموع، طغى على شخير «أحمد»:

- فيك كنتُ في العُلا رغم القسوة!.

قال ذلك متذكرًا وضعه البائس في المنفى، الذي بدا منذ وصوله الشام، وكأنه يخصُّ شخصًا آخر.. هذا الشعور ما لبث أن تعمّق مع لقائه بـ «أحمد»

و«علي»؛ فالحديث المتشعب أيقظ لديه سمات شخصية، سُحِقَتْ في أهوال ليالي التشرد.

اعتدل في استلقائه متكئًا بمؤخرة رأسه إلى الجدار البارد، محدقًا بشرود في الحقائب المعدة والمصفوفة جوار الباب.. في الضوء الشاحب، وهو يتدرج ليتلاشى في الزوايا البعيدة عن النافذة، منصتًا إلى شخير صاحبه المتخافت قليلًا.. قليلًا، والمتحول إلى شبه أنين حزين، وإلى الضجيج الذي بدأ يتصاعد من أعماقه، من الماضي المحتدم بالعنف والدم، فحاصره سيل من الأسئلة:

- ماذا جرى في غيابي الطويل؟!.

- هل سأجد أمكنة طفولتي كما هي؟!.

- هل سأزور قبر أمي وأبي اللذين ماتا في غيابي؟!.

- هل أستطيع العيش من جديد في مدينتي؟!.

توقف طويلًا عند السؤال الأخير، فمهما يكن الوضع.. فإن ذلك أفضل له من حياة التشرد في تلك الأمكنة الباردة الغريبة.

- سأبدأ من جديد!.

قال لنفسه شادًّا العزم على النهوض، وأردف بحماس:

- سأجد نفسي.. سأجدها!.

شاعرًا بنشوة من يرى هدفه دانيًا ويستطيع بلوغه.. رغبَ في النوم، فسرح بجسده والتحف بالغطاء وأغمض عينيه، فتخايلت المدينة بنهرها

الصغير.. جسورها.. سوقها القديم المسقوف.. أزقة «الجديدة» الضيقة.. المقاهي.. وجوه مَنْ تبقّى من الأصحاب، ممن لم يقضوا في الحروب والسجون.. تصفحها وجهًا.. وجهًا بالصورة التي تركها بهم، وتاق لرؤية ما جرى لهم من أحداث وقصص طوال عشرين عامًا.. رأى نفسه يتقدم في مساء، يضج بصراخ الأطفال والنسوة، نحو باب بيت طفولته نصف الموارب.. يدفعه هاتفًا بصوت عالٍ:

- عدت يا أهلي.. عدتُ!.

فيتعالى الضجيج من أبواب غرف البيت، ويهرع نحوه أخواته وإخوته صارخين باكين فاتحين الأذرع.. وبغتةً رن الهاتف قاطعًا المشهد.. نهض من السرير.. رفع سماعة الهاتف.. كان خفر إدارة الفندق يعلمه بوصول السائق.. أيقظ «أحمد» بهدوء.. كانا مهيّأيْن تمامًا فقد استلقيا بملابسهما.. تنكب حقيبته الصغيرة، وحمل إحدى حقائب «أحمد» الكثيرة، الذي أجاب على تعليقه:

- هدايا يا «إبراهيم» .. هدايا!. يعني واحد غاب عشرين سنة يرجع وأيده فارغة!.

حسده تلك اللحظة، فمن أين له شراء هدايا؟!.. وقتها قال لنفسه:

- سأقول لهم أنا هديتكم!.

في محاولة لإقناع نفسه.

كان السائق شابًّا أسمر من أبناء مدينتهم.. أسرع بحمل الحقائب عنهم، وراح يرتبها في صندوق السيارة الخلفيّ.. كان الليل ساكنًا، والشارع مظلمًا

خاويًا إلا من بعض الكلاب السائبة، التي تخطف تحت أضواء أعمدة الشارع العام البعيد.. جلس جوار السائق، وشغل «أحمد» المقاعد الخلفية لوحده.. صفقَ السائق الباب، وتحركت السيارة على صوته الخافت المردد عدة مرات تميمة:

- عليك يا الله!.. عليك يا «أبا الحسن»!.

ثم التفت إليهم قائلًا:

- إن شاء الله، سنكون عند الفجر بنقطة الحدود.. والمغرب بالمدينة!

بعد دقائق ساد الصمت، وحده محرك السيارة يضج، بينما سقط «أحمد» في النوم من جديد.. لم يستمر طويلًا؛ إذ بدأ السائق في الحديث، كان «إبراهيم» ينصت شاردًا، وهو يحدثه عن تفاصيل ما حدث في المدينة لحظة دخول الجيش الأمريكي، عن بهجة الناس، عن عدم المقاومة، عن هرب ممثلي السلطة، عن.. وعن:

- هكذا سترجع يا «إبراهيم».. والحلم الذي حلمت به طوال عمرك تحقق. فمذ كان عمرك تسع سنوات، صارت هذه السلطة مبعث رعبك الدائم.. ففي 8 شباط 1963 وكنت في الصف الثالث الابتدائي بدأت قصة رعبك منها، وأنت ترى والدك يكمن خلف باب بيتكم الخشبي، ماسكًا فأسه بعد عدة كؤوس من الخمرة، صارخًا بوجه أمك وأختك الكبرى، اللتين تورطتا في العمل مع رابطة المرأة، بعد سقوط النظام الملكي عام 1958 :

- سأقتل واحدًا منهم وليقتلوني، ولا أرى الحرس القومي يأخذكما!.

ثم وأنت تصطحب امرأة عمك إلى باب موقف «حي العصري» المجاور لمدرستك الابتدائية «الثقافة» في يوم ماطر والطرق غير المبلطة وقتها موحلةً، تحملان الطعام لعميك السجينين.. تتذكر ذلك الصباح، وكأنه البارحة.. كانت السماء ملبدة بالغيوم والمطر يتساقط خفيفًا، وأنت تحمل عن امرأة عمك الحزينة السلة الصغيرة.. يوم ظل يعاودك حتى هذه اللحظة، وأنت في طريقك إلى رحمِكَ المضطرب منذ بدء الخليقة.. سيتعمق رعبك مع انتهاء العطلة الشتوية.. سيغيب أغلب معلمي المدرسة وأحبهم.. ستعلم لاحقًا أنهم ليسوا بعيدين عن الصف، وتستطيع من نافذة الدرس مشاهدة باب الموقف الذين أودعوا فيه، مما جعل معلمًا يرتدي زيًا عسكريًّا، يدعى «حسين» يسد الفراغ، ويحاضر بجميع الدروس..

تتذكر جيدًا كيف كان يدخل باسمًا بوجهه الأبيض الجميل العريض، لينزع عن كتفه بندقية «بور سعيد» الصغيرة، ويبدأ التدريس.. كنت لا تدرك الأبعاد السياسية لما كان يجري.. لكنك أحسست أنهم يخربون طفولتك بحبس أعز الناس لديك، يضاف لرعب كل مساء، واحتمال قتلهم لأبيك وسجن أمك وأختك.. سيتضاعف كرههم في صباك، وأنت تسمع قصص تعذيبهم للناس.. ستهرع مع الصبية إلى طرف المدينة، حال سماعك نبش سلطات «عبد السلام عارف»، الذي انقلب عليهم بعد ستة أشهر لقبور من قتلوهم تحت التعذيب ودفنوهم سرًّا..

سيرسخ بذاكرتك اسم «جبار شبرم» الطالب الجامعي، الذي رأيتهم يستخرجون جثته المتعفنة من التراب مع جثة فتاة مجهولة، قيل إنها طالبة جامعية من البصرة، كانت تستقل القطار في طريقها إلى مدينتها، عائدة من

بغداد، عندما اعتقلها الحرس القومي.. ستظل أمكنة معينة في المدينة حية في ذاكرتك، وهي ترتبط بذلك التاريخ الذي سيمفصل حياتك لاحقًا، ويجعلك تعيش ما عشته من مخاض..

روضة أطفال المدينة الوحيدة وقتها حديثة البناء المواجهة لنهر المدينة، حولوها إلى معتقل لتعذيب السجناء.. سيحكي لك عنها صديقك الشاعر عن ليالي الرعب التي عاشها في صفوفها، قبل أن يحكم عليه بعشرين عامًا؛ لسرقة آلة طباعة يدوية من مدرسة، وطبع منشور ضدهم.

سيعودون إلى السلطة من جديد في تموز 1968، وستأخذ محنتك معهم شكلًا آخر.. سَتُستكمل دائرة رعبك منهم، وتبلغ ذروتها لتشكل عالمك الباطني، وتصيرك شخصًا مهزوزًا يرتعد من خاطر الاعتقال، وهم يقبضون عليك، وأنت تسير في شارعكم.. حشروك في سيارة «فوكس واكن» صغيرة هي كانت الوحيدة وقتها لدى دائرة أمن المدينة، قبل أن تتطور في السبعينيات. ومن ألقى عليك القبض هم رفاق طفولتك، الذين انخرطوا في سلك رجال الأمن بعد الثالث المتوسط..

ستبقى تلك الوجوه التي انقضت عليك، وأنت لم تبلغ بعد السادسة عشرة من عمرك، تعاودك في كوابيس النوم حتى الآن، فما زلتَ غير مصدق زوال ذلك الكابوس.. حتى في الجبل وأنت بين الثوار كنت تستيقظ فزعًا صارخًا في قاعة نوم المقاتلين.. الوجوه نفسها تنقض عليك.. رفاق طفولة صاروا شرطة:

– هل سأراهم.. أم أنهم هربوا؟!.

سألت نفسك والسيارة تمخر ظلمة بادية الشام الخاوية.. لا ضوء في الأفق، سوى الريح وأزيز المحرك، وأنين «أحمد» المتعب، وصمت السائق الذي أيس من جركَ إلى حديث ما معه.

سيتكرر اعتقالك مرات.. آخرها في عام 1980حينما انقضوا عليك، وأنت تخرج بصحبة صديقين من بارٍ على «أبو نواس».. كان أحد النديمين من المختفين عن أنظار السلطة من أهالي كربلاء اسمه «ميثم جواد» .. سيعدم والثاني ما زال حيًّا، أروك الويل.. لكنك صمدتَ منكرًا علاقتك بالمختفي، فأطلقوا سراحك بعد أشهر لعدم ثبوت الأدلة.. تلك التجربة أمدتك بثقة بالنفس، وجعلتك تخوض المخاض الشرس..

- هل حقًّا أزيلت سطوتهم الماحقة؟!.

تسأل نفسك، والسيارة تخوض في عباب الصحراء، مقتربة من رحمك الحميم.

- لا أصدق!.

أجبت بصمت، لكنك تستقل الآن المركبة، التي ستضعك قبل مساء الغد في باطن مدينتك، التي حملتها معك أينما حللت في المنافي.. ستضعك على عتبة دار أهلك، التي يعرف السائق مكانها؛ إذ أخبرك بأنه لا يبعد عن بيت أهله سوى شوارع معدودة.

ستدخلها إذن آمنًا..

- هل سيحدث ذلك؟!.

كانت النشوة، بمجرد تخيل لحظة دخولك، تشبُّ بك إلى السماء مثل طيرٍ تعلم الطيران للتو، وغادر عش أمه، فتنتبه إلى وجود السائق الجاد، وهو يمسك بالمقود، ويحملق أمامه في مسافة الطريق التي تضيئها مصابيح السيارة، وإلى «أحمد» الغافي، وكأنه في بيت أهله غفوة عميقة استعصت عليك!.

سترجع يا «إبراهيم» إلى رحمك الحميم.. سترجع إلى مدينتك بلا «البعث» اللعنة.. وهذا ما لم تصدقه حتى الآن، رغم أنك تقترب لحظة بعد لحظة من الفجر والحدود.. لم تصدق.. وكيف تصدق بعد عناء التشرد أنك ستجد عائلتك الكبيرة، تستقبلك رمزًا قاوم الطاغية وعاد بعد زواله؟!. كيف؟!.. لكن صدق.. صدق يا «إبراهيم» أن حلم أحلامك سيتحقق هذا اليوم.. رؤية المدينة قبيل الموت الذي غيَّب عديدًا من رفاقك، الذين غادروا بحسرات.. ستجد أمانًا خاصًّا، وأنت تسير على تراب السنين في المدينة، التي تحرز طفولتك وصباك وشبابك دون سلطة رعب.

- أنت راجع يا «إبراهيم»!.
- راجع!.

كاد يصرخ.. لكنه كبح جماح نفسه رائيًا بقعة ضوء، بدت خافتة في الظلام الذي بدأ يشحب رويدًا.. رويدًا.. والسائق يقول بصوت واضح:

- الضوء الذي تراه نقطة العبور السورية!.

* * *

بانت خطوط الضوء وانتشرت، وهم يعبرون نقطة الحدود السورية باتجاه النقطة العراقية.. كان الفجر ساطعًا لاهث الفضة، يغور في النفس.. أحس «إبراهيم» بكل هذا، و«أحمد» يسقط في النوم من جديد، والسائق يخلد إلى الصمت ماسكًا بالمقود بعينين مفتوحتين، يردد بين فسحة صمت وأخرى آيات شكر للقادر الواحد القهار بصوت شديد الخفوت، يسمع في الصمت، والفجر يشعشع في الأفق العراقي.. حيث يتجهون. كانوا يقتربون من بقعة ضوء، بدأ يخفت مع تزايد سطوع الفجر.. وبغتةً انتابته رعدة قديمة غابت ردحًا من الزمن.. لكنها عاودته في المنفى في اليوم التالي، الذي وجد نفسه فيه يستيقظ فجرًا، وهو يتوسد منضدة غرفة الغسيل التابع لشركة السكن، متذكرًا اللحظة التي رمته فيه جوار بئر السلم وصفقت الباب، فتساءل كما هو حاله دائمًا في قصة عمره العنيف:

- لم أنا هنا يا إلهي؟!.

رعدة خاصة فريدة سرية، كانت تنتابه في الأفجار الشبيهة بهذا الفجر.. رعدة تهزُّ جسده هزًّا، حينما كان يستيقظ في ملجأ بجبهة الحرب العراقية ـ الإيرانية باكرًا على صوت جنود الحضيرة، وهم يتمتمون الأدعية بعد صلاة الفجر.. فيتساءل:

- لم أنا هنا يا إلهي؟!.

أو حينما يستيقظ فجرًا ليجد نفسه محشورًا في سجن، يحدق عبر النافذة إلى الباحة الوسطية رائيًا شرطيًا، يتمّ طقوس الوضوء، ويقف على حافة السجادة المفروشة في فضة الفجر، ويبدأ بالتمتمة والركوع والسجود فيتساءل:

- لم أنا هنا يا إلهي؟!.

أو حينما يوقظه رفيق عند حافة الفجر؛ ليستلم نوبة حراسته، وهو يستلقي في باحة مسجد جامع، في قرية من قرى الله الضائعة في مجاهل جبال العراق، فيجد حشدًا من الفلاحين يجلسون مستندين على ركبهم، في صفين صغيرين أمام المحراب، يرددون:

- الله حي.. الله حي!.

فيردد هذه التميمة مخدرًا بسلام إيقاعها، نائدًا بجذعه الأعلى في هيام غريب، جعل رفيقه المناوب يعود ثانية ليعنفه هذه المرة بصوت فظ غليظ، فيقوم متثاقلًا متسائلًا السؤال المرافق نفسه للرعدة السرية:

- لم أنا هنا يا إلهي؟!.

هذا السؤال الطفل المرافق لرحلة عمره يعقب مباشرة الرعدة المباغتة، التي تجعل من وجوده في الدنيا سؤالًا..

هاهو في حومة الرعدة، وجواره السائق الشاب الملتحي المردد أدعية السلامة، التي يحفظها عن ظهر قلب!.

رعدة ما انفكت تنتابه لحظة بعد لحظة هذه المرة، والسيارة تقترب من حدود العراق.. الفجر أمعن في السطوع بسماءٍ صافية عرّاها وهج الشمس الموشكة على الشروق، والرعدة مستمرة، تتناوب في دفعات ترعش جسده بأجمعه حتى نقطة السيطرة الأولى.. حيث الشارع يضيق بعوارض متعرجة، تجبر المركبات على السير ببطء.. حتى مرتفعٍ مصطنع، تربض فوقه دبابة أمريكية.. وتحتها يقف جندي بكامل عدته العسكرية، يخفى عينيه تحت

نظارة عسكرية غامقة عريضة، يؤشر بلا اهتمام، سامحًا لهم بالدخول إلى تراب أسلافه.

وجد نفسه يتساءل السؤال المصاحب نفسه للرعدة:

- لم أنا هنا يا إلهي؟!.

وأحس بغصة ما أن خَلف وراءه نقطة السيطرة الأمريكية الأولى.. غصة من يُنْتَهَك.. شعور مباغت، لم يكن يتصور بأنه سينتابه حال رؤيته لجندي أمريكي.. شعور اختلف تمامًا عن لحظات الفرح العابرة، التي انتابته لحظة مشاهدته سقوط تمثال الطاغية في ساحة الفردوس، وهو نزيل مشفى الإدمان في الدنمرك.

انتابه شعور لا يوصف.. لكنه وجد نفسه يقول بصوت مسموع غاضب، أيقظ «أحمد» وأدهش السائق:

- مثل ما واحد غريب تجده في غرفة نومك، يتصرف وكأنه أنت!.

انتبه على حملقة عيون السائق وأحمد المندهشة من انفجاره المباغت، فأردف موضحًا:

- هذا الجندي الأمريكي يتصرف، وكأنه هو ابن البلد، ونحن الغرباء!.

- تف.. ابن العاهرة.. تف..

تفَّ وشتم فجرًا بعد لحظات من وطئه تراب الحلم.. تف متضايقًا؛ مما جعل السائق الشاب يحاول تهدئة روعه قائلًا:

- أستاذ إذ تفكر بهذه الطريقة، راح ما تقدر تعيش يوم بالعراق!.

- هل استبهم عليه الوطن؟!.

سأل نفسه بصمت متأملًا قول السائق البسيط في المسافة الفاصلة، بين أول مدخل وبناية النقطة الحدودية الرسمية، العاجّة بالناس الخارجين والداخلين، قائلًا لنفسه:

- تجّمل يا «إبراهيم» بالصبر.. تجمّل وإلا ستضيع ضياعك في المنفى!.

عبروها والشمس تلألأت في سماء البادية المفتوحة.. أفق مفتوح وشارع مبلط عريض، وعلى الجانبين أعمدة كهرباء مكسرة منهوبة، علق السائق حولها قائلًا:

- حال سقوط النظام، هب الناس وخربوا كل شيء!.

لم يكن ذلك غريبًا على «إبراهيم»، فرغم أن العراقيين من أعرق الشعوب، لكنهم أكثرها وحشية حال غياب سلطة دولة مركزية..

هذا الأمر مشهود ومكرر في التاريخ العراقي، منذ ضعف الدولة الإسلامية المركزية، حال اغتيال «عثمان بن عفان»، ثالث خليفة بعد «محمد» ﷺ.. سيتحول إلى مرتع لكل صنوف المعارضات للدول القائمة.. سواء تلك أقامها الأمويون في الشام، أو العباسيون في بغداد..

يتذكر «إبراهيم» الدهشة التي تمسك بكيانه، وهو يبحر في التاريخ العراقي القديم والمعاصر، مكتشفًا دموية وصعوبة هذه البقعة الأخصب أرضًا من بين كل بقاع الأرض، قبل اكتشاف النفط، لتحل لعنة تعمق لعنة الخصوبة والموقع والماء وتنوع الأعراق والقرب من صرة الأرض، ومنبع فكرة الدين..

«إبراهيم» يدرك كل هذا ويعرف لم يهب العراقيون مثل مجانين محطمين كل شيء وحتى أنفسهم أحيانًا.. لكن هذا الكلام يستنكره الجميع، رغم سطوعه وكثرة الشواهد في كتب التاريخ القديم والمعاصر.. وهنا يكمن تفسير بربرية وبدوية الهجوم على أعمدة كهرباء، كانت تمدّ قراهم ومدنهم بالنور.. هذه الفكرة راسخة لدى «إبراهيم»..

اقترح السائق التوقف عند مطعمٍ في الطريق؛ لتناول وجبة الفطور.. فوافقاه على الفور.

رغم فوضى مشاعره واضطرابها، كانت لدى «إبراهيم» رغبة عنيفة في معانقة الجميع في باحة المطعم الكبيرة المكتظة بالسواق والمسافرين.. فهو في العراق.. العراق الذي صار حلمًا منذُ عشرين عامًا مضت.

- هؤلاء أولاد جلدتي ،مهما اختلفت معهم!.

قال لنفسه متأملًا «أحمد»، وهو يتذوق شوربة العدس، التي طلبها مرددًا:

- الله يا «إبراهيم» .. العدس العراقي!.

- بُــم -

كان «إبـراهيم» يتكـور مـذعورًا، موثـوق اليـدين والقـدمين في طـرف حوض سيارة التيوتا بيكم دبل قماره، وإلى جواره ينحشر «أحمد» الذي شلّه الرعب وجعله يحملق بذهول.. وكأنه في عـالم آخـر، وحـولهم في الحـوض يجلس أربعة رجال ببنادقهم الكلاشنكوف، يرتدون ثيابًـا بيـضاء عريـضة، ويلفون وجوههم بالكوفية البيضاء المرقطة ببقع سوداء.. يلزمون الصمت، ويحدقون نحوهم بعيون مثل عيون الصقور، وقسماتهم بتقاطيعها الضخمة، تحتدم بالقسوةِ، وكأنها قدّتْ من رملٍ متحجر.

ما حدث لهم كان مباغتًا ، يشبه مـا يحـدث في أفـلام العنـف الأمريكيـة بالضبط.

بعد تناول الفطور في ذلك المطعم القريب من نقطة «الوليد» الحدوديـة، على الطريق السريع والمكتظ بالسواق والمسافرين، وأثناء تناول الـشاي أسرّ «إبراهيم» لـ «أحمد» وللسائق بريبته؛ إذ سرعان ما خفَّ دفق الحنـين، وبـدأ «إبراهيم» يتلمس الوجوه المحيطة بوجودها الحقيقـي.. فلاحـظ في عيـون المحيطين توثبًا وتدقيقًا، تحدق فيهم وفي طرفها مكـرٌ، لكـن الـسائق المعتـاد

على الطريق، و«أحمد» استخفوا بخشيته، وردّها «أحمد» إلى مخيلته، التي ألهبها الأدب قائلًا:

- «إبراهيم» هؤلاء عراقيون.. إخوتنا في التراب والماء والهواء، لا تكن سيئ الظن.. وقت الدكتاتور راح!..

طالما أنقذه هذا الحس الغريزي من الموت مراتٍ عدة، لكن هذه المرة استسلم لقول صاحبه، مأخوذا بحلم دخول مدينته بعد ساعات معدودة.. كانت سيارة الأجرة القديمة تنهب أسفلت الطريق السريع، وتتوقف أحيانًا عند نقاط تفتيش طيارة، يقف فيها عراقيون بصحبة جنود أمريكان، فيُسمَح لهم بالمواصلة بعد تدقيق الجوازات.. كانت حركة الدبابات والمدرعات الأمريكية دائبة حول الطريق.. عبروا بقعة خضراء، فسأل «إبراهيم» السائق عنها فأخبره أنَّها مدينة «حديثة».. كان «أحمد» نشطًا عقب قسط النوم الطويل، يوجه كلامه إلى «إبراهيم» عن عزمه على تقديم محاضرات عن الحضارة السومرية، التي تعمَّقَ في دراستها أثناء وجوده في ألمانيا، فرتّبَ كل تلك المعارف في محاضرة، أبرز أوراقها، وناولها لـ «إبراهيم» كي يطلع عليها قائلا:

- ستقدمني يا «إبراهيم» في أمسية!.

وأردف:

- تخيّل نحن نعيش في مدينة، وحولنا حضارة طَوَّرتِ البشرية من وضعها الحيواني إلى البشري، وأبناء مدينتنا لا يعرفون ذلك!.

- ...

كان «إبراهيم» قلقًا يتتبع الطريق وأفق البادية بريبة، هازًّا برأسه موافقًا على قول «أحمد»..

– تصور مدينة «نفّر» عاصمة السومريين، على بعد خمسة وعشرين كيلومترا من الشوارع والبيوت، التي نشأنا فيها.

– ..

– الباحثون الألمان.. بعضهم كرّسَ حياته كلها لدراسة حياة أسلاف ترابنا!.

– ..

– هل تخيّلتَ أنهم شربوا من النهر نفسه الذي نشرب منه الآن، وتنفسوا الهواء نفسه، وبنوا بيوتهم من الطين نفسه.. هم نحنُ من هذا المنظور!.

– ..!.

لم يكن «إبراهيم» قادرًا على الثناء على ما كان يفضي به «أحمد» من أفكار، لا بل كان لديه المزيد ممّا يعمق قول وأفكار صاحبه؛ إذ إنه اشتغل في دائرة تلقيح اصطناعي للأبقار في ناحية «نفر».. بالذات أول سنتين من سنيّ الحرب العراقية – الإيرانية بين 1980– 1982، وكان يدور في الأرياف كل صباح؛ ليلقح الأبقار التي يجلبها الفلاحون إلى حظائر موزعة، في طرف كل قرية، وذلك ما يجعله يمر كل صباح على موقع آثار مدينة «نفر» السومرية، فكان يترجل من السيارة أمام دهشة سائقه القروي، ويذهب متأملًا الصمت والجدران القديمة، التي لا يزورها أحدٌ ممن يسكن في الجوار، عدا حارس عينته «مديرية الآثار»، وهو فلاح من قرية قريبة لا يكاد يحضر المكان..

وقتها كان «إبراهيم» قد قرأ كل ما توافر من كتب عن الحضارة والأدب والحياة الاقتصادية والاجتماعية لأسلافه العظام.. لكنه كان هاجسًا بمصيبة، سرعان ما وقعت، و«أحمد» يحلم بمحاضرة عمن سكن مدينتنا من الأسلاف البعيدين.

أوقفهم حاجز عسكري وسط الصحراء، قبل وصولهم الرمادي.. أبرز السائق هويته.. أمروه بالترجل.. لم يسألهما أحد للوهلة الأولى، إذ انشغلوا في حوارٍ مع السائق بعد تقليب الأوراق، التي أبرزها، ثم تطور إلى شبه شجار:

- انزل ابن الكلب!.

صرخ أحد الشرطة بالسائق لما تلكأ في النزول؛ مما جعل السائق يقول بصوتٍ واهن مذعور:

- ليش إخواني.. ليش أش مسوي.. ليش أني عراقي مثلكم!.

وتشبث بالمقود بقوة، فانحنى شرطيٌّ، وسحبه من كتفه بعنف ملقيًا به على جانب الطريق صارخًا:

- رافضي مشرك مرتد!.. أكسب بدمك ثواب!.

.. وصوّب فوهة بندقيته نحو رأس السائق، الذي شبّك أصابع كفيه حول قفا رأسه غامدًا وجهه في التراب.. الأمر جرى في بحر ثوانٍ: أطلق سيل من الرصاص على الكيان الرَّثّ الممدد المستسلم على تراب البرية، فانتفض الرأس وهَمَدَ ساكنًا، وكأنهُ لم يكنْ.. جمدهما الهول حتى أنهما لم يستطيعا النظر إلى بعضهما.. لبثا متيبسين كلٌّ في مكانه.. أحمد في المقعد

الخلفي.. و«إبراهيم» جوار مقعد السائق الفارغ. كان المسكين مسفوحًا على البرية، على بعد أقدام عشرة من باب السيارة المفتوح. حملق بالجسد المبحر في الصمت والسكون هاجسًا في تلك اللحظة بأن فقاعته موشكة على الانفجار، بل توقع أنها ستنفجر في الدقيقة التالية، وشرطي آخر يتقدم فاتحا باب المقاعد الخلفية، منحنيًا بقامته الفارعة، نحو تكور «أحمد» المذهول صارخًا بغلظة:

- هويتك؟!.

تمنى «إبراهيم» تلك اللحظة بالذات لو تنشق الأرض وتبتلعه، كما يحدث في حكايات «ألف ليلة وليلة».. لكن هيهات تلك أخيلة، وهذا واقع إلى الحجر أقرب. تسمرت عيناه على الشرطي المنحني الذي مدّ يده الطويلة بكفها اليابسة بأصابعها المتشنجة نحو الجواز الذي أخرجه «أحمد» بكفٍ مرتعشةٍ، جعلت الوجه البدوي القاسي يتهلل فرحًا قائلًا:

- الجبان راح يقف قلبه من الخوف!.

والتفت نحو «أحمد»متسائلًا:

- شو اللغة المكتوب بها الجواز!.

أدرك «إبراهيم» أن لهجة اللابس زي الشرطة غير عراقية، إذ لكنتها البدوية واضحة، ولا يعرف شيئًا من اللغات الأخرى.

أجاب «أحمد» بصوت يرتعش:

- جوازي ألماني!

فصاح بصوت غليظ فَرِح:

- .. ألماني.. تخيلوا هذا ألماني.. أهلًا بك في بلاد الإسلام!.

التفت نحو «أحمد» وسأله:

- أأنت ألماني؟!.

فأجاب «أحمد» بعناء:

- عراقي بس متجنس ألماني!.

فقال موجهًا الكلام إلى مجموعته، التي كانت تشهر أسلحتها مراقبةً الطريق:

- صيد دسم يا جماعة!.

تفحص جواز «إبراهيم»، وأردف مرحًا:

- والثاني دانماركي يا جماعة.. أهلًا بكما أحباب أنتم في ضيافة المجاهدين!.

جروهما جرًّا عنيفًا، شدوا وثاق أيديهما وأقدامهما، وأصعدوهما حوض سيارة التيوتا، التي نهبت طريقًا جانبيًّا، بدا وكأنه سيضيع في عمق الصحراء.

كان «إبراهيم» في زاوية حوض التيوتا المجاور لنافذة المقاعد الخلفية.. يتكور عاجزًا تمامًا، يدور في ذهوله سؤال وحيد، عاشره في اللحظات الحاسمة في المخاض الشرس الذي عاشه:

- هل ستكون الدقائق التالية ختام رحلة العمر؟!.

وقع السؤال كان مجردًا، فلم يشعر «إبراهيم» بجدية لحظة المغادرة المحتملة، بل كان يأمل ككل مرة في الخلاص من مأزق التهديد بطريقة ما.. فما جرى قبل دقائق مع السائق بدا مثل وهمٍ.. مثل كابوس.. أو مشهدٍ

عنيفٍ من فيلم، برعت السينما الأمريكية في جعلـه زادًا يوميًّـا عـبر الـسينما والتليفزيون.

- هل ستنفجر فقاعتي يا «شاكر ميم»؟!.

مزدحمًا بالسؤال نفسه الذي يأتي بأشكالٍ مختلفة، والسيارة تبحر في غـور الصحراء.. والسماء ساطعة الزرقة وجواره «أحمد» مطأطئًا رأسه بين كتفيـه ملتزمًا الصمت.. ودَّ لو يرفع رأسه مرة ليرى عينيه، لكـن هيهـات كـان في وادٍ بعيد، فيه الأشياء محسومة، مستسلمًا.. وكأن ما يجرى لهما قدرٌ نـزل مـن السماء.

أنصت لأزيز السيارة المتوغلة في الرمـل، متحاشـيًا النظـر إلى وجـوه المسلحين المحيطين بهما.. أنـصت مبحـرًا في يـمِّ عمـره الـصاخب الـذي تأرجح فيه مرارا على حافة الدنيا.. فأول مـرة أحـس فيهـا بهلـع فقـدان الدنيا، حينما كان صبيا بعمر الثامنة، وكـان يحـب المـاء، فيتـسلل إلى نهـر المدينة الصغير ظهيرة كل يوم صيفي، ويسبح على الجرف معاندًا وصـايا الأهل.. وكانوا يكتشفون ذلك كل مرة.. فدأب أبوه على مراقبـة الـشط كل ظهيرة.

وفي مرة كان يسبح في الجرف الضحل، فلمح أباه على دراجته الهوائية مارًّا يتفحص السابحين.. انتابه الرعب وجعله يبتعد قليلًا.. قليلًا نحـو عمق النهر ظانًّا أنه لو غط عميقًا سيختفي عن عيني أبيه.. إلى أن فقدت قدماه ثباتهما مبتعدة عن رمل الساحل الهش، وتأرجحت في الماء فغمره.. جاهد بيديه وقدميه حتـى طلـع إلى الـسطح، والمجـرى يدفعـه بعيـدًا..

ثلاث مرات ظهر على سطح الماء، صارخًا مستنجدًا، والماء بدأ يملأ رئتيه.. لم يزل يتذكر حتى هذه اللحظة، وهو يتكور في زاوية حوض السيارة المكشوف، رعبه وهو يتخيل نفسه غريقًا، مثل الذين يأخذهم نهر المدينة كل صيف..

لم يزل يحس بطعم الماء ثقيلًا في جوفه في المرة الأخيرة، التي صرخ فيها مستنجدًا.. عاد ذاك الطعم الغريب، وهو يجلس متكورًا وسط المسلحين الصامتين، وكأنهم أسلاف أبي الهول، والسيارة تمخر بهم في مجهول الصحراء.. ظل يتذكر بوضوح اللحظة التي سبح فيها نحوه ولدٌ يكبره بأعوام.. رفعه من تحت كتفيه إلى سطح الماء، ودفعه مرتين نحو ساحل النهر الضحل، لم ينس بقية عمره اللحظة التي لامست فيها قدماه رمل الجرف، وكأنه بلغ حضن الدنيا من جديد، فرمق بودّ وجهَ الولد اليافع الذي لم يره أبدًا بقية العمر..

- هل سيأتي منقذٌ مثل ذاك، ويخلصه من هذه المحنة؟!.

فكر في ذلك ورمق من تحت أهدابه قسمات المسلحين، الذين تمنى لو تبادلوا حديثًا ما، كي يفهم عنهم شيئًا ما، أي شيء، عله يجد لغة ما معهم.. لكنهم كانوا يجلسون متقابلين على حافة حوض السيارة الجانبي، ملفوفي الرؤوس باليشامغ، يمسكون بنادقهم بقوة ويحدقون بوجوه بعضهم البعض بصمت.. فتخيلهم من حجر، وكأن الله قدَّهم منه لا من طين أدم.

منذ تجربة غرقه في الطفولة.. تشبث بالحياة تشبثًا مجنونًا.. لما كبر ووعى وفلسف الأشياء، وجد صدى كلمات أمه الحزينة، التي كانت تقول له عن أبيه السكير:

- يمه أبوك يريد يموت من وقت.. ليش ما أتفهم.. ليش واحد يعوف هذا الهوه الطيب وينام جوه التراب!.

سوف يستعيد هذه الكلمات بعد سنتين وسيارة حمل تدهسه، وهو في طريق عودته من دكان عمه الحلاق ظهرًا.. كان قد توقف على رصيف لتناول قدح من الأيس كريم.. يتذكر ذاك المشهد بالتفصيل فتلك الظهيرة الحارقة تشبه هذه الظهيرة، ومجهولون يقودونه نحو المجهول في سيارة مكشوفة.. تنهب رمل الصحراء.. مثل هذه الظهيرة.. بالضبط. كان يظاهر شارع «صاحب عكموش» القادم من عمق المدينة باتجاه جراج «عفك»، يبادل صبية حديثا حول عربة خشبية، تبيع الأيس، عندما سمع أصواتًا تصرخ به كي يبتعد.

التفت صوب ما يشيرون، فسمَّره الرعب ولوري نقل ركاب خشبي قديم متجه نحوه على بعد أمتار وإطاراته تصعد الرصيف.. بعدها لم يتذكر شيئا. أحس بجسده يسحق ولغط وصراخ وتنادي، ثم هو في حضن رجل يتذكر اسمه حتى الآن «سلطان» من أهل الشط، صاحب دكان قريب.. كانا في مقاعد سيارة خلفية.. تنهب الطريق إلى مستشفى الديوانية الجمهوري الذي يبعد قرابة مائة متر عن موقع الحادث.. كان على وشك الاختناق والهواء الذي تحكي عنه أمه أصبح عسيرًا، فراح

يصرخ متخيلًا الجنائز التي تمر كل يوم محمولة على الأكتاف، أمام دكـان عمه الحلاق، عابرة جسر الديوانية الخشبي القديم، الواصل بـين شـارع «علاوي الحنطة» وشارع الصيدليات باتجاه كراج النجف:

- عمي.. عمي.. خاف أموت.. خاف أموت!.

متشبثًا بكتفي الرجل، الذي كان متماسكًا وصوته الحنون يطمئنه:

- لا عمو .. لا تخاف.. راح نوصل المستشفى وتطيب!. لا تخاف عمو!.

سيغيب عن الوعي ويستيقظ بعـد وقـت لا يـدرك، ولم يـدرك إلى الآن مدته على صوت أمه، التي دخلت ردهة المستشفى بثوبهـا الأسـود الطويـل وقسماتها الجميلة الحزينة، وهي تصرخ فاقدة ثباتها الـذي تعلـم منـه الكثـير لاحقًا:

- يمه.. ابني فدوة لطولك!.

ففتح عينيه ليرى المضمدين، يخرجونها عنوة قائلين:

- لا تفزعيه.. لا يجوز.. لا!.

ليغيب بعدها عن الوعي!.

- هل سيدعني هؤلاء أزور قبرها؟!.

تساءل وهو يحدق من تحت أهدابه شـبه المـسدلة في الوجـوه الـصخرية السادرة في صـمتها، والـساكنة في شـمس الظهـيرة التـي سـطعت محرقـة، والسيارة تنهب الرمل مخلفة غبارًا يتصاعد مشكلًا خلفية متحركـة، كالحـة لأجساد المسلحين المحيطين بها.

- يا «شاكر ميم» .. هل سيفجر هؤلاء فقاعتي؟!.

- ...!.

- لو يسمحون لي برؤية مدينتي مرة واحدة فقط، وبعدها ليفعلوا بي ما يشاءون!.. لو!.

ردَّد مع نفسه ناظرًا إلى صفيح أرض حوض العربة الساخن الوسخ، المتفض على وقع طريقٍ غير ممهدٍ وسط كثبان الرمل، إلى قدميه المكبلتين بحبال من القنب، وقدمي «أحمد» المشدودتين، البائدتين.. وكأنهما قدما ميتٍ، المجاورتين لحافة قدميه المتشنجتين.

كان يود لو يعرف ما يفكر به «أحمد » الحالم بمحاضرة، ينوِّر فيها عقول أبناء مدينته.. لو يرفع رأسه مرة واحدة ؛ كي يرى ما في عينيه فقد يُعِينه أو يعينان بعضيهما، لكن هيهات كان «أحمد» سادرًا في صمته وتحجره، وكأن الكائنات الصخرية المسلحة المحيطة بهما، أورثته صمتها وتحجر أجسادها القاسية.

بدا الطريق الصحراوي طويلًا.. مضنيًا، أو هكذا أحس به «إبراهيم» المحتدم المتسائل، المرة تلو المرة:

- هل من المعقول أن يقضى نحبي هنا، بعدما سَلِمْتُ من عشرات الميتات في أحرج الأوقات؟!. هل وفي هذا التوقيت أين عدالتك يا إلهي!. أتحرمني من متعة رؤية أمكنة طفولتي في خريف عمري، وتأخذني نحوك مكسور الخاطر.. لا يا ربي.. أرجوك.. لا.. فهذه الوجوه المقدودة من حجر رمل الصحراء ليس في أعماقها شفقة ولا رحمة.. لا.. يا إلهي.. أرجوك..

دعهم يطلقوني؛ لأرى مدينتي وصحبي وبقايا عائلتي مرة واحدة فقط ولأمت بعدها!.

تمنى لو يتكرر المشهد، الذي تخيله عندما قرأ حكاية «النعمان بن المنذر» في «ألف ليلة وليلة»، الذي ارتكب حماقة بقتل جليسيه الحبيبين في لحظة سكرٍ وندم على فعلته، فأقام طقسًا خاصًّا بالجلوس قرب قبر نديميه يوم نحسه، الذي قرر فيه قتل أي مارٍّ بالمكان صدفة.. فمرَّ بدوي.. وفهم الحكاية، فترجى «النعمان» إعطاءه مهلةً، يودع فيها الأهل والأحباب والدنيا مدتها سنة.. ففعل «النعمان» ووفَّى البدوي.. تمنى «إبراهيم» لو يسمحون له بهذه الفسحة قبيل الموت.. لا يطلب سنةً، بل أيامًا ويعود.. سيفعل مثلما فعل ذاك البدوي من أسلافه.. لو يسمحون له بالوصول إلى مدينته ورؤية صحبه وأحبابه، وسيعود ليقتلوه غير آسفٍ..

- لكن هل سيفعل هؤلاء القساة الملامح المنقبون مثلما، فعل «النعمان ابن المنذر»؟!.

أوهنته الفكرة، فهؤلاء ليسوا ملوكًا، بل عامة معبئون بأفكار الأيديولوجيا القادرة على تبرير القتل بيسر، ودون شعورٍ ما بالذنب..

- مع ذلك سأحاول، علَّ وعسى؟!.

.. لعلني أجد فيهم «نعمانًا»؟!.

قال في نفسه ذلك والسيارة تقترب من طرف مدينة، بدا واضحًا في تلك الظهيرة؛ إذ سرعان ما سلكت السيارة طرقًا مبلطة تخترق دور محلة فخمة

البناء.. كان «إبراهيم» يتوق جدًّا لمعرفة آخر مطاف هذه الرحلة الغامضة.. لبث صامتًا ساكنًا،لم يعصب الخاطفون أعينهما، وذلك أتاح له رؤية المكان الذي أنزلوهما فيه.

أول ما طالع عيني «إبراهيم» المنارة الشاهقة لجامع يعرفه عن كثبٍ.. طالما نام فيه القيلولة، حينما كان جنديًّا في معسكر تدريب «سن الذبان»، الواقع على مرتفع، يشرف على بحيرة الحبانية أواخر عام 1975، حينما أكمل دراسته الجامعة فسيق للخدمة الإلزامية.. كان يحل بمدينة « الفلوجة» صبيحة كل جمعة، يتناول طعام الغداء في مطاعم المدينة الشعبية، ويأخذ قيلولة الظهيرة في هذا الجامع، الذي يدفعونه بعنف نحو مدخله الفخم، وبدلًا من التوجه نحو قاعته الرحيبة، انحرفوا بهما نحو بناية صغيرة في طرف الباحة اليسرى.. كان يقف على بابها شابٌّ، لا يتجاوز العشرين استقبلهما قائلًا:

- أهلا بكلاب الاحتلال!.. أهلًا؟!.

وفتح بابًا حديديًّا، ودفعهما بعقب بندقيته «الكلاشنكوف»، فسقطا على سجادة غرفة واسعة، خمّنَ «إبراهيم» أنها غرفة حارس الجامع.

سقط «إبراهيم» حال معانقته سجادة الغرفة في نومٍ عميق، كحاله في أوقات عمره الحرجة؛ فالنوم كان يساعده على التوازن ومواجهة المحنة بذهنٍ صافٍ، مكنهُ من تخليص نفسه في المرات الخمس، التي أُعتقل فيها زمن الدكتاتور، وأطلق سراحه لعدم ثبوت الأدلة وصمود المتورطين من أصدقائه في السياسة الذين لم يعترفوا عليه أبدًا.. بحيث دفعه ذلك الوفاء إلى العمل في غمرة السياسة؛ ليعيش العناء الذي أكل عمره..

استيقظ وكأنه يعود من عالمٍ آخر، كان فيه مثل طيرٍ، يتنقل بين الأمكنة ويعانق الأشياء.. الماء والناس والتراب.. كان صوت المؤذن يتعالى صافيًا من مكبرات الصوت.. فتح عينيه المجهدتين.. وجد أن الوقت موشك على الإظلام، شخص صوب «أحمد» فرآه مستيقظًا، يجلس متكورًا لصق زاوية الجدار، يلزم الصمت والسكون.. نهض بجذعه الأعلى، ونظر عبر النافذة العريضة المطلة على باحة المسجد، وموقع الوضوء.. الذي كان مكتظًا بالمصلين المنهمكين في غسل أيديهم وأقدامهم، قبيل توجههم نحو قاعة المسجد الواسعة المضيئة، عَجِبَ وغضب من التلقائية، التي يمارس بها الناس حياتهم.. ولا كأن ثمة مخطوفان، يرقدان في غرفة الحارس، ويقف مسلحان في حراستهما.. التفت نحو «أحمد» هامسًا:

- أتعرف أين نحنُ؟!.

نطق بصوتٍ شديد الخفوت:

- ما أدري يا «إبراهيم»!.

- في جامعٍ وسط الفلوجة يا «أحمد»!.

تمتم «أحمد» بصوتٍ مكسورٍ:

- يعني انتهينا يا «إبراهيم»!.

قالها ولاذ بالصمت مطأطئ الرأس، يحزر من لون زخرفة السجادة الوثيرة ما يعنُّ له من أخيلةٍ.. أدرك «إبراهيم» ما يعنيه «أحمد» بقوله «انتهينا»، فقبل أربعة أيام من سفره، رأى خبرًا بثته المحطات الفضائية في العالم عن قتل وسحل أربعة مقاولين أمريكان في شوارع الفلوجة، قبل

تَعليق جثثهم على عامود كهرباء قرب الجسر الحديدي الضيق، الذي عبرتـه سيارة التيوتا في طريقها إلى هذا المسجد.. لكن «إبـراهيم» المتـشبث بالحيـاة قاوم في نفسه فكرة قتله، وفكر كشأنه في مثل هذه المواقف بطريقـة عمليـة، تخلصه من المأزق.. فسألَ «أحمد» سؤالًا مباشرًا:

- تعرف اتصلي؟!.

- أي؟!.

همس بخفـوت.. كـان «إبـراهيم» يفكـر بـاحتمال اختبارهمـا مـن قبـل المختطفين بامتحان الصلاة، وهو لا يجيدها في التكنيك، رغم أنه يحفظ كـل الآيات والأدعية الموجبة فيها.. لعلَّ الصلاة تنقذهما ، فتذكر تلـك التجربـة البعيدة في طفولته، التي أبعدته عن الدين وطقوسه.. كانت قاسية نفّرته من فعل الصلاة بالذات:

- اللعنة عليك!.

هتف بصمتٍ وغضبٍ ووجه مرشد الـصف المعلـم «جبـار» الأسـمر، النحيف بنظارته الطبية العريضة، وصوته ذو الطبقة العريضة، وكأنه قـارئ حسيني، تجسّد أمامه بوضوح.. كان في الصف الثالث الابتدائي عام 1963 في التاسعة من عمره، ومباشرة عقـب انقـلاب 8 شـباط، واعتقـال غالبيـة المعلمين اليساريين.. أصبح «جبار» مرشدهم بـدلا مـن معلـم «شـيوعي» غاب في السجن.. وكان شديد القسوة في كل تفاصـيله.. لغتـه في الكـلام، جديته المفرطة، وشدة العقاب، الذي يلقاه التلميذ الذي يخطئ..

لم ينس، أبدًا، ذاك اليـوم الـذي طـالبهم فيـه بقـراءة درس مـن دروس القراءة، معلنًا منذ البدء أن كل غلطة بضربة عصا على الكف، فكـان ذلـك

اليوم شبه مجزرة حقيقية؛ إذ لم يسلم تلميذٌ من الضرب.. لم يأت إليه الدور في الحصة الأولى.. بل توقف عند تلميذ يجلس إلى جواره يدعى «سعد ألبو جمعة»، وهو من عائلة ثرية تملك سينما الجمهورية الصيفي والشتوي وقتها؛ إذ إنه من الرعب الذي شاهدهُ في ضرب من قرأ قبله، قرأ بارتباك ولم تسلم مفردة واحدة من خطأ التلفظ؛ مما جعل المعلم يصرخ مثل مجنون ويسحبه بعنف جوار السبورة، وينهال على يديه المبسوطتين بعصاه السوداء الغليظة ضربًا مبرحًا إلى أن سقط في زاوية الصف على برميل القمامة، وبال في ملابسه، في تلك اللحظة قرع جرس الاستراحة..

لما أتاه الدور بعد انقضاء مدة الفرصة، غلط أيضًا من الارتباك والذعر، رغم أنه اختبر نفسه بنجاح قبل قدوم المعلم، فدخل واثقًا بأنه سينقذ نفسه من هول العصا السوداء، وابتدأ دون خطأ إلى اللحظة، التي رفع فيها رأسه نحو المعلم.. فأرعبته عيناه اللتان تحملقان من خلف عدستي النظارة نحوه بعداء، وكأن نجاحه في القراءة أزعجه.. فغلط أربع مرات، فذاق أربع ضربات ألهبت يديه، وكأنها من نار لا من خشب.. كان من أحلامه لو وصل المدينة، زيارة مدرسته الابتدائية ورواية تلك الأحداث للتلاميذ الجدد..

كان يبغي فتح عيون الأجيال الجديدة على بشاعة القسوة والعنف، الذي جعله ينفر من ذاك المعلم، وبكل ما كان يبشر به من خلال الدرس.. أما كيف جعله يكره الصلاة ويبتعد عن الدين فقد حدث ذلك بسبب أنه كان متشددًا في تشيعه، يجبرهم على الصلاة جماعة كل صباح عقب اصطفاف المدرسة.. يقودهم صفًّا واحدًا إلى مغاسل المدرسة؛ كي يتوضئوا

في برد الصباح القارس؛ ليصطفوا بعدها في الحديقة الخلفية، ويبدأوا في طقس الصلاة..

كان يمارس تلك الطقوس بآلية وضيق، سرعان ما كشفها المعلم، فطلب منه الظهور أمام الجميع لممارسة الصلاة، أمام زملاء الصف بصوت مسموع..

وقتها كان «إبراهيم» شديد العناد، فردَّ بأنه يصلي مع الجميع.. لكن المعلم أصرّ على الصلاة بصوت يسمعه الجميع، فبدأ الصلاة فلم يضبط مرات السجود والركوع وترتيب الآيات، فتحمل من جراء ذلك ضربًا مبرحًا؛ مما جعله ينأى عن الصلاة كل العمر، لكن ما كان يظن وقتها أنه سيحتاج إلى تلك الطقوس، كما الآن، كي يبقى يتنفس الهواء:

- يا إلــهي دعهم يطلقون سراحي أزور المدينة، وأعود وليفعلوا بي ما يشاءون!.

لا يدري متى سقط في النوم.. ظل غاطًّا في غفوة مثل ميت إلى أن أيقظه أذان الفجر.. باعد أجفانه ورمى بصره عبر نافذة الغرفة المطلة على باحة المسجد الشاسعة، رائيًا جموع المصلين يتوضئون في المغاسل المقابلة لجلسته، قبيل توجههم إلى قاعة المسجد المضاءة بوهج مصابيح مخفية في عمقها. ولم يستطع استيعاب ما جرى لهما بعد دقائق من انفضاض المصلين وخلوّ المسجد.. فقد كان سريعًا مباغتًا، يشبه ما يجري في أفلام العنف الأمريكية.

- هل سيقدمون على قتلهما؟!.

تساءل في اللحظة التي دخل فيها أربعة مسلحين، لا يظهر من ملامحهم سوى عيونهم المتوقدة في ضوء الفجر؛ إذ غطوا بقية قسماتهم بيشماغ بطريقة محكمة.. فكوا وثاق أيديهم وأرجلهم، وأمسك كل اثنين بواحد بأذرع قوية:

- هل؟!.

هتف مرة أخرى مردفًا:

- لكن لماذا؟!.

هذا السؤال هو ما كان يدور في رأس «إبراهيم»، رغم معرفته الكاملة بطبيعة الصراع السياسي، بين تنظيم القاعدة الذى صنعته المخابرات الأمريكية وقت احتلال السوڤييت لأفغانستان مطلع الثمانينيات، والقوات الأمريكية التي صنعت منها عدوًّا في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

- لماذا؟.. فهو و «أحمد» متعَبان من المخاض بأسره، وحلمهما بالعودة ورؤية الأهل والمدينة؟!.

لم يعد قادرًا على التركيز والتأمل.. بل كان متخشب الجسد بين أيديهم مستسلمًا، وهم يقودونهما إلى غرفة خلف قاعة المسجد الكبيرة.. ينظر ببلاهة بين آونة وأخرى إلى «أحمد» المستسلم تمامًا، وهو يخطو بعناء وسط الملثمين.. أدخلوهما غرفة تركن خلف قاعة المسجد لصق السياج الخلفي.. أوقفوهما إزاء جدارها، وخلفهما عُلقت لافتة سوداء، خطَّ عليها بصبغ أبيض شعارات تمجد الإسلام.

- الله أكبر.. لا الله إلا الله .

لم يتمكن من قراءة بقية اللافتات؛ إذ سوروهما وألبسوهما ثيابًا حمراء فاقعة فوق ثيابهما.. أجلسوهما متربعين، ووقف خلفهما صفّ من الرجال المسلحين لا تظهر من قسماتهم إلا العيون.. على حامل معدني مركز أمامهما.. نصبت كاميرا ڤيديو.. أنصت «إبراهيم» إلى أصواتهم، وهم يتبادلون الكلام فشخّص لهجات مختلفة سعودية وليبية ويمنية، وعراقية بدوية، وبغدادية.. أنصت متماسكًا كما هو حاله في مواقف متشابهة، متذكرًا نصيحة أبيه الذي قال له مرة، حينما أطلق سراحه من الاعتقال، أول مرة في مطلع شبابه:

- كن قويًّا، فالموت لا مرد له.. فلا تذل نفسك!.

ظل يتذكر ذلك في لحظات المحنة فيتماسك، ويتصرف وكأنه ما يجري له يجري لآخر.. ابتدأ التصوير وراح شخص يقف خلف مكان جلوسهما، يقرأ بيانًا بلغة مندثرة غليظة متوعدة مسجوعة عن نضال المجاهدين في العراق ضد الاحتلال، وظفرهم بجاسوسين واحد ألماني وآخر دانماركي، يظهران أمام الكاميرا.. أنصت «إبراهيم» بيأس إلى صوت قارئ البيان الأجش، متعجبًا من وصفهما بالجاسوسين.. تهمة ليس لها أدنى صلة بمسار حياتهما.. فليس لديهما صلة بالقوى التي احتلت بلدهما، بل على العكس لديهما شعور معادٍ للأمريكان المحتلين، ظهر حال وصولهما الحدود العراقية، وجندي دبابة أمريكية من سمح لهما بالدخول.

حينما سمع قرار نحرهما يعلنه في نهاية البيان، تصلب جسده تحت ضوء المصباح القوي المسلط عليه، ومرَّ خطفا حشدٌ من الوجوه

والـروائح والأصـوات والأوقـات المختلطـة، وكأنـه في حلـم، وجـوه تخطف واضحة تحملق نحوه بودٍّ.. آخرهـا كـان وجـه زوجتـه البعيـدة وطفليه.. فزَّ عـلى حفيـف سـكين يقـترب مـن عنقـه، وصـوت رفيـع كصوت أنثى يردد:

- بك نستعين ونتوكل!.

وأكف تمسك بشعر رأسه وتسحبه إلى الخلف بعنف حتى التصق بركبتي الواقف خلفه، تشنج متصلبا رائيًا وجه «شاكر ميم» الزنجي مستكينًا، يقترب منه لحظة سقوط الحد على عنقه.. اعتنقه مخففًا من ألم الحزّ.

تحرر من الوجع حاسًّا بجسده خفيفًا.. يطـير خـارج الفقاعـة!!خـارج اللحظة!!

أيار 2004 ـ كانون الأول 2007

الدانمارك

سيرة ذاتية للمؤلف

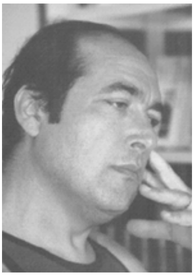

ـ مواليد 8/12/ 1954 الديوانية (العراق) .

ـ ساهم بشكل مبكر في النشاط السياسي والأدبي .

ـ تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات في الفترة من 1970 إلى 1980 .

ـ التحق بصفوف الثوار في كردستان في أغسطس (آب) 1982.

ـ فقدت وظائف رئتيه قدرتها على العمل بشكل طبيعي بنسبة 60٪ نتيجة للقصف بالأسلحة الكمياوية على مقار أحزاب المقاومة في زيوة، خلف ، مدينة العمادية في 5/ 6/ 1987.

ـ في حملة الأنفال أغسطس (آب) 1988 نزح مع جموع الأكراد إلى تركيا ثم إيران ، ليمكث في معسكرات اللجوء بأقصى الشمال الإيراني.

ـ في عام 1992 لجأ إلى الدانمارك، وما زال يقيم فيها حتى الآن .

ـ بدأ بكتابة القصة القصيرة في أوائل السبعينيات . نشر أول قصة قصيرة له في صحيفة التآخي العراقية ديسمبر (كانون الأول) 1975م ، ثم كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة منذ ذلك التاريخ حتى 1994م . عاود النشر ثانية عام 1987 في الصحف والمجلات العراقية والعربية ، مثل: الثقافة الجديدة ، القدس العربي اللندنية ، السفير، النهار البيروتية ، إبداع المصرية ، صباح الخير اللبنانية ، أخبار الأدب المصرية ، الصباح العراقية ، وغيرها من الصحف والمجلات.

صدر له:

1ـ "رؤيا اليقين" مجموعة قصص عن دار" الكنوز الأدبية" ـ بيروت 1994.

2ـ " رؤيا الغائب" رواية عن دار" المدى" – دمشق 1996.

3ـ "سرير الرمل" مجموعة قصص عن دار "حوران" ـ دمشق ـ 2000.

4ـ "الإرسي" رواية عن دار " الدار" – القاهرة 2008.